نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

المتوفى سنة ١٠٤١ هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل

أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي


بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل

أستاذ الأدب الأندلسي

بالجامعة اللبنانية

الجزء التاسع



دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان



نفح الطيب

من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب

تأليف

الشيخ أحمد بن محمد المقري التلمساني

المتوفى سنة ١٠٤١هـ

شرحه وضبطه وعلق عليه وقدم له

الدكتورة مريم قاسم طويل
أستاذة اللغة الإسبانية والتاريخ الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الدكتور يوسف علي طويل
أستاذ الأدب الأندلسي
بالجامعة اللبنانية

الجزء التاسع

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار الكتب العلمية
Dar al-Kotob al-Ilmiyah

Beirut, Ramel al-Zarif, Bohtory St. - P.O.Box : 11-9424 Beirut
بيروت - رمل الظريف - شارع البحتري - ص.ب: ٩٤٢٤ - ١١ بيروت

Tel. & Fax : (961-1) 602133 - 868051 - 366135 - 364398
هاتف و فاكس: (١-٩٦١) ٦٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٣٦٦١٣٥ - ٣٦٤٣٩٨

Beirut - lebanon بيروت - لبنان



صلة الباب الخامس
في ايراد جملة
من نثر لسان الدين ونظمه

ومن نثر لسان الدين رحمه اللّٰه تعالى خطبة كتاب في المحبة الذي ما ألف في فنّه أجمع منه، ولنوردها فإنَّ فيها دلالة على فضله وعظم قدر الكتاب، وهي: «اللهمّ طَيِّبْ بريحان ذكرك أنفاسَ أنفسنا الناشقة، وعلّل بجريال حبّك جوانح أرواحنا العاشقة، وسدِّدْ إلى أهداف معرفتك نبالَ نبلنا الراشقة، واستخدم في تدوين حمدك شَبَا أقلامنا الماشقة، ودُلَّ على حضرة قُدسك خطرات خواطرنا الذائقة، وأَبِنْ لنا سُبُلَ السعادة التي جعلتَ فيها الكمال الأخير لهذه الأنفس الناطقة، وأصرفنا عند سلوكها عن القواطع العائقة، حتى نأمن مخاوف أجبالها الشاهقة، وأحزابها المنافقة، وأوهامها الطارقة، وبرازخها القاسية[1] الغاسقة، فلا تسرق بضائعَنا العوائدُ السارية السارقة، ولا تحجبنا عنك العوارض الجسمية اللاحقة، ولا الأنوار المغلظة البارقة، ولا العقول المفارقة، يا من له الحكمة البالغة والعناية السابقة، وصَلِّ عل عبدك ورسولك محمد درّة عقود أحبابك المتناسقة، وجالب بضائع توحيدك النافقة، المؤيد بالبراهين الساطعة والمعجزات الخارقة، ما أطلعت أفلاك الأدواح زُهْر أزهارها الرائقة، وحَدت قطار السحائب حُداة رعودها السائقة، وجمعت ريحُ الصَّبا بين قدود أغصانها[2] المتعانقة.

أمّا بعد، فإنه لـمّا ورد على هذه البلاد الأندلسية المحروسة بحدود سيوف اللّٰه حدودها، الصادقة بنصر اللّٰه للفئة القليلة على الفئة الكثيرة وُعُودها، وَصَلَ اللّٰه تعالى عوائد صنعه الجميل لديها، وأبقاها دار إيمان إلى أن يرث اللّٰه تعالى الأرض ومن عليها. «ديوان

(١) كلمة «القاسية» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٥).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «أغسانها».

الصبابة»[1]. وهو الموضوع الذي اشتمل من أبطال العشّاق على الكثير، واستوعب من أقوالهم الحديثة والقديمة كلَّ نظيم ونثير، وأسدى في غزل غَزَله وألحم، ودلّ على مصارع شهدائهم من وقف وترحّم، فصدّق الخبر المخبر، وطمت اللجّة التي لا تُعبر، وتأرّج من مسْراه المسكُ والعنبر، وقالت العشّاق عند طلوع قمره: اللّٰه أكبر: [السريع]

مررت بالعشّاقِ قد كبّروا وكان بالقربِ صبيٌّ كريمْ
فقلت: ما بالهمُ؟ قال لي أُلقيَ للحبِّ كتابٌ كريمْ

ولا غرو أن أقام بهذه الآفاق، أسواق الأشواق، وزاحم الزفرات في مسالك الأطواق، وأسال جواهر المدامع من بين أطباق تلك الحقاق، وفتك نسيمها الضعيف العهد والميثاق بالنفوس الرقاق: [المجتث]

جنى النسيمُ علينا وما تَبَيَّنْتُ عُذْرَهْ
إذ صَيَّرَ الخلقَ نجدًا والأرضَ أبناء عذرَهْ

فوقع للحجة المصرية التسليم، وقالت ألسنة الأقلام معربة عن ألسنة الأقاليم[2]:

سَلِّمْتُ لمصرَ في الهوى من بلدٍ يهديه هواؤه لدى استنشاقِهِ
من ينكرُ دعوايَ فَقُلْ عنّي له تكفي امرأةُ العزيزِ من عشّاقِهِ

فغمر المحافل والمجالس، واستجلس الراكب واستركب الجالس، يدعو الأدب إلى مأدبته فلا يتوقّف، ويُلْقي عصا سحره المصري فتتلقّف، ما شئت من ترتيب غريب، وتطريب من بنان أريب، يشير إلى الشعر فتنقاد إليه عيونه، ويصيح بالأدب الشريد فتلبّيه فنونه، وأنهى خبره للعلوم المقدّسة، ومدارك العزّ الموطّدة المؤسّسة، سما به الجدُّ صُعُدًا إلى المجلس السلطاني مَقَرّ الكمال، ومطمح الأبصار والآمال، حيث رفارف العزّ قد انسدلت، وموازين القسط قد عدلت، وفصول الفضل قد اعتدلت، ووُرْقُ أوراق المحامد قد هَدَلت، مجلس السلطان المجاهد، الفاتح الماهد، المتحلّي في رَيْعَان العمر الجديد، والملك السعيد، بحلى القانت الزاهد، شمس أُفق الملّة، وفخر الخلفاء الجِلّة، بَدْرُ هالاتِ

---

(١) ديوان الصبابة: هو كتاب لشهاب الدين أحمد بن يحيىٰ بن أبي حَجَلة، وهو مطبوع. الأعلام (جـ ١ ص ٢٦٩) ومصادر حاشيته.

(٢) هذان البيتان خارجان على أوزان العرب.

السروج المجاهدة، أسد الأبطال البارزة إلى حَوْمة الهياج الناهدة، مُغْشِي الأبصار المشاهدة، مظهر رضا اللّه تعالى عن هذه الأمة الغريبة عن الأنصار والأقطار، من وراء أمواج البحر الزخار، باختياره لها واعْتِيامه[1]، ومُلْبسها بُرُودَ اليُمْن والأمان ببَرَكة أيامه، ومن أطلع اللّه تعالى أنوار الجمال من أُفق جبينه، وأنشأ أمطارَ السماح من غمام يمينه، وأجرى في الأرض المثل السائر بحلمه وبسالته ودينه، أمين اللّه تعالى على عهدة الإسلام بهذا القطر وابنُ أمينه وابنِ أمينه، فخر الأقطار والأمصار، ومطمح الأيدي وملمَحُ الأبصار، وسلالة سعد بنِ عُبادة سيد الأنصار، ومَنْ لو نطق الدين الحنيفي لحيّاه وفَدّاه، أو تمثّل الكمالُ صورةً ما تعدّاه، مولانا السلطان الإمام العالم العامل المجاهد أمير المسلمين أبو عبد اللّه ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر الأنصاري الخزرجي، جعل اللّه تعالى ثَغْرَ الثغر مبتسمًا عن شَنَب نصره! والفتحَ المبين مذخورًا لعصره! كما قصر آداب الدين والدنيا على مقاصير قَصْره! وسوّغه من أشتات مواهب الكمال ما تعجز الألسن عن حَصْره! ولا زالت أفنان أقلامه تتحف الأقاليم بِجَنِيِّ فنون هَصْره[2]! فخصّته عينُ استحسانه أبقاه اللّه تعالى بلحظة لحظ، وما يُلقّاها إلاّ ذو حَظّ، وصَدرت إليَّ منه الإشارة الكريمة بالإملاء في فنّه، والمنادمة على بنت دَنّه، وحَسِبَ الشحم من ذي وَرَم[3] واللّه سبحانه يجعلني عند ظنّه، ومتى قُورن المثري بالمترب[4]، أو وُزن المشرق بالمغرب؟ شتّان بين من تُجْلَى الشمس منه فوق منصتها، وبين من يشره[5] أُفقه الغربي لابتلاع قرصتها، لكني امتثلت، ورشت ونثلت، ومُكْرَهًا لا بَطَلاً مَثَلْت[6]، وكيف يتفرّغ للتأليف، ويتفرع[7] للوفاء بهذا التكليف، مَنْ حَمَلَ الدنيا في

الاعتيام: الاختيار؛ يقال: اعتام اعتيامًا إذا اختار العيمة أي اتخذ خيار المال، والعيمة: خيار المال، لسان العرب (عيم).

(٢) هَصَرَ الغُصْنَ: عَطَفَهُ وكسره. محيط المحيط (هصر).

(٣) أخذه من قول المتنبي: [البسيط]

أُعِيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً أن تَحْسَبَ الشَّحْمَ فيمن شَحْمُهُ وَرَمُ

ديوان المتنبي (ص ٣٤٢).

(٤) المُثْري: الغنيّ. المترب: الذي لصق بالتراب لفقره. لسان العرب (ثرا) و (ترب).

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٧): «يشرق».

(٦) هذا من قولهم: «مُكْرَهٌ أخوكَ لا بَطَلٌ». وهو مثل يضرب لمن يُحْمَلُ على ما ليس من شأنه. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٣١٨).

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٨١): «ويتبرّع».

سنّ الكهولة على كاهله، ورَكَض طِرْفَ الهوى بين معارفه ومجاهله، واشترى السهر بالنوم، واستنفد سواد الليل وبياض اليوم، في بَعْث يجهز، وفرصة تنهز، وثغر للدين يُسَدّ، وأزر للملك يُشَدّ، وقِصَّة ترفع، ووساطة تنفع، وعَذل يحرص على بدله، وهوى يجهد في عذله، وكريم قوم ينصف من نذله، ودين تزاح الشوائب عن سُبْله، وسياسة تشهد للسلطان بنُبْله وإصابة نَبْله، ما بين سيف وقلم، وراحة وألم، وحرب وسَلْم، ونشر عَلَم أو عِلْم، وجيش يعرض، وعطاء يُفْرض، وقَرْض حسن للّه تعالى يُقْرَض، في وطن توافر العدوّ على حَصْره، ودارَ به دَوْرَ السوار على خَصْره، وملك قصر الصبر والتوكّل على قَصْره، وعددُ نسبته من العدد العظيم الطاقة، الشديد الإضاقة، نسبةُ الشعرة من جلد الناقة، وباللّه نستدفع المكروه، وإليه نمدّ الأيدي ونصرف الوجوه، وسألت منه - أيّده اللّه تعالى! - القنوع بما يسّره الوقت، مِمّا لا يناله المَقْت، والذهاب بهذا الغرض لما يليق بالترب والسّنّ، ويؤمن من اعتراض الإنس والجنّ، وما كنت مِمَّن آثر على الجِدّ الهَزْل، واعتاض من الغَزَل الرقيق الغزل بشيمة الجزل، ولا آنف من ذكر الهوى بعد أن خُضْتُ غماره، واجتنيت ثماره، وأقمت مناسكه ورميت جماره، وما أُبرّىء نفسي إنَّ النفس لأمّارة[1]، فالهوى أوّل تميمة قلّدتني الداية، والترب التي عرفتها في البداية، وأنا الذي عن عُرْوته نُبتُ[2]، وبُعثت إلى الرصافة لأرقَّ فذبْت[3]، إلى أن تبيَّنَ الرشد من الغي، وصار النشر إلى الطي، وتصايح وِلْدان الحيّ، كذلك كنتم من قبل فمنّ اللّه عليكم كما مَنَّ عليَّ: [الطويل]

جَزَى اللّه عني زاجرَ الشيب خير ما ... جزى ناصحًا فازتْ يداي[4] بخيرِهِ
ألفْتُ طريق الحبِّ حتى إذا انتهى ... تَعَوَّضْتُ حُبَّ اللّه عن حبِّ غيرِهِ

حال السواد بحال الفؤاد، وصَوّح المرعى فانقطعت الرُّوَّاد، ونهاني ازورار خيال الزوراء، والتفات عاذل الشيب عن المقلة الحوراء، وكيف الأمان، وقد طلع منه النذير العريان، يدلُّ على الخبر بخبره، وينذر بهاذم اللّذّات على أثره، وللّه دَرُّ القائل: [المتقارب]

---

(١) هذا من قول اللّه تعالى: ﴿وما أُبَرِّىءُ نَفْسِي إنَّ النَّفْسَ لأمّارَةٌ بالسُّوءِ﴾. سورة يوسف ١٢، الآية ٥٣.
(٢) نُبْتُ: رجعت. عروته: أراد عروة بن حزام، أحد شعراء الغزل.
(٣) طُبِّق هذا القول على الشاعر علي بن الجهم، إذ قيل فيه: بعث إلى الرصافة ليرقّ فذاب.
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٨): «يداه».

دعتنيَ عيناكَ نحو الصِّبا	دعاء يردّد في كلِّ ساعَهْ
فلولا، وحقِّكَ، عُذْرُ المشيبِ	لَقُلْتُ لعينيك: سمعًا وطاعَهْ

ولولا أن طيف هذا الكتاب الوارد طَرَقَ مضاجعي[1] وقد كادَ يبدو الحاجب، ويضيع من الفرض الواجب، ويعجب من نوم الغفلة العاجب، لجريت معه في ميدانه، وعقدتُ بناني ببنانه، وتركت شاني وإن رغم الشاني[2] لشانه، وقلت معتذرًا عن التهويم في بعض أحيانه: [الكامل]

أهلاً بطيفك زائرًا أو عائدًا	تفديكَ نفسي غائبًا أو شاهدًا
يا مَنْ على طيف الخيال أحالني	أتظنُّ جفني مثل جفنك راقدا
ما نمتُ، لكنّ الخيال يُلِمُّ بي	فيجلّه طرفي فَيُطْرِقُ ساجدا

ومن العصمة أن لا تجد، هلاً قبل المشيب، ومع الزمن القشيب، وقبل أن تمخض القرية، وتبنى الخانقاه والتربة، وتونس باللّه الغربة، وعلى ذلك فقد أثر، وباء قلبي المعثر، اللهمّ لا أكثر: [الكامل]

وبدا له من بعد ما انْدَمَلَ الهوى	برقٌ تألّق مَوْهِنًا لمعانُهُ
يبدو كحاشيةِ الرداءِ ودونَهُ	صَعْبُ الذرا متمنّعٌ أركانُهُ
فبدا لينظرَ كيف لاح، فلم يطقْ	نظرًا إليه وردّت أشجانُهُ
فالنارُ ما اشتملتْ عليه ضلوعُهُ	والماءُ ما سمحتْ به أجفانُهُ

وجعلت الإملاء على حمل مؤازرته أيّده اللّه تعالى علاوة، وبعد الفراغ من ألوان ذلك الخوان حلاوة، وقلت أُخاطب مؤلّف كتاب «الصبابة» بما يعتمده جانب إنصافه، ويغطي على نقصي إن وقع فيه كمال أوصافه: [الكامل]

يا مَنْ أدار من الصبابة بيننا	قَدَحًا ينمُّ المِسْكُ من رَيّاهُ
وأتى بريحانِ الحديثِ فكلّما	سمح النديمُ براحِهِ حَيّاهُ
أنا لا أهيم بذكر مَنْ قتل الهوى	لكنْ أهيمُ بذكرِ مَنْ أحياهُ

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٨٢): «مضجعي».
(٢) الشاني: الكاره. لسان العرب (شنا).

وعَنَّ لي أن أذهب بهذا الحبّ المذهب المتأدي إلى البقاء، الموصِّل إلى ذروة السعادة في معارج الارتقاء، الذي غايتُه نعيم لا ينقضي أمَدُه، ولا ينفد مدده، ولا يُفْصَل وَصْلُه، ولا يفارق الفرعَ أصلُه، حبّ اللّه المبلغ إلى قربه، المستدعي لرضاه وحبِّه، المؤثر بالنظر إلى وجهه، ويا لها من غاية، الملقي رَحْلَ المتّصف به بعد قطع بحار الفناء على ساحل الولاية.

وكنت وقفت من الكتب المؤلفة في المحبة على جملة منها كتاب يشهده العوام، ويستخفّه الهوام، ورسالة ابن واصل رسالة مهذارة، تطفو من دارة إلى دارة، في مطاردة هرّ وفارة، وكتاب ابن الدباغ القيروانيّ[1] كتاب مفرقع، ووجه المقصود منه متبرقع، وكتاب ابن خلصون وهو أعدلها لولا بداوة تَسِمُ الخُرْطُوم، وتناسب الجَمَلَ المخطوم[2]، فكنت بما ذكر لا أقنع، وأقول ما أصنع، فاللّه يعطي ويمنع: [مجزوء الخفيف]

قُلْتُ لِلسَّاخِرِ الَّذي رَفَعَ الأنفَ واعْتَلَى
أنتَ لَم تأمنِ الهوى لا تُعَيِّرْ فَتُبْتَلَى

شعر[3]: [الكامل]

وعذلتُ أهلَ العِشْقِ حتى ذُقْتُهُ فعجبتُ كيف يموتُ من لا يَعْشَقُ

ومن المنقول: لا تُظهرالشماتة بأخيك، فيعافيه اللّه ويبتليك: [الوافر]

بَلاَني الحبُّ فيكَ بما بلاني فشاني أن تَفيض غروبُ شاني

أجل بلاني بالغرض الذي هو من القلوب سرّ أسرارها، ومن أفنان الأذهان بمنزلة أزهارها، ومن الموجودات وأطوارها قطبُ مَدَارها؛ ليكون كتابي هذا المقدم على المأزق

---

(١) هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن علي الأنصاري، المعروف بالدباغ؛ من أهل القيروان، مؤرخ وفقيه وشاعر. أشهر تصانيفه «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان» مطبوع. وكتاب «مشارق أنوار القلوب ومفاتيح أسرار الغيوب» مطبوع، وهو في آداب الصوفية. توفي سنة ٦٩٩ هـ. الأعلام (جـ ٣ ص ٣٢٩) ومصادر حاشيته.

(٢) تَسِمُ الخرطوم: عبارة عن الإذلال لأن السمة على الوجه ولا سيما على الأنف شين ظاهر. والخرطوم: الأنف. وفي قول اللّه تعالى: ﴿سَنَسِمُهُ على الخرطوم﴾ سورة القلم ٦٨، الآية ١٦ ومحيط المحيط (خرطم). والجمل المخطوم: المضروب على أنفه. محيط المحيط (خطم).

(٣) البيت للمتنبي من قصيدة مديح في شجاع بن محمد بن أوس الأزدي، وهو في ديوانه (ص ٢٣).

المهلك، المتشبّع بما لا يملك، وأن يقنع الاتّصاف، فعسى أن يشفع الإنصاف، والاقتراف، يدرؤه الاعتراف، أنا عند المنكسرة قلوبهم، ولا تجود يد، إلاً بما تجد، وكل يُنفق مِمّا آتاه اللّه[1]: [البسيط]

وابنُ اللّبُون إذا ما لُزَّ في قَرَنٍ لم يستطعْ صَوْلَةَ البُزْلِ القَنَاعيسِ[2]

وعسى الذي أنطق شوقًا، أن ينطق ذَوقًا، والذي حرّك سفلاً أن يُحرِّك فوقًا، والذي يسّره مقالاً، أن يكفيه حالاً: [البسيط]

فأولُ الغَيث طَلٌّ ثم ينسكبُ

* * *

[الوافر]

الحرب أولَ ما تكونُ لجاجةٌ

* * *

[الوافر]

وإنَّ الحربَ أولها الكلامُ[3]

نحمد اللّه سبحانه على الكَلَف بهذه الطريقة ﴿وما يُلَقَّاها إلاّ ذو حظّ عظيمٍ﴾[4] وللأرض نصيب من كأس الكريم: [الطويل]

أليس قليلاً نظرةٌ إن نظرتها إليك؟ وكَلاً ليس منك قليلُ

* * *

---

(١) البيت لجرير، وهو في ديوانه (ص ٢٥٠).

(٢) ابن اللبون: ولد الناقة إذا كان في العام الثاني واستكمله أو إذا دخل في العام الثالث. القَرَن. بالفتح: الحبل. البُزلُ: جمع بازل وهو ما بزل نابُه من الإبل ذكرًا كان أو أنثى. محيط المحيط (لبن) و (قرن) و (بزل).

(٣) هو عجز بيت لنصر بن سيّار، والي خراسان لبني أمية، كتبه من جملة أبيات إلى ابن هبيرة، أيام تحرك أمرُ السواد بخراسان، والبيت بتمامه هو:

فإنَّ النارَ بالعُودين تُذْكى وإنَّ الحربَ أولُها الكلامُ

البيان والتبيين (جـ ١ ص ١٥٨).

(٤) سورة فُصِّلَتْ ٤١، الآية ٣٥.

[الخفيف]

فاتني أنْ أرى الديارَ بطرفي فلعلّي أرى الديارَ بسمعي[1]

وعلى ذلك فذهبت في ترتيبه أغرب المذاهب، وقرعت في التماس الإعانة بابَ الجواد الواهب، وأطلعت فصوله في ليل طلوعَ نجوم الغياهب، وعرضت كتائب العزيمة عرضًا، وأقرضتُ اللّه قَرْضًا، وجعلته شجرة وأرضًا، فالشجرة المحبّة مناسبة وتشبيهًا، وإشارة لما ورد في الكتب المنزلة وتنبيهًا، والأرض النُّفوس التي تغرس فيها، والأغصان أقسامها التي تستوفيها، والأوراق حكاياتها التي تحكيها، وأزهارها أشعارها التي تُحييها، والوصول إلى اللّه تعالى ثمرتها التي ندّخرها بفضل اللّه ونقتنيها، شجرة لعمر اللّه يانعة، وعلى الزعازع متمانعة، ظلّها ظَليل، والطرف عن مَدَاها كليل، والفائز بجَنَاها قليل، رست في التخوم، وسَمَتْ إلى النجوم، وتنزّهت عن أعراض الجُسُوم، والرياح الحُسُوم، وسُقيت بالعُلوم، وغُذيت بالفُهوم، وحملت كمائمها بالزهر المكتوم، ووفيت ثمرتها بالغرض المَرُوم، فاز من استأثر بجَنَاها، وتَعَنّى[2] من عُني بلفظها دون معناها، فمن استصبح بدُهْنها استضاء بسَنَاها، ما أبعدها وما أدناها، عينًا ملأت الأكفَّ بغناها، كم بين أوراقها من قلب مقلَّب، وفي هوائها من هَوًى مغلَّب، وكم بين[3] أفنانها من صادح، وكم في التماس سَقيطها من كادح، وكم دونها من خَطْب فادح، ولأربابها من هاجٍ ومادح، تنوَّعَت أسماؤها، ولم تتنوّع أرضها ولا سماؤها، فسميت نخلة تهزّ وتجنى، وزيتونة مباركة يُستصبح بزيتها الأسنى، وسِدْرة إليها ينتهي المَعْنى، أصلها للوجود أصل، وليس لها كالشجر جنس ولا فَصْل، وتربتها روح ونفس وعقل[4]، وشرفها يُعَضِّده بَديهة ونقل، يحطّ الهائمون بِفنائها، ويصعد السالكون حول بنائها، تخترق السبع الطباق بِبُرَاقها، وتمحى ظُلَم الحس بنور إشراقها، فسبحان الذي جعلها قُطْب الأفلاك، ومدافن الأضواء والأحلاك، ومغرّد طيور الأملاك، وسبب انتظام هذه الأسلاك، لم يحلّ فيها طريد بعيد، ولا اتَّصف بصفاتها إلاّ سعيد، ولا اعْتَلَقَ بأوْجِها هاوٍ في حضيض، ولا بمحض برهانها مختبط في شرك نقيض، ولا تعرَّض لِشَيم بوارقها متّسم بسمة بغيض، الحمد للّه الذي هدانا لهذا وما

---

(١) البيت للشريف الرضي، وهو في ديوانه (جـ ١ ص ٦٥٨).

(٢) تَعَنَّى: احتمل العناء وهو التعب. لسان العرب (عنا).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٨٦): «فوق أفنانها».

(٤) في الطبعة نفسها: «ونفس عقل».

كُنّا لنهتدي لولا أن هدانا اللّه، ومنه نستزيدُ الاستغراقَ في بحارها، والاستنشاقَ لنواسم أسحارها، والاستدلال بذرى أفنانها عليه، والوصول بسبب ذلك إليه، إنه ولي ذلك سبحانه، فطاب لعمري المنبِت والنابت، وسما الفرعُ الباسق[1] ورسا الأصل الثابت، وفاءت[2] الأفنان، وزخرفت الجنان، وتعدّدت الأوراق والزهرات والأغصان، ولم أترك فَنَنًا إلاَّ جمعت بينه وبين مُناسبه، ولا فَرْعًا إليّ ضممته إلاَّ ما يليق به[3]، واستكثرت من الشعر لكونه من الشجرة بمنزلة النسيم الذي يحرّك عَذَبات أفنانها، ويؤدي إلى الأنوف روائح بستانها، وهو المزمار الذي ينفخ الشوقُ في يَرَاعته[4]، والعزيمة التي تُنْطِق مجنون الوجد من ساعته، وسلعة ألسن العشّاق، وترجمان ضمير الأشواق، وَمَجْلَى[5] صور المعاني الرفاق، ومَكامن قنائص الأذواق، به عَبَّر الواجدون عن وَجْدِهم، ومشى المحبُّون إلى قَصْدهم، وهو رسول الاستلطاف، ومنزل الألطاف، اشتمل على الوزن المطرب، والجمال المعجب المغرب، وكان للأوطان مركبًا، ولانفعال النفوس سَبَبًا، فلا شيء أنسب منه للحديث في المحبة، ولا أقرب للنفوس الصَّبّة، واجتلبت الكثير من الحكايات وهي نوافل فروض الحقائق، ووسائل مجالس الرقائق، ومراوح النفوس من كدِّ[6] الأفكار، وإحماض مسارح الأخبار، وحظّ جارحة السمع من منح الاعتبار، وبعض الجواذب لنفوس المحبين، والبواعث لهِمَم السالكين، وحجّتها واضحة بقوله تعالى: ﴿وكُلاً نَقُصُّ عليكَ﴾[7] في القرآن المبين، ونَقَلْتُ شواهدَ من الحديث والخبر تجري صحاحُها مجرى الزكاة من الأموال، والخواطر من الأحوال، ويجري ما سواها من غير الصحيح مجرى الأمثال، ليكون هذا الكتاب لعموم خيره، مَسْرحًا للفاره وغيره، ويجد كلٌّ ميدانًا لسَيْره، وملتقطًا لطيره، ومحكًا لغيره، فمن فاق كلف بأصوله، ومن قصر قنع بفصوله، ومن

---

(١) الباسق: المرتفع؛ يقال: بَسَقَ النخلُ إذا ارتفعت أغصانه وطال. محيط المحيط (بسق).

(٢) فاءت: صارت ذا فيء. لسان العرب (فيأ).

(٣) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٨٦): «ولا فرعًا إلاَّ ضممته إلى ما يليق به».

(٤) اليَراعَةُ: القصبة الجوفاء التي يزمر بها، مأخوذة من: ترعرع الصبي: أي نشأ وشبَّ. لسان العرب (رعرع).

(٥) في طبعة دار صادر (ص ٢٨٧): «ومجتلى».

(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٣): «كدر».

(٧) سورة هود ١١، الآية ١٢.

وصل حمد الله تعالى على وُصُوله، وسميته «روضة التعريف، بالحب الشريف» ويحتوي على أرض زكيّة، وشجرات فلكيّة، وثمرات ملكيّة، وعيون غير بَكِيّة.

والحبُّ حياة النفوس المَوَات، وعلّة امتزاج المركبات، وسبب ازدواج الحيوان والنبات، وسرّ قوله عزّ وجلّ ﴿أَوَمَنْ كان مَيْتًا فأَحْيَيْناه وجَعَلْنا له نورًا يمشي به في الناسِ كَمَنْ مَثَلُهُ في الظُّلُماتِ ﴾[1] ليس كالحب الذي دَوَّن فيه المدوّنون، ولعبت بكُرَة أقباسه صَوَالج الجنون، وقاد الهوى أهله بحَبْل الهُون، وساقت فيه المنى للمَنُون، حين نظرت النفوس من سفلى الجنبتين، ورضيت الأَثَر عن العَيْن، وباعت الحقّ بالمَيْن، ولم تحصل[2] إلاّ على خُفَّي حُنَين[3]، وارحمتا لعشاق الصور، وسُبّاق ملاعب الهوى والهور، لقد كَلِفُوا بالزخارف الحائنة الحائلة[4]، والمحاسن الزائفة الزائلة، وسِلَع الجبانة، وبضائع الإهانة، أزمانُ التمتّع بهم قصيرة، والأنكاد عليهم مُغيرة، فتراهم ما بين طعين بعامِلِ قَدّ، ومضرّج بدم خَدّ، وأسير ثغر قد أعوز فداؤه، وسقيم طَرْف قد أعضل داؤه، وما شئت من ليل يُسهر، ونداء به يُجهر، وجُيُوب تُشقّ، وبصائر تخطف أبصارها إذا لمع البرق، ونواسم تحمل التحيّات، وخلع أيْكٍ تتلقى بخلع الأريحيات، وربما اشتدّ الخَتْل، وأصابت النَّبل فكانَ الخبل، قلوب اشتغلت عن الله فشغلها الله بغيره، وهَبِ الحبَّ الجسماني لا تبعث[5] عليه شهوة بهيمية، ولا تدعو إليه قوّة وَهْمِية، أليست الداعية مرتفعة، والباعثة منقطعة، وصورة الحسن داثرة، وأجزاؤه المتناظمة متناثرة؟ أليس الجراب العنصري عائدًا إلى أصْلِه؟ أليس الجنس مفارقًا لفَصْله؟ ولله دَرُّ علي رضي الله تعالى عنه، وقد نظر إلى قدح الماء وقد أراد أن يشرب، وعن الاعتبار أعرب، فقال: كم فيك من خدّ أسيل، وطرف كحيل؟ فأوّاه مكررة مردَّدة، ووالهفاه معادة مجدّدة، على قلب أصبح يقلِّبُ كَفَّيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها، ﴿ويقولُ يا ليتني لم أُشْرِكْ بِرَبِّي أحدًا ﴾[6] وحسبنا مرارة الفراق

---

(١) سورة الأنعام ٦، الآية ١٢٢.

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٤): «يحصل».

(٣) أخذه من المثل: «رَجَعَ بِخُفَّيْ حُنَيْنٍ»، يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة. مجمع الأمثال (ج ١ ص ٢٩٦).

(٤) الحائنة: الهالكة. الحائلة: المتحوّلة والمتغيّرة. لسان العرب (حين) و (حول).

(٥) في طبعة عبد الحميد: «يبعث».

(٦) سورة الكهف ١٨، الآية ٤٢.

ذلاً، وفقد النقد قلاً، والغفلة عن الله شقاء محتومًا، والكآبة على الفائت شومًا: [الخفيف]

صَدَّني عن حلاوةِ التشييعِ اتِّقائي مرارةَ التوديعِ
لم يقمْ أُنسُ ذا بوحشةِ هذا فرأيتُ الصوابَ تركَ الجميعِ[1]

وإن كانت الشهوة فأَخْسِسْ بها داعية، وإلى الفضيحة ساعية، حَسْبُك من حمار يعلن بنداء المحبّة نهاقه، ويقذفه على السباق احتياجه إلى السِّفاد واشتياقه، أسير خَبَال، وصريع مَبَال، أولى له ثم أولى لو تأمّل محاسن الجسوم ما أكذب رائدها المُطْرِي، وأخبث زخرفها المُغْرِي، وأقصر مدة استمتاعها، وأكثر المساعي تحت قناعها[2]: [الطويل]

على وَجهِ مَيٍّ مسحةٌ من ملاحةٍ وتحت الثيابِ العارُ لو كان باديا

ما ثَمَّ إلاّ أنفاسٌ تركد وتخبث، وعلل تنشأ وتحدث، وزخارف حسن تُعاهد ثم تنكث، وتركيبٌ يطلبه التحليل بدَيْنه، ويأخذ أثره بعد عينه[3]، وأُنس يُفقد، واجتماع كأنْ لم يُعقد، وفراق إن لم يكن فكأن قد[4]: [الطويل]

ومَنْ سَرَّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يَتَّخذْ شيئًا يخافُ له فقدا

* * *

[البسيط]

مُنَغَّصُ العيشِ لا يأوي إلى دعةٍ من كان ذا بلدٍ أو كان ذا ولدِ
والساكن النفسِ مَنْ لم ترض همّته سكنى مكانٍ ولم يسكن إلى أحدِ

وقلت وقد مات سكن عزيز عليَّ أيام التغرّب بسَلاَ عَظُم جَزَعي عليه: [السريع]

يا قلبُ، كم هذا الجوى والخفوتْ ذَمَاءَكَ استبقِ لئلاً يفوتْ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٥): «الجميع».

(٢) البيت لذي الرمة قاله في صاحبته مي، وورد في الشعر والشعراء (ص ٤٣٩) وجاء فيه: «الشَّيْنُ» بدل «العار». وتقدم عجز البيت في الجزء الخامس.

(٣) أخذه من المثل: «لا تطلب أثرًا بعد عين» يضرب لمن ترك شيئًا يراه ثم طلب أثره من بعد فوت عينه. محيط المحيط (أثر) و (عين).

(٤) تقدير الكلام: «فكأن قد حصل». قال النابغة الذبياني: [الكامل]

أَفِدَ التَّرَحُّلُ، غير أن ركابَنا لَمّا تَزلْ برحالنا، وكأنْ قَدِ

ديوان النابغة الذبياني (ص ١٤٣).

فـقــالَ لا حــولَ ولا قــوةَ لــي قد كان ما كان فحسبي السكوتْ
فــارَقَــنِــي الــرشــدُ وفــارقــتُــهُ لَــمَّــا تَــعَــشَّــقْــتُ بــشــيء يــمــوتْ

والزمان لا يعتبر، وحاصله خبر، والحازم من نظر في العواقب، نظر المراقب، وعرف الإضاعة، ولم يجعل الحلم بضاعة، إنما الحبّ الحقيقي حبٌّ يُصعدك ويرقيك، ويخلّدك ويبقيك، ويطعمك ويسقيك، ويخلصك إلى فئة السعادة ممن[1] يشقيك، ويجعل لك السكون روضًا، ومشرب الحقّ حَوضًا، ويُجنيك زهر المنى، ويُغنيك عن أهل الفقر والغنى، ويخضع التيجان لنعلك، ويجعل السكون متصرّف فعلك، ليس إلاَّ الحب، ثم الوَصْل والقرب، ثم الشهود، ثم البقاء بعد ما اضمحلّ الوجود، فشفيت الآلام، وسقط الملام، وذهبت الأضغاث والأحلام، واختصر الكلام، ومحيت الرسوم وخفيت الأعلام، ولمن الملك اليوم والسلام، فالحذر الحذر أن يُعجل النفس سيرها، ويفارق القفصَ طيرها، وهي بالعَرَض الفاني متشبطة، وبنائي الثقيل[2] مرتبطة، وبصحبة الفاني مغتبطة ﴿أنْ تقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتَا على ما فَرَّطتُ في جَنْبِ اللَّهِ وإنْ كُنْتُ لَمِنَ الساخِرِينَ. أو تقولَ لو أنَّ اللَّهَ هداني لكنتُ من المُتَّقِينَ. أو تقولَ حين تَرَى العذابَ لو أنَّ لي كَرَّةً فأكونَ من المُحْسِنِينَ﴾[3] وفي ذلك قلت: [الطويل]

أعشّاقَ غيرِ الواحدِ الأحدِ الباقي جُنُونُكُمْ واللَّهِ أعْيَا على الراقي
جُنِنْتم بما يفنى وتبقى مضاضةٌ تعذِّبُ بين البين مهجةَ مُشْتاقِ
وتربطُ بالأجسام نفسًا حياتُهَا مباينةُ الأجسام بالجوهرِ الراقي
فلا هي فازتْ بالذي عَلِقَتْ به ولا رأسَ مالٍ كان ينفعها باقي
فراقٌ وقَسْرٌ وانقطاعٌ وظُلْمَةٌ قِنِي البُعْدَ مِنْ نَيلِ السعادة يا واقي
كأني بها من بعد ما كُشِف الغطا صريعةُ أحزانٍ لديغَةُ أشواقِ
تُقَلِّبُ كَفَّيها بخيطٍ موصَّل رشيقةُ قدّ دون سبعةِ أطباق
فلا تطعموها السمَّ في الشهدِ ضَلَّةً فذلك سمٌّ لا يداوى بدرياق
بما اكتسبتْ تسعى إلى مستقرِّها فإما بوفرٍ[4] مُحْسِبٍ أو بإملاق

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٢٨٩): «ممَا».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٦): «وبناي الثقل».
(٣) سورة الزُّمَر ٣٩، الآيات ٥٦، ٥٧، ٥٨.
(٤) في طبعة عبد الحميد: «بوقر» بالقاف.

وليس لها بَعْدَ التفرّق حيلةٌ ... سوى ندمٍ يذري مدامعَ آماق

ولو كان مرمى الحزن منها إلى مدى ... لهان الأسى ما بين وخدٍ وإعناق[1]

فَجُدُّوا فإنَّ الأمرَ جدٌّ، وشَمِّرُوا ... بفضل ارتياضٍ أو بإصلاح أخلاق

ولا تطلقوا في الحسّ ثنيَ عنانِها ... وشِيمُوا[2] بها للحقّ لمحةَ إشراق

ودُسُّوا لها المعنى رويدًا وأيقِظوا ... بَصِيرَتَهَا مِنْ بَعْدِ نومٍ وإغراق

ومهما أفاقتْ فافتحوا لاعتبارها ... مصاريعَ أبوابٍ وأقفالَ أغلاق[3]

وعاقبةَ الفاني اشْرَحُوا وتلطَّفوا ... بأخلاقها المَرْضَى تلطُّفَ إشفاق

فإن سكرتْ واستشرفتْ عند سكرها ... لماهيّةِ المَسْقَى ومعرفةِ الساقي

أطيلُوا على روض الجمال خطورها ... إلى أن يقوم الوَجْدُ فيها على ساق

وخلُّوا لهيبَ الشوق يطوي بها الفلا ... إلى الوجد في مسرى رموز وأذواق

فما هو إلاّ أن تحطَّ رحالها ... بمَثْوَى التجلّي والشهود بإطلاق

وتَفْنَى إذا ما شاهَدَتْ عن شهودها ... وقد فنيَ الفاني وقد بقيَ الباقي

هنالك تلقى العيشَ تضفو ظلاله ... وتَنْعَمُ من عين الحياة برقراق

وما قِسَمُ الأرزاقِ إلاّ عجيبةٌ ... فلا تطردِ السُّؤَّالَ يا خيرَ رزّاق

وقد أخذ الكلام في هذا الافتتاح حَدَّه، وبلغ النهر مدَّه، فلآخذ أثر هذا الذي سَرَدْت، في تقرير ما أردت، وما توفيقي إلاّ باللّه، عليه توكّلت، وإليه أُنيب، فنقول: ينقسم هذا الموضوع إلى أرض، وشجر غضّ، وكلّ منها ميسورُ جِدَة، وفنّ على حِدَة، ما شئت من مرأى ومستمع، فمن شاء أفرد ومن شاء جَمَع، فلنبدأ بالأرض والفلاحة، والتكسير والمساحة، وتعيين حدود تلك الساحة، ثم نأتي بالشجرة التي نؤمل جَنَاها، وننظر إنَاها[4]، ونجعل الزاد المبلغ معناها، قُلْ بفضل اللّه وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مِمّا يجمعون.

---

(١) الوَخْدُ والإعناق: ضربان من السير السريع. لسان العرب (وخد) و (عنق).

(٢) شيموا: فعل أمر من: شام إذا تطلّع ببصره. لسان العرب (شيم).

(٣) الأغلاق: جمع غلق وهو باب الدار. لسان العرب (غلق).

(٤) ننظر: هنا بمعنى ننتظر ونترقّب. إناها: نضجها. وفي القرآن الكريم: ﴿إلى طَعامٍ غيرَ ناظرينَ إناهُ﴾. سورة الأحزاب ٣٣، الآية ٥٣ ولسان العرب (أنى).

برنامج هذا الكتاب الذي يحصر الأجناس والفصول، ويردُّ الفروع إلى الأصول، ويسر الباحث عن مسائله بسبب الوصول، بحول اللّه وقوّته:

خطبة الأعراس، وتوطئة الغِراس، وتنحصر في جملتين:

الجملة الأولى: في صفة الأرض وأجزائها، وجعل الاختيار بإزائها، وفيها رتب:

الرتبة الأولى ـ رتبة الأطباق المفروضة، والاعتبارات المعروضة، وفيه مقدمة وأطباق: المقدمة في تعيين الأرض المذكورة. الطبق الأوّل: طبق القلب. الطبق الثاني: طبق الروح. الطبق الثالث: طبق النفس. الطبق الرابع: طبق العقل.

الرتبة الثانية ـ رتبة العروق الباطنة، والشعب الكامنة، وفيها فصول: الفصل الأول: في العروق المعدنية. الفصل الثاني: في المقررات العينية. الفصل الثالث: في المدبرات البدنية. الفصل الرابع: في البحوث البرهانية.

الجملة الثانية: في صفة الفلاحة والعمل، المتكفل فيها بنيل الأمل، وفيها اختيارات:

الاختيار الأول فيما يصلح للاعتمار من هذه الأرض، وفيه فصول: الفصل الأول: في أرض النفس المطمئنة. الفصل الثاني: في أرض النفس الأمَّارة. الفصل الثالث: في أرض النفس اللّوّامة.

الاختيار الثاني في محركات العزيمة، لاعتمار هذه الأرض الكريمة، وفيه فصول[1]: الفصل الأول: في الجذب وما يتّصل بذلك. الفصل الثاني: في الوعظ المثمر لليَقَظَة. الفصل الثالث: في ذمّ الكسل.

الاختيار الثالث يشتمل على جلب الماء لسَقْي هذه الأرض من عين العلم في جَدْوَلي العقل المحرر والنقل المقرّر، وفيه مقدمة في فضل العلم وتعدّد أجناسه، وفصول: الفصل الأول: في جدول العقل. الفصل الثاني: في جدول النقل، الفصل الثالث: في مقدار الماء المجلوب، للفَلْح المطلوب. الفصل الرابع: في غبار التكوين، وسبب التلوين.

الاختيار الرابع: في الحرث، وإخراج لَبَنِ هذه الفلاحة من بين الدم والفَرث[2]، وفيه

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٨): «في الفصل..».

(٢) الفرث: ما يحتويه كرش الحيوان. وهذا مقتبس من قول اللّه تعالى: ﴿نُسْقِيكُم مِمّا في بُطُونِهِ من بَيْنِ فَرْثٍ ودمٍ لَبَنًا خالصًا﴾. سورة النحل ١٦، الآية ٦٦.

أقسام: أوّلها: القَليب الأول. ثانيها: القليب الثاني الذي عليه المعوَّل. ثالثها: في سكة الازدراع والتعمير، وهو مظنة التثمير.

الاختيار الخامس: في تنظيف الأرض المعتمرة من الأرض الخبيثة، والجذر المعترضة والشعب المذمومة، وفيه فصول: الفصل الأول: في إزالة شكوك تسبق إلى المعتقد غالبًا. الفصل الثاني: في قلع الشجر[1] الذي يضر بهذه الأرض ويعاديها بالطبع.

الاختيار السادس: في أُمور ضرورية تلزم لهذه الفلاحة، وفيه فصول: الفصل الأول: في أمراض يشرع في علاجها، مِمّا يرجع لطبع الأرض ومزاجها. الفصل الثاني: في اختبار أنواعها وأجزائها. الفصل الثالث: في أقوال تليق بأفحاص الفلاح وإصحاره، عند ملاحظة عجائب السكون وآثاره. الفصل الرابع: في الوقت المختار لغراسة الأسباب، في الحبّ اللباب، وتنحصر في مقدمة علمية، وجرثومة[2] جرمية: المقدمة العلمية في ترتيب المحبة والمعرفة، الجرثومة الجرمية تنقسم إلى بيان يعطي الصورة، ويشرح الضرورة، وإلى بطن وظهر، وسرّ وجهر، وباسط، وبرزخ واسط، فالباطن الشرع والنقل، وينقسم إلى أصول: الأصل الأول: الكلام في النبوة من حيث النقل. والأصل الثاني: في الإيمان والاعتبار العامي. الأصل الثالث: فيما يتبع ذلك من اليقظة والتوبة في حقّ غير المحتاج إلى ذلك. الأصل الرابع: في تقرير العناية والتوفيق في حقّ غير المحتاج إلى ذلك. الأصل الخامس: في الموعظة والسماع من حيث تهذيب الجميع، والظاهر الطبع والعقل، وينقسم إلى أصول: الأصل الأول: جزء الفلسفة العلمي والعملي. الأصل الثاني: سلامة الفطرة في حقّ المستغني عن ذلك. الأصل الثالث: في معرفة الجمال والكمال. الأصل الرابع: في الاعتبار الخاصي. الأصل الخامس: السلوك بالفكر. الأصل السادس: في التشبيه بالمبدإ الأول، باسط الذكر الباسط، والبرزخ الواسط، الصاعد من التخوم، إلى النجوم، وهو من أخصّ الأشياء بباطن الشجرة، وأصولها المعتبرة، ويشتمل على مقدمة وثلاثة أصول: الأصل الأول: الأدعية والأذكار، وله عشر شعب. الأصل الثاني: أصل الأسماء، وهي أصول الأرض والسماء، وله تسع وتسعون شعبة. الأصل الثالث: أصل السِّيمياء، وهو الذي عفن بعضه وبقي الانتفاع ببعضه. العمود المشتمل على القشر والعود، والجَنَى

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٢٩٣): «الشجر التي تضرّ.. وتعاديها..».

(٢) جرثومة الشيء: أصله، وجرثومة النمل: قريته. لسان العرب (جرثم).

الموعود، ينقسم قسمين: قشر، وخشب، ودر مَخْشَلب، والقشر ظاهر يكسر ويخذو، وباطن ينمي ويغذو، فظاهره الذي يكسر ويخذو يتضمّن الكلام في المحبة وأقسامها من حيث اللسان، لا مِنْ حيث نوع الإنسان، وباطنه الذي ينمي ويغذو يتضمّن الثناء على المحبة طبعًا وعقلاً، وشرعًا ونقلاً. الخشب الذي يُتَّخذ منه النشب ينقسم إلى أقسام: القسم الأول: في الحدود والمعرفات، والأسماء الدالة عليها والصفات. القسم الثاني: معقول معناها، المتجلّي فيه نور سَنَاها. القسم الثالث: ارتباطها بالمقامات، واختصاصها فيها بالكرامات. القسم الرابع: تبيين ضروريتها، وإيضاح مزيتها. الفرع الصاعد في الهواء، على خطّ الاستواء، من رأس العمود القائم، إلى منتهى الوجود الدائم، ويشتمل على قشر لطيف، وجِرْم شريف. القشر: الحدود للمعرفة والرسوم، وخواصّ العارف الذي هو المعروف بها والموسوم، وينقسم إلى فصول: الفصل الأول: في حدود المعرفة ورسومها[1] وما قيل فيها. الفصل الثاني: في أوصاف العارف. الفصل الثالث: في تفضيل العارف. الفصل الرابع: في علوم العارف. والجِرم الشريف، من الفرع المنيف، ينقسم إلى ظاهر، وباطن، وقلب. فالظاهر ينقسم إلى أقسام: الكلام في الأخلاق ومنشئها وطباعها بحسب القوى النفسانية وإفراطها وتفريطها واعتدالها وعلاجها، وفيه المجاهدات. والباطن يتضمّن الكلام في أنّ النظر إلى وجه اللّه تعالى هو السعادة الكبرى بكل نظر واعتبار. والقلب قلب الغصن يتضمّن الرياضة والسلوك على المقامات كلّها، ويتفرّع منه عشرة غصون: الغصن الأول: غصن فروع البدايات. الغصن الثاني: غصن فروع الأبواب. الغصن الثالث: غصن فروع المعاملات. الغصن الرابع: غصن فروع الأخلاق. الغصن الخامس: غصن فروع الأصول. الغصن السادس: غصن فروع الأدوية. الغصن السابع: غصن فروع الأحوال. الغصن الثامن: غصن فروع الولايات. الغصن التاسع: غصن فروع الحقائق. الغصن العاشر: غصن فروع النهايات، ولكل فروع أوراق، ويلحق به صورة السلوك بالذكر حتى يتأتى الوصول، وعلى المقصود الحصول، والكلام على زهرات الطوالع واللوائح والبواده والواردات، ونختم بالجَنَى، المقترن بنيل المنى، وهي الولاية.

تفرع ضخام الغصون، من شجرة السرّ المصُون، وهي: غصن المحبوبات وأقسامها، وتنقسم إلى أربعة أفنان: الفن الأول: فنّ الرب المحبوب. الفن الثاني: فن العبد

---

(١) الحدّ والرسم من اصطلاحات علم الكلام؛ فالحدّ ما كان بالفصل، والرسم ما كان بالخاصة. لسان العرب (حدد) و (رسم).

المحبوب. الفن الثالث: فن الدنيا المحبوبة. الفن الرابع: فن الآخرة المحبوبة. غصن المحبين، وأصنافهم المرتبين، ينقسم إلى مقدمة بيان، وستة أفنان: الفن الأول: في رأي الفلاسفة الأقدمين. الفن الثاني: في رأي أهل الأنوار والإشراقيين. الفن الثالث: في رأي الحكماء الإسلاميين. الفن الرابع: في رأي المكلمين بزعمهم المتممين. الفن الخامس: في أهل الوحدة المطلقة من المتوغلين. الفن السادس: في الصوفية سادة المسلمين.

غصن علامات المحبة، وشواهد النفوس الصَّبَّة، وينقسم إلى ثلاثة أفنان: الفن الأول: فيما يرجع إلى حقوق المحبوب. الفن الثاني: فيما يرجع إلى باطن المحبّ. الفن الثالث: فيما يرجع إلى ظاهره.

غصن اختيار المحبين في ميدان جهادهم، وتباين أحوال أفرادهم، وهو ثلاثة أفنان: الفن الأول: فن المجاهد الصريح. الفن الثاني: فن المنبت الجريح. الفن الثالث: فن الصريع الطريح.

جوائح الشجرة، ومَضَار فلاحتها المعتبرة، وينقسم إلى جوائح من نسبتها، بالنظر إلى مائها وتُرْبتها، وإلى ما هو راجع إلى الخواطر. وهي[1] على عدد الرياح. وإلى ما سببه غَفْلة الفلاّح، عذر الطائر الصادح، على فرض القادح، وجود الهاجي والمادح.

صورة الشجرة ذات الحسن الباهر، والجَنَى والأزاهر، وآثارها للحسن الظاهر، بفضل المريد القاهر، لا إله إلاَّ هو سبحانه له الحمد، انتهت الخطبة التي تدلُّ على ما وراءها.

وقال رحمه اللّه تعالى في آخر هذا الكتاب ما نصُّه: ونختم الكلام في هذه الشجرة والاستدلال على شرف هذه الفلاحة الضمنية بهذه الأبيات: [الوافر]

فلاحَتُنا لها القِدْحُ المُعَلَّى ... وسَرْحَتُنا الضميَّةُ للنجاحِ[2]
ألستَ ترى منادي الخمس نادى ... بمختلفِ الجهاتِ أو النواحي
يردّد في الأذان لكلِّ واعٍ ... على الآذان حَيَّ على الفلاحِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٢): «وهو».

(٢) القِدْح: سَهمُ المَيْسر، والقِدْحُ المُعَلَّى: سابع سهام الميسر. السَّرْحَةُ: الشجرة العظيمة. محيط المحيط (قدح) و (علا) و (سرح).

وهذا طائرٌ على الشجرة صادح، ولاحق كادح، ومعتذرٌ إن قدح قادح، وتعارض هاج ومادح. قال المؤلف: ولا بُدَّ لنا من دريّ صادح على[1] هذه الأفنان، وشادٍ يهيج أشجان الجنان، ويثير شجو الرأفة والحنان، ويبين مجال الضرورة لذوي الاتّصاف، بكرم الأوصاف، والنظارين إلى الهَنَات بعيون الإنصاف، فيرحم من قد كان شره النَّقْد، ويعذر مَنْ تشوَّقَ لاستضعاف هذا القَصْد، والأعذار التي تقرر عنّا هذا الطائر عديدة، ومبدئة في الصدق مُعِيدة، وقريبة من الحقّ لا بعيدة، فمنها أنّ هذا الفرض، اليوم بأكثر الأرض، ميدانٌ عدم فيه ولا حول ولا قوّة إلاّ باللّه من يُجيل[2] كما يحبّ جوادًا، ونفيرٌ لا يجيبه إلاّ من يكثر سَوَادًا، قد طُمست الأعلام، وسقط الحمد والمَلاَم، وما لجرح بميت إيلام، فمدلول هذا الفن بهذه التخوم عنقاء مُغرب[3]، وإكسير يحدث عنه غير واصل ولا مجرّب، إنما يرجع فيه إلى كتب مُقْفلة، وأغراض مغفلة، وما عسى أن يعوّل المسكين مثلي على قاصر إدراكه، مع اقتسام باله واشتراكه؟ قَصَّرَ العلمُ والعمل، فاختلط المرعيُّ والهَمَل، وأخفق المسعى وخاب الأمل، ومنها شواغل الدنيا التي اختطفت من المكاتب، وموّهت بالمراتب، ولقّبت بالوزير والكاتب، وأقامت العبدَ الذي لا يملك شيئًا مقام العاتب، ومن كان بهذه المَثَابة وإن عُدّ يقظًا حازمًا، ونِحْريرًا عالمًا، فإنما هو غريق، وتائه لا يبدو له طريق، ولا ينساغ له رِيق، ولا يُطفأ ببرد اليقين منه حَريق، ولا يربع عليه من قصاد اللّه تعالى فريق، ونستغفر اللّه! فالذي ألهم لهذه العيوب، يتكفّل بإصلاح القلوب، ومكاشفة الغيوب، وإن كانت النفوس للحقّ جاحدة، فما أمري إلاّ واحدة: [الكامل]

لا تعجبنَّ لطالبٍ نالَ العُلا   كهلاً وأخفض في الزمان الأوّلِ
فالخمرُ تحكمُ في العقول مُسِنَّةً   وتُدَاسُ أوّلَ عصرها بالأرجُلِ

ومنها الاشتغال بالهَذَر، عن العلم والنظر، ومنذ أزمان عديدة، ومُدَدٍ مديدة، فلم يَبْقَ مِمّا حُصِّل، وإليه مِمّا في الزمان القديم تُوصِّل، إلاّ رسم بَلْقع، وسمل ما له مُرَقِّع، ومنها أنني لم أنتدب إلى هذا الوظيف الذي قَلَّ من يتعاطاه، ويثير قطاه، ويقتعد مطاه، من تلقاء

---

(1) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٣): «دريّ على صادح هذه...».

(2) في الطبعة نفسها: «من بخيل».

(3) العَنْقاءُ المُغْرِبُ: طائر معروف الاسم مجهول الجسم، وهو طائر عظيم يبعد في طيرانه. محيط المحيط (عنق).

نفسٍ جاهلة ببعد مَدَاه، ومَطْل جَدَاه، ومطالبة مدعيه بما كسبت منه يداه، فلا يتجاوز طوره ولا يتعدّاه، وإن طالب الحقّ من شرط وصوله، سلب فصوله، وحالة موته، وانقطاع حسّه فضلاً عن صوته، لكني خُضْتُ على عدم السباحة غمرًا، وامتثلتُ مع سقوط الاستطاعة أمرًا، وجئتُ بما في وسعي انقيادًا وامتثالاً، ومثلت مثالاً، فضرورتي بفضل اللّه تعالى مشروحة، والدعوى من كَتِفِي مطروحة، وعلى ذلك فقد علم الذي يعلم الأسرار، ويقرِّبُ الأبرار، ويقيل العثار، ويقبل الأعذار، أنَّ مدة الاشتغال به لم تجاوز شهرين اثنين، بين كتب وكتم، وابتداء وختم، مع ما يتخلّل الزمان من حمل لو رُميَ به رَضْوى[1] لتَدَغْدَع، أو أُنزل على ثَبِير[2] لخشع من خشية اللّه تعالى وتصدّع: مداراة عدو قد تكالب على الإسلام، وسياسة سواد صم عن الملام، وتعدّى حدودَ النُّهى والأحلام، وارتقاب هجوم جيش الآجال وراية الشَّيْبِ من الأعلام، وقد أنذر بالفجر انقشاع الظلام، وكاد يصعد الخطيب فينقطع الكلام[3]، جعلت لنقله حصة من جنح الظلام الغاسق، والليل الواسق[4]، وعاطيت حميّاه نديم العاتق[5]، وتعرّضت لاقتناص خياله الطارق، وسرقته من أيدي الشواغل، والليل معين السارق، ولم يعمل فيه عبد القيس نظرًا مُعَادًا، ولا أنجز من تصحيحه عَلم اللّه تعالى ميعادًا، إنما هو كراس يفرغ من تسويده رجراج الحبر، مختلط الترب بالتبر، فيدفع ملومُ الماسخ، إلى يد الناسخ، وكلفة المتثاقل، إلى كفّ الناقل، وتُقذف صحيفته من الزبرة إلى الصاقل، إذ كان الآمر - أيّده اللّه تعالى ونفعه - حريصًا على تعجيل المعارضة، ومتحرّيًا سبيل الشرع في هذه المصارفة والمقارضة، والجفن المشرق يعلن بالتبريح، وينتظر مساعدة الريح، فمن وقف عليه من فاضلٍ أنار اللّٰه بصيرته، وجبل على الإنصاف سيرته، أو مَنْ كان من أهل اللّه ٱلذي يعلم أن ما سوى ٱللّٰه تعالى ظلّ وفيْء، ويتحقّق معنى قوله: ﴿ليس لكَ مِنَ الأمرِ شيءٌ﴾[6]، فقد أوجب الإنصافُ أن

---

(١) رَضْوى: جبل ضخم من جبال تهامة. الروض المعطار (ص ٢٦٩). وقال ياقوت في معجم البلدان (جـ ٣ ص ٥١) إن رضوى جبل بالمدينة.

(٢) ثبير: أعلى جبال مكة وأعظمها. معجم البلدان (جـ ٢ ص ٧٢) والروض المعطار (ص ١٤٩).

(٣) من آداب الصلاة أن الناس ينقطعون عن الكلام إذا ما صعد الخطيب المنبر.

(٤) الواسق: أي الذي فيه مطر. لسان العرب (وسق).

(٥) في الأصل: «الغارق»، وقد صوبناه لسياق الكلام، والعاتق: الخمر القديمة.

(٦) سورة آل عمران ٣، الآية ١٢٨.

يمحو اقترافي باعترافي، ويغطي أوصافي بإنصافي، والرحماء يرحمهم الرحمن، وقد عذر القنبرة سليمان[1]، ومع الاستسلام الأمان، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه. ولا بأس أن نُعَرِّض[2] بتلك الأخْونَةِ الخصيبة المثوى والمروج، والجمل والفروج، وفي السماء البروج، وفي الأرض الفُروج، والأعرج يُسْتندر منه العروج، ونمدّ الأيدي المستعملة في التقصير، إلى الولي النصير والناقد البصير. اللهمّ استر بسترك فضائحنا المخلّفة، وقبائحنا المجمعة المؤلّفة، فهو كلّه تحويمٌ حول حِمَاك، ودندنة يا كريم بباب رُحْماك، وزند أنت قَدَحْته، وتألّق بارقٍ أنت ألحته، فصِلِ السبب يا واصل الأسباب، واجعلْنا مِمَّنْ تذكّر فَنَفَعَتْه الذكرى وما يتذكّر إلاّ أُولو الألباب، اللهمّ أطلع[3] نفوسَنا الحائرة على عين الخبر، واجذبْها إلى المؤثر بزمام الأثر، اللهمّ اجبر الضالة المُثْقَلَة الظهر، وارفعْ عنها مَلَكَةَ القهر، وحيطة الدهر، والسفر من بلد السرّ إلى بلد الجهر، اللهمّ أعلق بعروة الحقّ أيدينا الخابطة، وأظفر بعدوّ الهوى عزائمنا المرابطة، اللهمّ أوصِلْ سببنا بسببك، واحملْنا إليك بك، لا إله إلاّ أنت، وصَلِّ على عبدك ونبيّك محمد خاتم النبيّين والمرسلين وآله والصحابة أجمعين»؛ انتهى.

وقال ـ رحمه اللّه تعالى! ـ آخِرَ بعضِ تراجم هذا الكتاب ما صورتُه: خاتمة تشتمل على إشارات، وتختال من الحقّ في شارات، قال بعض مَنْ يطأ بمطيّة السلوك، حِمى الملوك، وينقض زوايا الغيوب، عن المطلوب، ببصر بصائر القلوب: شهدت أصناف المحبين والعشّاق، على اختلاف البلاد وتباين الآفاق، لا أدري أقال كشفًا وشهودًا، أو فرضًا ووجودًا[4]، أو يقظة أو هجودًا، وقد رَكَضُوا مطايا الأشواق، وضربوا آباطها بِعِصِيِّ المشارب والأذواق، وتزوّدوا أزواد الحقائق، وودعوا أحباب العوائد والعلائق، وتساهلوا في المحبوب اعتراض العوائق، وتفاضلوا في اختيار الجوادّ[5] واقتحام المضايق، والطرق

---

(١) إشارة إلى قصة سيدنا سليمان مع الهدهد في قول اللّه تعالى: ﴿وتَفَقَّدَ الطيرَ فقالَ ما ليَ لا أَرَى الهُدْهُدَ أمْ كانَ من الغائِبِينَ﴾. سورة النمل ٢٧، الآية ٢٠.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٠٠): «يُعَرِّضَ».

(٣) في الطبعة نفسها: «ذُلَّ نفوسنا».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٠٠): «أو وجودًا».

(٥) الجوادّ: جمع جادّة وهي معظم الطريق. محيط المحيط (جدد).

إلى اللّه تعالى عدد أنفاس الخلائق، فمن خابط عَشْوَاء[1]، ومسقط أهواء، يقول: [السريع]

يـا لـيـت أنـي أُوقـدُ الـنـارا فـإنَّ مَـنْ يـهـواك قـد حـارا[2]

فيجيبه الصدى: [الوافر]

ومن طلب الوصول لدار ليلى بغيرِ طريقها وقعَ الضلالُ

ومثبت بحيث لا يبدو عَلَم، ولا يُقْتص خفّ ولا قدم، في مفازةٍ وجودُ من حلها عَدَم، وهو يصيح: [الكامل]

بأبي وأمي والذي ملكتْ يدي أَفْدِي الذي يهدي الطريقَ اللاحبا

ثم يقول: [الكامل]

ولقد سَرَيْتُ إليك لكنْ حين لم يكن الدليلُ أجلَّ قصد السالكِ

ومن طاوٍ نفد زاده، وفرغ مزاده، قد استسلم، وعجز أن يتكلّم، ولسان حاله ينشد: [الطويل]

إذا أنت لم تزرعْ وأبصرتَ حاصدًا ندمت على التفريط في زمنِ البذْرِ

وراكضٍ يقطع الدوّ[3]، ويعزفُ في[4] الجوّ، يثبت الأعلام الخافية، ويقصد الموارد الصافية والظلال الضافية، حاديه أمله، ودليله علمه، والراحلة عمله، ينشد بأعلى صوته: [الكامل]

قَرُبَ اللقاء فكيف لا ترتاحُ للقاء سكانِ الحمى الأرواحُ

---

(١) العشواء: الناقة التي لا تُبصر ليلاً. لسان العرب (عشا). يقول زهير بن أبي سلمى: [الطويل]

رأيتُ المَنايا خَبْطَ عَشْواءَ مَنْ تُصِبْ تُمِتْهُ ومن تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فَيَهْرَمِ

ديوان زهير بن أبي سلمى (ص ٨٦) ولسان العرب (خبط).

(٢) هذا من قول عديّ بن زيد: [المديد]

يـا لُـبَـيْـنـى، أوقـدي الـنـارا إنَّ مَـنْ تَـهْـوَيْـنَ قـد حـارا

الأغاني (جـ ٢ ص ١٤٠).

(٣) الدَّوُّ: المفازة. محيط المحيط (دوو).

(٤) كلمة «في» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٠١).

ومرافق[1] يركض البريد، ويصحب التفريد، بلغ الطِّيّة، وأناخ المطيّة، قبل وصول الرفقة البطيّة: [الطويل]

سرى سلخ شهر في فُوَاق حلوبةٍ فللّه ما أنأى سُراهُ وما أدْنى

﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عليهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرارًا ولَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾[2].

وقلت: [الكامل]

نَهَضُوا وقد جنَّ الدُّجى وتخالفتْ سبلُ الرَّدى فمسدّدون وضُلَّلُ
سلني عن المنبتِّ[3] حين تَقَطَّعَتْ أسبابُه تِيهًا ولا من يَسْأَل
قومٌ سَطَتْ بهمُ السباعُ، وفرقةٌ عطشوا، وأين من الظُّماء المَنْهَلُ
لَفَحَ الهجيرُ وجوهَهُم بسعيره فتهافتوا ببلالةٍ وتعلّلوا
وجماعةٌ ركبوا المفاوز دائمًا عثروا على أثر فشَطَّ المنزلُ
وركائبٌ جعلوا الدليل أمامهم وسَرَوْا ففازوا بالذي قد أمّلوا
والليلُ مُتْلَفَةٌ، ومَدْرَجَةُ الهوى لا يستقلُّ بها المطيُّ الذلَّلُ
والواصلون هم القليل وكيف لا قفر ومَسْبعة وليل ألْيَلُ
يا رحمةً للعاشقين تقحّموا خطر النوى وعلى الشدائد عوّلوا
طارتْ بهم أشواقهم فعقولهمْ معقولةٌ عن شأنها لا تعقل
عذرًا لكم يا أهلَ عُذْرَةَ[4] شأنكم سَلَّمْتُ فيه لكم فقولوا وافعلوا

حتى إذا خرجوا إلى قضاء القدر المشترك، وأفلت من أفلت من الشَّرَك، وسلم من قتيل المعترك، وأشرفوا بركاب الآمال، على ثنية الجمال، زعقوا[5] بإزاء الباب، ونادوا من وراء الحجاب: [الكامل]

كُلٌّ كَنَى عن شَوقِهِ بلغاته ولربما أبكى الفصيحَ الأعْجَمُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «وفرانق».
(٢) سورة الكهف ١٨، الآية ١٨.
(٣) المنبتُّ: الذي يعمل بشكل متواصل دون راحة فيعجز عن متابعة العمل. لسان العرب (بتت).
(٤) عذرة: قبيلة ينسب إليها الحب العذري لاشتهارها به.
(٥) زعقوا: صاحوا. محيط المحيط (زعق).

وأوصلوا رقاع شكواهم، بسرائر[1] هواهم، وبرزوا صفًا، واستظهروا بشفعائهم التي ظنّوا أنها لا تخفى ﴿ما نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبونا إلى اللَّهِ زُلْفَى ﴾[2] وقد تعينت الأوصاف وتميّزت، وانتَبَذَت الأصناف وتحيّزت، والعشّاق نجت وسلمت، مذ علمت، منهم الصفوة والمجان، والحرافيش والبهلوان، مِمَّن يعوّل على ذراعه، وملاكمته وصراعه[3]، وطول باعه، وصلابة طباعه، وسَلاطة لسانه، وامتزاج إساءته بإحسانه، شأنه البحث عن المحبوب، مع الشروق والغروب، والتوصل إلى وَصْله المطلوب، بالحركة الشريفة واللفظ الخَلوب، ومن اتَّسَمَ بإذاعة الأسرار، وصحبة الشرار، واللسان المهذار، حُسِبَ من الأغيار، ومنهم بُذاة، ليس لهم إلاَّ المُنادمة أداة[4]، تعذّر عليهم تميّز المحبوب فغلطوا، وعكفوا على تنزيهه فأفرطوا: [الخفيف]

ربما ضرَّ عاشقٌ معشوقا ومن البرّ ما يكونُ عقوقا

وغلبت على سجيّتهم السلامة، ولم تنلهم لعدم الموصِّل والمعرِّف الملامة، وليس للقبول عليهم علامة، ومنهم مَنْ شعارُه الحشمة، ولزيمه العفافُ والعصمة، أُولو الحياء والوقار، والكتم للأسرار، ومخالطة الأبرار، والتوسّل إلى المحبوب بالافتقار، وصفاء الضمائر من الأكدار، لا تختلجهم الشواغل، ولا يطرق شرابهم الواغل[5]، أغنتهم الشواهد عن الدعوى، وأصمَّهم الرضا عن الشكوى، وتقسّمت معاملاتهم الآداب، وصحّ منهم إلى مراتب المراقبة الانتداب، والناقد بصير، وكلام النيّات قصير، ومنهم المغلوب الحال، المحمول من فوق الرحال، رَقَّصَ وشطح، وسكر فافتضح، فهو بلخ الرفقة، وملوع الحرقة، دعني وعبدي بلخ، فإنه يضحكني سبع مرات في اليوم، ومنه من لم يأخذه نعت، ولا تعين له فوق ولا تحت، ولا حمد ولا مقت، ولا حين ولا وقت، لو نطق قال: أنا

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٠٢): «بسرّ».

(٢) سورة الزُّمر ٣٩، الآية ٣.

(٣) في طبعة دار صادر: «وملء كُمّته وصواعه».

(٤) في الطبعة نفسها (ص ٣٠٣): «أدة».

(٥) الواغل: الداخل على القوم في طعامهم وشرابهم، أو الواغل في الشراب كالوارش في الطعام. محيط المحيط (وغل). يقول امرؤ القيس: (السريع)

فاليومَ فاشربْ غيرَ مُسْتَحْقِبٍ إثْـمًا مـن الـلّـهِ ولا واغـلِ

ديوان امرىء القيس (ص ٢٥٨).

المعدوم الموجود، والشاهد المشهود ﴿أَلاَ بُعْدًا لِمَدْيَنَ كما بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[1]: [الطويل]

قضى وَصْلها لي، وابتلاكمْ بحبِّها   وهل يأخذُ الإنسانُ غير نصيبِهِ

ولم يكن إلاَّ أن خرجتِ الرقاع، وفُضِّلَتِ البقاعُ ﴿ووُفِّيَتْ كلُّ نَفْسٍ ما كَسَبَتْ[2] وهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾[3].

فكان في رقعةٍ طائفةٍ: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿وما كانَ لِبَشَرٍ أنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إلاَّ وَحْيًا، أو مِنْ وراءِ حِجابٍ، أو يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحي بإذْنِهِ ما يَشاءُ ﴾[4] قلّدتم العقلَ وله طَورٌ، ورأيتمُ الحركاتِ لا يتناهى لها دورٌ، وعالم الجزئيات لا يُسْبر له غَورٌ، وحَورُ[5] المعادِ في بعض الفروض لا يكون له كَورٌ[6]، ويا شَرَّ ما أصبحتم في المعاد الأول تعتقدونه، أن جعلتم التصرّف في عالم الملك لمن دونه، قفوا مكانكم، ولوموا أنفسكم ودعوا شأنكم.

وكان في أخرى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿ٱرْجِعُوا وَراءَكُمْ فالْتَمِسُوا نُورًا ﴾[7] أساطينَ الحكمة المشرقية، وفَرَاش الأنوار الحقيقية، دعونا من استكثار الأنوار، واحتشاد الأطوار، الحقُّ نورُ إرشادٍ لا يطيقُ حُسْنَ ذاته، إلاَّ من ركب ظهر شَتَّاته، فارفعوا الكلف، واذكروا مجرى من تقدّم وسلف.

وكان في أخرى: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿قُلِ اللَّهُ، ثمَّ ذَرْهُمْ في خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴾[8] لَمْ تتركوا البراهين على أصلها، ولا ناسبتم جنسَ هذه الموضوعات بفصلها، وآثرتم شَغَبًا طويلاً، وأوسعتم المُتَشَابه تأويلاً، ولم تعتمدوا من العقل دليلاً، ولا وقفتم في مجازات العقول قليلاً، وهَوَّلْتم باصطلاح غيركم تهويلاً، وادّعيتم الشهود ولم يجعل اللَّه

---

(١) سورة هود ١١، الآية ٩٥.
(٢) في أصول النفح: «ما عملت» والتصحيح عن القرآن الكريم.
(٣) سورة آل عمران ٣، الآية ٢٥.
(٤) سورة الشورى ٤٢، الآية ٥١.
(٥) الحَوْرُ: النقصان. لسان العرب (حور).
(٦) الكَوْرُ: التمام. لسان العرب (كور).
(٧) سورة الحديد ٥٧، الآية ١٣.
(٨) سورة الأنعام ٦، الآية ٩١.

تعالى في الاحتجاج به إلاَّ للأنبياء سبيلاً، وبنيتم الحقائق على قياسٍ ونظر، من غير عين للعقل والنقل ولا أثر: [الخفيف]

رُبَّ خِلٍّ أدار فيَّ اعتقادًا لم أكنْ قبله عَرَفْتُ بِفَنِّهْ
حكمتْ نفسُهُ على علم غيبي جعلَ اللّه باطني عند ظَنِّهْ

وعسى أن تكونوا مِمَّنْ أخطأ في اجتهاده فأُثيب، واستغفر فسمع ﴿لا تَثْرِيبَ ﴾[1]، فثمرتكم صحيحة، والمقاصد من التبعة مريحة، إذا كانت صريحة، ولولا الافتيات، لوضحت في ميدان السبق لكم الشِّيات، لكنْ شأنكم الهذيان، وقُلبت منكم بضعفائكم من المتأخرين الأعيان، كابن قسيّ[2] وابن بَرَّجان[3]، فتبرّأوا من أتباعكم المُطيفة، وأحزابكم المخيفة، وأخلصوا فعلَ الأنصار يوم قتال بني حنيفة، وحبّذا الحكم المقتدي، ومن يهدِ اللّه فهو المهتدي، واكْبَحُوا الألسنَ عن طلاقتها وذَلاّقتها، ولا تكلّفوا العقولَ فوق طاقتها، فلا بُدَّ من توقيف وتسليم، وفوق كل ذي علم عليم، وإذا محيتم فأثبتوا، أو نطق الناس[4] فاسكتوا، ولا ترضوا أن تُكبَتُوا مع الذين كُبِتُوا، ولكم الحظّ السني، والوصل الهني.

وكان في أخرى: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم ﴿وما خَلَقْنا السماءَ والأرضَ وما بَيْنَهُما لاعبينَ ﴾[5]، ﴿ما خَلَقْناهُما إلاَّ بالحقِّ ﴾[6] ذهب بوجودكم العدم، وابتلع حدوثكم القدم، ورضيتم بالإشراف، في الاستشراف، والتوغُّلُ لَزِيمُ الانحراف، من جعل الحسَّ وَهْمًا، فقد كابر العيان ظلمًا، والعقل الذي غلّطكم هو آلةُ حكمكم، وأداة علمكم، والعوالم أوثق من أن تكون تمويهَ راقش، والوجودُ المطلقُ أبسطُ من أن يصير أبا بَراقِش،[7]

---

(١) سورة يوسف ١٢، الآية ٩٢.

(٢) هو أبو القاسم بن قسي، مدّعي الهداية، ثار في أعقاب دولة المرابطين، وسميت ثورته بثورة المريدين. كان شيخًا من مشايخ الصوفية، وله كتاب «خلع النّعلين» وغيره. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٤٨ ـ ٢٤٩).

(٣) هو أبو الحكم بن برّجان، شيخ من شيوخ المتصوفة بالأندلس. توفي بمراكش سنة ٥٣٧ هـ. أعمال الأعلام (القسم الثاني ص ٢٤٩).

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٠٥): «الإنسان».

(٥) سورة الأنبياء ٢١، الآية ١٦.

(٦) سورة الدخان ٤٤، الآية ٣٩.

(٧) أبو براقش: طائر صغير يتغيّر لونه ألوانًا شتّى إذا هُيّج حتى قيل لكلّ متلوّن ذي وجهين: أحول من أبي =

ثم ما لكم والتبجّجَ والتشبُّعَ[1]، والتعقّب والتتبّع، ولم يغن العراك، ووقع في ثمرتكم الاشتراك، فالفيلسوف يتّحد بالعلّة القريبة من الخلق، ثم يتلاشى في ذات الحقّ، والحكيم يَجُوز إلى عين الحقّ رتبة الفناء المطلق، والمتشرّع قد عضده ونصره، «كنت سَمْعَه وبَصَره»[2]، وإن كان معظم القول الهذر، ففيكم بَعْدُ نظر.

وكان في أخرى: أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم ﴿والذين جاهَدُوا فينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا، وإنَّ اللَّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ ﴾[3] أنتم الأحباب، ولكم يُفتح من الجِنان الأبواب، ركبتم ظهور الأعمال، وركب غيرُكم ظهورَ الآمال، وفزتم بِسَحْب الأذيال[4]، ومَنْ دونكم يحرك[5] مناكب الخيال، فبِدايتكم الأساس الوثيق، الذي يبنى عليه التحقيق، ونهايتكم إليها ينتهي الطريق، وبها يحطّ فريق اللّه تعالى ونعم الفريق، أولكم المقرب المدرَّب، وأوسطكم الفرد المعرب، وآخركم الولي المقرب، حضرتم بذكر محبوبكم حتى غبتم، فهنيئًا لكم طبتم، حواسُّ مسدودة، وخيوط أفكار كلّها ممدودة، ومشاهد مشهودة، ومغلطات تتجاوز حُرّاسها، وقواطع معترضة بحلّ مِرَاسها، إلى أن لا توجد تَقِيَّة، ولا تبقى بقيّة، عند تجلي المعالم الخفيّة؛ لو اشتمل العلم على عملكم، لكان الكلُّ من هملكم، بحيث تتعيّن المراتب وتتميّز، وتتفرق[6] المشارب وتتحيّز، فلا يعترض قاطع إلاّ وقد علم شانه، وتعين وقته ومكانه، ولا تمثل غاية إلاّ ودرجها محدودة، ومراحلها معدودة، ومشاهدها قبل دخول الطريق مشهودة، فهناك تُطْوَى المراحل، ويلوح في اللَّمحة القريبة الساحل، ويأمن طولَ الطريق الواصل.

= براقش، وهو بذلك يكون رمزًا للتلوّن، ومنه قول الشاعر: [مجزوء الكامل]

كـأبـي بـراقـشَ كـلَّ يـو م لـونُـهُ يـتـقـلَّـبُ

محيط المحيط (برقش).

(١) المُتَشَبِّعُ: المتزيّن بأكثر ممّا عنده يتكثّر بذلك ويتزيّن به باطلاً. محيط المحيط (شبع).

(٢) هو جزء من الحديث الشريف: «ما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أُحِبّه، فإذا أحببته كنت سَمْعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به». طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣١، حاشية ١).

(٣) سورة العنكبوت ٢٩، الآية ٦٩.

(٤) سحب الأذيال: كناية عن الخيلاء؛ يقال: جاء فلانٌ يسحب ذيله: أي مشى متبخترًا. محيط المحيط (سحب).

(٥) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٠٦): «يحوك عناكب..».

(٦) في الطبعة نفسها: «وتتقرّر».

وكان في رقعة المحبين الذين قربوا قبل هذا اليوم وأُدخلوا، من بعد ما تخيّروا للاصطفاء وانتخلوا: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ﴿إنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ ونُوحًا وآلَ إبراهيمَ وآلَ عِمْرانَ على العالمينَ، ذُرِّيَّةً بَعْضُها مِنْ بَعْضٍ، واللَّهُ سميعٌ عليمٌ ﴾[1] أنتم الأحباب، ولباب اللُّبَاب[2]، وبواسطتكم اتصلت بين النفوس وبين الحقّ الأسباب، لولاكم لم يُفْتح الباب، فلا يصل إلاّ مَنْ أوصلتم، ولا يُحجب إلاّ من قطعتم وفصلتم، أنتم الرعاة والخلق الهمل، وأنتم الدعاة لمن يريد نَيْلَ الأمل، مُهّدت لكم سُرُرُ القرب تمهيدًا، وبُعثتم إلى الناس ليوحّدوا اللّه توحيدًا و﴿لِتَكُونُوا شُهداءَ على الناسِ ويكونَ الرسولُ عليكُمْ شهيدًا﴾[3] فطوبىٰ لمن أصاخ منكم إلى نِدَا، واستضاء بنور هُدَى، صلواتُ اللّه عليكم أبدا، أنتم أُولو الأولوية المعقودة، والعساكر المحشورة المحشودة، ورؤساء أهل المحبّة، وأدِلاَّء مبتغي الوسيلة والقُرْبة، ومسالككم قد بَيَّنَتْها الصحفُ المُنْزلة، والملائكة المرسلة، ودخلت على العَذَارى خُدورها، وعمت السماء بدورها، وأغنت عن تقرير نحلها المكاتبُ المائجة بالصبيان[4]، والسنن المعقودة لها حلق التبيان، والقواعد المفترضة على الأعيان، والخزائن المرصوصة بعلوم الأديان ﴿اليومَ أكْمَلْتُ[5] لَكُمْ دِينَكُمْ، وأَتْمَمْتُ عليكُمْ نِعْمتي، ورَضِيتُ لكُمُ الإسلامَ دينًا ﴾[6] وقيل لأتباعهم من الجمهور، وأقطاب فلَكِهم المشهور: على قدر أتباعكم، مناقل أبواعكم، وبحسب اقتدائكم، يكون سماع ندائكم، والمِهَادُ لمن وَثَره، ﴿فمَنْ[7] يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَهُ ﴾[8]، وتأخيركم في التوقيع هو التقديم، و «ساقي القوم آخرهم شربًا» مَثَلٌ قديم؛ قال المخبر: فرأيت وجوههم قد تهلّلت، ونَوَاسم المسرّات نحوهم قد أقبلت.

ومَنْ سواهم من خالص وزائف، بين راجٍ وخائف، وسمعت أنّ طائفة اسْتُدعيتْ

---

(١) سورة آل عمران ٣، الآيتان ٣٣، ٣٤.
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٠٧): «الألباب، وبوساطتكم».
(٣) سورة البقرة ٢، الآية ١٤٣.
(٤) المائجة بالصبيان: كناية عن كثرة الصبيان المتعلمين فيها.
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٢): «اليوم أتممت».
(٦) سورة المائدة ٥، الآية ٣.
(٧) في أصول النفح: «ومن» والتصويب عن القرآن الكريم.
(٨) سورة الزلزلة ٩٩، الآية ٧.

بحثٌ حفيّ، وأُدخلتْ من باب خفيّ، قيل لهم: هم أصحاب الخبر المكتوم، وأرباب المَقام غير المعلوم، جعلنا اللّٰه تعالى منهم برحمته!: [الوافر]

ولولا الحبُّ ما قَطَعُوا الفيافي ولولا الحبُّ ما قَطَعُوا البِحارا
فَدَعْهُمْ والذي ركبوا إليه وبحثًا عن خلاصك واختبارا
فلا تشغل بحبُّ ديارِ ليلى ولكنْ حبُّ مَنْ سكن الديارا[١]

وقال قبل هذه الخاتمة بعد كلام كثير ما نصُّه: وقد أتينا على ما شرطنا من تقرير ما أمكن من هذه الآراء، وهم ما بين سابق للخيرات ومقتصد وظالم لنفسه، ومع ذلك مُجبّون[٢]، وعلى آثار الحبيب مُكِبُّون، ما كلّ طريقٍ تُوَصِّل، ولا كل تجارة على الربح تحصِّل، ومن العشّاق مهجورٌ ومطرود، وموصول وموعود، ومغبوط ومحسود، ومحروم ومَجْدود[٣]، ومرحوم ومردود: [الكامل]

يا غايتي، ولكلُّ شيءٍ غايةٌ، والحبُّ فيه تأخُّرٌ وتقدُّمُ
قُلْ لي بأيّ وسيلةٍ يحظى بما يرجوه غيري من رضاكَ وأُحْرَمُ

ورقة: ولكلّ دائرةٌ مفروضةٌ، وهالةٌ حولَ قَمَرِ الحقّ معروضةٌ، تعود الخطوط من محيطها المُسَدَّد، إلى مركزها المحدّد، فالفيلسوف يروم التشبّث بالعلّة الأولى، ويعني بها ذات الحقّ، أو أن يتّحد بالثانية، وهي مرآة وجه الحقّ، والإشراقيُّ يروم التَّجَوْهُر بنور الأنوار المعبّر عنه بالحقّ، والاتّصالَ به إمّا بواسطة من الحقّ أو بغير واسطة من الحقّ؛ والحكيم أن يؤديه فكره إلى الحقّ، ثم يَفْنَى في الحقّ، ثم يبقى بالحقّ، والمتشرِّع أن يُجَنَّ في جنة الحقّ[٤]، ويحصل على جوار الحقّ، وينظر إلى جوار الحقّ؛ وصاحبُ الوَحْدة المطلقة أن يكون المتفرّق عين الحقّ، فسبحان الحقّ، المعبود بالحقّ، الموجد الجمعَ في

---

(١) أخذه من قول الشاعر: [الوافر]

وما حُبُّ الديارِ شَغَفْنَ قلبي ولكنْ حبّ مَنْ سَكَنَ الديارا

طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٠٨، حاشية ١).

(٢) في طبعة دار صادر: «مخبّون» بالخاء المعجمة.

(٣) المجدود: صاحب الجَدّ، بفتح الجيم، وهو الحظّ. المحروم: نقيض المجدود. لسان العرب (جدد) و (حرم).

(٤) أن يُجَنَّ في جنة الحق: كناية عن أنه ينبت ويزهر؛ يقال: جنَّ النبت إذا طال والتفَّ. لسان العرب (جنن).

الفَرْق! لا إله إلاّ هو. وزيد في هذا المحض الذي كثر في قربه الدَّغداع[1]، وطال على الرؤوس منه الصُّدَاع، ما تفرد له المقالة المختصرة، والعناية الميسّرة، بحول مَنْ لا حول ولا قوّة إلاّ به. انتهى.

وقال رحمه اللّه تعالى في عدّ ما عدد من فرق الاعتزال ما نصُّه: [الكامل]

الحبُّ[2] حَرَّكهمْ لكلّ جِدالِ ... والحُبُّ أقحمهمْ على الأهوالِ
والحبُّ قاطعَ بينهمْ وأضلّهمْ ... عن نَيلِ ما راموه كلَّ ضلال
والحبُّ أنشأ فيهمُ عصبيةً ... بالقِيلِ أضرم نارها والقالِ

وإنما استكثرنا من ذكرهم عبرة لمن تأمّل حركاتِ هذا الفراش[3] المختلف الآراء عن ذُبَال[4] الحقّ، يبتغون إليه الوَسِيلة، قومٌ بالطاعة، وقوم بالمعصية، وما منهم إلاّ مُدَّعٍ في المحبّة، متهالك، حريص على السعادة بزَعْمه ﴿وجوهٌ يومئذٍ خاشعةٌ، عاملةٌ ناصِبَةٌ﴾[5] مِمَّنْ قصد الحقّ فأخطأه، وأراد الصوابَ فضلَّ عنه، واشتهر بالحكمة بَعْدُ في الملّة الإسلامية جماعةٌ بالمشرق والأندلس، فمن المشارقة: أبو الفرج[6]، ويَعْقُوب الكندي، وحُنَين بن إسحٰق، وثابت بن قرّة، فكان عندهم مباشرتها من حيث الترجمة والمزاولة، إلى أن قال: ومن أهل الأندلس: محمد بن مسعدة السرقسطي، وأحمد بن طاهر الطُّرْطُوشي، ويحيىٰ بن عمران القرطبي، وطُفَيل بن عاصم، وكُلَيْب بن همام البياسي، والحسن بن حرب الداني، وابن مسرّة[7]، ومسلمة المجريطي، وأبو بكر بن الصائغ، وأبو بكر بن

---

(1) الدَّغداع: القصير من الرجال، ويقال: دَغْدَغَ الرجلُ إذا عدا عَدْوًا فيه بطء والتواء. لسان العرب (دعع).
(2) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٤): «والحب».
(3) في الطبعة نفسها: «حرمات هذا الفراش». وهنا يشير إلى أنَّ الفَراش تلقي بنفسها بالنار فتحترق، ومن أمثالهم: «مثل الفراش على المصباح يتحرّ». لسان العرب (فرش).
(4) الذُّبال: جمع ذُبالة وهي كل ما يستضاء به. لسان العرب (ذبل).
(5) سورة الغاشية ٨٨، الآيتان ٢، ٣.
(6) هو أبو الفرج عبد اللّه بن الطيب، فيلسوف عراقي، اعتنى بشرح الكتب القديمة في المنطق والحكمة. وهو من الأطباء المشهورين، توفي سنة ٤٣٥ هـ. عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص ٣٢٣).
(7) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٤): «ميسرة».

طُفَيل، وأبو الوليد بن رُشد، وكل هؤلاء من المتقدّمين والمتأخرين محب عاشق مستهلك، قال الشاعر: [مجزوء الكامل]

وعـلـيَّ أن أسـعـى ولـيـ ـس عـلـيَّ إدراكُ الـنـجـاحِ

* * *

[المتقارب]

حَيَارى يَمِيدُ بِهِمْ شَجْوُهم كأنهمُ ارتَضَعُوا الخندريسا

* * *

[الطويل]

إذا لم يكنْ عَونٌ من اللّه للفتى أتَتْهُ الرزايا من وجوهِ الفوائدِ[1]

﴿ولو شاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ الناسَ أُمّةً واحدةً، ولا يَزالونَ مُخْتَلِفِينَ، إلاّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ولذلك خَلَقَهُمْ، وتَمَّتْ كَلمةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ والناسِ أجمعينَ﴾[2] ﴿فريقًا هَدَى، وفريقًا حَقَّ عليهمُ الضلالة﴾[3] ﴿قُلْ سِيْرُوا في الأرضِ ثُمَّ انْظُرُوا كيف كان عاقِبَةُ المُكَذِّبِينَ﴾[4] ﴿قُلْ فللّهِ الحُجَّةُ البالِغَةُ، فلو شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمعينَ﴾[5] والخلق قد مدّوا أبصارهم وآمالهم، وتحرّكوا طوعًا وكرهًا يَعْشُون إلى نورِ اللّه تعالى، فَمِنْ أعمى أصمّ لا يسمع ولا يبصر، وأعمى فقط يجتزىء عن العيان بالمخبر، وأحْول يُبْصِرُ الشيء شيئين، والواحدَ اثنين، كما قال الشاعر[6]: [الكامل]

أَحْوَى الجفونِ له رَقِيْبٌ أَحْوَلُ الشيءُ في إدراكِهِ شيئانِ

فيلوحُ في عينيَّ منه واحدٌ ويلوحُ في عينيه منه اثنانِ

يا ليته ترك الذي أنا مُبْصِرٌ وَهْوَ الْمُخَيَّرُ في الحبيب الثاني

وضعيف لا يُبْصِرُ مِنْ بعيد، وأجهر لا يُبْصِرُ مِنْ قريب، وأعشى تكثر في عينيه الأشعة، وربما تندر، وزرقاء اليمامة[7]: [مجزوء الكامل]

(١) البيت لأبي فراس الحمداني، وسيرد في هذا الجزء، وروايته في ديوان أبي فراس الحمداني (ص ١٠٤) هي:

إذا كان غير اللّه للمرء عُدّةً أتته الرزايا من وجوه الفوائدِ

(٢) سورة هود ١١، الآيتان ١١٨، ١١٩.

(٣) سورة الأعراف ٧، الآية ٣٠.

(٤) سورة الأنعام ٦، الآية ١١.

(٥) سورة الأنعام ٦، الآية ١٤٩.

(٦) البيتان الأول والثالث في الوافي بالوفيات (ج ٢ ص ١٤٠)، وقد مرّا في الجزء الثاني.

(٧) مرّت هذه الأبيات، ضمن قصيدة من ١٠٣ أبيات في الجزء الأول.

سبحانَ مَنْ قَسَمَ الحُظُوْ ظَ فلا عِتاب ولا مَلامَهْ
أَعْمَى وأَعْشَى، ثم ذو بَصَرٍ، وزَرْقاءُ اليَمامَهْ[1]
لولا استقامَةُ مَنْ هَدَا هُ لَمَا تَبَيَّنَتِ العَلامَهْ
ومُجاوِرُ الغَرَرِ[2] المُخِيـ ـفِ له البِشارَةُ بالسلامَهْ

أقام سبحانه الحُجّة، وفرّق بين الأمر والإرادة، وأعطى الكفاية من القدرة ﴿فمنهُم مُهْتَدٍ، وكثيرٌ منهُمْ فاسِقُونَ﴾[3] اقتصرنا من هذا البحر على نقطة، ومن هذا الوَدْق[4] على قَطْرة: [البسيط]

ومن يَسُدُّ طريقَ العارِضِ الهَطِلِ[5]

* * *

[الكامل]

عَدُّ الحصى والقَطْرِ ليس يُرَامُ

وذكرنا الرسل والأنبياء والأتباع ذكرًا من غير تبويب ولا تعيين، لشياع آرائهم، والعلم بمقاصد مللهم، وأغراض دعواتهم، من توحيد اللّه تعالى وتنزيهه وصفاته وأسمائه، وكيف يُحشر الناسُ ليوم لا ريب فيه ﴿ولِتُجْزَى كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ﴾[6] وتعليم طرق النجاة، وإيضاح سبيل اللّه تعالى، والتحذير من الغفلة عَمَّن إليه الرُّجعى، وله الآخرة والأولى، والتخويف من كلِّ ما يقطع عنه، والترغيب فيما يوصِّل إليه، وشأن الرياضة والتدريج في أحوالها حتى تنتقل من الظواهر إلى البواطن، وتَسْري في الخَلَف من السَّلَف، والندب إلى

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣١٠): «أعشى وأعمى..». وزرقاء اليمامة: امرأة من بني جديس يقال لها حَذامِ، كانت تُبصر الراكبَ من مسيرة ثلاثة أيام، ولذا ضرب بها المثل في حدّة البصر فقيل: أبصرُ من زرقاء اليمامة. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١١٤). وهكذا يتفاوت الإنسان من حيث الإبصار إلى أعمى، وأعشى، ومُبْصر، وحادّ البصر.

(٢) الغَرَرُ: الخطر. لسان العرب (غرر).

(٣) سورة الحديد ٥٧، الآية ٢٦.

(٤) الوَدْقُ: المطر. القاموس المحيط (ودق).

(٥) هو عجز بيت للمتنبي، وصدره هو:

وما ثناكَ ملامُ الناسِ عن كَرَمٍ

ديوان المتنبي (ص ٣٥٤).

(٦) سورة الجاثية ٤٥، الآية ٢٢، وفي طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٦): «التجزى».

الاقتصار على الضرورة والقناعة بالبلاغ، وتبين الرسم فيها، والتعيين لحدودها، قد تضمّنت ذلك كلّه آياتُ اللّه التي تكفّل بحفظها، وسنّة رسوله التي قَيَّضَ مَنَاخل الصدق لتصحيح نقلها، فالمكاتب - والمنّة للّه تعالى - مائجة، والمدارس حافلة، فما لنا والإطالة في الموجود الذائع، والمشهور الشائع: [البسيط]

والشمسُ تكبرُ عن حَلْيٍ وعن حُلَلٍ   فهي الدراريُّ في التقليد بالدررِ

ما أغنى الشمس عن مدح المادح! تحصيلُ الحاصل عَناء ﴿هُوَ الذي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بالهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه، ولو كَرِهَ المُشْرِكُونَ﴾[1].

فلنذكر بعضَ أرباب الآراء من قريب وبعيد، وخلق جديد، على صورة المثال المفروض وليكون كعرض الحبوب الذي تجزىء منه الحَفْنة عن الجَفْنة[2]، والقِرْبة عن القربة[3]، ونقتصر على اليسير لإقامة الترتيب، وإحكام التبويب، وليرى الواقف عليه أننا قد نفضنا الزوايا[4]، ورشفنا الرَّوايا[5]، وامتككنا العظام[6]، واستقصينا النِّظام، حرصًا على نشيدة الحقّ أن تُعقل، وعلى الطباع أن تُنقل، وعلى المرائي الصَّدِية أن تُصقل، وعلى صورة النجاة أن تمقل، ونسأل اللّه تعالى هداية توصل إليه، لا إله إلاَّ هو الرحمن الرحيم؛ انتهى.

وقال رحمه اللّه تعالى فيما قبل هذا الكلام بكلام ما صورته: غصن المحبين، وأصنافهم المرتبين، ويشتمل على مقدمة بيان، وستة أفنان.

فالمقدمة... فنقول: أصناف المحبين والعشّاق كثير، وهَبَاء نَثير، وجَرَاد آثارها نَثير[7]، بحيث يَشُقُّ إحصاؤهم، ولا يتأتى استقصاؤهم[8]: [الطويل]

فقلتُ كما شاءت وشاء لها الهوى: قَتيلُك، قالت: أَيُّهُمْ فَهُمْ كُثْرُ

(١) سورة التوبة ٩، الآية ٣٣.

(٢) الحَفْنة: ملء الكَفَّين. الجَفْنة: أصل الكَرْم. محيط المحيط (حفن) و (جفن). والمراد أن بائع الحبوب يعرض منها نموذجًا مثل ملء الحفنة أو القربة.

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣١٢): «القرية». والقِرْبة: الوطب من اللبن. محيط المحيط (قرب).

(٤) يشير إلى المثل: «كم في الزوايا من خبايا».

(٥) الروايا: جمع راوية وهي قِرْبة الماء. لسان العرب (روى).

(٦) امتكّ العظم: امتصّ ما في داخله. لسان العرب (مكك).

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣١٢): «مثير».

(٨) البيت لأبي فراس الحمداني وهو في ديوانه (ص ١٠).

ثم مَدَّ النفَس بما لا يقتضي المقام الاختصاري ذكره في هذا الموضع.

وقال رحمه الله تعالى في بعض تراجم الروضة، وهي الخاتمة التي تنبه النفوس الصَّبة، على حكم المحبّة ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ﴾[1] بعد كلام ما صورته: فِقَر في معنى هذه الخاتمة فيها حِكَم تنثال، وتجري مجرى الأمثال: المحبة بحرٌ بعيدُ الشطِّ، وخَطٌّ والفناءُ منتهى الخطّ ﴿إنَّا عَرَضْنا الأمانةَ﴾[2] إلخ. المحبة مَهْوَى بعيد، ومَجَال وعد ووعيد، مرجلٌ يغلي[3]، ثم خيال يولي، وليس له حدّ عليه يعوّل. المحبة ظهر لا يركبه، مَنْ يرى الموت فيتنكّبه، ولا يعلوه، مَنْ يأتي إلى وادي الفناء فيسلوه ﴿إنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ﴾[4]. كم قَصَمت المحبة من ظهر؟ وكم سرّ صيرت إلى جَهْر؟ أولها العاقل المشهور، وآخرها الطي المنشور، ثم الموت ثم النشور ﴿وأَشْرَقَتِ الأرضُ بِنُورِ رَبِّها ووُضِعَ الكتابُ﴾[5]. المحبةُ أُنس يستدرج، ثم شوق يُلْجم ويُسْرِج، ثم فناء يزعج، عن الوجود ويخرج[6]: [الطويل]

على قَدْرِ أهل العزم تأتي العزائم

المحبة كاس، كم جردت من كاس؟ وآس، مَنْ شَمَّه لم يجد مِنْ آس: [الطويل]

متى أرتجي يومًا شفائي من الضَّنَى إذا كان من يجني عليَّ طبيبي

تزاحم أنفاس المحبين على خَطَرات الصَّبا، تزاحم الهباء على مطارح شعاع الذَّبَا، فلولا بليلها لالتهبت، وتعليل عليلها لتلك الأرماق لذهبت: [البسيط]

عليلةٌ في حواشي مِرْطها[7] بَلَلٌ يُهْدى لكلِّ عليلٍ منه إبلالُ

---

(١) سورة الأنفال ٨، الآية ٤٢.
(٢) سورة الأحزاب ٣٣، الآية ٧٢.
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٧): «من خلّ يقلى».
(٤) سورة البقرة ٢، الآية ٢٤٩.
(٥) سورة الزُّمَر ٣٩، الآية ٦٩.
(٦) هو صدر بيت لأبي الطيب المتنبي، وعجزه هو:
وتأتي على قَدْرِ الكِرامِ المكارمُ
ديوان المتنبي (ص ٤٠١).
(٧) المِرْط: كساء من صوف أو خزّ يُؤتزر به وربما تلقيه المرأة على رأسها وتتلفّع به. محيط المحيط (مرط).

المحبة رقة، ثم فكرة مسترقة، ثم ذَوْق، يطير به شَوْق، ثم وَجَل لا يبقى معه طَوق، ثم لا تحت ولا فَوق: [الخفيف]

أينما كنتُ لا أُخَلِّفُ رحلاً　　مَنْ رآني فقد رآني ورحلي

الهوى هَوَان، وحِمَام له ألوان، دمع ساجم، ووجد هاجم، وهُيَام لا يبرح، ثم وراءه ما لا يُشْرَح: [السريع]

قال: بمن جُنَّ؟ وهل في الورى　　ما يبعثُ الخَبْلَ سوى حُبِّهِ

من اقتحم بحر الهوى، هَوَى. لا تدخل في بحر الهوى حتى تشاور صبرك، وتجاور قبرك، فإن كنت منّا أو فَرُخ بسلام. الهوى طريق، ولسلوكه فريق. الزاد سرٌّ مكتوم، ووفاء معلوم: [البسيط]

وللميادين أبطالٌ لها خُلقوا　　وللدّواوين حُسَّابٌ وكُتّابُ

الحبُّ حَجٌّ ثان، لا يَثْنِي نَفْسَ المريد عنه ثان، طريقُه التجريد، وزاده الذكر، وطوافه المعرفة، وإفاضته الفناء ﴿ فإذا أَفَضْتُم مِنْ عَرَفَاتٍ فاذْكُرُوا اللَّهَ عند المَشْعَرِ الحَرامِ، واْذكُرُوهُ كما هداكُمْ، وإنْ كنتمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضالِّينَ ﴾[1]. الغرام، صعب المَرَام، والدخول فيه حرام، ما لم يكن فيه شروط كرام. من عرف ما أخذ، هان عليه ما ترك ﴿وربُّكَ يَخْلُقُ ما يشاءُ ويختارُ ﴾[2] ظهر الهوى طريقًا سهلاً، فكثر التائهون جهلاً[3]: [الطويل]

إذا لم يكنْ عونٌ من اللّه للفتى　　أتتـه الرزايا مـن وجـوهِ الـفـوائـدِ

والعكس[4]: [الكامل]

قد يخبأ المحبوبَ في مكروهها　　مَنْ يخبأ المكروهَ في المحبوبِ

---

(١) سورة البقرة ٢، الآية ١٩٨.

(٢) سورة القصص ٢٨، الآية ٦٨.

(٣) البيت لأبي فراس الحمداني وهو في ديوانه (ص ١٠٤)، وتقدم في هذا الجزء، وأشرنا هناك إلى اختلاف في رواية صدره.

(٤) البيت لابن الخطيب من قصيدة طويلة وردت في الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٩) وستأتي في هذا الجزء من نفح الطيب .

وقال الشيخ[1]: [الطويل]

هو الحبُّ فاسلمْ بالحشا ما الهوى سَهْلُ ... فما اختاره مُضْنًى به وله عَقْلُ
وعِشْ خاليًا فالحبُّ راحتُهُ عَنًا ... وأوّلُه سقمٌ وآخره قَتْلُ
نَصَحْتُكَ علمًا بالهوى والذي أرى ... مخالفتي، اخترْ لنفسك ما يحلو
فَمَنْ لم يمتْ في حبِّه لم يعشْ به ... ودون اجتناء النحلِ ما جَنَتِ النحلُ

طريق القوم مَبْنية على الموت، وإليه الإشارة بقوله: «موتوا قبل أن تموتوا». بيدي لا بيد عَمْرو، وقال بعضهم: رأيت ربَّ العزّة فقلت: يا ربّ؛ بم أصل إليك؟ قال: فارق نفسك وتَعَالَ: [الكامل]

رَفْضُ السُّوَى فرضٌ على العين ... لا تخلطنَّ الحقَّ بالمَيْنِ[2]
والأينُ والكيفُ سوى ظاهرٍ ... فاستغْنِ عن كيفٍ وعن أينِ

الخشب، الذي يُتَّخذ منه النشب، ينقسم إلى أقسام، وأجزاء جسام: القسم الأول: في الحدود والمعرفات، والأسماء الواقعة والصفات.

وللسان الدين رحمه اللّه تعالى في المواعظ اليدُ الطولى؛ قال في الروضة في الفصل الثاني في محركات العزيمة، وهي اليقظة، ما نصُّه: قلت: والمحركات المشتركات في باعث اليقظة كثيرة: منها الوعظ السائق بمقود الشارد عن اللّه تعالى إلى مَرْبط التوبة، ومحرّك العزيمة يُرَدِّد أذانه على نُوّام أهل الكهف، وقد ضرب نومُ الغفلة على آذانهم، حتى يحول بينهم وبين أذانهم، ويركبهم ظهر الرياضة حتى[3] تلحقهم بالمجذوبين من إخوانهم، ولمّا كان حبّ الدنيا هو المانع عن الشروع في إطلاق العمل، والقاطع به بعده لم يجد أُسَاة خبل الهوى وجنون الكسل أنجَعَ من رُقَى[4] العذل والتأنيب، وتقبيح المحبوب، سيما إذا انزعجت نبال نبله عن حنيات ضلوع الصدق، وقال بعضهم: الكلام إذا خرج من القلب دخل القلب: [الخفيف]

أَوْقِدِ النارَ من رسالةِ لَيْلَى ... وأَخْذَرِ السَّيْلَ بعدها من دموعي

(١) الأبيات لابن الفارض وهي في ديوان الصبابة (ص ٢٥).
(٢) فرض العين: واجب على كل مسلم، ونقيضه: فرض كفاية. لسان العرب (فرض). والمين: الكذب. لسان العرب (مين).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣١٥): «التي».
(٤) الرُّقى: جمع رقية وهي العوذة. لسان العرب (رقى).

ولا تعدلِ الوعظَ البليغَ باللسان الفصيح، والقلب القَريح، فإذا رأيت الأرض قد اهتزَّت ورَبَتْ[1]، وهضابَ القُلوب القاسية قد تقلَّبت، فشمِّرْ للغراس والزراع عن الذراع، واغتنم السراع والإسراع: [الوافر]

إذا هَبَّتْ رياحُكَ فاغتنمْها ... فإنَّ لكلِّ خافقة[2] سكونا

* * *

[الكامل]

حَفِّزْ لها ماءً يريها بدأة ... واضمنْ لها حوضًا وإن لم تحفرِ

واربأْ بنفسك عن تسامحِ بائعٍ ... واغنمْ إذا سامتك شهوةَ مشتري

قالوا: الوعظ يضرب وجه النفس عن التثبّط[3] في بساط اللّذّات، وينقل خطواتها[4] عن الخطو في ملعب الخطيئات، ويمثل لها الصبر عِيانًا، ويبين العواقب المحجوبة بيانًا، ويُنْشىء سحاب الحزن في أجواف أجزائها، ويذكرها بمآلها وانتهائها، ويعرض عليها مصارع فَنَائها، وخَرَاب بنائها، وفراق حبائبها وأبنائها، عند نزول هاذم اللّذّات بفِنَائها، فترجع إلى اللّه تعالى بحكم الاضطرار أفكارها، وتخشع من خيفة اللّه تعالى وجلاله أبصارُها.

والوعظ يكون بلسانين، ويوجد فنين: لسان حال، ولسان مقال، وربما كان لسان الحال أبلغ، وهو يُسْمَع مِنَ القبور الموحشة، والقصور الخالية، والعظام البالية، وفيه حكايات وأخبار، ولسان مقال كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وسَكَنْتُمْ في مَساكِنِ الذين ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، وتَبَيَّنَ لَكُمْ كيف فَعَلْنا بِهِمْ، وضَرَبْنا لكمُ الأمثالَ﴾[5] وهو سبيل اللّه تعالى التي بعث بها النبيين، وضمن فصولها الكتاب المبين، والسَّوْط الذي يحمل على الأَوْبَة، ويسوق ذَوْدَ[6] المتطهرين إلى غدير التَّوْبة، ونحن نجعله هَيْنَمَة بين يدي الفراسة، لتزكية النفوس إن صدق حكم الفراسة، فمن ذلك ما صدر عني على لسان واعظ:

---

(١) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿فإذا أَنْزَلْنا عليها الماءَ اهْتَزَّتْ ورَبَتْ﴾. سورة الحج ٢٢، الآية ٥.

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣١٥): «لكلِّ عاصفةٍ».

(٣) التثبّط: التقاعد؛ يقال: ثبطه إذا حمله على القعود والتهاون. لسان العرب (ثبط).

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٤٠): «خطراتها».

(٥) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٤٥.

(٦) الذَّوْدُ: الإبل من ثلاثة إلى عشرة أو عشرين أو ثلاثين. محيط المحيط (ذود).

«الحمد للّه الولي الحميد، المبدئ المعيد، البعيد في قربه من العبيد، القريب في بُعْده فهو أقرب من حبل الوريد[1]، محيي ربوعِ العارفين بتحيّات حياة التوحيد، ومُغني[2] نفوس الزاهدين بكنوز احتقار الافتقار إلى العَرَض الزهيد، ومخلِّص خواطر المحقّقين من سُجُون دُجُون التقييد، إلى فُسَح التجريد، نحمده وله المنتظمة درره في سلوك الدوام وسموط التأبيد، حَمْدَ من نزَّه أحكامَ وحدانيته، وأعلام فردانيته، عن مرابط التقييد، ومخَابط الطَّبْع البليد، ونشكره شكر من افتتح بشكره أبوابَ المزيد، ونشهد أنه اللّه الذي لا إله إلاّ هو شهادة نتخطّى بها معالِمَ الخلق إلى حضرة الحقّ على كَبِدِ التفريد، ونشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله قلادة الجيد المجيد، وهلال العيد، وفَذْلَكة الحساب وبيت القصيد، المخصوص بمنشور الإدلال، وإقطاع الكمال، بين مقام المُرَاد ومقام المُرِيد، الذي جعله السبب الأوصل في نجاة الناجي وسعادة السعيد، وخاطَبَ الخلائق على لسانه الصادق بحجتي الوعْدِ والوعيد، فكان مِمّا أوحى به إليه، وأنزل الملك به عليه، من الذكر الحميد، ليأخذ بالحُجَزِ والأطواق من العذاب الشديد ﴿ولقد خَلَقْنا الإنسانَ ونَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ به نَفْسُهُ، ونحنُ أقربُ إليه من حَبْلِ الوَرِيدِ﴾[3] إلى قوله ﴿حديد﴾[4] صلّى اللّه عليه وعلى آله صلاةً تقومُ ببعض حقّه الأكيد، وتَسْرِي إلى تربته الزكية من ظهور المواجِدِ الجائية على البريد[5]: [الطويل]

قعدتُ لتذكيرٍ ولو كنتُ منصفًا ... لَذَكَّرْتُ نفسي فهي أحوجُ للذكرى
إذا لم يكنْ مني لنفسيَ واعظٌ ... فيا ليتَ شعري كيف أفعلُ في الأخرى

آه! أيُّ وعظ بعد وعظِ اللّه تعالى يا أحبابنا يُسْمَع؟ وفي ماذا وقد تبيّن الرشد من الغيّ يطمع؟ يا من يُعْطِي ويَمْنَع، إذ لم تقم الصنيعة فماذا نصنع؟ اجْمَعْنَا بقلوبنا يا من يفرِّق ويجمع، ولَيِّنْ حديدَها بنار خشيتك فقد استعاذ نبيّك ﷺ من قلب لا يخشع، ومن عينٍ لا تدمع، اعلموا ـ رحمكم اللّه! ـ أنَّ الحكمة ضالة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال، ومن

---

(١) حبل الوريد: عرق في العنق. محيط المحيط (ورد).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٤١): «ومغني».

(٣) سورة ق ٥٠، الآية ١٦.

(٤) سورة ق ٥٠، الآية ٢٢.

(٥) أي مواجد المشتاقين إلى رؤية قبر النبي الكريم ﷺ.

الجماد والحيوان، وما أملاه المَلَوان[١]، فإنّ الحقّ نور لا يضره أن يصدرَ[٢] من الخامل، ولا يقصر بمحموله احتقارُ الحامل، وأنتم تَدْرُونَ أنكم في أطوار سفر لا تستقرّ لها دون الغاية رِحْلَة، ولا تتأتّى معها إقامة ولا مُهْلة، من الأصلاب، إلى الأرحام، إلى الوجود، إلى القبور، إلى النشور[٣]، إلى إحدى داري البقاء، أفي اللّه شكّ؟ فلو أبصرتُم مُسَافرًا في البرية يبني ويفرش، ويمهّد ويعرش، ألم تكونوا تضحكون من جهله، وتَعْجَبُون من ركاكة عقله؟ ووالله ما أموالُكم ولا أولادُكم وشواغلُكم عن اللّه التي فيها اجتهادكم إلاّ بقاء سَفْر في قَفْر، أو إعراس في ليلة نَفْر[٤]، كأنكم بها مَطْرَحة تعبر فيها المواشي، وتنبو العيون عن خبرها المتلاشي ﴿أنما أموالُكُمْ وأولادُكُمْ فِتْنَةٌ وأنَّ اللّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عظيمٌ ﴾[٥] ما بعد المقيل إلاّ الرحيل، ولا بعد الرحيل إلاّ المنزل الكريم أو المنزل الوَبيل، وإنكم تستقبلون أهوالاً سكراتُ الموتِ بَوَاكِرُ حسابها، وعَتَبُ أبوابها. فلو كشف الغِطاء عن ذرّة منها لذهلت العقول وطاشت الألباب، وما كل حقيقة يشرحها الكلام ﴿يا أيُّها الناسُ إنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ، فلا تَغرَّنَّكُمُ الحياةُ الدنيا، ولا يَغُرَّنَّكُم باللّهِ الغَرور ﴾[٦] أفلا أعددتم لهذه الوَرْطة حيلة، وأظهرتم للاهتمام بها مَخيلة؟ أتعويلاً على عفوه مع المقاطعة وهو القائل في مقام التهديد ﴿إنَّ عذابي لَشَدِيدٌ ﴾[٧]؟ أأمْنًا من مَكْره مع المنابذة ﴿فلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إلاّ القومُ الخاسرون ﴾[٨]؟ أطَمَعًا في رحمته مع المخالفة وهو يقول ﴿فَسَأَكْتُبُها للذين يَتَّقُونَ ﴾[٩]؟ أمشاقة ومعاندة ﴿ومَنْ يُشاقِّ اللّهَ فإنَّ اللّهَ شديدُ العِقابِ ﴾[١٠]؟أشَكًّا في اللّه؟ فتعالوا نعيد الحساب، ونقرّر العقد ونتّصف بدعوة الحقّ أو غيرها، من اليوم تفقد عقد العقائد عند

---

(١) المَلَوان: الليل والنهار. محيط المحيط (ملا).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٤٢): «صدر».
(٣) النشور: يوم البعث من القبور. لسان العرب (نشر).
(٤) الإعراس: النزول ليلاً. النَّفْرُ: التفرّق، ويوم النَّفْر: اليوم الذي ينفر الحجاج فيه من منى إلى مكة. لسان العرب (عرس) و (نفر).
(٥) سورة الأنفال ٨،الآية ٢٨.وفي أصول النفح: «فتنة واللّهُ».
(٦) سورة فاطر ٣٥، الآية ٥.
(٧) سورة إبراهيم ١٤، الآية ٧.
(٨) سورة الأعراف ٧، الآية ٩٩. وفي طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٤٣): «ولا».
(٩) سورة الأعراف ٧، الآية ١٥٦.
(١٠) سورة الحشر ٥٩، الآية ٤. وفي طبعة عبد الحميد: «ومن يشاقق».

التساهل بالوعيد، فالعامي يدمي الأصبع الوجِعة، والعارف يضمد لها مبدأ العصب: [الخفيف]

هكذا هكذا يكون التعامي   هكذا هكذا يكون الغرورُ

﴿يا حَسْرَةً على العِبادِ، ما يأتيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إلاّ كانوا به يَسْتَهْزِئونَ ﴾[1] وما عدا، عَمّا بَدَا[2]؟ ورسولكم الحريص عليكم الرؤوف الرحيم يقول لكم «الكَيِّس مَنْ دانَ نَفْسَه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على اللّه الأماني» فعلام بعد هذا المعوّل؟ وماذا يتأوّل؟ اتقوا اللّه سبحانه في نفوسكم وانصحوها، واغتنموا فُرَصَ الحياة وارْبَحُوها ﴿أنْ تقولَ نَفْسٌ يا حَسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جَنْبِ اللّهِ، وإن كنتُ لَمِنَ الساخِرِينَ ﴾[3] وتنادي أخرى ﴿هلْ إلى مَرَدّ مِنْ سَبِيلٍ ﴾[4] وتستغيث أخرى: يا ليْتنا ﴿نُرَدُّ فنعملَ غيرَ الذي كُنّا نَعْمَلُ ﴾[5]، وتقول أخرى ﴿رَبِّ ارْجِعُونِ ﴾[6] فرحم اللّه مَنْ نظر لنفسه، قبل غُرُوب شمسه، وقَدَّم لغده من أمسه، وعلم أنّ الحياة تجرُّ إلى الموت، والغفلة تقود إلى القوت، والصحة مَرْكب الألم، والشبيبة سفينة تقطع إلى ساحل الهَرَم.

وإن شاء قال بعد الخطبة: إخواني، ما هذا التواني، والكلف بالوجود الفاني عن الدائم الباقي والدهر يقطع الأماني، وهاذم اللّذّات قد شرع في نقض المباني؟ ألا معتبر في عالم هذه المعاني؟ ألا مرتحل عن مغابن هذه المغاني؟: [الطويل]

ألا أُذُنٌ تُصْغِي إليَّ سميعةٌ   أُحَدِّثُها بالصدق ما صنع الموتُ
مَدَدْتُ لكم صوتي فأوّاه حسرة   على ما بدا منكم فلم يسمع الصوتُ
هو القدرُ الآتي على كلّ أمّة   فتوبوا سراعًا قبل أن يقع الفوتُ

---

(1) سورة يس ٣٦، الآية ٣٠.
(2) أخذه من المثل: «ما عَدَا مِمّا بدا» أي ما مَنَعَك مما ظهر لك أولاً. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٩٦).
(3) سورة الزّمر ٣٩، الآية ٥٦.
(4) سورة الشورى ٤٢، الآية ٤٤.
(5) سورة الأعراف ٧، الآية ٥٣.
(6) سورة المؤمنون ٢٣، الآية ٩٩.

يا كلفًا بما لا يدوم، يا مَفْتُونًا بغرور الوجود المعدوم، يا صريعَ جدار الأجل المهدوم، يا مشتغلاً ببنيان الطرق قد ظهر المُنَاخ وقَرُبَ القُدُوم، يا غريقًا في بحار الأمل ما عساك تعوم، يا معلِّل الطعام والشراب ولمع السراب، لا بُدَّ أن تهجر المشروب وتترك المطعوم. دخل سارق الأجل بيت عمرك فسلب النشاط وأنت تنظر، وطوى البساط وأنت تكرب، واقتلع جواهر الجوارح وقد وقع بك النهب، ولم يبق إلاً أن يجعل الوسادة على أنفك ويقعد: [المجتث]

لـو خَـفَّـفَ الـوَجْـدُ عـنـي   دعــوتُ طـــالـــبَ ثـــاري

﴿كلاَّ إنها كلمةٌ هو قائلُها﴾[1] كيف التراخي والفَوْت مع الأنفاس ينتظر؟ كيف الأمان وهاجم الموت لا يبقي ولا يَذَر؟ كيف الركون إلى الطمع الفاضح وقد صحَّ الخبر؟ مَنْ فكّر في كرب الخُمار[2] تنغّصت عنده لذة النبيذ، مَنْ أَحَسَّ بلغَطِ الحريق فوق جداره لم يُصْغِ بصوته لنغمة العود، مَنْ تيقّن بذلّ العزلة هان عليه ترك الولاية: [الكامل]

ما قامَ خيرك يا زمانُ بشرِّه   أولى لنا ما قَلَّ منك وما كفى

أوحى اللّه سبحانه إلى موسى صلوات اللّه وسلامه عليه أن ضع يدك على مَتْن ثور، فبعدد ما حاذته من شعره تعيش سنين، فقال: يا ربّ، وبعد[3] ذلك؟ قال تموت، قال: يا ربّ فالآن: [المتقارب]

رأى الأمرَ يُفْضِي إلى آخر   فَـــصَـــيَّـــرَ آخـــره أوّلا

إذا شعرت نفسُك بالميل إلى شيء فاعرض عليها غصّة فراقه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيّنَةٍ ويَحْيَا من حَيَّ عن بَيّنَةٍ﴾[4] فالمفروح به هو المحزون عليه، أين الأحباب؟ مَرُّوا، فيا ليت شعري أين استقرُّوا؟ استكانوا واللّه واضطرّوا، واستغاثوا [مَنْ سبقك][5] بأوليائهم ففرّوا، وليتهم إذ لم ينفعوا ما ضرّوا، فالمنازل من بعدهم خالية خاوية، والعروش ذابلة

---

(١) سورة المؤمنون ٢٣، الآية ١٠٠.

(٢) الخُمار، بضم الخاء: ما يصيب شارب الخمر من الدوار. لسان العرب (خمر).

(٣) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٢٠): «وما بعد ذلك».

(٤) سورة الأنفال ٨، الآية ٤٢.

(٥) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٢٠).

ذاوية، والعظام من بعد التفاضُلِ متشابهة متساوية، والمساكن تندب في أطلالها الذئابُ العاوية: [المديد]

صِحْتُ بالرَّبْعِ فلم يستجيبوا	ليت شعري أين يمضي الغريبُ
وبجنبِ الدارِ قبرٌ جديدٌ	منه يستسقي المكانُ الجديبُ
غاض[1] قلبي فيه عند التماحي	قلتُ هذا القبرُ فيه الحبيب
لا تَسَلْ عن رجعتي كيف كانت	إنَّ يومَ البينِ يومٌ عصيب
باقترابِ الموتِ عَلَّلْتُ نفسي	بعد إلفي كلُّ آتٍ قريب

أين المعمّر الخالد؟ أين الولد أين الوالد؟ أين الطارف أين التالد؟ أين المجادل أين المجالد؟ ﴿هل تُحِسُّ مِنهُمْ مِنْ أَحَدٍ أو تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾[2] وُجُوهٌ علاهنّ الثرى، وصحائف تُفض، وأعمال على اللّه تُعرض. بحث الزهاد والعباد، والعارفون والأوتاد، والأنبياء الذين يُهْدَى بهم العباد، عن سبب الشقاء الذي لا سَعَادة بعده، فلم يجدوا إلاّ البعد عن اللّه تعالى، وسببه حُبُّ الدنيا «لن تجتمع أمتي على ضلالة»: [الوافر]

هَجَرْتُ حبائبي من أجلِ ليلى	فما لي بعد ليلى من حبيبِ
وماذا أرتجي من وصل ليلى[3]	سَتَجْزي بالقطيعة عن قريبِ

وقالوا: ما أورد النفسَ الموارد، وفتح عليها باب الحتف، إلاّ الأمل، كلّما قوّمتها مثاقفُ الحدود فَتَحَ لها أركانَ الرخص، كلّما عقدت صَوْمَ العزيمة أهداها طُرَفَ الغرور في أطباق: حتى، وإذا، ولكن، وربما، فأفرط القلب في تقليبها حتى أفطر: [الرجز]

ما أَوْبَقَ الأنفسَ إلاّ الأَمَلُ	وهو غرورٌ ما عليه عَمَلُ
يفرضُ منه الشخص وَهْمًا ما له	حالٌ ولا ماضٍ ولا مستقبلُ
ما فوق وَجْهِ الأرضِ نفسٌ حيّةٌ	إلاّ قد انقضَّ عليها الأجلُ
لو أنهمْ من غيرها قد كوّنوا	لامتلأ السهلُ بهمْ والجبلُ
ما ثم إلاّ لُقَمٌ قد هُيِّئتْ[4]	للموتِ، وهو الآكلُ المستعجل

---

(١) غاض: غار؛ يقال: غاض الماءُ إذا نقص ونضب. لسان العرب (غيض).

(٢) سورة مريم ١٩، الآية ٩٨.

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٤٥): «ليلٍ».

(٤) في طبعة عبد الحميد (ص ٤٦): «هيأت».

والوعدُ حَقٌّ والورى في غفلةٍ قد خودعوا بعاجلٍ وضُلّلوا
أين الذين شيّدوا واغترسوا ومهّدوا وافترشوا وظلّلوا
أين ذوو الراحات زادتْ حسرةً إذ جُنِّبُوا إلى الثرى وانتقلوا
لم تدفعِ الأحبابُ عنهمْ غيرَ أنْ بَكوا على فراقهم وأعْوَلُوا
اللّهَ في نفسك أولى مَنْ له ذَخَرْتَ نصحًا وعتابًا يقبلُ
لا تتركنها في عَمًى وحَيْرَةٍ عن هولٍ ما بين يديها تَغْفلُ
حَقِّرْ لها الفاني وحاول زُهْدَها وشَوْقَها إلى الذي تستقبل
وقِدْ إلى اللّه بها مُضطَرَّةً حتى ترى السيرَ عليها يسهُلُ
هو الفناءُ والبقاءُ بعده واللّهُ عن حكمته لا يُسْألُ
يا قُرَّةَ العينِ ويا حَسْرَتَها يومَ يُوَفَّى الناسُ ما قد عملوا

يا طرداء[1] المخالفة، إنكم مُدْرَكون فاستبِقوا باب التوبة، فإنَّ ربَّ تلك الدار يجير ولا يجار عليه، فإذا أمنتم فاذكروا اللّه كما هداكم، يا طُفَيْلِيَّة الهمّة، دُسُّوا أنفسكم بِزُمر التائبين، وقد دُعُوا إلى اللّه دعوة الحبيب، فإن لم يكن أكل فلا أقلّ من طيب الوليمة، قال بعض العارفين: إذا عقد التائبون الصلح مع اللّه تعالى انتشرت رعايا الطاعة في عمالة الأعمال ﴿وأَشْرَقَتِ الأرضُ بِنُورِ رَبِّها ووُضِعَ الكتابُ ﴾[2]. معاني هذا المجلس واللّه نسيم سحر، إذا استنشقه مخمور الغفلة أفاق، سَعُوطُ[3] هذا الوعظ ينغّص[4] إن شاء اللّه زَكمة[5] البطالة، إنّ الذي أنزل الداء أنزل الدواء، إكسير هذا الكتاب يقلّب[6] بحكمة جابرِ القلوبِ المنكسرة عَيْنَ مَنْ كان له قلب ﴿إنما يَسْتجيبُ الذين يَسمَعُونَ، والمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللّهُ ﴾[7] إلٰهي دلّنا من حيرة يضلّ فيها ـ إلاّ إن هديتَ ـ الدليلُ، وأجزْنا من غمرة وكيف إلاّ بإعانتك

---

(١) في الطبعة نفسها: «يا طرد».
(٢) سورة الزُّمَر ٣٩، الآية ٦٩.
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٤٧): «سوط». والسُّعُوط: الدواء الذي يُصَبُّ في الأنف. محيط المحيط (سعط).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «يبغض».
(٥) الزُّكمة: انسداد مسالك المنخرين. لسان العرب (زكم).
(٦) في طبعة عبد الحميد: «يلقّب».
(٧) سورة الأنعام ٦، الآية ٣٦.

السبيل؟ نفوس صدىء على مَرّ الأزمان منها الصَّقيل، ونبا بجنوبها عن الحقّ المقيل، وآذان أنهضها القول الثقيل، وعثرات لا يقيلها إلاَّ أنت يا مقيل العثرات يا مقيل، أنت حسبنا ونعم الوكيل؛ انتهى.

ومن مواعظ لسان الدين رحمه اللّٰه سبحانه ما أورده في الروضة إثر ما سبق، إذ قال: إخواني صَمَّت الآذان والنداء جهير، وكذب العيان والمشار إليه شَهير، أين الملك وأين الظهير؟ أين الخاصة أين الجماهير؟ أين القَبيل والعَشير؟ أين كسرى بن أردشير؟ صدق واللّٰه الناعي وكذب البشير! وغُشَّ المستشار واتُّهم المشير، وسُئل عن الكلّ فأشار إلى التراب المُشِير: [الكامل]

خُذْ من حياتك للمَمَات الآتي	وبَدَارِ[1] ما دامَ الزمانُ مُوَاتِي
لا تغترِرْ فهو السرابُ بِقيعةٍ	قد خودعَ الماضي به والآتي
يا مَنْ يُؤمِّلُ واعظًا ومذكّرًا	يومًا لِيُوقِظَهُ مِنَ الغَفَلات
هلاَّ اعتبرتَ ويا لها من عِبْرَةٍ	بمَدافنِ الآباءِ والأمّات
قِفْ بالبقيع ونادِ في عَرَصاته	فلكمْ به من جيرةٍ ولِدَاتِ
دَرَجُوا ولستَ بخالدٍ من بعدهم	متميِّزٍ عنهم بوصفِ حياةِ
واللّٰهِ ما استهلَلْتَ حَيًّا صارخًا	إلاَّ وأنتَ تُعَدُّ في الأموات
لا فَوْتَ عن دَرَكِ الحِمام لهاربٍ	والناسُ صَرْعَى مَعْرَكِ الآفات
كيف الحياةُ لدارجٍ متكلِّفٍ	سِنَةَ الكرى بمدارجِ الحيَّاتِ
أسَفًا علينا معشرَ الأموات لا	ننفكُّ عن شُغُلٍ بهاكَ وهات
ويغرّنا لمعُ السَّراب فنغتدي	في غَفْلةٍ عن هاذمِ اللّذّات
واللّٰهِ ما نَصَحَ امرءًا مَنْ غشَّه	والحقُّ ليس بخافتِ المشكاةِ

يا من غدا وراح، وألف المراح[2]، يا من شرب الراح، ممزوجة بالعذب القراح[3]، وقعد لعيان صروف الزمان مقعد الاقتراح، كأنك واللّٰه باختلاف الرياح، وسماع الصياح، وهجوم غارة الاجتياح، فأُديل الخفوت من الارتياح، ونُسيت أصوات الغناء برنَّات الرياح،

---

(١) بَدارِ: اسم فعل أمر بمعنى بادِرْ، أي أَسْرِعْ.

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٤٨): «الراح».

(٣) القَراح، بالفتح: الذي لا يشوبه شيء. والعذب القراح: الماء الصافي. مختار الصحاح (قرح).

وعوضت عُرَرُ النُّوَب القباح، من غُرر الوجوه الصِّباح، وتناولت الجسومَ الناعمةَ أيدي الاطِّراح، وتُنوسيت العهود الكريمة بمرّ المساء عليها والصباح، وأصبحت كُمَاة النطاح، من تحت البطاح، وخملت المهنّدة والرماح، ذليلة من بعد الجماح: [الطويل]

ولو كان هَوْلُ الموتِ لا شيءَ بعده ... لهان علينا الأمرُ واحْتُقِرَ الهولُ
ولكنه حَشْرٌ ونَشْرٌ وجَنَّةٌ ... ونارٌ، وما لا يستقلُّ به القولُ

يا مشتغلاً بداره، ورَمِّ جداره، عن إسراعه إلى النجاة وبِداره، يا من صاح بإنذاره شَيْبُ عِذاره، يا من طَرَف[1] عينَ اعتذارهِ بأقذاره، يا من قطعه بُعْدُ مزاره وثِقَلُ أوزاره، يا معتلقًا[2] ينتظر هجوم جَزَّاره، يا مختلسًا للأمانة يرتقبُ مفتش ما تحت إزاره، يا من أمعن في خمر الهوى خَفَّ من إسكاره، يا من خالف مولى رِقِّهِ تَوَقَّ من إنكاره، يا كلفًا بعاريةٍ تُرَدُّ، يا مفتونًا بأنفاس تُعَدُّ، يا معوّلاً على الإقامة والرحال تشدُّ، كأني بك وقد أُوثق الشَّدُّ، وأُلصق بالوسادة الخَدُّ، والرِّجْلُ تُقْبَضُ والأخرى تُمَدُّ، واللسان يقول ﴿يا ليتنا نُرَدُّ﴾[3]: [السريع]

إنَّا إلى اللَّه وإنَّا له ... ما أشغلَ الإنسانَ عن شانِهِ
يرتاحُ للأثواب يُزْهَى بها ... والخيطُ مغزولٌ لأكفانِهِ
ويخزنُ الفلسَ لِوُرَّاثِهِ ... مُستنفدًا مبلغَ أكوانه
قوّضْ عن الفاني رِحَالَ امرئٍ ... مدَّ إليه عينَ عرفانه
ما ثَمَّ إلاَّ مُوَقَّفٌ زاهدٌ ... قد وكّل العدلُ بميزانه
مُفَرِّطٌ يَشْقَى بتفريطه ... ومحسنٌ يُجْزَى بإحسانه

يا هذا، خفي عليك مَرَضُ اعتقادك فالتبس الشحمُ بالوَرَم، جهلت قِيَم المعادن فبِعْتَ الشَّبَه بالذهب، فَسَدَ حِسُّ ذوقك فتفكهت بحنظله، أين حرصك من أجلك؟ أين قولك من عملك؟ يدركك الحياء من الطفل فتتحامى حمى الفاحشة في البيت بسببه، ثم تُواقعها بعين خالق العين، ومُقَدر الكيف والأين، تاللّه ما فَعَل فعلك بمعبوده، مَنْ قطع بوُجُوده ﴿ما

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «صرف».
(٢) في الطبعة نفسها: «مُعْتلقًا».
(٣) سورة الأنعام ٦، الآية ٢٧.

يكونُ من نَجوَى ثلاثةٍ . إلى عليم ﴾[1] تعود عليك مَساعي الجوارح التي سخّرها لك بالقناطير المقنطرة من الذهب والفِضّة، فتبخل منها في سبيله بِفَلْس، وأحَدُ الأمرين لازم: إمّا التكذيب، وإمّا الحماقة، وجمعك بين الحالتين عجيب، يرزقك السنين العديدة من غير حقّ وَجَبَ لك، وتسيء الظنّ به في يوم؛ توجب الحقّ، وتعتذر بالغفلة، فما بال التمادي؟ تعترف بالذنب فما الحجّة في الإصرار؟ ﴿والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بإذنِ رَبِّهِ، والذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلاّ نَكِدًا ﴾[2] يا مدّعي النسيان، ماذا فعلتَ بعد التذكير؟ يا معتذرًا بالغفلة، أين ثمرة التنبيه؟ يا مَنْ قطع بالرحيل، أين الزاد؟ يا ذُبَابة الحرص، كم ذا تلجج في ورطة الشهد؟ يا نائمًا ملء عينيه، حَذَارِ الأجَلُ قد أنذر، يا ثَمِلَ الاغترار قَرُبَ خُمَار الندم، تَدّعي الحذق بالصنائع وتجهل هذا القدر، تبذل النصح لغيرك وتغشُّ نفسك هذا الغشّ، انْدَمَلَ جرحُ توبتك على عَظْم، قام بناء عَزْمتك على رمل، نبتت خضراء دَعْوَتك على دِمْنَة[3]، عُقدت كفّك من الحقّ على قَبْضَة ماء ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ له سوءُ عَمَلِهِ فرآه حَسَنًا، فإنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ ويَهْدي مَنْ يشاءُ ﴾[4]، إذا غام جوّ هذا المجلس، وابتدأ رشّ غمام الدموع، قالت النفس الأمّارة: حوالينا لا علينا، فدالت رياح الغفلة، وسَحَابُ الصيف هفاف، كلّما شدّ طفل العزيمة على دِرَّة التوبة صانَعَتْه ظئرُ الشهوة عن ذلك بعصفور، إذا ضيق الخوف فُسْحَة المهل سرق الأمل حدود الجار، قال بعض الفضلاء: كانوا إذا فقدوا قلوبهم، تفقّدوا مطلوبهم، ولو صدق الواعِظُ لأثّر، اللهمّ لا أكثر: [الطويل]

طبيبٌ يداوي الناسَ وهو عليلُ

والخطب جليل، والمتفطن قليل، فهل إلى الخلاص سبيل؟ اللهمّ انظر إلينا بعين رحمتك التي وسعت الأشياء، وشملت الأموات والأحياء، يا دليلَ الحائرين دُلّنا، يا عزيز أرحم ذُلّنا، يا وليّ من لا وليَّ له كُنْ لنا كلّنا، إن أعرضْتَ عنّا فمن لنا؟ نحن المذنبون وأنت غفّار الذنوب، فقلِّبْ قلوبنا يا مقلّب القلوب، واسْتُرْ عيوبَنا يا سَتّارَ العيوب، يا أمل الطالب ويا غاية المطلوب؛ انتهى.

---

(١) سورة المجادلة ٥٨، الآية ٧.

(٢) سورة الأعراف ٧، الآية ٥٨.

(٣) الدِّمْنة: آثار الدار، وخضراء الدِّمَن: ما نبت في الدِّمْنة من العشب، مثل يضرب في حسن الظاهر وقبح الباطن. محيط المحيط (دمن).

(٤) سورة فاطر ٣٥، الآية ٨.

ومن كلام لسان الدين رحمه اللّه تعالى في المواعظ ما خاطب به بعض من استدعى منه الموعظة، ونصّه: [الطويل]

إذا لم أنُحْ يومًا على نَفْسِيَ التي ... بحرّائها أحْبَبْتُ كلَّ حبيبِ
وقد صَحَّ عندي أنَّ عاديةَ الردى ... تدبُّ لها واللّهِ كلّ دبيب
فمَنْ ذا الذي يبكي عليها بأدمعي ... إذا كنتُ موصوفًا برأي لبيب

كم قد نظرت إلى حبيب تغار من إرسال طرفك بكتاب الهوى إلى إنسانه، وقد ذبلت بالسقم نرجسة لحظه، وذَوَتْ وردة خدّه، واصفرّت[1] لمغيب الفراق شمسُ حسنه، وهو يجود بنفسه التي كان يبخلُ منها بالنفَس، يخاطب بلسان حاله مترجمًا[2]: «وليت الفجل يهضمُ نفسه»، وأنت على أثر مسحبه إلى دَسْت الحكم، ﴿وما أدْري ما يُفْعَلُ بي ولا بِكُمْ﴾[3].

ومنها: تاللّه لو لم يكن المخبر صادقًا لنشب بحَلْق العيش بعده شوكة الشكّ: [الوافر]

ولو أنّا إذا متْنا تُركنا ... لكان الموتُ راحَةَ كلّ حيّ
ولكنّا إذا متْنا بُعِثْنا ... ونُسأل بعده عن كلّ شيّ

فالحازم مَنْ بتر الآمال طَوعًا، وقال: بيدي لا بيد عمرو[4] ﴿يا أيُّها الناسُ إنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحياةُ الدنيا ولا يَغُرَّنَّكُمْ باللّهِ الغَرُورُ﴾[5].

وقال أمير الوعاظ رحمه اللّه تعالى[6]: [الكامل]

وبضدّها تتبيّن[7] الأشياءُ

---

(١) اصْفَرّتْ شمسُ حُسْنه: كناية عن دنوّ أجله.
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٥١): «مسترحمًا».
(٣) سورة الأحقاف ٤٦، الآية ٩.
(٤) بيدي لا بيد عمرو: مثل قالته الزّبّاء ملكة جزيرة العرب عندما التقاها عمرو بسيفه، إذ كان في يدها خاتم قد سُقي سمّ ساعةٍ فمصّته وقالت: «بيدي لا بيد عمرو» وسقطت ميتة. محيط المحيط (زبب).
(٥) سورة فاطر ٣٥، الآية ٥.
(٦) هو عجز بيت للمتنبي، وصدره هو:

ونَذِيمُهُم وبهم عَرَفْنا فَضْلَهُ

ديوان المتنبي (ص ١٢٥).
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٥١): «تتميز».

يا مقتولاً، ما له طالب ثار، بريدُ الموت مُطْلَق الأعِنَّة في طلبك، وما يحميك حصن، ثوبُ حياتك منسوج من طاقات أنفاسك، والأنفاس تستلب ذرّات ذاتك، وحركات الزمان قويّة في النسج الضعيف، فيا سُرْعة التمزّق[1]، يا رابطًا مُنَاه بخيط الأمل، إنه ضعيف الفَتْل، صيّاد التلف قد بَثَّ الصقور، وأرسل العِقْبَان، ونَصَب الأشراك، وقطع المواد، فكيف السلامة؟ تهيّأ لسُرْعَة الموت وأشدّ منها قلب القلب، ليت شعري ما يؤول الأمر: [الطويل]

فـوالـلّـه لا أدري أَيَغْلِبُنـي الـهـوى ... إذا جَـدَّ جِـدُّ البَـيْـنِ أم أنـا غـالـبُـهْ
فإن أستطعْ أغلبْ وإن يغلب الهوى ... فَمِثْلُ الذي لاقيتُ يُغْلَبُ صاحبُهْ

مركبُ الحياةِ يجري[2] في بحر البدن برُخاء الأنفاس، ولا بُدَّ من عاصف قاصف بفُلكه ويغرق الركاب: [الكامل]

فاقضـوا مآربكـمْ عِجَـالاً إنـمـا ... أعمـاركُـمْ سفـرٌ مـن الأسـفـارِ[3]

وقال: كأنك بحرب التلف قد قامت على ساق، وانهزمت بجنود الأمل، وإذا بملك الموت قد بارز الروحَ يجذبها بخَطَاطيف الشدائد من قنان[4] العروق، قد[5] شدّ كتافَ الذبيح، وحار البصر لشدّة الهول، وملائكة الرحمة عن اليمين قد فتحوا أبوابَ الجنّة، وملائكة العذاب عن اليسار قد فتحوا أبواب النار، وجميع المخلوقات تستوكف الخبر، والكون كلّه قد قام على صيحة: سعدَ فلان، أو شقي فلان، هناك تنجلي أبصار الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري، ويْحَكَ! تهيّأ لتلك[6] الساعة، حَصِّلْ زادًا قبل الفوت: [الوافر]

تَـمَـتَّـعْ مِـنْ شَـمـيـمِ عَـرَارِ نجـدٍ ... فـمـا بَـعْـدَ الـعـشـيّـةِ مِـنْ عَـرَارِ

---

(١) في الطبعة نفسها: «التمزيق».
(٢) في الطبعة نفسها: «تجري».
(٣) البيت لأبي الحسن التهامي، وهو في ديوانه (ص ٢٨).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٥٢): «قيان».
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٢٧): «وقد».
(٦) في طبعة عبد الحميد: «فتلك».

مَثِّلْ لعينيك سُرعة الموت، وما قد عزمت أن تفعل حينئذ في وقت الأسر فافعلْه في وقت الإطلاق، وقال أبو العتاهية[1]: [مجزوء الرمل]

خـانَـكَ الـطَّـرْفُ اتَّـئِـدْ[2] أيـهـا الـقـلـبُ الـجـمـوحُ
لـدواعـي[3] الـخـيـرِ والـشَّـرِّ دُنُـــــوٌّ ونُـــــزُوحُ
كـيـف إصـلاحُ قـلـوبٍ إنـمـا هُـنَّ قُـرُوحُ
أحْـسَـنَ الـلَّـه بـنـا أنَّ الـخـطـايـا لا تـفـوح
فـإذا الـمـسـتـور[4] مِـنَّـا بـيـن ثَـوبَـيـهِ[5] فـضـوحُ
كـم رأيْـنـا مِـنْ عـزيـز طُـوِيَـتْ عـنـه الـكُـشُـوحُ
صـاح مـنـه بـرحـيـلٍ صـائـح[6] الـدهـر الـصَّـدُوحُ
مـوتُ بـعـضِ الـنـاسِ فـي الأرض عـلـى بـعـضٍ[7] فُـتُـوح
سـيـصـيـر الـمـرءُ يـومًـا جـسـدًا مـا فـيـه روحُ
بـيـن عَـيْـنَـيْ كـلِّ حـيّ عَـلَـمُ الـمـوتِ يَـلُـوحُ
كـلُّـنـا فـي غَـفْـلَـةٍ والـمـوتُ[8] يـغـدو ويـروح
لـبـنـي الـدنـيـا مـن الـدنـيـا غَـبُـوقٌ وصَـبُـوحُ
رُحْـنَ فـي الـوَشْـي وأصـبـحـنَ عـلـيـهـنَّ الـمُـسُـوحُ
كـلُّ نـطّـاحٍ مِـنَ الـدَّهْـر لـه يـومًـا نَـطُـوحُ
نُـحْ عـلـى نـفـسـك يـا مـسـكـيـنُ إن كـنـتَ تَـنُـوحُ
لـتـنـوحَـنَّ[9] ولـو عُـمِّـرْتَ مـا عُـمِّـرَ نُـوحُ

---

(١) ديوان أبي العتاهية (ص ٦٦ ـ ٦٧).
(٢) في الديوان: «الطَّرْفُ الطموحُ».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٢٧): «فدواعي».
(٤) في الطبعة نفسها: «المشهور».
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٥٢): «بين أيديه».
(٦) في طبعة دار صادر: «طائر». وفي طبعة عبد الحميد: «صالح». وأثبتنا ما في الديوان.
(٧) في الديوان: «على البعض».
(٨) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٢٨): «والدهر».
(٩) في الديوان: «لست بالباقي ولو...».

وقال في المعنى[1]: [مجزوء الوافر]

لـمـن طَـلَـلٌ أُسـائِـلُـهُ	مُـعَـطَّـلَـةٌ مـنـازِلُـهُ[2]
غَـداةَ رأيْـتُـهُ تَـنْـعَـى	أعـالِـيَـهُ أسـافِـلُـهُ
وكـنـتُ أراهُ مـأهـولاً	ولـكـن بـادَ[3] آهـلُـه
وكُـلٌّ لاعـتـسـاف الـدهـ	ـر مُـعْـرَضَـةٌ مَـقـاتِـلُـهُ
ومـا مـن مَـسْـلَـكٍ[4] إلاَّ	وَرَيْـبُ الـدهـرِ شـامـلُـهُ
فـيـصـرعُ مَـنْ يُـصـارِعُـهُ	ويَـنْـضُـلُ مَـنْ يُـنـاضِـلُـهُ
يُـنـازِلُ مـن يَـهُـمُّ بـه	وأحـيـانًـا يُـخـاتِـلُـهُ
وأحـيـانًـا يـؤخِّـرُه	وتـاراتٍ يـعـاجِـلُـهُ
كـفـاكَ بـه إذا نَـزَلَـتْ	عـلـى قـومٍ كَـلاكِـلُـهُ
وكـم قـد عَـزَّ مِـنْ مَـلِـكٍ	تـحـفُّ بـه قـنـابِـلُـهُ[5]
ويَـثْـنـي عِـطْـفَـهُ مَـرَحًـا	وتُـعْـجِـبُـهُ[6] شـمـائـلُـهُ
فـلـمّـا أنْ أتـاه الـحـقُّ	وَلَّـى عـنـه بـاطـلُـهُ
فَـغَـمَّـضَ[7] عَـيْـنَـه لـلـمـو	ت واسْـتَـرْخَـتْ مَـفَـاصِـلُـهُ
فـمـا لَـبِـثَ الـسِّـيـاقُ بـه	إلـى أن جـاء غـاسِـلُـهُ
فَـجَـهَّـزَهُ إلـى جَـدَثٍ	سَـيَـكْـثُـرُ فـيـه خـاذِلُـهُ
ويـصـبـحُ شَـاحِـطَ الـمـثـوى[8]	مُـفَـجَّـعَـةً ثـواكِـلُـهُ
مُـخَـمَّـشَـةً نَـوادِبُـهُ	مُـسَـلَّـبَـةً غـلائِـلُـهُ[9]
وكـم قـد طـال مـن أمـلٍ	فـلـم يُـدرِكْـهُ آمـلُـهُ

(١) ديوان أبي العتاهية (ص ٢٢٧ . ٢٣٠).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٢٨): «مناهله».
(٣) بادَ آهلُهُ: هلك ساكنُه. لسان العرب (بيد) و (أهل).
(٤) في طبعة دار صادر: «وما مُتَمَلّك».
(٥) في الديوان: «يحفُّ». وفي طبعة دار صادر (ص ٣٢٩): «تحفُّ به قبائله».
(٦) في الديوان: «ويعجبه».
(٧) في طبعة دار صادر (ص ٣٢٩): «فَخَفَّضَ».
(٨) في الديوان: «الموتى».
(٩) في طبعة دار صادر: «حلائله».

رأيتُ الحقَّ لا يَخفى ولا تَخفى شَوَاكلُهُ

ألاَ فانظرْ لنفسك أيَّ زادٍ أنتَ حاملُهُ

لِمَنزلِ وَحْدَةٍ بين المقابرِ أنتَ نازلُهُ

قصيرِ السَّمْكِ قد رُصَّتْ[1] عليك به جَنادِلُهُ

بعيدِ تجاورِ[2] الجيرانِ ضَيِّقَةٍ مَداخِلُهُ

أأيتها المقابر فيكِ مَنْ كُنَّا ننازلُهُ

ومَنْ كُنَّا نُتاجِرُهُ ومَنْ كنَّا نعاملُهُ

ومَنْ كُنَّا نُعاشِرُهُ ومَنْ كُنَّا نُداخلُهُ[3]

ومَنْ كُنَّا نشاربُهُ ومَنْ كُنَّا نؤاكلُهُ

ومَنْ كُنَّا نُفاخِرُه ومَنْ كُنَّا نُطاولُهُ

ومَنْ كُنَّا نُراقِبُه ومَنْ كُنَّا نُزايلُه[4]

ومَنْ كُنَّا نُكارمُهُ ومَنْ كُنَّا نُجامِلُهُ

ومَنْ كُنَّا له إلْفًا، قليلاً ما نُزايِلُهُ[5]

ومَنْ كُنَّا له بالأمسِ أحيانًا[6] نواصلُهُ

فَحَلَّ مَحَلَّةً مَنْ حلَّها صُرِمَتْ حَبائِلُهُ

ألاَ إنَّ المنيَّةَ مَنْهلٌ والخَلْقُ ناهِلُهُ

أواخرُ مَنْ تَرَى تَفْنَى كما فَنِيَتْ أوائِلُهُ

لَعَمْرُكَ ما استوى في الأمرِ عالمُهُ وجاهِلُهُ

لِيَعْلَمْ كلُّ ذي علمٍ[7] بأنَّ اللَّهَ سائِلُهُ

فأسْرَعَ فائزًا بالخيرِ قائِلُهُ وفاعِلُهُ

---

(١) في طبعة دار صادر: «رضمت». وفي طبعة عبد الحميد: «رمضت». وأثبتنا ما في الديوان.

(٢) في الديوان: «تزاور».

(٣) في الديوان: «نطاوله».

(٤) في الديوان: «نراققه، ومن كُنّا نتازله».

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٥٤): «نزاوله».

(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٣٠): «إخوانًا».

(٧) في أصول النفح: «عمل»، وأثبتنا ما في الديوان.

ثم قال لسان الدين رحمه اللّه تعالى، بعد ما سبق، ما صورتُه: وهذا الغرض بحر، ويكفي من خزائنه عرض، ومن بيت ماله قرض، إن شاء اللّه تعالى.

ثم قال: تنبيه يشتمل على سؤالين: أحدهما أن يقال: الوعظ غير مناسب للمحبّة، إذ لا يحصل إلاّ بعد الفراغ واليقظة، الثاني: أن يقال: عظمتم الحسرة لفراق عالم الحسّ، وأطلتم في قشور، فنجيب عن الأول: إنّا لم نجلب الوعظ إلاّ بين يدي تأميل حضور المحبّة، فكأنه يجري مجرى الأسباب، فإن الغرض به وجهة النفس من جوّ السرور، واللعب بالزور، إلى جوّ الحزن والارتماض، ومن هنالك تأخذ بخطامها أيدي الاضطرار، فتحصل اليقظة، ثم التوبة، ومنها يستقيم الطريق في منازل السائرين إلى الحقّ[1]: [الكامل]

والنفسُ راغبةٌ إذا رغَّبْتَها وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

وعند ذلك يُطْوَى بساط الزجر والوعظ، ويمدّ بساط الاعتبار والحبّ، إن شاء اللّه تعالى، فإنها كالثَّكْلى بطبعها لما فارقته من عنصر نور اللّه تعالى، والعوالم الروحانية التي هي الشعار والدثار[2]، والأمل والدار، والحياة والجمال، والوجود والكمال، وإن كانت لا تشعر بالسبب، ولا تستحضر ذكْر العلّة، فإذا ذُكر الفراق أنّتْ أو تُنوشدت الآثار حَنَّتْ، ويطرقها الحزن عند الألحان الشجيّة، وتحسّ بعض الأحيان بالمواجد العشقية[3]: [الطويل]

وقالوا أتبكي كلَّ قبرٍ رأيتَهُ لقبرٍ ثوى بين اللِّوَى والدكادِكِ
فقلت لهم: إنَّ الأسى يبعث الأسى دعوني فهذا كلّه قبرُ مالِكِ

وعن الثاني: إنّ كثيرًا من النفوس لا تشعر بوجود عالم الحسّ، فضلاً عن النظر فيه، وإن شعرت بذلك عدّ منها نبلاً، ومَنْ كان بهذه المثابة لا سبيل لندائه إلاّ من باب القُشُور ﴿أولئكَ يُنادَونَ مِنْ مكانٍ بَعِيدٍ﴾[4] إلى أن يتأتّى النداء من باب اللّه تعالى بفضل اللّه تعالى، فالنفوس الشخصية غير متساوية، وهي بهوى الهوى هاوية، فالقريبُ منها يُجذَبُ

---

(١) البيت لأبي ذؤيب الهذلي، وهو في الشعر والشعراء (ص ١٢).

(٢) الشِّعار: ما تحت الدثار من اللباس وهو يلي شعر الجسد. الدثار: ما فوق الشعار من الثياب. محيط المحيط (شعر) و (دثر).

(٣) البيتان لمتمم بن نويرة في رثاء أخيه مالك، وهما في وفيات الأعيان (جـ ٦ ص ١٧) وفوات الوفيات (جـ ٣ ص ٣٣٥) ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(٤) سورة فُصّلت ٤١، الآية ٤٤.

بالأنامل، والبعيدُ بالجزل الكوامل، وعلى قدر المحمول تكون قوّة الحامل: [الكامل]

يضع الهناء مواضع النُّقَبِ[1]

* * *

[الكامل]

يكفي اللبيبَ إشارةٌ مكتومةٌ   وسواه يدعى بالنداء العالي
وسواهما بالزجر من قبل العصا   ثم العَصا هي رابعُ الأحوالِ

وقال رحمه اللّه تعالى في فصل ذمّ الكسل، ما صورته: ونحن نجلب بعض الأمثال في ذمّه، مِمّا يسهل حفظه، ويجب لحظه، فمن ذلك: الكسل مَزْلَقَة الربح، ومسخرة الصبح إذا رَقَدَتِ النفسُ في فراش الكسل استغرقها نوم الغفلة ﴿لو كُنَّا نَسْمَعُ أو نَعْقِلُ ما كُنَّا في أصحابِ السَّعِيرِ﴾[2]. الندامة في الكسل، كالسم في العَسَل. الكسل آفة الصنائع، وأرَضَةٌ في البضائع. العجز والكسل، يفتحان الخمول ولا تَسَلْ. الفلاّح إذا ملَّ الحركة، عدم البركة: [البسيط]

ظَهرانِ لا يُبْلِغانِ المرءَ إن رُكبا   بابَ السعادة: ظَهْرُ العجز، والكسلُ

وفي اغتنام الأنام: من أضاع الفرصة، تجرّع الغصّة. إن كان لك من الزمان شيء فالحال، وما سواه فمُحَال. تارك أمره إلى غد، لا يُفلح للأبد. الإنسان ابنُ ساعته، فَلْيُحِطْها من إضاعته. التسويف سُمُّ الأعمال، وعدوّ الكمال. لم يُحْرَم المُبَادر، إلاَّ في النادر. ما درجت أفراخُ ذلّ إلاَّ من وَكْر طماعة، ولا بَسَقَت فروعُ ندمٍ إلاَّ من جرثومة إضاعة. العزم سوق، والتاجر الجسور مرزوق. مَنْ وثق بعهد الزمان، علقت يَدَاه بحبل الحرمان. الربح في ضمن الجَسَارة، والمضيع أولى بالخسارة.

ومن أمثالهم ـ في نظر الإنسان لنفسه، قبل غروب شمسه ـ قولهم: اعلمْ أنَّ كلّ حكيم

---

(١) الهِناء، بكسر الهاء: القَطِران، أخذه من المثل: «يضع الهِناءَ موضع النُّقَب»، يضرب لمن يضع الشي في موضعه. محيط المحيط (هنأ). والنُّقَبُ: القطع المتفرقة من الجرب، الواحدة نُقْبة. وشطر البيت عجز بيت لدريد بن الصِّمَّة، والبيت بتمامه هو:

مُتَبَذِّلاً تبدو محاسنُه   يَضَعُ الهِناءَ مواضعَ النُّقَبِ

لسان العرب (نقب).

(٢) سورة المُلْك ٦٧، الآية ١٠.

صانع إذا فكّر في أمره ونظر في العواقب علم أنه لا بُدَّ يومًا أن يخرب دكانه الذي هو محلّ بضاعته، وتنحلّ أنقاضه، وتكلّ[1] أدواته، وتضعف قوّته، وتذهب أيام شبابه، فمن بادر واجتهد قبل خراب الدكان، واستغنى عن السعي، فإنه لا يحتاج بعد ذلك إلى دكان آخر، ولا إلى أدوات مجددة، فليتَّجر بما اقتناه ويشتغل بالانتفاع والالتذاذ بما اكتسبت يَدَاه، وهذه حالة النفس بعد خراب الجسد، فبادرْ واجتهدْ واحرصْ واستعجلْ، وتزوّدْ قبل خراب دكانك وهدم بنيته، فإنّ خير الزاد التقوى، قال حسان[2]: [الطويل]

إذا أنتَ لم ترحلْ بزادٍ مِنَ التُّقى … وأَبْصَرْتَ بعد اليوم من قد تزوَّدا
نَدِمْتَ على أن لا تكون كمثله … ولم تَتَرَصَّدْ مثل ما كان أرصدا

قال أبو الفرج بن الطيب البغدادي[3] في اغتنام الوقت في كتابه «في السياسة والآراء الفاضلة»: يجب أن تعيد وتمثّل، فإنّ الفكر مضطرب متشوّش بكثرة نوازع النفس واختلاف قُوَاها، والعمى في بعض الأوقات، فإذا سنح للنفس وقتٌ فاضل بصفاء جوهرها، وأبرمت قانونًا أو صورة متوسطة فاضلة، يجب أن يقيّد بذلك وقت سعد ربما لا يعاوِد أو يعاوَد؛ انتهى.

ومن نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى ما كتب به على لسان سلطانه إلى شيخ الموحِّدين بتونس ابن تفراجين[4]، يخبره بالتمحيص الجاري عليه، ونصُّه: «من أمير المسلمين أيّده اللّه ونَصَره، وأعلى أمره وأظْهَرَه، إلى وليّنا في اللّه تعالى الذي له القَدَم الرفيع المناصب، والمجدُ السامي الذوائب، والسياسة التي أخبارها سَمَرُ الركبان وحَدْوُ الركائب، الشيخ الجليل الكبير، الشهير الخطير، الهمام الأمضى، الرفيع الأعلى، الأمجد الأوحد، الأسعد الأصعد، الأوفى الظاهر الطاهر الفاضل الباسل الأرضى الأنقى المعظم الموقّر المبرور، عَلَم الأعلام، سلالة أكابر أصحاب الإمام، مُعيد دولة التوحيد إلى الانتظام، أبي محمد عبد اللّه ابن الشيخ الجليل الكبير الشهير الماجد الخطير الرفيع الأسعد الأمجد الحسيب الأصيل الأمضى الأرضى الأفضل الأكمل المعظم المقدس المرحوم أبي

---

(١) تكلُّ: تضعف. لسان العرب (كلل).
(٢) المشهور أن هذين البيتين للأعشى قالهما من قصيدة في مدح الرسول الكريم.
(٣) مرّ التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في هذا الجزء.
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٣٣): «ابن تافراجين».

العباس تفراجين[1]، وَصَلَ اللّه تعالى له عزّة تناسب شهرة فضله! وسعادة تتكفّل له في الدارين برفعة محلّه:

«سلام كريم يخصّ مجادتكم الفاضلة، ورتبتكم الحافلة، ورحمة اللّه تعالى وبركاته.

أمّا بعدَ حمدِ الذي يُمَحّصُ[2] ليُثيب، ويأمر بالاستقالة[3] ليُجيب، ويُعْقِب ليلَ الشدّة بصبح الفرج القريب، ويجني من شجر التوكّل عليه، والتسليم إليه، ثمرَ الصنع العجيب، ويظهر العبر مهما كسر ثم جَبَر لكلِّ ذي قلب منيب[4]، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي نلجأ إلى ظلِّ شفاعته في اليوم العَصِيب، ونستظهر بجاهه على جهاد عَبَدَة الصليب، ونستكثر عددَ بركاته في هذا الثغر الغريب، ونَصُول منه على العدوّ بالحبيب، والرضا عن آله وصحبه نجوم الهداية من بعد الأمنة من الأفول والمَغِيب، فإنّا كتبناه إليكم - كتب اللّه لكم عزّة متّصلة، وعِصْمة بالأمان من نُوَبِ الزمان متكفّلة! - من حمراء غَرْنَاطة حرسها اللّه تعالى، ولا زائدَ بفضل اللّه تعالى الذي لطف وجَبَر، وأظهر في الإقالة وحسن الإدالة[5] العِبَر، مِمَّن كتب اللّه تعالى له العقبى لما صَبَر، إلاَّ الخبرُ الذي كسا الأعطافَ الحِبَر، والصنع الذي صدَّق خُبْرُه الخَبَر، والحمد للّه تعالى كثيرًا كما هو أهله فلا فضل إلاَّ فضله، ولمكانتكم عندنا المحلُّ الذي قررت شهرة فضلكم قواعده، وأعلت مَصَاعده، وأثبت التواتر شواهده، إذ لا نزال نتحف بسِيركم التي في التدبيرات تُقْتَفَى[6]، وعلم يُسترشد به إذا العلم اختفى، والسبيل عفا[7]، وإنَّ تلك الدولة بكم استقام أَوَدُهَا، وقامت والحمد للّه عُمُدُها، وإنكم رعيتم في البنين حقوقَ آبائها، وحفظتم عليها ميراثَ عليائها، ولو لم تتّصل بنا أنباؤكم الحميدة، وآراؤكم السديدة، بما يفيد العلم بفضل ذاتكم، ويُغْري قوى الاستحسان بصفاتكم، لغبطنا بمخاطبتكم ومفاتحتكم، ما نجدُهُ من الميل لكم طبعًا وجِبِلّة، من غير أن نعتبر سببًا أو عِلّة، فالتعارف بين الأرواح لا يُنْكَرُ، والحديث الكريم

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٣٣): «تافراجين».
(٢) يُمَحِّصُ: يختبر. لسان العرب (محص).
(٣) الاستقالة: ترك الذنوب والندم عليها. لسان العرب (قيل).
(٤) المنيب: الذي يتوب ويرجع إلى اللّه. لسان العرب (توب).
(٥) الإدالة: الغلبة. لسان العرب (دول).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٥٩): «بسيركم الذي.. تقتفى».
(٧) عَفَا: درست معالمه وامّحت. لسان العرب (عفا).

يؤيّد من ذلك ما يُنقل ويُذْكَرُ. وبحسب ذلك نطلعكم على غريب ما جرى به في ملكنا القدر، وحيث بلغ الوِرْد وكيف كان الصَّدَر، وربما اتّصلت بكم الحادثة التي أكفأها على دار ملكنا من لم يعرف غير نعمتها غاذيًا، ولا برح في جوانب إحسانها رائحًا وغاديًا، يتيم حجرها الكافل، ورضيع دَرِّها[1] الحافل، الشقي الخاسر، الخائن الغادر، محمد بن إسماعيل بن محمد المستجير بنسبنا من لؤم غدره، الخفيّة عنا حِيلُ مكره لخمول قدره، إذ دَعَاه محتومُ الحَين ليهلك إلى أن يهلك، وسوّلت له نفسه الأمّارة بالسوء أن يُمَلَّكَ أخانا الخاسر ثم يملك، وسبحان الذي يقول ﴿يا نُوحُ إنه ليس مِنْ أَهْلِكَ ﴾[2] وكيف تمّ له ما أبرمه من تسوّر الأسوار، واقتحام البَوَار[3]، وتملك الدار، والاستيلاء على قطب المَدَار، وأننا كَنَفَتْنَا عصمةُ اللّه تعالى بمتحوّلنا الذي كان به ليلتئذ محلّ ثوائنا، وكَفَّت القدرة الإلْهية أكفَّ أعدائنا، وخلصنا غِلابًا بحالِ انفراد الأمر عناية ونعم الرفيق[4]، وصِدْقِ اللَّجَإ إلى رحمة اللّه تعالى التي ساحتُها عن مثلنا لا تضيق، فمهما[5] تنكّر الزمان أو تفرّق الفريق، وشرذمةُ الغدر تأخذ علينا كلَّ فجّ عَميق، حتى أَوَيْنَا من مدينة وادي آش إلى الجبل العاصم، والحجّة المرغمة أنف المخاصم، ثم أَجَزْنَا البحرَ بعد معاناة خطوب، وتجهّم من الدهر وقُطُوب، وبَلاَ اللّه هذا الوطَنَ بمن لا يرجو للّه وقارًا، ولا يألو شعائره المعظمة احتقارًا، فأضرمه نارًا، وجَلَّل وُجُوهَ وجوهه خزيًا وعارًا، حتى هتك الباطل حماه، وغيَّر اسمه ومُسَمَّاه، وبَدَّدَ حاميته المتخيّرة وشَذَّبها، وسَخَّم[6] دواوينه التي محّصها الترتيبُ والتجريبُ وهذَّبها، وأهلك نفوسها وأموالها، وأساء لولا تَدَارك اللّه تعالى أحوالها. ولما تأذن جلّ جلاله في إقالة العِثار، ودرك الثار، وأنشأت نواسم رضاه إدامة الاستغفار، ورأينا قلادة الإسلام قد آن انتثارها، والملّة الحنيفية كادت تذهب آثارها، ومسائل الخلاف يتعدّد مُثَارها، وجعلت الملتان نحونا تشير، والملك يأمل أن يوافيه بقدومنا البشير، تحركنا حركة خفيفة تشعر أنها حركة الفتح، ونهضنا نبتدر ما كتب اللّه تعالى من المنح، وقد امتعص لنا

---

(١) الدَّرّ: لَبَنُ الثدي، لسان العرب (درر).

(٢) سورة هود ١١، الآية ٤٦.

(٣) البَوارُ، بالفتح: الهلاك. لسان العرب (بور).

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٣٥): «بحال انفراد إلاّ من عناية اللّه ونعم الرفيق».

(٥) في الطبعة نفسها: «مهما».

(٦) سَخَّم دواوينه: سوّدها؛ يقال: سَخَّم اللّهُ وجهه إذا سوّده. محيط المحيط (سخم).

الكون بما حمل، واستخدم الفُلك نفسه بمشيئته تعالى واكتمل، وكاد يقرب لقرى ضيفنا الثور والحَمَل، وظاهرنا محلُّ أخينا السلطان الكبير الرفيع المعظم المقدس أبي سالم الذي كان وطنه مَأوَى الجنوح، ومَهَبَّ النصر الممنوح - رحمة اللّه تعالى عليه! - مظاهرةَ مثلِهِ مِنَ الملوكِ الأعاظم، وختم الجميل بالجميل والأعمال بالخواتم، وأنفَ حتى عدوُّ الدين لنعمتنا المكفورة، وحقوقنا المحجوبة المستورة، فأصبح بعد العدوّ حبيبًا، وعاد بعد الإباية مُنيبًا، وسَخَّر أساطيله تحضيضًا على الإجازة وترغيبًا، واستقبلنا البلاد وبحر البشر يزخر مَوْجُه، وملك الإسلام قد خَرَّ على الحضيض أَوْجُه، الرومُ مستوليةٌ على الثغور، وقد ساءت ظنون المؤمنين بالعقبى ولله عاقبة الأمور، والخبيثُ الغادر الذي كان يموّه بالإقدام قد ظهر كذب دَعْوَاه، وهان مَثْوَاه، وتورّط في أشراك المندمة تورّطَ مثله مِمَّن اتَّبع هواه، وجحد نعمة مولاه، فلولا أنَّ اللّه عزَّ وجلَّ تدارك جزيرة الأندلس بركابنا، وعاجل أُوارها بانسكابنا، لكانت القاضية، ولم تَرَ لها من بعد تلك الريح العقيم من باقية، لكنَّا بفضل اللّه تعالى رفعنا عنها وطأةَ العدوّ وقد دنا بِكَلْكَل، وابتززناه منها أيَّ مشربٍ ومأكل، واعتززنا عليه باللّه تعالى الذي يعزّ ويذلّ، ويهدي ويضلّ، فلم نسامحْه في شرط يجرُّ غَضَاضة، ولا يخلِّف في القلوب مضاضة، وخُضْنا بحر الهَوْل، وبرئنا إلى اللّه تعالى ربِّنَا عن القوّة والحَوْل، وظهرت للمسلمين ثمرة سريرتنا، وما بذلنا في مصانعة العدوّ من الإجهاز عليهم من حسن سيرتنا، فقويت فينا أطماعُهم، وانعقد على التحرُّم بنا إجماعهم. وقصدنا مالَقَةَ بعد أن انثالت الجهة الغربية، وأذعنت المعاقل الأبِيَّة، فيسَّر اللّه تعالى فتحها، وهيّأ منحها، ثـم توالت البَيْعَات، وصرحت بمآذن البلاد الدُّعَاة، واضطرب أمر الخائن وقد دلفت المخاوف إليه، وحسبَ كلَّ صَيْحَة عليه[1]، فاقتضت نَعامته الشائلة، ودولة بغيه الزائلة، وآراؤه الفائلة[2]، أن ضمّ ما أمكنه من ذخيرة مكنونة، وآلة للملك مَصُونة، واستركب أوباشه[3] الذين استباح الحقُّ دماءهم، وعرف الخلق اعتزاءهم للغَدْر وانتماءهم، وقصد سلطان قَشْتَالة من غير عهد ولا وثيقة، ولا مُثْلَى طريقة، ولا شِيمة بالرَّعْي خليقة، لكن اللّه، عَزَّ وجلَّ، حمله على قدمه، لإراقة دمه، وزيّن الوجود بعدمه، فَلِحِينِ قدومه عليه

---

(١) حَسِبَ كلَّ صيحةٍ عليه: كناية عن الخوف. قال اللّه تعالى: ﴿يَحْسَبُونَ كلَّ صَيْحَةٍ عليهِمْ هُمُ العدوُّ﴾. سورة المنافقون ٦٣، الآية ٤.

(٢) الآراء الفائلة: الضعيفة التي لا سداد فيها. لسان العرب (فيل).

(٣) الأوباش: الأخلاط والسفلة مثل الأوشاب، واحدها وَبْش، محيط المحيط (وبش).

راجيًا أن يستفِزَّه بعرض، أو يحيل صحة عَقْده المبرم إلى مَرَض، ومؤملاً هو وشيعته الغادرة كرّة على الإسلام مُجْهزة، ونصرة لمواعيد الشيطان مُنْجزة، تقبض عليه وعلى شيعته، وصَمٌّ عن سماع خديعته، وأفحش بهم المُثْلة، وأساء بحسن رأيه فيهم القِتْلَة، فأراح اللّه تعالى بإبادتهم نفوسَ العباد، وأحْيَا بهلاكهم أرماقَ البلاد[1]. وحَثَثْنا السير إلى دار ملكنا فدَخَلْناها في اليوم الأغرّ المحجَّل، وحصلْنا منها على الفتح الهني[2] المعَجّل، وعدْنا إلى الأريكة التي نبا بنا عنها التمحيصُ فما حسبناه إلاَّ سرورًا أعقبه الكمال، ومرضًا عاجله الإبلال[3]، فثابت[4] للدين الآمال، ونجحت الأعمال، وبذلْنا في الناس من العفو ما غَفَر الذنوب، وجَبَر القلوب، وأشَعْنَا العفو في القريب والقَصِيّ، وألبسنا المريب ثوب البَرِيّ، وتألَّفْنا الشارد، وأعذبنا الموارد، وأجريْنا العوائد، وأسْنَيْنا الفوائد، إلاَّ ما كان من شِرْذِمة عظمت جَرَائرهم، وخَبُثَت في معاملة اللّه تعالى سرائرهم، وعُرِف شُؤمُهم، وصدق من يَلُومهم، فأقصيناهم وشَرَّدْناهم، وأجْلَيْناهم عن هذا الوطن الجهادي وأبعدناهم. ولَمَّا تعرّف سلطان قَشْتَالة باستقلالنا، واستقرارنا بحضرة الملك واحتلالنا، بادر يُعَرِّف بما كان من عمله فيمن لَحِقَ به من طائفة الغَدْر، وإخوان الخديعة والمكر، وبعث إلينا برؤوسهم، ما بين رئيسهم الشقيّ ومرؤوسهم، وقد طفا على جَدَاول السيوف حَبَابُها، وراق بحنّاء الدماء خِضابها، وبرز الناسُ إلى مشاهدتها معتبرين، وفي قدرة اللّه تعالى مستبصرين، ولدفاع الناس بعضهم ببعض شاكرين، وأحَقَّ اللّه تعالى الحقَّ بكلماته وقَطَع دابر الكافرين، فأمرنا بنصب تلك الرؤوس بمسوّر الغدر الذي فرعته، وجعلناها[5] علمًا على عاتق العمل السيىء الذي اخترعته، وشرعنا في مُعَالجة العلم، وأفَضْنَا على العباد والبلاد حُكْمَ السلم، فاجتمع الشمل كأحسن أحواله، وسَكن هذا الوطن بعد زلزاله، وأفاق من أهْوَاله. ولعلمنا بفضلكم الذي قضاياه شائعة، ومُقَدِّماته ذائعة، أخبرناكم به على اختصار، واجتزاء واقتصار، لِيُسْرِ دينكم المتين بتماسك هذا الثغر الأقصى بعد استرساله، وإشرافه على سوء مَآله، وكُنّا نخاطب محلّ أخينا السلطان الجليل المعظّم الأسعد الأوحد الخليفة أمير

---

(١) الأرماق: جمع رَمَق وهو بقية الروح في الجسد. لسان العرب (رمق).

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٣٧): «الإلهي».

(٣) الإبلال: الشفاء من المرض. لسان العرب (بلل).

(٤) ثابت: عادت ورجعت. لسان العرب (ثوب).

(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٦٢): «وجعلنا».

المؤمنين أبي إسحٰق ابن الخليفة أمير المؤمنين المعظّم المقدّس أبي يحيىٰ بن أبي بكر ابن الأئمة المهتدين والخلفاء الراشدين - وَصَلَ اللّٰه تعالى أسبابَ سَعْده! وحرس أكناف مجده! - لولا أننا تعرفنا كَوْنَه في هذه المدة مقيمًا بغير تلك الحضرة التونسية، فاجتزأنا بمخاطبة جهتكم السنيّة، وبين سلفنا وسلفكم من الودّ الراسخ البنيان، والكريم الأثر والعِيان، ما يدعو إلى أن يكون سببُ المخاطبة مَوْصُولاً، وآخرة الودّ خيرًا من الأولى، لكن الطريق جَمُّ العوائق، والبحر مفروق البوائق[1]، وقَبُول العذر بشواغل القطر بالفضل لائق، ومُرَادنا أن يتّصل الودُّ، ويتجدّد العهد، واللّٰه عزّ وجلّ يتولّى أمور المسلمين بمتوارد إحسانه! ويَجْمع قلوبَهم حيث كانوا على طاعة اللّٰه تعالى ورضوانه! وهو سبحانه يُطِيل سعادتكم، ويحرس مَجَادتكم، ويُنجح إدارتكم، ويُسَنّي إرادتكم! والسلام الكريم يخصّكم، ورحمة اللّٰه تعالى وبركاته».

ومن نثره رحمه اللّٰه تعالى قوله [ما أنشأه عن سلطانه الغني باللّٰه، وذلك قوله][2]: «أيها[3] الناس، ضاعف اللّٰه تعالى بمزيد النعم سرورَكم! وتكفل بلطفه الخفي في مثل هذا القطر الغريب أموركم! أُبشّركم بما كتب به سلطانكم السعيد إليكم، المترادفة بيمنه وسعادته نعمُ اللّٰه تعالى عليكم! أمتع اللّٰه تعالى الإسلام ببقائه! وأيّده على أعدائه! ونصره في أرضه بملائكة سمائه! وأنَّ اللّٰه تعالى فَتَحَ له الفتح المبين، وأعَزَّ بحركة جهاده الدين، وبَيَّض وجوهَ المؤمنين، وأظفره باطريرةَ البلدِ الذي فجع المسلمين بأسرهم فجيعةً تثير الحمِيَّة، وتحرّكُ النفس الأبِيَّة، فانتقم اللّٰه تعالى منهم على يده، وبلّغه من استئصالهم غاية مقصده، فَصَدَقَ من اللّٰه تعالى لأوليائه، وعلى أعدائه، الوعْدُ والوعيد، وحكم بإبادتهم المبدىء المعيد ﴿وكذلك أَخْذُ ربِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى وَهِيَ ظالِمَةٌ؛ إنَّ أَخْذَهُ أليمٌ شديدٌ﴾[4] وتَحَصَّل من سببه بعد ما رويت السيوف من دمائهم آلاف عديدة، لم يُسْمَع بمثلها في المُدَد المديدة، والعهود البعيدة، ولم يُصَبْ من إخوانكم المسلمين عددٌ يُذكر، ولا رجل يُعْتبر، فَتْحٌ هني، وصنع سني، ولطف خفي، ووعد وفي، فاسْتَبْشِرُوا بفضل اللّٰه تعالى ونعمته، وقِفُوا عند الافتقار والانقطاع لرحمته، وقابلوا نِعَمَه بالشكر يَزِدْكم، واستبصروا في الدفاع

---

(١) البوائق: جمع بائقة وهي الداهية، وهي هنا بمعنى المهلكة. محيط المحيط (بوق).

(٢) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٦٣).

(٣) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٣٩): «يا أيها».

(٤) سورة هود ١١، الآية ١٠٢.

عن دينكم ينصركم ويؤيّدكم، واغتبطوا بهذه الدولة المباركة التي لم تَعْدَمُوا من اللّه تعالى معها عيشًا خصيبًا، ولا رأيًا مُصِيبًا، ولا نصرًا عزيزًا ولا فتحًا قريبًا، وتضرّعوا في بقائها، ونَصْر لوائها، إلى مَنْ لم يزل سميعًا للدعاء مجيبًا، واللّه عزَّ وجلَّ يجعل البشائر الفاشية فيكم عادة، ولا يعدمكم ولا أُولي الأمر منكم توفيقًا وسعادة، والسلام الكريم يخصّكم، ورحمة اللّه تعالى وبركاته من مُبْلِغ ذلك فلان». انتهى.

ومن نثر لسان الدين ـ رحمه اللّه تعالى! ـ ما أنشأه عن سلطانه الغني باللّه تعالى ـ حين وصله ابنُه الذي كان بفاس ـ يخاطب سلطان فاس، ما نصُّه:

«المقام الذي تقلّد نافلة الفضل شَفْعًا[1]، وجودَ سورة[2] الكمال إفرادًا وجَمْعًا، واستولى وجَمَع بين المَنْح، والتهنئة بالفتح، فأحرز أصلاً وفرعًا، واستحقّ الشكر عقلاً وشَرْعًا، وأغرى أيديَ جوده، بالقصد الذي هو حَظُّ وليّه من وجوده، فأثار من جيش اللقاء نَقْعًا، ووَسَط به جَمْعًا[3]، مقامُ محل أخينا الذي أقلامُ مقاصده دَربة[4] بحسن التوقيع، وعيونُ فضله مُذكاة لإحكام الصنيع، وعَذَبَات فخره تهفو بذروة العلم المنيع، ومكارمه تتفنّن فيها مذاهبُ التنويع، أبقاه اللّه تعالى وألسنُ فضله ناطقة، وأقيسةُ سعدِه صادقة، وألويتُه بالنصر العزيز خافقة، وبضائعُ مكارمه في أسواق البرّ نافقة، وعصائبُ التوفيق لركائب أغراضه موافقة! السلطان الكذا ابن السلطان الكذا ابن السلطان الكذا.

سلام كريم، طيب برّ عميم، يخصُّ مقامَكم الأعلى، وطريقتكم المُثْلى، وأخوّتكم الفُضْلَى، ورحمة اللّه تعالى وبركاته، مُجِلُّ قدرِكم، وملتزم برّكم، وموجب حمدكم وشكركم، فلان.

أمّا بعدَ حمدِ اللّه تعالى الذي جعل الشكر على المكرمات وَقْفا، ونهج منه بإزائها سبيلاً لا تَلْتَبِس ولا تخفى، وعَقَد بينه وبين المزيد سببًا وحِلْفا، وجعل المودّة في ذاته مِمّا يُقرّب إليه زُلْفَى، مربح تجارة من قصد وجههُ بعمله حتى يرى الشيء ضعفا، وناصر هذه

(١) النافلة: الغنيمة، وهي شرعًا زيادة على الفرائض. ونافلة الفضل: الزائد. والشَّفْعُ: الزوج، خلاف الوتر. محيط المحيط (نفل) و (شفع).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٦٤): «صورة».

(٣) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿فالمُغِيرات صُبْحًا، فأثَرْنَ به نَقْعًا، فَوَسَطْنَ به جمعًا﴾. سورة العاديات ١٠٠، الآيات ٣، ٤، ٥.

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٦٥): «ذرية».

الجزيرة من أوليائه الكرامِ السيرة بمن يُوسِعُها فضلاً وعَطْفا، ومُدْني ثمار الآمال لتتمتع[1] بها اجتناء وقَطْفا، والصلاةِ والسلامِ على سيدنا ومولانا محمد النبيّ العربي الكريم، الرؤوف الرحيم، الذي مدَّ من الرحمة على الأمّة سجْفا، وملأ قلوبَها تعاطفًا وتعارفًا ولُطْفا، القائل «مَنْ أيقن بالخَلَفِ جاد بالعطيّة» ووعد مَنْ عامل اللّه تعالى بربح المقاصد السنيّة، وعدًا لا يجد خُلْفا، والرضا عن آله وأصحابه الذين كانوا من بعده للإسلام كَهْفا، وعلى أهله في الهواجر ظِلاً ملتفًا، غيوثُ النَّدَى كلّما شامُوا سَماحًا وليوث العدى كلّما شَهِدُوا زَحْفا، والدعاء لمقام أُخُوّتكم الأسعد بالنصر الذي يكف من عُدْوانِ الكفر كفًّا، والمجد الذي لا يغادر كتابُه من المفاخر التي ترك الأول للآخر حَرْفا، وإلى هذا ـ أيّدكم اللّهُ بنصرٍ من عنده، وحكم لملككم الأسمى باتّصال سعده، وأنجز في ظهوره على من عاند أمره سابقَ وعده! ـ فإننا نقرّر لدى مقامكم وإن كان الغنيّ بأصالة عَقْله، عن اجتلاء الشاهد ونَقْله، وجلاء البيان وصَقْله، أنَّ الهدايا وإنْ لم تحلَ العينُ منها كما حلت، أو تناولها الاستنزازُ فما نبهت في لحظ الاعتبار ولا جَلَّت، أو كانت زَيْفًا كلّما أُغري بها الاختبار قَلَّت، لا بُدَّ أن تترك في النفوس مَيْلاً، وأن تستدعي من حسن الجزاء كَيْلاً، وأن تنال من جانب التراحم والتعاطف نَيْلاً، وأيُّ دليل أوضح مَحَجّة، وأبين حجّة، من قوله ﷺ: «تهادوا تحابوا» من غير تبيين مقدار، ولا إعمال اعتبار، ولا تفرقة بين لجين ولا نُضَار؟ فكيف إذا كانت الهدية فِلْذة الكبد التي لا يلذّ العيش بعد فراقها، ولا تضيء ظُلَم الجوانح إلاّ بطلوع شمسها وإشراقها، وجمع الشمل الذي هو أقصى آمال النفوس الآلفة، والبواطن المصاحبة للحنين المحالفة، لا سيما إذا اقتعدت محلّ الهَناء، بالفتح الرائق السَّناء[2]، وحَفَّت بها من خلفها وأمامها صنائع البرّ وقَوِمَة الاعتناء، فهنالك تفخر ألسن الثناء، وتتطابق أعلام الشكر السامية البناء. وإننا ورد علينا كتابُكم الذي سَطَّره البرّ وأملاه، وكَتَفَه[3] اللحظُ وتَوَلاَّه، ووشَّحه البيانُ وحَلاَّه، مهنئًا بما منح اللّه جلَّ جلاله من ردّ الحقّ، وتعيين الجمع ورفع الفرق، وتطويق الأمان وأمان الطوق، وإسعاد السَّعْد، وبلوغ القصد، وقطع دابر من جَحَد نعمة الأب والجدّ، وسَلِّ سيف البغي داميَ الحدّ، والحمد للّه تعالى حمدًا يلهمه

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٤٠): «فتتمتّع».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٦٦): «محلّ الهَنَا.. السَّنَا».

(٣) كتفه: أحاط به. لسان العرب (كتف).

ويتيحه[1]، ونسأله إمدادًا يسوّغه ويُبيحه، على أنْ أحْسَنَ العُقْبى وأعقب الحسنى، وأرى النعمَ بين فُرَادى ومَثْنَى، وجَمَع الشمل الذي قد تبدّد، وجدّد رسم السعادة لهذا القطر فتجدّد، وأخذ الظالم فلم يجد من مَحيص[2]، وجمع لنا الأجر والفخر بين تخصيص وتمحيص، وقَلَّد برؤوس الفَجَرة الغَدَرة الفرضةَ التي فَرَعُوها، وأطفأ بِمُرَاقِ دمائهم نارَ الضلالة التي شرَعُوها، وكتب لقبيلكم الفضلَ الذي يُحمد ويُشكر، والحقَّ الذي لا يُجحد ولا يُنكر، فلقد أوى لما تبرأت الخُلْصَان، وتَحَفَّى[3] عندما تنكّر الزمان، وسبَّب الإدالة، وطاوع الأصالة والجَلالَة، حتى فرج اللّه تعالى الكُرْبة، وآنس الغربة، وأقال العثرة وتقبّل القربة، له الحمد على آلائه، وصِلة نعمائه، ملءَ أرضه وسمائه. ووصل صحبته الولد مكنوفًا بجناح اللطف، ممهّدًا له ببركتكم مهادَ العطف، فبرزنا إلى تلقّيه تنويهًا لهديتكم وإشادة، وإبداء في برّكم وإعادة، وأركبنا الجيشَ الذي آثرنا لحين استقلالنا عرضه، وقرّرنا بموجب الاستحقاق فرضه، فبرز إلى الفضاء الأفْيَح[4] حسن الترتيب، سَافِرًا عن المرأى العجيب، ولولا الحَنَانُ الذي تجده النفوس للأبناء وتستشعره، والتشوّق إلى اللقاء الذي لا يجحده منصف ولا يُنْكره، لَمَا شَقَّ علينا طول مقامه في حجركم، ولا ثواؤه لصقَ أريكة أمركم، فجوارُكم محلّ لاستفادة رسوم الإمارة، وتعلُّم السياسة والإدارة، حتى يرد علينا بقدوم كتيبة جهادكم، ويقود إلينا طليعة نصركم إيانا وإمدادكم، فنحن الآن نشكر مقاصدكم التي اقتضى الكمالُ سياقَها، وزَيَّنَ المجدُ آفاقها، وقدّرها فأحكم طِباقها، ونقرّر لديكم أنَّ حظّنا من ودادكم، ومحلّنا من جميل اعتقادكم، حظٌّ بَانَ رجحانُه وفضْلُه، ولم يتأتَّ بين مَنْ سلف من السلف مثله، من الصحبة في المنزل الخَشِنِ وهي الوسيلة، وفي رَعْيها تظهرُ الفضيلة، والاشتراك في لازم الوصول إلى الحقّ، وضمّ أشتات الخلق، والمودّة الواضحة الطرق، إلى ما بين السَّلَف، من الودّ الآمن بَذْرُه من الكلَف، المذخورة أذِمَّتُه للخَلَف، فإذا كانت المعاملة جارية على حَسَبه، وشعبها راجعة إلى مذهبه، جنى الإسلام ثمرة حافلة، واستكفى الدينُ إيالة كافلة، فاللّه، عَزَّ وجلَّ، يمهّد البلاد بِيُمْن تدبيركم، ويُجْرِي على مَهْيَع السدادِ جميعَ أموركم، ويجعلكم مِمَّن زين الجهاد عواتق أعماله، وكان رضا اللّه

---

(١) يتيحه: يسهّل سبيله. لسان العرب (تيح).
(٢) لم يجد من محيص: لم يجد مفرًا ولا مهربًا.
(٣) تحفّى: بالغ في التلطّف. لسان العرب (حفا).
(٤) الأفيح: الواسع الممتدّ. لسان العرب (فيح).

تعالى عنه أقصى آماله، حتى تُرْبي مآثركم على مآثر أسلافكم الذين عرف هذا الوم
الجهادي إمدادَهم، وشكر جهادَهم، وقبل اللّه تعالى فيه أموالهم وأولادهم، وَحَسَّن
أجله معادَهم. وقد حضر بين يدينا رسولكم الذي وجهتم الولد - أسعده اللّه تعالى - لنظر
وتخيرتموه لصحبة سفره، فلان، وهو من الأمانة والفضل، والرَّجَاحَة والعَقْل، بحيـ
طابق اختياركم، واستَحَقَّ إيثاركم، فأطنب في تقرير ما لديكم من عناية بهذه الأوطان عين
الرفد، وضربت الوَعْد، وأخلصت في سبيل اللّه تعالى القَصْد، وغير ذلك مِمّا يؤكّد المو
المستقرّة الأركان، المؤسّسة على التقوى والرضوان، فأجبناه بأضعاف ذلك مِمّا لدينا لكم
وقابلنا بالثناء الجميل قولكم وعملكم، واللّه تعالى يصل سعدكم، ويَحْرُسُ مجدكم
والسلام الكريم يخصّكم، ورحمة اللّه تعالى وبركاته».

ومن ذلك ما كتبه - رحمه اللّه تعالى! - على لسان الأمير سعد ابن سلطانه الغني بال
تعالى إليه وهو:

«مولاي ومولى كبيري ومولى المسلمين، ورحمتي المتكفّلة بالسعد الرائق الجبين.

يُقَبِّل قَدَمَكم التي جعل اللّه تعالى العزَّ في تقبيلها، والسعدَ في اتباع سبيلها، عَبْدُك
الصغير في سنّه، الكبير في خدمتكم وخدمة كبيرهِ في حياتكم بفضل اللّه تعالى ومَنّه
الهاشُّ لتمريغ وجهه في كتابكم من الذراع[1]، المنبئة طباعُه عن العبودية الكامنة بالبِدار إا
ذلك والإسراع، عبدكم وولدكم سعد، كتبه من بابكم، المحوط بعزّ أمركم، المتحف إ
شاء اللّه تعالى بأنباء نصركم، وقد وصل إلى عبدكم تشريفكم السابغ الحلَل، وتنويهك
المبلغ غاية[2] الأمل، وخط يدكم الكريمة، وغمامة رحمتكم الهامية الدِّيمَة، فيا له من ع
أثبت لي الفخر في أبناء الملوك، وسار بي من الترشيح لرتب حظوتكم على المنهج
المسلوك، قرّر من عافية مولاي وسعادته، واقتران السعود حيث حلّ بوفادته، ما تكفَّل
ببلوغ الآمال، وتمم لسانُ الحال في شكر اللّه تعالى لسانَ المقال، واللّه تعالى يديم أيا
مولاي حتى يقوم بحقّ شكر النعم لسانُه، وتؤدّي بعده جوارحُه من الدفاع بين يدي سلطان
ما يسرّ به سلطانه، وبعث جوابه منقولاً ليد حامله من يده ليهنىء تقبيل اليد الكريمة بحال
تأكيد، ويقرّر ما لعبده إلى وجهه الكريم من شوق شديد، ويعرف شمول نعمة اللّه تعالى

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٤٣): «حسن الذراع».
(٢) في طبعة دار صادر (ص ٣٤٤): «غايات».

ونعمته لمن ببابه من خدم وحرم وعبيد، ويمدّ يد الرغبة لمولاه في صلة الإنعام بتشريفه، وإعلامه بتزايدات حركاته وتعريفه، ففي ضمن ذلك كلُّ عزّ مشيد، وخير جديد، ويُهْدِي[1] تحية أهل منزل مولاي على اختلافهم بحسب منازلهم من نعمة لحظه، التي يأخذ منها كُلٌّ بحظّه، والسلام الكريم ورحمة اللّه تعالى وبركاته».

وقال رحمه اللّه تعالى: ومن نثري ما خاطبت به السلطان على لسان ولده من مَالَقَةَ، وقد وصلتُ به إليه من المغرب:

«مولاي الذي رضا اللّه تعالى مقترن برضاه، والنُّجْحُ مُسَبَّبٌ عن نيّته ودُعَاه، وطاعتُه مرتبطةٌ بطاعة اللّه، أبقى اللّه تعالى عَلَيَّ بكم ظلَّ رحماه، وغمام نعماه! وزادني من مواهبه هداية في توفية حقّه الكبير فإنَّ الهدى هُدَى اللّه!

يُقَبِّلُ مواطىء أقدامكم التي ثرَاها شرفُ الخدود، وفَخْر الجِباه، ويقرّر من عبوديّته ما يسجّل الحقُّ مقتضاه، ويسلّم على مَثَابة رحمتكم السلامَ الذي يحبّه اللّه تعالى ويرضاه، ولدُكم وعبدكم يوسفُ، من منزل تأييدكم بظاهر مالقة حرسها اللّه، والوجود ألْسُنٌ بالعزّ باللّه ناطقة، والأعلام والشجر ألْوِيةٌ بالسعد خافقة، وأنواعُ التوفيق متوافقة، وصنائع اللطيف الخبير مصاحبة مرافقة. وقد وصل، يا مولاي، لعبدكم المفتخر بالعبودية لكم ما بعث به عَليُّ مقامكم، وجادت به سحائب إنعامكم، ولمن تحت حجبة ستركم المسدول، وفي ظلّ اهتمامكم الموصول، ولمن ارتسم بخدمة أبوابكم الشريفة من الخدام، وأُولي المراقبة والالتزام، ما يضيق عنه بيانُ العبارة، ويفتضحُ فيه لسانُ القول والإشارة، من عنايات سنيّة، ونعم باطنة وجليّة، وملاحظة مولوية، ومقاصد ملكيّة، فما شئت من قباب مذهبة، وملابس منتخبة، وأسرّة مرتّبة، ومحاسن لا مستورة ولا محجّبة، واللواء الذي نشرتم على عبدكم ظلّه الظّليل، ومددتم عليه جَنَاحَ العزّ الجليل، جعله اللّه تعالى أسعد لواء يسير في خدمتكم! ومدّ عليّ وعليه لواء حرمتكم! حتى يكون لجهادي بين يديكم شاهدًا، وبالنصر العزيز والفتح المبين عليكم عائدًا، ولطائفة الخلوص لأمركم قائدًا، ولأولياء بابِكم هاديًا ولأعدائكم كائدًا. واتّفق يا مولاي أن كان عبدكم قد ركب مغتنمًا برد اليوم، ومؤثرًا للرياضة في عقب النوم، والتف عليه الخدام، والأولياء الكرام، فلمّا عذْنا تعرضت لنا تلك العنايات المجلوّة الصور، المتلُوّة السور، وقد حشر الناس، وحضرت منهم الأجناس،

(١) في الطبعة نفسها: «ويُنْهي».

فعلا الدعا، وانتشر الثنا[1]، وراقت الأبصار تلك الهمّة العليا، فنسأل اللّه تعالى يا مولاي أن يكافىء مقامكم بالعزّ الذي لا يتبدّل، والنصر الذي يستأنف ويُسْتَقْبَل، والسعد الذي مُحْكمه لا يتأوّل، والعبد ومَنْ له على حال اشتياق للورود على أبوابكم الرفيعة المقدار، وارتياح لقرب المزار: [الوافر]

وأبْرَحُ ما يكون الشوقُ يومًا   إذا دَنَتِ الديارُ من الديارِ

والعمل على تيسير الحركة متّصل، والدهر لأوامر سعدكم محتفل، بفضل اللّه تعالى، والسلام على مقام مولاي مقام الشفقة والرحمة، والمنّة والنعمة، ورحمة اللّه تعالى وبركاته»؛ انتهى.

ومن إنشاء لسان الدين في تولية الأمير يوسف المذكور مشيخَةَ الغُزَاة على لسان السلطان والده ما نصُّه:

«هذا ظهير كريم فاتَحَ بنشرِ الألويةِ والبُنُود، وقَودِ العساكر والجنود، وأجالَ[2] في ميدان الوجود، جيادَ الباس والجود، وأضفى ستر الحماية والوقاية بالتهائم والنجود، على الطائفين والعاكفين والرُّكّع السجود[3]، عقد للمعتمد به عقد التشريف، والقدر المنيف، زاكي الشهود، وأوْجَبَ المنافسة بين مجالس السروج ومضاجع المهود، وبشر السيوف في الغُمُود، وأنشأ ريحَ النصر آمنةً من الخمود، أمضى أحكامه، وأنهد[4] العزّ أمامه، وفتّح عن زهر السرور والحبور كِمامه، أميرُ المسلمين عبد اللّه محمد ابن مولانا أمير المسلمين أبي الحجّاج ابن مولانا أمير المسلمين أبي الوليد بن فرج بن نَصْر. أيّد اللّه تعالى أمره! وخلّد ذكره! - لكبير ولده، وسابق أمَدِه، وريحانة خَلَدِهِ، وياقوتة الملك على يده، الأمير الكبير الطاهر الظاهر الأعلى، واسطةِ السلك، وهلال سَمَاء الملك، ومصباح الظُّلَم الحلك، ومظنّة العناية الأزلية من مدبر[5] الفَلَك ومجري الفُلك، عنوان سعده، وحُسَام نصره

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٧٠): «الدعاء، وانتشر الثناء».
(٢) أجال: أدار. محيط المحيط (جول).
(٣) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿وعَهِدْنا إلى إبراهيمَ وإسماعيلَ أن طَهِّرا بَيْتِيَ للطائفينَ والعاكفينَ والرُّكّعِ السُّجُودِ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ١٢٥.
(٤) أَنْهَدَ العِزّ: أقامه. لسان العرب (نهد).
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٤٦): «مدير».

وعضده، وسَمِيِّ جَدِّه، وسلالة فضله ومجده، السعيد المظفّر الهمام الأعلى الأمضى، العالم العامل الأرضى، المجاهد المؤمّل المعظّم أبي الحجاج يوسف، ألبسه اللّه تعالى مِنْ رضَاه عنه حُلَلاً لا تخلق جِدَّتَها الأيام، ولا تبلغ كنهها الأفهام، وبلّغه في خدمته المبالغ التي يُسَرُّ بها الإسلام، وتَسْبَح في بحار صنائعها الأقلام، وحَرَس مَعَالِيَها الباهرة بعينه التي لا تنام، وكنفه بركته الذي لا يُضام، فهو الفَرْعُ الذي جرى فَضْله[1] على أصله، وارتسم نَصْرُه في نصله، واشتمل حدّه على فَصْله، وشهدت ألسن خِلاله، برفعة جلاله، وظهرت دلائلُ سعادته، في بدءِ كلّ أمر وإعادته، لَمَّا صرف وجهه إلى ترشيحه، لافتراع هضاب[2] المَجد البعيد المدى وتوشيحه، بالصبر والحلم والباس والندى، وأرهف منه سيفًا من سيوف اللّه تعالى لضرب هام العِدَا، وأطْلَعه في سماء الملك بَدْرَ هُدًى، لمن راح وغَدَا، وأخذه بالآداب التي تقيم من النفوس أوَدا[3]، وتبذر في اليوم فتجني غدا، ورقاه في رتب المعالي طورًا فطَوْرا، ترقي النبات ورَقًا ونَورا، ليجده بحول اللّه تعالى يدًا باطشة بأعدائه، ولسانًا مُجيبًا عند ندائه، وطرازًا على حُلَّة عَلائه، وغمامًا من غمائم آلائه، وكوكبًا وهَّاجًا بسَمائه، وعَقَد له لواء الجهاد على الكتيبة الأندلسية من جنده، قبل أن ينتقل عن مهده، وظَلَّله بجناح رايته، وهو على كَتِدِ[4] دابّته، واستركب جيش الإسلام ترحيبًا بوفادته، وتنويهًا بمجَادته، وأثبت في غرض الإمارة النصرية سهم سعادته، رأى[5] أن يزيده من عنايته ضروبًا وأجناسًا، ويتبع أثره ناسًا فناسًا، قد اختلفوا لسانًا ولباسًا، وأنفقوا ابتغاء لمرضاة اللّه والتماسًا، مِمَّنْ كرم انتماؤه، وزُيِّنت بالحسب العليّ[6] سماؤه، وعُرف غَنَاؤه، وتأسّس على المجادة بناؤه، حتى لايدع من العناية فنًّا إلاّ وجَلَبه إليه، ولا مقادة فخر إلاّ جعلها في يديه، ولا حُلّة عزّ إلاّ أضفى ملابسها عليه. وكان[7] جيش الإسلام في هذه البلاد الأندلسية ـ أمَّنَ اللّه سبحانه خلالها، وسكن زلزالها، وصدق في رحمة اللّه تعالى التي وسعت كل

---

(١) في طبعة دار صادر (ص ٣٤٦): «بخصله».

(٢) افترع هضاب المجد: صعد إليها. لسان العرب (فرع).

(٣) الأوَدُ، بالفتح: الاعوجاج. لسان العرب (أود).

(٤) الكَتِدُ: مجتمع الكتفين. لسان العرب (كتد).

(٥) هنا جواب «لمّا صرف وجهه..».

(٦) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٤٧): «بالحسب العدّ».

(٧) في الطبعة نفسها: «ولما كان..».

شيء آمالها! . كَلفَ همّته ومَرْعى ذمّته، وميدان اجتهاده، ومتعلّق أملِ جهاده، ومعراج[1] إرادته، إلى تحصيل سعادته، وسبيل خلاله، إلى بلوغ كماله، فلم يَدَعْ له علّة إلاّ أزاحها، ولا طَلِبة إلاّ أجال قِداحها، ولا عزيمة إلاّ أوْرَى اقتداحها، ولا رغبة إلاّ فَسَحَ ساحها، آخذاً مُدَوّنته بالتهذيب، ومَصَافَّه بالترتيب، وآماله بالتقريب، محسنًا في تلقّي الغريب، وتأنيس المريب، مستنجزًا له ويه وعد النصر العزيز والفتح القريب، ورفع عنه لهذا العهد نظر مَنْ حكّمَ الأغراضَ في حُماته، واستشعر عروق الحسائف[2] لتشذيب كماته، واشتغل عن حسن الوساطة لهم بمصلحة ذاته، وجلب جباته، وتثمير ماله وتوفير أقواته، ذاهبًا أقصى مذاهب التعمير بأمد حياته، فانفرج الضيق، وخلص إلى حسن نظره الطريق، وساغ الريق، ورضي الفريق، رأى . واللّه الكفيل لنجح رأيه، وشكر سعيه، وصلة حفظه ورعيه . أن يجهد لهم اختياره، ويحسن لديهم آثاره، ويستنيب فيما بينه وبين سيوف جهاده، وأبطال جِلاده، وحماة أحوازه، وآلات اعتزازه، مَنْ يجري مَجْرى نفسه النفيسة في كل مَبْنَى، ويكون له لفظ الولاية وله . أيّده اللّه تعالى! . المعنى، فقدمه على الجماعة الأولى كبرى الكتائب، ومقادة الجنائب، وأجَمة الأبطال، ومُزْنة الوَدْقِ[3] الهطّال، المشتملة من الغزاة على مشيخة آل يعقوب نسباء الملوك الكرام، وأعلام الإسلام، وسائر قبائل بني مَرين، ليوث العَرين، وغيرهم من أصناف القبائل، وأُولي الوسائل، ليحوط جماعتهم، ويعرف بتفقّده إطاعتهم، ويستخلص للّه تعالى ولأبيه . أيّده اللّه تعالى! . طاعتهم، ويشرّف بإمارته مواكبهم، ويزيّن بهلاله الناهض إلى الإبدار على فلك سعادة الأقدار كواكبهم، تقديمًا أشرق له وجه الدين الحنيف وتهلل، وأحسّ باقتراب ما أمّل، فللخيل اختيال ومَرَاح، وللأسَل السُمْر اهتزاز وارتياح، وللصدور انشراح، وللآمال مَغْدًى في فضل اللّه تعالى ورَوَاح . فَلْيَتَوَلَّ ذلك . أسعده اللّه تعالى . تولي مثلِهِ مِمَّنْ أسرة الملك أسرته، وأسوة النبيّ صلوات اللّه تعالى عليه أسْوَتُه، والملك الكريم أصل لفرعه، والنسب العربي محتد[4] لطيب طبعه، آخذاً أشرافهم بترفيع المجالس بنسبة أقدارهم، مُغْرِيًا حسن اللقاء بإيثارهم، شاكرًا غَنَاءهم، مستدعيًا ثناءهم، مستدرًا لأرزاقهم، موجبًا المزية بحسب استحقاقهم، شافعًا لديه في رغباتهم

---

(١) في الطبعة نفسها: «ومعرج».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٧٣): «الخسائف» بالخاء المعجمة.

(٣) الودق: المطر. مختار الصحاح (ودق).

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٤٨): «منجد».

المؤمَّلة، ووسائلهم المتحمَّلة، مسهلاً الإذن لوفودهم المتلاحقة، منفقًا لبضائعهم النافقة، مؤنسًا لغرمائهم، مستجليًا أحوال أهليهم وآبائهم، مميّزًا بين أغفالهم[1] ونبهائهم. وعلى جماعتهم - رعى اللّٰه تعالى جهادهم، ووفّر أعدادهم! - أن يطيعوه في طاعة اللّٰه تعالى وطاعة أبيه، ويكونوا يدًا واحدة على دفاع أعداء اللّٰه تعالى وأعاديه، ويشدّوا في مواقف الكريهة أَزْرَه، ويمتثلوا نهيه وأمره، حتى يعظم الانتفاع، ويشهر الدفاع، ويخلص المِصَال للّٰه تعالى والمِصَاع، فلو وجد - أيّده اللّٰه تعالى! - غايةً في تشريفهم لَبلَغَها، أو موهبة لَسَوَّغَها، لكن ما بعد ولده العزيز عليه مذهب، ولا وراء مباشرتهم بنفسه مغرب[2]، واللّٰه تعالى منجح الأعمال، ومبلغ الآمال، والكفيل بسعادة المآل.

فمن وقف على هذا الظهير الكريم فليعلم مقدار ما تضمّنه من أمر مطاع، وفخر مستند إلى إجماع، ووجوب اتّباع، وليكن خير مَرْعِيّ لخير راع، بحول اللّٰه تعالى.

وأقطعه - أيّده اللّٰه تعالى! - ليكون بعض المواد لأزواد سفره، وسماط نَفَره، في جملة ما أولاه من نعمه، وسوّغه من موارد كرمه، جميعَ القَرْية المنسوبة إلى عرب عِنان، وهي المحلّة الأثيرة، والمنزلة الشهيرة، تنطلق عليها أيدي خُدّامه ورجاله، جارية مَجْرى صريح ماله، محررة من كلّ وظيفة لاستغلاله، إن شاء اللّٰه تعالى، فهو المستعان سبحانه، وكتب في كذا»؛ انتهى.

وكتب لسان الدين - رحمه اللّٰه تعالى! - في شأن تقليد الأمير سعد أخي المذكور الأصغر منه سنًا ما صورتُه:

«هذا ظهيرٌ جعل اللّٰه تعالى له الملائكة ظهيرًا، وعَقَد منه في سبيل اللّٰه تعالى لواء منصورًا، وأعطى المعتمد به باليُمْن كتابًا منشورًا ﴿وما كان عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[3]، وأطلع صبح العناية المبصرة الآية يبهر سُفورًا، ويسطع نورًا، وأقرّ عيونًا للمسلمين وشرح صدورًا، ووعد الأهلّة أن تصير بإمداد شمس الهدى إياها بدورًا، وبشّر الإسلام بالنصر المنتظر، والفتح الرائق الغرر، مواسط وثغورًا، وأتبع حماة الدين لواء الإمارة السعيدة النصرية فأسعدْ بها آمرًا وأكرِمْ بها مأمورًا، أمَرَ به، وأمضى العمل بمقتضاه وحسبه، أميرُ

(١) الأغفال: جمع غفل وهو مغمور الذكر. لسان العرب (غفل).
(٢) في طبعة دار صادر (ص ٣٤٩): «مَغرَب».
(٣) سورة الإسراء ١٧، الآية ٢٠.

المسلمين عبد اللَّه محمد ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربِّ العالمين أبي الحجاج ابن أمير المسلمين المجاهد في سبيل ربِّ العالمين أبي الوليد بن فرج بن نصر، أعلى اللَّه تعالى رايته وسدَّد رأيه! وشكر عن الإسلام والمسلمين سعيه! لقرّة عَيْنه، ومقتضى حقّه من العدوّ ودَيْنِه، وغصنِ دَوْحِه، وآيةِ لَوحه، ودرّة قِلادته، ودُرّيِّ أفلاك مَجَادته، وسيفِ نصره، وهلالِ قَصْره، وزينة عصره، ومتقبلِ هديه ورشده، ومَظِنة إشراقِ سعده، وإنجاز وعده، ولده الأسعد، وسليل ملكه المؤيد، الأمير الأجلّ الأعزّ الأسنى الأطهر الأظهر الأعلى، لابس أثواب رضاه ونعمته، ومنحة اللَّه لنصره وخدمته، ومظهر عزّه وبعد همّته، التقيّ الرضيّ العالم العامل الماجد حامي الحمى تحت ظلّ طاعته، وكافي الإسلام الذي يأمن من إضاعته، المحرز مزايا الأعمار الطويلة حظَّ الشهر في يومه وحظّ اليوم في ساعته، الموقر المهيب المؤمل المعظم أبي النصر سعد عَرَّفه اللَّه تعالى ببركة سعد بن عُبَادة جَدّه، خال رسول اللَّه ﷺ وأعظمْ بمَجْدِهِ، ووزيره في حَلِّه وعَقْده، وأجناه ثمرة النصر الذي كناه به ووصل سببه بسببه فما النصر إلاَّ من عنده، وأنتج له الفتح المبين من مقدمتي نصره وسعده، لما صَرَف وَجْه عنايته إليه في هذه البلاد الأندلسية التي خلص للّه انفرادها وانقطاعُها، وتمحَّضَ ـ لأنْ تكون كلمة اللَّه هي العليا ـ قِرَاعُهَا، وصدق مِصالها في سبيله جَلَّ وعلا ومِصاعها، إلى ما يمهّد أرجاءها، ويحقّق رجاءها، من سلم يعقد، ولا يعدم الحزم معه ولا يفقد، وعطاء ينقد، ورأيٍ لا يتعقّب ولا ينقد، وحَرْب تُضَمَّر له الجِياد، ويُعْتَقل الأَسَلُ المَيَّاد[1]، وكأن الجيش رَوض أمله الذي في جَنَاه يسرح، ومرمى فكره الذي عنه لا يبرح، فديوانه ديوان أمانيه الذي تسهب فيه وتشرح، أَسْهَمَه من سياسته أوفى الحظوظ وأسناها، وقصَر عليه لفظَ العناية ومعناها، ووقف عليه مَوحَدَها ومَثْنَاها، فأزاح علله، وأحيا أمله، وأنشأ جَذَلَه، ورفع عنه من لم يبذل الجدّ له، ولا أخْلَص للّه فيه عمله. واختار لقيادة مغانيه[2] المنصورة، وإمارة غَزَواته المبرورة، أقربَ الناس إلى نفسه نَسَبًا، وأوصلهم به سَبَبًا، وأحقّهم بالرتب المنيفة والمظاهر الشريفة، ذاتًا وأبًا، وجَدًّا وحَسَبًا[3]،

---

(١) الأَسَلُ، بالفتح: الرماح، الواحدة، أَسَلَة. وأراد بالأسل المَيّاد: الرماح اللينة المهزّ. لسان العرب (أسل).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٥١): «مقانيه».

(٣) في الطبعة نفسها: «وحَدًّا وشبًا».

وأمره على أشرافه، ودلّ[1] به الأنفال على أعرافه، وصرف إليه آماله، واستعمل في أسنّته يمينه وفي أعنّته شماله، وعقد عليه ألويته الخافقة لعزّة نصره، ورأى الظهور على أعداء اللّه تعالى جنًى فهيّأه لهصره[2]، وأدار هالة قَتَام الجهاد عن قرب بالولادة على بدره، ونبّه نفوس المسلمين على جلالة قَدْره، وقدّمه على الكتيبة الثانية من عسكر الغزاة المشتملة على الأشياخ من أولاد يعقوب كبار بني مَرين، وسائر قبائلهم المكرمين، وغيرهم من القبائل المحترمين، ينوب عن أمره في عَرْض مسائلهم، وقِرَى وافدهم، وإجراء عوائدهم، تقديمًا تهلّلَ له الإسلام واستبشر، وتيقّن الظفَرَ فاستبصر، لما علم بمن استنصر، فليخلصوا له في طاعته الكبرى الطاعة، وليعلقوا ببنان نداه بنان الطماعة، ويؤملوا على يديه نجح الوسيلة إلى مقامه والشفاعة، ويعلموا أنَّ اختصاصهم به هو العنوان على رَفْع محالِّهم لديه، وعزّة شأنهم عليه، فلو وجد هَضْبة أعلى لَفَرَعَها[3] لهم وعلاها، أو عزة أعزّ لجلاها، أو قِبلة أزكى لصرف وجوهَهُمْ شَطْرها وولاها، حتى تجنى ثمرة هذا القَصْد، وتعود بالسعد حركة هذا الرصد وتعلو ذؤابة[4] هذا المجد، وتشهد بنصر الدين على يده ألسنة الغَوْر والنَّجْد[5]، بفضل اللّه سبحانه. وعليه - أسعد اللّه الدولة باستعماله مكافحًا بأعلامها، وزَينًا لأيامها، وسيفًا في طاعة إمامها! - أن يقدم منهم في مجلسه أهْلَ التقديم، ويقابل كرامهم بالتكريم، ويستدعي آراء مشايخهم في المشكلات في أمور الحرب، ويغضي جفون عزائمهم في موقف الصبر والضرب، ويتفقّدهم بإحسانه عند الغَنَاء، ويقابل حميد سعيهم بالثناء، على هذا يعتمد وبحسبه يعمل، وهو الواجب الذي لا يُهمَل، وقصده بالإعظام والإجلال، والانقياد الذي يعود بالآمال ويُنجح الأعمال، بحول اللّه تعالى متقبل، وكتب في كذا»؛ انتهى.

ومِمّا اشتمل على نظم لسان الدين ونثره ما كتب به من سَلاً إلى سلطانه الغني باللّه تعالى، وقد بلغه ما كان من صنع اللّه سبحانه له وعودته إلى سلطانه: [الطويل]

هَنِيئًا بما خُوِّلْتَ من رِفْعَةِ الشانِ ... وإنْ كَرِهَ البَاغِي وإنْ رَغِمَ الشَّاني

(1) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٧٦): «وذلّ» بالذال المعجمة.

(2) الهصر: مصدر هصر؛ يقال: هَصَر الغصن إذا أخذ برأسه فأماله إليه ليجني ثمره. لسان العرب (هصر).

(3) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٧٧): «لَرَفَعَها لهم وأعلاها».

(4) ذؤابة المجد: أعلاه. محيط المحيط (ذأب).

(5) الغور: ما انخفض من الأرض. النجد: ما ارتفع من الأرض. لسان العرب (غور) و (نجد).

وأن خَصَّك الرحْمٰنُ جَلّ جَلالُه بمعجزةٍ منسوبةٍ لسُلَيْمانِ
أغار على كرسيّه بعضُ جِنّهِ فألقتْ له الدنيا مقالدَ إذعان
فلمّا رآها فتنةً خَرَّ ساجدًا وقال إلٰهي امْنُنْ عليَّ بغفران
وهبْ ليَ ملكًا بعدها ليس ينبغي تقلُّده بعدي لإنسٍ ولا جان
فآتاه لمّا أن أجابَ دعاءه من العزِّ ما لم يُؤْتِ يومًا لإنسان
وإن كان هذا الأمر في الدهر مفردًا فأنتَ له لمّا اقتديت به الثاني
فقابِلْ صنيع اللّه بالشكر واستعنْ به وَاجْزِ إحسان الإلهِ بإحسان
وحَقِّ الذي سمّاكَ باسم محمد لَوَ أنّ الصَّبا قد عاد منه بِرَيْعَانِ
لما بلغَ النعمى عليكَ سروره أَلِيَّة[1] وافٍ لا أَلِيَّة خوّان
فإني أنا العبد الصريح انتسابه كما أنتَ مولاي العزيز وسلطاني
إذا كنتَ في عزّ ومُلْكٍ وغبطةٍ فقد نلتُ أوطاري[2] وراجعت أوطاني

«مولاي الذي شأنه عَجَب، والإيمان بعناية اللّه تعالى به قد وَجَب، وعزّه أظهره مَنْ بِرداءِ العزةِ احتجب، إذا كانت الغاية لا تُدْرَك، فأولى أن تسلّم وتترك، ومنّة اللّه تعالى عليك ليست ممّا يشرح، قد عقل العقل فما يبرح، وقيد اللسان فما يرعى[3] في مجال العبارة ولا يسرح، اللهمّ أَلْهِمْنا على هذه النعمة شكرًا ترضاه، وإمدادًا مِنْ لَدُنْك نتقاضاه، يا اللّه يا اللّه. سعود أنارت بعد أُفول شهابها، وحياة كرّت بعد ذهابها، وأحباب اجتمعتْ بعد فراقها، وأوطان دَنَتْ بَعْدَ بُعْدِ شامها من عراقها، وأعداء أذهب اللّه تعالى رَسْم بغيهم ومَحَاه، وبُغَاة أدار عليهم الدهر رحاه، وعباد أُعطوا من كشف الغمّ ما سألوه، ونازحون لو سُئلوا في إتاحة القرب بما في أرماقهم لبذلوه، وسبحان الذي يقول ﴿ولو أنّا كَتَبْنا عليهمْ أنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوهُ﴾[4] فليهن الإسلامَ بياضُ وجهه بعد اسوداده، وتغلّب إيالة مَنْ لا يؤمن باللّه ولا باليوم الآخر على بلاده، وعودة الملك المظلوم إلى معتاده، واستواء الحقّ النائي جنبه فوق مهاده، وردّ الإرث المغصوب إلى مستحقّه عن آبائه وأجداده، والحمد للّه الذي غسل عن وجه الأمّة الحنيفية العار، وأنقذ عُهْدَتها وقد

(١) الأَلِيَّةُ: القسم واليمين. لسان العرب (ألا).
(٢) الأوطار: جمع وطر وهو الحاجة. مختار الصحاح (وطر).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٥٢): «يرتعي».
(٤) سورة النساء ٤، الآية ٦٦.

ملكها الذعار، فردّ المُعَار، وأعيد الشُّعَار، نحمدك اللهمّ حمدًا يليق بقدسك، لا بل لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك. والعبد، يا مولاي، قد بهرت عَقْلَه آلاء اللّه تعالى قبلك، فالفكر جائل واللسان ساكت، والعقل ذاهل والطرف باهت، فإن أقام رَسْمًا للمخاطبة فقلم مرح وركض، وطِرْس هزّ جناح الارتياح ونفض، ليس هذا المَرَام مِمَّا يرام، ولا هذه العناية التي تحار فيها الأفهام، مِمَا تُضْمِي غرضه السّهام، فنسأل اللّه تعالى أن يجعل مولاي من الشاكرين، وبأحكام تقلّبات الأيام من المعتبرين، حتى لا يغرّه السَّراب الخادع، والدهر المرغم للأنوف الجادع، ولا يرى[1] غير اللّه في الوجود من صانع، ولا معطٍ ولا مانع، ويمتعه بالعزّ الجديد، ويوفقه للنظر السديد، ويلهمه للشكر فهو مفتاح المزيد، والسلام»؛ انتهى.

ومِمّا خاطب به لسان الدين رحمه اللّه تعالى أبا عبد اللّه بن عمر التونسي قوله:

«سيدي الذي عهدُه لا يُنْسَى، وذِكْرُه يُصْبح في ترديده بالجميل ويُمْسَى، أبقاكم اللّه تعالى تجلون من السعادة شمسًا، وتصرفون في طاعته لسانًا فردًا وبنانًا خمسًا:

وصلني كتابكم الأشعث الأغبر، ومقتضبكم الذي أضغاثه لا تُعْبَر، شاهدةً بعدم الاعتناء أوضاعُه، معدومًا إمتاعه، قصيرًا في التعريف بالحال المتشوِّف إليها باعه، مضمَّنًا الإحالة على خليّ من معناها، غيرِ متلبّسٍ بمَوْحَدها ولا مَثْنَاها[2]، سألته كما يسأل المريضُ عمَّا عند الطبيب، ويحرص الحبيبُ على تعرّف أحوال الحبيب، فذكر أنه لم يتحمّل غير تلك السُّحاءة[3] المغنية في الاختصار، المجحفة بحظّي الأسماع والأبصار، فهممتُ بالعتب، على البخيل بالكتب، ثم عذرت سيدي بما يعتري مثله من شواغل تطرق، وخواطر تومض وتبرق، وإذا كان آمنًا سِرْبُه، مُهَنَّأً شِرْبُه، فهو الأمل، ويُقْنع هذا المجمل، وإن كان التفسير هو الأكمل، وما ثمّ ما يعمل، وودّه في كلِّ حال ودّه، واللّه سبحانه بالتوفيق يمدّه، والسلام».

وكانت للسان الدين رحمه اللّه تعالى مخاطبات كثيرة لسلطان الدولة وأعيانها، دلَّت على قوة عارضته في البلاغة، وقد ألمعْنا بجملة منها في هذا الكتاب في مواضع ولم نكثر

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٥٣): «ولا يرى في الوجود غير اللّه من صانع».

(٢) موحدها: أي واحد واحد. مثناها: أي اثنين اثنين.

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٧٩): «السحاة».

منها طلبًا للاختصار أو التوسّط بحسب ما اقتضاه الباعث في الحال، واللّه سبحانه وتعالى يبلغ الآمال، ويزكي الأعمال.

ومن نثر لسان الدين رحمه اللّه تعالى ما كتبه عن السلطان أبي الحجاج يوسف بن نصر إلى سيد العالمين ﷺ إثر نظم، ونصُّ الكلّ هو[1]: [الطويل]

إذا فاتني ظِلُّ الحِمَى ونَعِيمُهُ ... فحسبُ فؤادي أن يَهُبَّ نسيمُهُ[2]

ويُقنِعُني أني به متكتِّفٌ ... فَزَمْزَمُهُ دَمْعي وجسمي حَطِيمُهُ[3]

يعودُ فؤادي ذكرُ مَنْ سَكَنَ الغَضَا ... فَيُقْعِدُهُ فَوْقَ الغَضَا ويُقِيمُهُ

ولم أرَ شيئًا كالنسيم إذا سَرَى ... شفى سَقَمَ القَلْبِ المَشُوقِ سَقِيمُهُ[4]

نُعَلِّلُ بالتَّذْكار نَفْسًا مَشُوقَةً ... نُدِيرُ عليها كأسَهُ ونُدِيمُهُ

وما شَفَّني بالغَورِ قَدٌّ مُرَنَّحٌ ... ولا شاقني مِنْ وَحْشِ وَجْرَةَ رِيمُهُ[5]

ولا سَهِرَتْ عيني لبَرْقِ ثَنِيَّةٍ ... من الثَّغرِ يبدو مَوهِنًا فأشيمُهُ[6]

بَرانيَ شوقٌ للنبيِّ محمدٍ ... يَسُومُ فؤادي بَرْحُهُ ما يسومُهُ

ألاَ يا رسولَ اللّهِ ناداكَ ضارعٌ ... على النأي[7] محفوظُ الودادِ سليمُهُ

مَشُوقٌ إذا ما الليلُ مَدَّ رِواقَهُ ... تَهِمُّ به تحتَ الظلام هُمومُهُ

إذا ما حديثٌ عنك جاءتْ به الصَّبا ... شَجاهُ مِنَ الشوقِ الحثيثِ[8] قديمُهُ

أَيَجْهَرُ بالنَّجوى وأنتَ سميعُها ... ويشرحُ ما يخفي وأنتَ عليمُهُ[9]

---

(1) النص نثرًا وشعرًا في صبح الأعشى (جـ ٦ ص ٤٥٨ ـ ٤٦٧). والقصيدة فقط في نفاضة الجراب (ص ١٢٣ ـ ١٢٦). وقد نقل القلقشندي من هذه القصيدة اثنين وثلاثين بيتًا، ونقل ابن الخطيب منها في كتابه نفاضة الجراب تسعة وخمسين بيتًا.

(2) في صبح الأعشى ونفاضة الجراب: «كفاني وحسبي أن يَهُبَّ..».

(3) في المصدرين السابقين: «أني به متكيِّفٌ». وزمزم: بئر مكة يشرب منه الحجاج. الروض المعطار (ص ٢٩٢). والحطيم: بناء بمكة ما بين الكعبة وما بين زمزم، وهو مستدير على شكل نصف دائرة. الروض المعطار (ص ١٩٥) وصبح الأعشى (جـ ٦ ص ٤٥٨، حاشية ٤).

(4) هذا البيت والذي بعده غير واردين في نفاضة الجراب.

(5) في صبح الأعشى: «رَنْدٌ مُرَنَّحٌ». وفي نفاضة الجراب: «وما هاجني بالغَور».

(6) في نفاضة الجراب: «فيشيمه».

(7) في صبح الأعشى ونفاضة الجراب: «على البُعْد».

(8) في صبح الأعشى: «الحديث».

(9) رواية البيت في نفاضة الجراب هي: =

وتُـعْـوِزُه الـسُّـقْـيـا وأنـتَ غِـيـاثُـهُ … وتُتْلِفُهُ الشكوى وأنتَ رحيمُهُ[1]

بنورِكَ نـورِ اللّـه قد أشرقَ الهُدَى … فـأقـمـارُهُ.وضَـاحـةٌ ونـجـومُـهُ

لكَ أنهلَ فضلُ اللّهِ بالأرض ساكبًا[2] … فـأنـواؤه مـلـتـقَّـةٌ وغـيـومُـهُ

ومن فوقِ أطباقِ السماء بك اقْتَدَى … خليلُ الذي أَوْطَاكَها وكليمُهُ[3]

لَكَ الخُلُقُ الأرضى الذي جَلَّ ذِكْرُه … ومَجْدُكَ في الذكرِ العظيمِ عظيمُهُ[4]

يَجِلُّ مَدَى عَلْياكَ عن مَدْحِ مادحٍ … فَمُوسِرُ درِّ القولِ فيكَ عديمُهُ

ولـي يـا رسـولَ الـلّـه فـيـكَ وِراثـةٌ … ومَجْدُكَ لا يَنْسَى الذِّمامَ كريمُهُ

وعـنـدي إلـى أنـصـارِ ديـنـكَ نِسْبَةٌ … هي الفخرُ لا يَخْشَى انتقالاً مُقِيمُهُ

وكــان بِـوُدِّي أن أزورَ مُـبَـوَّأً … بـكَ افْـتَـخَـرَتْ أطـلالُـهُ ورُسُـومُـهُ

وقد يُجْهِدُ الإنسانُ طِرْفَ اعتزامِهِ … ويُـعْـوِزُهُ مِـنْ بَـعْـدِ ذاك مَـرُومُـه

وعُذْرِيَ في تسويفِ عَزْمِيَ ظاهرٌ … إذا ضاق عُذْرُ العَزْمِ عَمَّنْ يلومُهُ

عَدَتْني بأقصى الغربِ عن تُرْبك العِدا[5] … جـلالِـقـةُ الـثَّـغْـرِ الـغـريـبِ ورُومُـهُ

أُجاهِدُ منـهـمْ فـي سـبـيـلـكَ أُمّـةً … هي البحرُ يُعْيي أَمْرُها مَنْ يَرُومُهُ

فلولا اعتناءٌ منكَ يا ملجأ الوَرَى[6] … لَـريـعَ حِـمـاهُ واسْـتُـبِـيـحَ حـريـمُـهُ

فلا تقطعِ الحبلَ الذي قد وَصَلْتُهُ … فَمَجْدُكَ موفورُ النَّوالِ عَميمُهُ

وأنـت لـنـا الـغـيـثُ الـذي نَـسْـتَـدِرُّهُ … وأنـتَ لـنـا الـظِّـلُّ الـذي نـسـتـديـمُـهُ

= أيجهرُ بالشكوى وأنت سميعُهُ … أيُعْلِنُ بالنجوى وأنت عليمُهُ

(١) في صبح الأعشى: «وتتلفه البلوى». وفي نفاضة الجراب: «أَتُعْوِزُه السُّقْيا.. أَتُتْلِفُه البلوى..».

(٢) في صبح الأعشى: «بك انهلَّ.. في الأرض..».

(٣) أراد هنا خليل اللّه، وهو إبراهيم عليه السلام، وفي كلام اللّه تعالى: ﴿واتَّخَذَ اللّهُ إبراهيمَ خَليلاً﴾. سورة النساء ٤، الآية ١٢٥. وأراد بكليمه موسى عليه السلام، وهو كليم اللّه؛ لقوله تعالى: ﴿وكَلَّمَ اللّهُ موسى تَكْلِيمًا﴾. سورة النساء ٤، الآية ١٦٤.

(٤) في صبح الأعشى: «الذي بان فضله، ومُجد في الذكر..». وفي نفاضة الجراب: «الذي بان فضله..».

(٥) رواية صدر البيت في نفاضة الجراب هي:

وأُسْـدُ جِـهـادٍ أَذْعَـنَـتْ لـسـيـوفـهـمْ

(٦) رواية صدر البيت في نفاضة الجراب هي:

فـلـولاهـمْ يـا خـيـرَ مَـنْ سـكـنَ الـحِـمَـى

وأقلقني شوقٌ يُشَبُّ جَحِيمُهُ[1] ... ولَـمَّا نـأتْ داري وأعْـوَزَ مَـطْـمَـعي
على مَجْدِكَ الأعلى الذي جَلَّ خِيمُهُ ... بَعَثْتُ بـهـا جُـهْـدَ الـمُـقِـلِّ مُـعَـوِّلاً
فـسـاعَـدَنـي هـاءُ الـرويِّ ومِـيـمُـهُ[2] ... وَكَلْتُ بـهـا هَمِّي وصِدْقَ قريحتي
فَـمِـثْـلُـكَ لا يُـنْـسَى لـديـه خَـديـمُـهُ ... فلا تَنْسني يا خيرَ مَنْ وَطِيء الثَّرى
وما راقَ من وَجْهِ الصباحِ وسيمُهُ ... عليكَ صلاةُ اللّهِ ما ذَرَّ شارقٌ[3]

«إلى رسول الحقّ، إلى كافة الخَلْق، وغَمَام الرحمة الصادق البَرْق، الحائز[4] في ميدان اصطفاء الرحمن قصَبَ السَّبْق، خاتَم الأنبياء، وإمامِ ملائكة السماء، ومن وَجَبَتْ له النبوّة وآدمُ بين الطِّينِ والماء، شفيعِ أربابِ الذُّنوب، وطبيبِ أدواءِ القلوب، والوسيلة[5] إلى عَلاَّم الغُيُوب، نبيِّ الهُدى الذي طَهَّرَ قلبه، وغُفِرَ ذَنْبُه، وخَتَمَ به الرسالةَ رَبُّه، وجرى في النفوس مجرى الأنفاس حُبُّه، الشفيعِ المُشَفَّع يَوْمَ العَرْض، المحمودِ في ملإِ السماء والأرض، صاحبِ اللواء المنشورِ يوم النُّشُور، والمؤتمن على سِرِّ الكتاب المَسْطُور، ومُخْرِجِ الناسِ من الظُّلُمات إلى النور، المؤيَّد بكفاية اللّه وعِصْمَته، الموفورِ حَظُّه من عنايته ونعمته[6]، الظِّلُّ الخفّاق على أمّته، مَنْ لو حازت الشمسُ بعضَ كماله ما عَدِمَتْ إشراقًا، أو كان للآباء رحمةُ قلبه ذابتْ نفوسُهم إشفاقًا، فائدةِ الكونِ ومَعْناه، وسرِّ الوجود الذي بَهَرَ[7] الوجودَ سَناه، وصفيِّ حضرة القُدُس الذي لا ينام قَلْبُه إذا نامتْ عَيْناه، البيرق[8] الذي سَبَقَتْ له البُشرى، ورأى من آيات ربِّه الكبرى، ونزل عليه[9] ﴿سُبْحانَ الذي أَسْرَى﴾[10] مَنِ الأنوارُ من عُنْصر[11] نوره مُسْتَمَدّة، والآثار تَخْلَق[12] وآثاره مستَجدّة، مَنْ طُوِي بِساطُ

(١) في صبح الأعشى: «تُشَبُّ».
(٢) في نفاضة الجراب: «وأغريتُ همتي، فساعدها هاء للرويّ..».
(٣) ما ذَرَّ شارق: أي عندما يطلع قرن الشمس.
(٤) في صبح الأعشى: «والحائز».
(٥) في صبح الأعشى (ص ٤٦١): «ووسيلة الخلق إلى علاّم..».
(٦) في صبح الأعشى: «وحرمته».
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٥٦): «يبهر».
(٨) في طبعة دار صادر وصبح الأعشى: «البشير».
(٩) في طبعة دار صادر وصبح الأعشى: «فيه».
(١٠) سورة الإسراء ١٧، الآية ١.
(١١) العنصر: هنا بمعنى الأصل.
(١٢) تَخْلَقُ: تَبْلى. لسان العرب (خلق).

الوَحْي لِفَقْده، وسُدَّ بابُ الرسالة والنُّبُوَّة من بعده، وأُوتي جوامعَ الكلم فوقفتِ البلغاءُ حَسْرَى دون حَدِّه، الذي انتقلَ في الغُرَر الكريمة نُورُه، وأضاءت لميلاده مصانعُ الشام وقصورُه، وطَفِقَتِ الملائكةُ تجيئه[1] وفودُها وتزوره، وأُخْبِرَتِ الكُتُبُ المنزّلة على الأنبياء بأسمائه وصفاته، وأُخِذَ عهد الإيمان[2] به على مَنِ اتَّصلتْ بمبعثه منهم أيامُ حياته، المَفْزَع الأمنع يومَ الفَزَع الأكبر، والسَّنَد المُعْتَمَدِ عليه في أهوال المَحْشَر، ذي[3] المعجزات التي أثبتتها المشاهَدَةُ والحِسّ، وأَقَرَّ بها الجِنُّ والإنس، من جماد يتكلّم، وجِذْعٍ لفراقه يتألّم، وقمرٍ له يَنْشَقُّ، وحَجَر[4] يشهد أنَّ ما جاء به هو الحقّ، وشمسٍ بدعائه عن مسيرها تُحْبَسُ، وماء من بين أصابعه يتبجَّسُ[5]، وغمامٍ باستسقائه يَصُوبُ، وطَوِيّ بصق في أُجاجها[6] فأصبح ماؤها وهو العَذْبُ المَشْروب، المخصوصِ بمناقب الكمال وكمال المناقب، المُسَمَّى بالحاشر العاقب، ذي[7] المجد البعيد المرامي والمراقب، أكرم من رُفِعَتْ إليه وَسيلةُ المعترف المغترب[8]، ونجحتْ لديه قُرْبَة البعيد والمقترب[9]، سيدِ الرُّسُل محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، الذي فاز بطاعته المُحْسِنُون، واستنقِذ بشفاعته المُذْنبون، وسَعِد باتّباعه الذين لا خَوفٌ عليهم ولا هم يَحْزَنون، ﷺ ما لَمَعَ بَرْق، وهَمَع وَدْق[10]، وطلعت شمس، ونَسَخَ اليومُ أمس.

مِنْ عتيق شفاعته، وعَبدِ طاعته، المعتصمِ بسَبَبه، المؤمنِ بالله ثم به، المستشفي بذكره كلّما تألّم، المفتتح بالصلاة عليه كلّما تكلّم، الذي إن ذُكِرَ تمثَّل طُلُوعَهُ بين أصحابه وآله، وإن هَبَّ النسيمُ العاطرُ وَجَدَ فيه طِيبَ خِلاله، وإن سَمِعَ الأذانَ تَذَكَّرَ صَوْتَ بِلاَلِهِ[11]،

---

(١) في صبح الأعشى: «تُحَيِّيه».

(٢) في صبح الأعشى: «عهد الأنبياء».

(٣) في أصول النفح: «ذو»، وأثبتنا ما في صبح الأعشى.

(٤) في صبح الأعشى: «وشجر».

(٥) يتبجّس: يتفجّر. لسان العرب (بجس).

(٦) الطويُّ: البئر، الأُجاج: الماء المالح. محيط المحيط (طوى) و (أجج).

(٧) في أصول النفح: «ذو».

(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٨٣): «والمغترب».

(٩) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٥٧): «المقترب».

(١٠) هَمَعَ: سقط. الوَدْقُ: المطر. لسان العرب (همع) و (ودق).

(١١) هو أبو عبد الله بلال بن الحبشي، مؤذن سيدنا رسول الله ﷺ، وخازنه على بيت المال. توفي بدمشق سنة ٢٠ هـ. جمهرة أنساب العرب (ص ٢٦٤) ومروج الذهب (جـ ٢ ص ٣٠٠) ولسان العرب (بلل) =

وإن ذُكِرَ القرآنُ استَشْعَرَ تردُّدَ جبريلَ بين معاهِدِه وخلاله[1]، لاثِم تُرْبه، ومُؤَمِّل قُرْبه، ورهين طاعته وحُبِّه، المتوسّل به إلى رضا اللّه ربّه، يوسف بن إسماعيل بن نصر[2].

كتبه[3] إليك يا رسول اللّه والدمْعُ ماح، وخَيلُ الوَجْد ذاتُ جِمَاح، عن شَوقٍ يزداد كلّما نقص الصَّبْر، وانكسار لا يُتَاحُ له إلاّ بدُنُوّ مَزَارك الجَبْر، وكيف لا يُعْيي[4] مشوقَك الأمر، وتُوطَأ على كبده الجمر، وقد مَطَلَتِ الأيامُ بالقدوم على تربك[5] المقدّسة اللحد، ووعدتِ الآمالُ ودانتْ بإخلاف الوَعْد، وانصرفتِ الرفاقُ والعينُ بنور ضريحك ما اكتحلتْ، والركائبُ إليك ما رَحلَتْ، والعزائم قالت وما فعلتْ، والنواظر في تلك المشاهد الكريمة لم تسرَحْ، وطيورُ الآمال عن وُكُور[6] العجز لم تَبْرَحْ، فيا لها من معاهدَ فاز مَنْ حَيَّاها، ومشاهدَ ما أعْطَرَ رَيَّاها! بلاد نِيطَتْ بها عليك التمائم[7]، وأشرقت بنورك منها النجودُ والتهائم، ونزل في حُجُرَاتها عليك المَلَك، وانجلى بضياء فُرْقانِك فيها الحَلَك[8]، مَدَارِسُ الآيات والسُّوَر، ومَطَالعُ المُعْجَزات السافرة الغُرَر، حيث قُضيتِ الفروضُ وحُتمتْ، وافْتُتِحَتْ سورة الرحمن[9] وخُتِمَتْ، وابتُدئتِ المِلّةُ الحنيفيةُ وتُمِّمَتْ، ونُسخت الآيات وأُحكمت.

أما والذي بعثك بالحقّ هاديًا، وأطلعك للخَلْق نُورًا باديًا، لا يطفىء غُلَّتي إلاّ شِرْبُك، ولا يُسَكِّنُ لوعتي إلاّ قُرْبُك، فما أسْعَدَ مَنْ أفاضَ مِنْ حَرَم اللّه إلى حَرَمِك،

والأعلام (جـ ٢ ص ٧٣).

(١) في صبح الأعشى: «وجلاله» بالجاء المهملة.

(٢) هو السلطان أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل بن فرج بن إسماعيل النصري، سابع سلاطين بني الأحمر (٧٣٣ ـ ٧٥٥ هـ). اللمحة البدرية (ص ١٠٢).

(٣) في صبح الأعشى (ص ٤٦٣): «كَتَبْتُهُ يا رسول..».

(٤) في صبح الأعشى: «يُعْنَى مشوقُك بالأمر، ويوطىء..».

(٥) في صبح الأعشى: «تربتك».

(٦) الوكور: جمع وَكْر وهو عشّ الطائر. لسان العرب (وكر).

(٧) التمائم: جمع تميمة وهي خرزة تُنْظَم في السَّير ثم تُعْقد في العُنُق، وقد أخذه ابن الخطيب من قول رقاع بن قيس الأسدي: [الطويل]

بلادٌ بها نِيطَتْ عليَّ تمائمي وأول أرضٍ مَسَّ جلْدي ترابُها

لسان العرب (تمم).

(٨) الحَلَكُ: الظلام الشديد. لسان العرب (حلك).

(٩) في صبح الأعشى (جـ ٦ ص ٤٦٣): «الوحي».

وأصبح بعد أداءِ ما فَرَضتَ عن اللّه ضيفَ كرمك، وعَفَّر الخدَّ في معاهدك ومعاهد أُسرتك، وتردّد ما بين دارَيْ بِعْثتك وهِجْرتك[١]! وإني لما عاقتني عن زيارتك العوائق وإن كان شُغْلي عنك بك، وعَدَتْني[٢] الأعداء فيك عن وَصْل سببي بسببك، وأصبحتُ[٣] بين بحرٍ تتلاطم أمواجُه، وعدوّ تتكاثف أفواجُه، ويحجبُ الشمسَ عند الظهيرة عجَاجُه، في طائفة من المؤمنين بك وَطّنوا على الصبر نفوسَهم، وجعلوا التوكُّلَ على اللّه وعليك لَبُوسَهُم[٤]، ورفعوا إلى مُصارختك رؤوسهم، واستعذبوا في مَرْضاة اللّه تعالى ومَرْضاتك بُوسَهم، يطيرون من هَيْعَة إلى أخْرَى، ويلتفتون[٥] والمخاوف عن يُمْنَى ويُسْرَى، ويُقارعون وهُمُ الفئةُ القليلةُ جموعًا كجموعِ قيصرَ وكسرى، لا يبلغون من عدوّ هو[٦] الذَّرُّ عند انتشاره، عُشْرَ مِعْشاره، قد باعوا من اللّه تعالى الحياة الدنيا، لأن تكون كلمةُ اللّه تعالى هي العُليا، فَيَا لَه من سِرْب مَرُوع، وصريخ إلاَّ منك[٧] ممنوع، ودعاء إلى اللّه وإليك مرفوع، وصِبْيَةٍ حُمْر الحواصل، تَخْفِقُ فوق أوكارها أجنحةُ المَناصل، والصليبُ قد تمطّى فمدّ[٨] ذراعيه، ورَفَعَتِ الأطماع بضَبْعيْه، وقد حُجبتْ بالْقَتَام السماء، وتلاطمتْ أمواج الحديد، والبأس الشديد، فالتقى الماء، ولم يبق إلاَّ الذَّماء[٩]، وعلى ذلك فما ضَعُفَتِ البصائر ولا ساءت الظنون، وما وُعدَ به الشهداءُ تَعْتَقِدُهُ القلوبُ حتى تكاد تشاهده[١٠] العيون، إلى أن نلقاك غدًا إن شاء اللّه تعالى وقد أبْلَينا العُذْر[١١]، وأرْغَمْنا الكُفْر، وأعْمَلْنا في سبيل اللّه تعالى وسبيلك البِيض والسُّمْر[١٢]. استنبتُ[١٣] رقعتي هذه لتطير إليك من شوقي بجناح

---

(١) دار البعثة: مكة. ودار الهجرة: طيبة، أي المدينة المنورة.

(٢) عَدَتْني: شغلتني. لسان العرب (عدا).

(٣) في صبح الأعشى (ص ٤٦٤): «ما بين بحرٍ..».

(٤) اللَّبُوس: الدِّرْع. وفي سورة الأنبياء ٢١، الآية ٨٠: ﴿وعَلَّمْناهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لكمْ لِتُحْصِنكم مِنْ بَأسِكُمْ﴾، سميت بذلك لأنها تُلْبس.

(٥) في صبح الأعشى: «ويتلفتون والمخاوف يمنى..».

(٦) في صبح الأعشى: «كالذَّرّ.. مِعْشار معشاره».

(٧) في صبح الأعشى: «عنك».

(٨) في المصدر نفسه: «ومدّ».

(٩) الذَّمَاء، بالفتح: بقية الروح في المذبوح. لسان العرب (ذمى).

(١٠) في صبح الأعشى: «تراه».

(١١) أبْلَيْنا العُذْرَ: أدّيناه وقدّمناه. لسان العرب (بلى).

(١٢) البِيضُ والسُّمْرُ: أي السيوف والرماح.

(١٣) استنبت: جواب «لمّا عاقتني عن زيارتك العوائق» الواقعة قبل سطورٍ عديدة.

خافق، وتُسْعَد من نيتي التي تصحبُها برفيق مُوَافق، فتؤدّي عن عَبْدك وتُبَلِّغ، وتعفّر الخَدّ في تُرْبك[1] وتمرّغ، وتطيّب بِرَيّا معاهدك الطاهرة وبيوتك، وتَقِف وقوفَ الخضوع[2] والخشوع تجاه تابوتك، وتقول بلسان التملّق، عند التشبّث بأسبابك والتعلّق، مُنْكسرة الطَّرْف، حذِرًا بَهْرجُهَا من عدم الصرف:

يا غياث الأُمّة، وغَمام الرحمة، ارحمْ غربتي وانقطاعي، وتَغَمَّدْ بِطَوْلك قِصَرَ باعي، وقَوّ على هيبتك خَوَرَ[3] طباعي، فكم جُزتُ من لُجّ مَهُول، وجُبْتُ من حُزُون وسُهُول، وقابِلْ بالقَبُول نيابتي، وعَجِّلْ بالرضا إجابتي. ومعلومٌ من كمال تلك الشِّيَم، وسَجَايا تِيك الدِّيَم، أن لا يخيب[4] قَصْدُ من حَطَّ بِفِنائها، ولا يظمأ واردٌ أكبَّ على إنائها.

اللّهمّ، مَنْ جَعَلْتَه أولَ الأنبياء بالمعنى وآخرَهُم بالصورة، وأعطيْتَه لواء الحمد يَسِيرُ آدمُ فمن دونه تحت ظلاله المنشورة، ومَلَّكْتَ أُمّتَهُ ما زُوِي له من زوايا البسيطة المعمورة، وجَعَلْتني من أمّته المجبولة على حُبِّه المفطورة، وشَوَّقْتني إلى مَعَاهده المبرورة، ومشاهده المَزُورة، ووَكَلْتَ لساني بالصلاة عليه، وقَلْبي بالحنينِ إليه، ورغَّبْتني بالتماس ما لديه، فلا تقطع منه أسبابي، ولا تَحْرِمْني من حبّه ثوابي[5]، وتداركْني بشفاعته يوم أَخْذِ كتابي.

هذه يا رسول اللّه وسيلةُ مَنْ بَعُدَت دارُه، وشَطَّ مزارُه، ولم يُجعل بيده اختياره. فإن لم تكن[6] للقَبُول أهلاً فأنت للإغضاء[7] والسماح أهل، وإن كانت ألفاظها وَعْرَةً فجنابُك للقاصدين سهل، وإن[8] كان الحب يُتَوارثُ كما أَخْبَرْت، والعُروقُ تَدُسُّ حسبما إليه أشرت، فلي بانتسابي إلى سعدٍ[9] عميدِ أنصارك مَزِيّة، ووسيلة أثيرة حفيّة[10]، فإن[11] لم

---

(١) في صبح الأعشى (ص ٤٦٥): «تربتك».
(٢) في المصدر السابق: «الخشوع والخضوع».
(٣) الخَوَرُ، بالفتح: الضعف. لسان العرب (خور).
(٤) في صبح الأعشى: «تُخَيَّبَ».
(٥) في المصدر السابق: «في حبّه أجر ثوابي..».
(٦) في صبح الأعشى (ص ٤٦٦): «يكن». وضمير «تكن» يعود إلى «وسيلة»، ويعني بها الرسالة.
(٧) الإغضاء: غضّ الطرف عن الخطإ. لسان العرب (غضا).
(٨) في صبح الأعشى: «وإذا».
(٩) المراد سعد بن عبادة، رضي اللّه تعالى عنه.
(١٠) في صبح الأعشى: «خفية» بالخاء المعجمة.
(١١) في المصدر السابق: «وإن».

يكن لي عملٌ ترتضيه فلي نيّة، فلا تَنْسَني ومَنْ بهذه الجزيرة المفتتحة بسيف كلمتك، على أيدي خِيار أُمّتك، فإنما نحن بها وديعةٌ تحت بعض أقفالك، نعوذُ بوجْهِ ربِّك من إغفالك، ونستنشق من ريح عنايتك نَفحَة، ونرتقب من مُحَيًا[1] قَبُولك لمحة، نُدافع بها عدوًا طغى وبغى، وبلغ من مُضايقتنا ما ابتغى، فمواقف التمحيص قد أَعْيَتْ مَنْ كتب وورَّخ، والبحرُ قد أَصْمَتَ من استصرخ، والطاغيةُ في العُدوان مستبصر، والعدو مُحَلِّقٌ والوَليُّ مُقصِّر. وبجاهك ندفع ما لا نُطِيق، وبعنايتك نُعالج سقيمَ الدِّين فَيُفِيق، فلا تُفرِدْنا ولا تُهمِلْنا، وناد ربّك فينا، ﴿رَبَّنا ولا تُحَمِّلْنا﴾[2]، وطوائف أمّتك حيث كانوا، عنايةٌ منك تكفيهم، وربُّك يقولُ لك وقوله الحَقُّ ﴿وما كانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وأنتَ فيهمْ﴾[3] والصلاة والسلام عليكَ يا خيرَ مَنْ طاف وسَعَى، وأجاب داعيًا إذا دعا، وصلّى اللّه على جميع أحزابك وآلِك، صلاةً تليقُ بجلالك، وتَحِقُّ لكمالك، وعلى ضجيعَيك وصديقَيك، وحبيبَيك ورفيقيك، خليفتك في أمّتك، وفارُوقك المُسْتَخْلَف بعده على جِلَّتك، وصِهْرِكَ ذي النُّورَين المخصوص ببرّك ونِحْلتك، وابنِ عمِّك سَيْفِكَ المسلولِ على حلتك، بدرِ سمائك ووالد أَهِلَّتك، والسلام الكريم عليك وعليهم كثيرًا أثيرًا، ورحمة اللّه تعالى وبركاته. وكتب[4] بحضرة جزيرة الأندلس غَرْناطة، صانها اللّه تعالى ووَقّاها! ودَفَع عنها ببركتك كيدَ عِدَاها»! انتهت الرسالة.

وكتب أيضًا إلى رسول اللّه ﷺ على لسان مخدومه السلطان الغني باللّه محمد ابن السلطان أبي الحجاج - رحم اللّه تعالى الجميع! - ما صورتُه: [الطويل]

دَعاكَ بأقصى المغربَينِ غريبُ	وأنتَ، على بُعْدِ المزار، قريبُ
مدلٌّ بأسبابِ الرجاء وطرفُهُ	غضيضٌ على حكم الحياء مريبُ
يكلفُ قرصَ البدر حملَ تحيّةٍ	إذا ما هوى والشمسَ حين تغيبُ
لترجعَ من تلك المعالم غدوةً	وقد ذاعَ من ردِّ التحيّة طِيبُ
ويستودعُ الريحَ الشمالَ شمائلاً	من الحبِّ لم يعلمْ بهنّ رقيب
ويطلبُ في جيبِ الجُيوب جوابها	إذا ما أطلَّتْ والصباحُ جنيب

---

(١) في صبح الأعشى: «من نور مُحَيّا. . .».
(٢) سورة البقرة ٢، الآية ٢٨٦.
(٣) سورة الأنفال ٨، الآية ٣٣.
(٤) في صبح الأعشى (ص ٤٦٧): «من حضرة جزيرة. . .».

ويَستَفْهِمُ الكَفُّ الخضيبَ ودمعَه غرامًا بحنّاءِ النجيعِ خضيبُ[1]
ويَتْبَعُ آثارَ المطيِّ مشيّعًا وقد زَمْزَمَ الحادي وحَنَّ نجيب
إذا أثر الأخفافِ لاحتْ محاريًا يخرُّ عليها راكعًا وينيب
ويلقي ركابَ الحجِّ وهي قوافلٌ طِلاَحٌ وقد لبّى النداءَ لبيبُ
فلا قولَ إلاَّ أنّةٌ وتوجّعٌ ولا حولَ إلاَّ زفرةٌ ونحيب
غليلٌ ولكنْ من قبولك منهلٌ عليلٌ ولكنْ مِنْ رضاك طبيبُ
ألاَ ليت شعري والأمانيُّ ضَلّةٌ وقد تخطىءُ الآمالُ ثمّ تصيب
أينجدُ نجدٌ بعد شَحْطِ مزارِهِ ويكثُبُ بعد البعد منه كَثيبُ
وتُقْضَى ديوني بعد ما مَطَلَ المدى وينفُذُ بيعي والمَبيعُ معيب
وهل أقتضي دهري فيسمح طائعًا وأدعو بحظّي مسمعًا فيجيب
ويا ليت شعري هل لِحَوبِيَ موردٌ[2] لديك؟ وهل لي في رضاك نصيب
ولكنك المولى الجوادُ وجاره على أيّ حالٍ كان[3] ليس يخيب
وكيف يضيقُ الذَّرعُ يومًا بقاصدٍ وذاك الجنابُ المستجارُ رَحِيبُ
وما هاجني إلاَّ تألّقُ بارقٍ يلوحُ بفَود الليلِ منه مشيب
ذكرتُ به رَكْبَ الحجاز وجيرةً أهابَ بها نحو الحبيب مُهيب
فبتُّ وجفني من لآلىءِ دَمْعِهِ غنيّ وصبري للشجون سليب[4]
ترنّحني الذكرى ويهفو بي الهوى[5] كما مال غصنٌ في الرياض رطيب
وأحضرُ تعليلاً لشوقيَ بالمنى ويطرقُ وجدٌ غالبٌ فأغيب
مراميَ، لو أُعْطِى الأمانيّ، زورةٌ يُبَثُّ غرامٌ عندها ووجيب
فقولُ حبيبٍ إذ يقول تشوّقًا عسى وطنٌ يدنو إليَّ حبيبُ
تعجّبْتُ من سيفي وقد جاور الْغَضَا بقلبي فلم يسبكْه منه مذيب
وأعجبُ أن لا يورقَ الرمحُ في يدي ومن فوقه غيثُ المَشُوق سكيبُ

---

(١) هذا البيت والذي بعده ساقطان من طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٨٧).
(٢) المورد: مكان ورود الماء. لسان العرب (ورد).
(٣) كلمة «كان» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٤) سليب: مسلوب، يريد أن يقول إنه لا صبر له.
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٦٢): «الجوى».

فيا سَرْحَ ذاكَ الحيِّ لو أخلف الحَيَا ... لأغناكَ من صَوبِ الدموعِ صبيب
ويا هاجِرَ الجوُّ الجديدِ تلبُّثًا ... فعهديَ رطبُ الجانبين خصيب
ويا قادحَ الزند الشَّحاح ترفَّقًا ... عليكَ فشوقي الخارجيُّ شَبيبُ
أيا خاتمَ الرسلِ المكينِ مكانُهُ ... حديثُ الغريبِ الدار فيك غريب
فؤادي على جمرِ البعادِ مقلَّبُ ... يُماحُ عليه للدموع قليبُ
فوالله ما يزدادُ إلاَّ تلهُّبًا ... أأبصرتَ ماءً ثار عنهُ لهيب
فليلتُهُ ليلُ السليم ويومُهَا ... إذا شُدَّ للشوق العصاب عصيب
هواي هُدًى فيك اهتديتُ بنوره ... ومنتسبي للصحب منك نسيب
وحَسْبِيَ على أني لصحبك مُنْتَمٍ ... وللخزرجيِّينَ الكرامِ نسيبُ
عدتْ عن مغانيك المشوقةِ للعدا ... عَقاربُ لا يخفى لهنَّ دبيب
جِرَاصٌ على إطفاء نورٍ قَدَحْتَهُ ... فمستلَبٌ من دونه وسليب
فكم من شهيدٍ في رضاك مجدَّلٍ ... يظلّله نَسْرٌ ويندبُ ذيب
تمرُّ الرياحُ الغُفْلُ فوق كلومهم ... فتعبقُ من أنفاسها وتَطيب
لنصرك[1] عنك الشغلُ من غير منّةٍ ... وهل يتساوى مَشْهَدٌ ومَغيب
فإن صحَّ منك الحظُّ طاوعني[2] المُنى ... ويبعدُ مرمَىٰ السهم وهو مُصيب
ولولاك لم يُعْجَمْ من الروم عُودها ... فَعُودُ الصليبِ الأعجميِّ صليب
وقد كانتِ الأحوالُ، لولا مراغبٌ ... ضمنتَ ووعدٌ بالظهور، تريبُ[3]
فما شئتَ مِنْ نصرٍ عزيزٍ وأنْعُمٍ ... أثاب بهنَّ المؤمنين مُثيب
منابرُ عزّ أذَّنَ الفتحُ فوقها ... وأفصحَ للعضبِ الطرير خطيبُ[4]
تَقُودُ إلى هيجائها كلَّ صائلٍ ... كما ريعَ مكحولُ اللحاظ رَبِيبُ
ونجتابُ مِنْ سَرْدِ اليقين مدارعًا ... يكفُتُها[5] من يجتني ويثيب

(١) في الطبعة نفسها: «بنصرك».
(٢) في الطبعة نفسها (ص ٣٦٣): «طاوعت».
(٣) تُريب: تبعث على الريبة أي الشكّ. لسان العرب (ريب).
(٤) العضب: السيف. الطرير: اللين المهز. لسان العرب (عضب) و (طرر).
(٥) يَكْفُتُها: يضمّها.

إذا اضطربَ الخطيُّ حول غديرِها يروقُكَ منها لُجَّةٌ وقَضيبُ
فعذرًا وإغضاءً ولا تَنسَ صارخًا بعزِّك يرجو أن يجيبَ مجيب
وجاهك بَعْدَ اللّهِ نرجو، وإنه لَحَظٌّ مليءٌ بالوفاء رغيب
عليك صلاةُ اللّه ما طَيَّبَ الفضا عليك مطيلٌ بالثناء مطيب
وما اهتزَّ قَدٌّ للغصون مُرَنَّحٌ وما اُفترَّ ثَغرٌ للبروق شَنيبُ

«إلى حجّة اللّه تعالى المؤيّدة ببراهين أنواره، وفائدة الكون ونكتة أدواره، وصفوة نوع البَشَر ومنتهى أطواره، إلى المجتبى وموجود الوجود لم يَغْنَ بمطلقِ الوجودِ عديمه، المصطفى من ذرّيّة آدم قبل أن يكسو العظامَ أديمه، المحتوم في القِدم، وظلمات العدم، عند صدق القَدَم، تفضيلُه وتقديمُه، إلى وديعةِ النور المنتقل في الجباه الكريمة والغرر، ودرّة الأنبياء التي لها الفضل على الدُّرَر، وغمامِ الرحمةِ الهاميةِ الدِّرَر، إلى مختار اللّه تعالى المخصوص باجتبائه، وحبيبه الذي له المزية على أَحبّائه، وذرّيّة أنبياء اللّه تعالى آبائه، إلى الذي شرح صدره وغسله، ثم بعثه واسطة بينه وبين العباد وأرسله، وأتَمَّ عليه إنعامه الذي أجزله، وأنزل عليه من الهدى والنور ما أنزله، إلى بشرى المسيح والذبيح، ومن لهم التَّجْر الربيح، المنصور بالرعب والريح، المخصوص بالنسب الصريح، إلى الذي جعله في المُحُولِ غمامًا، وللأنبياء إمامًا، وشقّ صدره لتلقّي روح أمره غُلامًا، وأعلم به في التوراة والإنجيل إعلامًا، وعلم المؤمنين صلاةً عليه وسلامًا، إلى الشفيع الذي لا تُرَدُّ في العصاة شفاعته، والوجيه الذي قُرنت بطاعةِ اللّه تعالى طاعتُه، والرؤوف الرحيم الذي خلصت إلى اللّه تعالى في أهل الجرائم ضَرَاعته، صاحب الآيات التي لا يسعُ ردُّها، والمعجزات التي أربى على الألف عدُّها، فمن قمر شُقَّ، وجذع حنّ له وحقّ، وبنان يتفجّر بالماء، فيقوم بريَّ الظماء، وطعامٍ يُشبعُ الجمع الكثير يسيرُه، وغمام يُظَلِّلُ به مقامه ومسيره، خطيب المقام المحمود إذا كان العرض، وأول من تنشقُّ عنه الأرض، ووسيلة اللّه تعالى التي لولاها ما أقرض القرض، ولا عرف النَّفْل[1] والفرض، محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف المحمود الخلال من ذي الجلال، الشاهد بصدقه صحفُ الأنبياء وكتب الأرسال، وآياته التي أثلجت القلوب ببرد اليقين السلسال، ﷺ ما ذرَّ شارق[2]،

(١) النفْلُ: ما تفعله ممّا لم يجب. محيط المحيط (نفل).
(٢) ما ذرَّ شارق: كلما طلعت الشمس. لسان العرب (ذرر).

وأومض بارق، وفرّق بين اليوم الشامس والليل الدامس فارق، صلاة تتأرّج على شذى الزهر، وتتبلّج عن سنا الكواكب الزُهر، وتتردّد بين السِّرّ والجهر، وتستغرق ساعات اليوم وأيام الشهر، وتدوم بدوام الدهر.

من عبد هُدَاه، ومستقري[1] مَوَاقع نداه، ومزاحم أبناء أنصاره في منتداه، وبعضِ سهامه المفوقة[2] إلى نحور عداه، مؤمِّل العتق من النار بشفاعته، ومحرز طاعة الجبّار بطاعته، الآمن باتّصال رعيه من إهمال اللّه تعالى وإضاعته، متّخذ الصلاة عليه وسائل نجاة، وذخائر في الشدائد مُرْتَجاة، متاجر بضائعها غير مُزْجاة[3]، الذي ملأ بحبّه جوانح صدره، وجعل فكره هالة لبدره، وأوجب حقّه على قَدْر العبد لا على قَدْره، محمد بن يوسف بن نصر الأنصاري الخزرجي، نسيب سعد بن عُبَادة من أصحابه، وبوارق سحابه، وسيوف نصرته، وأقطاب دار هجرته، ظلّله اللّه تعالى يوم الفزع الأكبر من رضاك عنه بظلال الأمان! كما أنار قلبه من هدايتك بأنوار الهدى والإيمان، وجعله من أهل السياحة في فضاء حُبِّك والهيمان!

كتبه إليك يا رسولَ اللّهِ واليراع تقتضي الهيبة صفرة لونه، والمداد يكاد أن يحول سواد جَونه، وورقة الكتاب يخفق فؤادُها حرصًا على حفظ اسمك الكريم وصَونه، والدمعُ يقطر فتنقط به الحروف وتفصل الأسطر، وتوهُّمُ المثولِ بمثواك المقدّس لا يمرُّ بالخاطر سواه ولا يخطر، عن قلب بالبعد عنك قَريح[4]، وجفن بالبكاء جريح، وتأوّه عن تبريح[5]، كلّما هَبَّ من أرضك نسيم ريح، وانكسار ليس له إلاّ جَبْرك[6]، واغتراب لا يؤنس فيه إلاّ قربك، وإن يُقْضَ فقبرك، وكيف لا يسلم في مثلها الأسى، ويوحش الصباح والمسا، ويرجفُ جبل الصبرِ بعدما رَسَا، لولا لَعَلَّ وعسى، فقد سارتِ الركبانُ إليك ولم يُقْضَ مَسير، وحومت الأسرابُ عليك والجناحُ كَسير، ووعدت الآمال فأخلفت، وحلفت العزائم فلم تَفِ بما حلفت، ولم تحصل النفس من تلك المعاهد ذات الشرف الأثيل، إلاّ

(١) المستقري: المتتبع، لسان العرب (قرا).

(٢) يقال: فَوَّقَ السَّهْمَ إذا وجّهه وصوّبه نحو الهدف. لسان العرب (فوق).

(٣) غير مُزْجاة: لم يتمّ صلاحها؛ قال اللّه تعالى: ﴿وجِئْنا بِبِضاعَةٍ مُزْجاةٍ﴾. سورة يوسف ١٢، الآية ٨٨.

(٤) القريح: الجريح. لسان العرب (قرح).

(٥) التبريح: الإجهاد. لسان العرب (برح).

(٦) الجَبْرُ: إصلاح العظم. لسان العرب (جبر).

على التمثيل، ولا من المعالم الملتمسة التنوير، إلاّ على التصوير، مَهْبط وحي اللّه تعالى ومتنزّل أسمائه، ومُتَردّد ملائكة سمائه، ومدافن أوليائه، وملاحد أصحاب خيرة أنبيائه، رزقني اللّه تعالى الرضا بقضائه، والصَّبْرَ على جاحم البعد ورَمْضائه. من حمراء غرناطة حرسها اللّه تعالى دار ملك الإسلام بالأندلس قاصية سيلك، ومسحبة رَجْلك يا رسولَ اللّه وخَيلك، وأنأى مَطَارح دعوتك ومساحب ذيلك، حيث مصافّ الجهاد في سبيل اللّه وسبيلك قد ظلّلها القَتَام، وشُهْبَان الأسنّة أطلعها منه الإعتام، وأسواق بيعِ النفوسِ من اللّه تعالى قد تعدّد بها الأيامى[1] والأيتام، حيث الجراحُ قد تحلّت بعسجد نجيعها النحور، والشهداء تحفُّ بها الحور، والأمم الغريبة قد قطعها عن المدد البحور، حيث المباسم المُفْتَرّة، تجلوها المصارع البَرّة، فتحييها بالعَرَاء ثغورُ الأزاهر، وتندبها صَوَادحُ الأدواح برنّات تلك المزاهر، وتحمل[2] السحابُ أشلاءها المعَطّلة من ظلّها بالجواهر، وحيث الإسلام من عدوّه المكايد بمنزلة قطرةٍ من عارضٍ غمام، وحَصَاةٍ من ثَبير[3] أو شمام[4]، وقد سدّت الطريق، وأسلم الفراقُ الفريق، وأغصّ الريق، ويئس من الساحل الغريق، إلاّ أنّ الإسلام بهذه الجهة المتمسكة بحبل اللّه تعالى وحَبْلك، المهتدية بأدِلّة سُبْلك، سالم والحمد للّه تعالى من الانصداع، محروسٌ بفضل اللّه تعالى من الابتداع، مقدودٌ من جديد الملّة، معدومٌ فيه وجودُ الطوائف المُضِلّة، إلاّ ما يخصّ الكفر من هذه العلّة، والاستظهار على جمع الكثرة من جموعه بجمع القلّة. ولهذه الأيام، يا رسول اللّه، أقام اللّه تعالى أَوَده[5] برًّا بوجهك الوجيه ورَعْيًا، وإنجازًا لوعدك وهو الذي لا يخلف وعدًا ولا يخيب سَعْيًا، وفتح لنا فتوحًا أشعرتنا برضاه عن وطننا الغريب، وبشّرتنا منه تعالى بغفر التقصير ورفع التثريب[6]، ونصرنا وله المنّة على عَبَدَة الصليب، وجعل لألَفِنا الرُّدَيْني[7] ولأَمِنَا

---

(١) الأيامى: جمع أَيِّم وهي المرأة التي قتل زوجها. لسان العرب (أيم).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٦٥): «وتحلّي».

(٣) ثبير: أعلى جبال مكة وأعظمها. الروض المعطار (ص ١٤٩).

(٤) شمام: اسم جبل لباهلة، وهو جبل أشمّ طويل الرأس. معجم البلدان (جـ ٣ ص ٣٦١).

(٥) الأَوَدُ، بالفتح: الاعوجاج. لسان العرب (أود).

(٦) التثريب: اللوم والتقريع. لسان العرب (ثرب).

(٧) الرديني: أي الرماح المنسوبة إلى ردينة وهي امرأة من خطّ هجر كانت هي وزوجها سمهر يقوّمان الرماح. محيط المحيط (ردن).

السَّرْدِي[1] حكم التغليب، وإذا كانت الموالي التي طوّقت الأعناق مِنَنُهَا، وقرّرت العوائد الحسان سيرها وسننها، تبادر إليها نوّابها الصرحاء وخدّامها النصحاء بالبشائر، والمسرّات التي تشاع في العشائر، وتجلو لديها نتائج أيديها، وغايات مَبَاديها، وتُتاحِفُها وتُهاديها، بمجاني جناتها وأزاهر غَوَاديها، وتطرف محاضرها بطُرَفِ بواديها، فبابُكَ يا رسولَ اللّه أولى بذلك وأحَقّ، ولك الحقّ الحقّ، والحرُّ مِنَا عَبْدُك المسترقُّ، حسبما سَجَّله الرّقّ، وفي رضاك مِنْ كلّ مَنْ يلتمس رضاه المطمع، ومَثْوَاك المَجْمَع، وملوك الإسلام في الحقيقة عبيد سُدَّتك المؤملة، وخَوَلُ مثابتك[2] المحسنة بالحسنات المجملة، وشهب تعشو إلى بدورك المكملة، وبعض سيوفك المقلّدة في سبيل اللّه تعالى المحملة، وحَرَسَة مِهادك، وسلاح جهادك، وبروق عِهادك[3]. وإنّ مكفول احترامك الذي لا يخفر، ورَبِيِّ إنعامك الذي لا يكفر[4]، وملتحف جاهك الذي يمحى ذنبه بشفاعتك إن شاء اللّه تعالى ويُغْفَر، يطالع روضة الجنّة المفتّحة أبوابها بمَثْوَاك، ويفاتح صِوَان[5] القُدُس الذي أجَنَّك[6] وحَوَاك، وينثر بضائع الصلاة عليك بين يدي الضريح الذي طَوَاك، ويعرض جنى ما غرست ويذرت، ومصداق ما بشرت به لما بشرت وأنذرت، وما انتهى إليه طَلَقُ جهادك، ومَصَبُّ عِهادك، لتقرَّ عينُ نصحك التي أنام العيونَ الساهرةَ هجوعُها، وأشبع البطونَ وروّاها ظمؤها في اللّه تعالى وجُوعُها، وإن كانت الأمور بمرأى من عَيْن عنايتك، وغيبها متعرّف بين إفصاحك وكنايتك، ومجمله يا رسول اللّه صلّى اللّه عليك، وبلّغ وسيلتي إليك، هو أنَّ اللّه سبحانه لـمّا عرفني لطفه الخفي في التمحيص، المقتضي عدم المحيص، ثم في التخصيص، المغني بِعيانه عن التنصيص، وفّق ببركاتك السارية رحماتها في القلوب، ووسائل محبّتك العائدة بنيل المطلوب، إلى استفادة عظة واعتبار، واغتنام إقبال بعد إدبار، ومزيد استبصار، واستعانة باللّه تعالى وانتصار، فسكن هبوبُ الكفر بعد إعصار، وحُلَّ

---

(١) اللامُ السرديّ: أي الدروع.

(٢) الخَوَلُ، بالفتح: الخَدَم. المثابة: مكان الإقامة، أو المكان الذي يُثاب إليه أي يُرْجَعُ إليه. محيط المحيط (خول) و (ثوب).

(٣) العِهاد: المطر. لسان العرب (عهد).

(٤) لا يكفر: لا يجحد. لسان العرب (كفر).

(٥) الصِّوان، بكسر الصاد وضمّها: الوعاء الذي يُصان فيه. محيط المحيط (صون).

(٦) أجَنَّكَ: سترك. لسان العرب (جنن).

مخنّقُ الإسلام بعد حِصار، وجرت على سنن السُّنَّة بحسب الاستطاعة والمنّة السيرة، وجُبرت بجاهك القلوب الكسيرة، وسُهّلت المآرب العسيرة، ورفع بيد العزّة الضّيم، وكشف بنور البصيرة الغَيم، وظهر القليل على الكثير، وباء الكفرُ بخطّة التعثير، واستوى الدينُ الحنيف على المهاد الوَثير، فاهتبلنا يا رسول اللّه غِرّة العدوّ وانتهزْناها، وشِمْنَا صَوَارم عزّة الغُدُوّ وهَزَزْنَاها، وأزحْنا علل الجيوش وجهزناها. فكان مِمّا ساعد عليه القدر، والخطبُ المبتدَر، والوِرْد الذي حصل[1] بعده الصَّدَر، أنّنا عاجلْنا مدينة بُرْغُه[2]، وقد جَرَّعَت الأختين مالقة ورُنْدَه، من مدائن دينك، ومزابِن[3] ميادينك، أكؤسَ[4] الفِراق، وأذكرت مثل مَنْ بالعراق، وسدّت طرق التزاور عن الطُّراق، وأسالتِ المسيلَ بالنجيع[5] المُرَاق، في مراصد المراد والمَرَاق[6]، ومنعت المراسلة مع هدير[7] الحمام، لا بل مع طَيف المنام عند الإلمام، فيسَّر اللّه تعالى اقتحامها، وألحمت بيض الشفار في زُرْق الكفار إلحامها، وأزال بَشَرُ السيوف من بين تلك الحروف إقحامها، فانطلق المَسْرَى، واستبشرت القواعدُ الحَسْرَى، وعدمت بطريقها المخيف مصارع الصَّرْعَى ومثاقف الأَسْرَى، والحمد للّه على فتحه الأسنى ومَنْحِه الأسرى، ولا إله إلاّ هو منفِّل قيصر وكسرى، وفاتح مغلقاتهما المنيعة قَسْرا، واستولى الإسلام منها على قرار جنات، وأم بنات، وقاعدة حصون، وشجرة غصون، طهّرت مساجدها المغتصبة المكرهة، وفجع بحفظها الفيل الأفيل وأبرهة، وانطلقت بذكر اللّه الألسنة المِدْرَهة، وفاز بسبق ميدانها جيادك الفُرَّهَة، هذا وطاغية الروم على توفّر جموعه، وهَول مرئيه ومسموعه، قريبٌ جوارُه، بحيث يتّصل خُوَاره، وقد حرّك إليها الحنين حِوَاره. ثم نازل المسلمون بعدها شجا الإسلام الذي أعيا النطاسيَّ علاجُه، وكرك[8] هذا القطر الذي لا تُطاول أعلامه ولا تصاول أعلاجه، وركاب

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٦٧): «حَسُنَ».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٩٤): «بزغة» بالزاي المعجمة. وبرغة: بالإسبانية **Burgo**، وهي مدينة تقع بين رندة ومالقة.

(٣) المزابن: جمع زبون؛ يقال: حرب زبون: أي متلاحقة يدفع بعضها بعضًا. لسان العرب (زبن).

(٤) في طبعة دار صادر: «أكواس».

(٥) النجيع: الدم. لسان العرب (نجع).

(٦) المراق: أصل القول: المراقي، جمع مرقاة وهي السلّم ونحوه. لسان العرب (رقى).

(٧) في طبعة عبد الحميد: «هدى».

(٨) يريد حصن الكرك، الذي كان له شأنه ومنعته في الحروب الصليبية.

الغارات التي تطوي المراحل إلى مُكايدة المسلمين طي البرود، وحجر الحيّات التي لا تخلع على اختلاف الفصول جلود الزرود، ومُنَغِّص الورود في العذب المورود، ومُقِضُّ[1] المضاجع، وحلم الهاجع، ومجهّز الخطب الفاجىء الفاجع، ومستدرك فاتكة الراجع، قبل هبوب الطائر الساجع، حصن آشر[2] حماه اللّه تعالى دعاء لا خبرًا، كما جعله للمتفكرين في قدرته معتبرًا، فأحاطوا به إحاطة القلادة بالجِيد، وأذلّوا عزّته بعزة ذي العرش المَجيد، وحفّت به الرايات يَسِمُها وَسْمُك، ويلوح في صفحاتها اسمُ اللّه تعالى واسْمُك، فلا ترى إلاّ نفوسًا تتزاحم على مَورد للشهادة أسرابها، وليوثًا يَصْدُق في اللّه تعالى ضِرابُها، وأرسل اللّه عليها رِجْزًا إسرائيليًا من جَرَاد السهام، تشذّ آياته عن الأفهام، وسدّد إلى الجبل النفوس القابلة للإلهام، من بعد الاستغلاق والاستبهام، وقد عبثت جوارح صخوره في قنائص الهام، وأعيا صَعْبُه على الجيش اللُّهَام، فأخذ مسائِغَهُ النقضُ والنقبُ، ورَغَا فوق أهله السَّقْب[3]، ونُصبت المعارج والمَرَاقي، وقُرعت المناكب والتراقي، واغتنم الصادقون مع اللّه تعالى الحظّ الباقي، وقال الشهيد السابق: يا فوز استباقي، ودخل البلد فالتحم[4] السيف، واسْتُلِبَ البَخْتُ والزيف، ثم استخلصت القصبة فعلت أعلامُكَ في أبراجها المشيدة، وظفر ناشِدُ دينك منها بالنشيدة[5]، وشكر اللّه تعالى في قصدها مساعيَ النصائح الرشيدة، وعمل ما يرضيك يا رسول اللّه في سدّ ثَلْمها، وصَون مستلمها، ومُدَاواة ألمها، حرصًا على الاقتداء في مثلها بأعمالك، والاهتداء بمِشْكَاة كمالك، ورتب فيها الحماة تشجي العدو، وتصل في مرضاة اللّه تعالى ومرضاتك برواحها الغُدُوّ. ثم كان الغزو إلى مدينة إطريرة[6] بنت حاضرة الكفر إشبيلية التي أظلّتها بالجناح الساتر، وأنامتها في ضَمَان الأمان للحُسَام الباتر، وقد وتر الإسلام من هذه الموسمة[7] البائسة بوتر الواتر، وأُحفظَ منها

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٩٤): «ومُغِضّ».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٩٥): «أشب». وحصن آشر: بالإسبانية Iznajar، ويقع على ضفة أحد روافد نهر شنيل Genil.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «الصقب» بالصاد. والسَّقْبُ: ولد الناقة. وهنا إشارة إلى ما حلّ بقوم صالح عندما عقروا الناقة، فيقال في المثل: «رغا فوقهم السَّقْب». لسان العرب (سقب).

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٦٩): «فألحم».

(٥) النشيدة: الضالة التي تنشد أي تطلب. لسان العرب (نشد).

(٦) إطْريرة: بالإسبانية Utrera، مدينة إلى الجنوب الشرقي من إشبيلية على بعد ٣٩ كلم.

(٧) الموسمة: المطروقة والمقصودة، وأراد بها مدينة إطريرة التي غزتها جحافل التحرير.

بأذى الوَقاح المهاتر، لما جرّته على أسراه من عمل الخاتل الخاتر، حَسْبَ المنقول لا بل المتواتر، فطوى إليها المسلمون المدى النازح، ولم تشكُ المطيُّ الروازح، وصدق في[1] الجِدِّ جَدّها المازح، وخفقت فوق أوكارها أجنحةُ الأعلام، وغشيتها أفواجُ الملائكة الموسومة وظلالُ الغمام، وصابت من السهام وَدْق الرِّهَام[2]، وكاد يكفي السهام على الأرض ارتجاج أطوادها بكلمة الإسلام، وقد ضَمَّ خاطبُ عروس الشهادة عن الملام، وسمح بالعزيز المَصُون مبايع الملك العلاّم، وتكلّم لسانُ الحديد الصامت وصمت إلاّ بذكر اللّه لسانُ الكلام، ووفت الأوتار بالأوتار، ووصل بالْخَطِّيّ ذرع[3] الأبيض البتّار، وسلّطت النار على أربابها، وأذن اللّه تعالى في تَبار تلك الأمة وتَبابها[4]، فنزلوا على حكم السيف آلافًا، بعد أن أُتلفوا بالسلاح إتلافًا، واستوعب المقاتلة أكنافًا، وقُرِنُوا في الجُدُل أكتافًا[5]، وحُملت العقائل والخرائد، والولدان والولائد، إركابًا من فوق الظهور وإردافًا، وأقلت منها أفلاكُ الحمول بدورًا تضيء من ليالي المحاق أسدافًا[6]، وامتلأت الأيدي من المواهب والغنائم، بما لا يصوّره حلم النائم، وتركت العَوَافي تتداعى إلى تلك الولائم، وتفتنُّ من مطاعمها في الملائم، وشُنَّت الغارات على حمص فجلّلت خارجها مغارًا، وكست كبار الروم بها صَغَارًا، وأجحرت أبطالها إجحارًا، واستاقت من النَّعم ما لا يقبل الحصر استبحارًا. ولم يكن إلاّ أن عدل القسم، واستقلّ بالقفول العزيز الرسم، ووضح من التوفيق الوَسْم، فكانت الحركة إلى قاعدة جَيّان قيعة الظلّ الأبرد، ونسيجة المنوال المفرد، وكِناس الغِيد الخُرَّد، وكرسيّ الإمارة، وبحر العمارة، ومهوى هوى الغيث الهَتُون، وحزب التين والزيتون، حيث خندق الجنّة تدنو لأهل النار مَجَانيه، وتشرق بشواطيء الأنهار إشراق الأزهار زُهْرُ مبانيه، والقلعة التي تَخَتَّمَتْ بنانُ شرفاتها بخواتم[7] النجوم، وهَمَتْ من دون سحابها البيض سحائبُ الغيث السُّجُوم، والعقيلة التي أبدى الإسلام يوم طلاقها، وهجوم

---

(١) في طبعة دار صادر: «وصدق الجِدّ جَدّها».

(٢) الوَدْقُ: المطر. الرهام: جمع رهمة وهي المطر الضعيف الدائم. لسان العرب (ودق) و (رهم).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٩٦): «درع» بالدال المهملة.

(٤) التّبار والتّباب: كلاهما بمعنى الهلاك. لسان العرب (تبر) و (تبب).

(٥) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٧٠): «أكتافًا أكتافًا».

(٦) الأسداف: جمع سدفة وهي الضوء. محيط المحيط (سدف).

(٧) في طبعة دار صادر: «بخواتيم».

فراقها، سِمَة الوجوم لذلك الهجوم، فرمتها البلاد المسلمة بأفلاذ أكبادها الوادعة، وأجابت منادي دعوتك الصادقة الصادعة، وحَبَتْها بالفادحة الفادعة، فغَصَّتِ الرُّبَا والوهاد بالتكبير والتهليل، وتجاوبت الخيلُ بالصَّهيل، وانهالت الجموعُ المجاهدة في اللّه تعالى انهيالَ الكَثِيب المَهِيل، وفهمت نفوسُ العباد المجاهدة في اللّه تعالى حقَّ الجهاد معانيَ التيسير من ربِّها والتسهيل، وسفرت الرايات عن المرأى الجميل، وأربت المحلاّت المسلمة على التأميل، ولَمَّا صبحتها النواصي المقبلة الغُرَر، والأعلام المكتتبة الطُّرَر، برز حاميتها مُصْحِرِين[(١)]، وللحوزة المستباحة مستنصرين[(٢)]، فكاثرهم من سَرَعَان الأبطال رَجْلُ الدَّبَى[(٣)]، ونَبَتُ الوهاد والرُّبا، فأقحموهم من وراء السور، وأسرعت أقلام الرماح في بسط عددهم المكسور، وتركت صرعاهم ولائمَ للنسور، ثم اقتحموا رَبَضَ المدينة الأعظم فافترعوه[(٤)]، وجَدّلوا مَنْ دافع عن أسواره وصَرَعُوه، وأكؤسَ[(٥)] الحتوف جَرَّعوه، ولم يتّصل أُولى الناس بأُخراهم، ويحمد بمخيم النصر العزيز سُرَاهم، حتى خذل[(٦)] الكافرَ الصبرُ وأسلم الجَلَد، وأنزل على المسلمين النصر فدُخِل البلد، وطاح في السيل الجارف الوالد منه والولد، وأتهم المطرف والمتلد، فكان هولاً بعيدَ الشناعة، وبعثًا كقيام الساعة، أعجل المجانيق عن الركوع والسجود، والسلالم عن مطاولة النجود، والأيدي عن ردم الخنادق والأغوار، والأكبُش عن مناطحة الأسوار، والنفوط عن إصعاق الفجار، وعمد الحديد، ومعاول البأس الشديد، عن نقب الأبراج ونقض الأحجار، فهِيلَتِ الكُثبَان، وأُبيد الشيب والشبان، وكسرت الصُّلبان، وفجع بهدم الكنائس الرهبان، وأُهبطت النواقيسُ من مَرَاقيها العالية وصروحها المتعالية، وخلعت ألسنتها الكاذبة، ونقل ما استطاعته الأيدي المجاذبة، وعجزت عن الأسلاب ذوات الظهور، وجلّل الإسلام شعار العزّ والظهور، بما خلت عن مثله سوالف الدهور والأعوام والشهور، وأعرست الشهداء ومن[(٧)] النفوس

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٩٧): «حامياتها». ومصحرين: بارزين، ظاهرين. لسان العرب (صحر).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٧١): «منتصرين».

(٣) الرَّجْلُ: الجماعة. الدَّبى: أسراب الجراد. لسان العرب (رجل) و (دبا).

(٤) في طبعة دار صادر: «فقرعوه».

(٥) في الطبعة نفسها: «وأكواس».

(٦) في طبعة عبد الحميد: «جذل».

(٧) في الطبعة نفسها: «ومنوا».

المبيعة من اللّه تعالى نحل الصدقات والمهور، ومن بعد ذلك هُدم السور، ومحيت عن محيطه المحكم السطور، وكاد يسير ذلك الجبلُ الذي اقتعدته المدينة ويدك ذلك الطور، ومن بعد ما خرب الوِجار، عُقرت الأشجار، وعُفِّر المنار، وسلطت على بنات التراب والماء النار، وارتحل عنها المسلمون وقد عمّتها المصائب، وأصمى لَبَّتَها[1] السهمُ الصائب، وجلّلتها القَشَاعِمُ[2] العصائب، فالذئاب في الليل البهيم تعسل[3]، والضباع من الحَدَبِ البعيد تنسل، وقد ضاقت الجُدُلُ عن المخانق، وبيع العرضُ الثمينُ بالدانق، وسُبكت أسورة الأسوار، وسوّيت الهضاب بالأغوار، واكتسحت الأحوازَ القاصيةَ سرايا المِغْوَار[4]، وحجبت بالدخان مطالع الأنوار، وتخلّفت قاعتها عبرة للمعتبرين، وعظة للناظرين، وآية للمستبصرين، ونادى لسان الحمية، يا لثارات[5] الإسكندرية، فأسمع آذان المقيمين والمسافرين، وأحَقَّ اللَّهُ الحقَّ بكلماته وقطع دابر الكافرين.

ثم كانت الحركة إلى أختها الكبرى، ولِدَتِها الحزينة عليها العبرى، مدينة أبدة[6] ذات العمران المستبحر، والرَبَضِ الخرق المصحر، والمباني الشُمّ الأنوف، وعقائل المصانع الجمّة الحلي والشنوف، والغاب الأنوف، بلدة التجر، والعسكر المَجْر، وأُفق الضّلال الفاجر الكاذب[7] على اللّه تعالى الكذبَ الفَجْر، فخذل اللّه تعالى حاميَتَهَا التي يعيي الحسبانَ عدُّها، وسجر بحورها التي لا يرام مَدُّها، وحقَّت عليها كلمة اللّه تعالى التي لا يستطاع رَدُّها، فدُخِلت لأوّل وَهْلة، واستوعب جَمُّهَا والمنّة للّه تعالى في نَهلة، ولم يكف السيف من عليها ولا مهلة، فلمّا تناولها العَفَا والتخريب، واستباحها الفتح القريب، وأسْنِدَ عن عَوَاليها حديثُ النصر الحسن الغريب، وأُقعدت أبراجها من بعد القيام والانتصاب، وأُضْرعتْ مسايفُها لهول المصاب، انصرف عنها المسلمون بالفتح الذي عظم صيتُه، والعزّ الذي سما طَرْفه واشرأبّ لِيتُه، والعزم الذي حُمد مَسْرَاه ومبيته، والحمد للّه ناظم الأمر وقد رأب شتيته، وجابر الكسر وقد أفات الجبر مفيته.

(١) أصمى: أصاب المقتل. اللَّبَّة: مكان القلادة، وهو العنق. لسان العرب (صما) و (لبب).

(٢) القشاعم: جمع قشعم وهو المسنُّ من النسور. لسان العرب (قشعم).

(٣) تعسل الذئاب: تضطرب في عدوها. لسان العرب (عسل).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٧٢): «الغِوار».

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٩٨): «بالثارات».

(٦) أبده، بالإسبانية Ubeda، وتقع إلى الشمال الشرقي من جيان. وقد مرّ التعريف بها والإشارة إلى مصادر ترجمتها في الجزء الأول .

(٧) في طبعة دار صادر: «الكذب.. الكاذب الفَجْر».

ثم كان الغزو إلى أمّ البلاد، ومثوى الطارف والتلاد، قرطبة، وما قرطبة؟ المدينة التي على عمل أهلها في القديم بهذا الإقليم كان العمل، والكرسي الذي بعصاه رُعي الهمل، والمصر الذي له في خطة المعمور الناقة والجمل، والأفق الذي هو لشمس الخلافة العَبْشَمية[1] الحمل، فخيم الإسلام بعقوتها[2] المستباحة، وأجاز نهرها المعيي على السِّباحة، وعمّ دَوْحها الأشِبَ بوارًا، وأدار الكماة[3] بسورها سِوَارًا، وأخذ بمُخَنّقها حِصارًا، وأعمل النصر[4] بشجر نصلها اجتناءَ ما شاء واهتصارًا، وجدّل من أبطالها من لم يرض انجحارًا، فأعمل إلى المسلمين إصحارًا، حتى فرغ[5] بعض جهاتها غلابًا جهارًا، ورفعت الأعلام إعلامًا بعزِّ الإسلام وإظهارًا، فلولا استهلال الغَوَادي، وأن أتى الوادي، لأفضت إلى فتح الفتوح تلك المبادي، ولقَضَى تَفَثَه[6] العاكفُ والبادي، فاقتضى الرأي. ولذنب الزمان في اغتصاب الكفر إياها مَتَاب، تعمل بِبُشْراه بفضل اللّٰه تعالى أقتاد وأقتابٌ، ولكل أجل كتاب. أن يُرَاض صَعْبها حتى يعود ذَلولاً، وتُعفَّى معاهدها الآهلة فتُترك طُلولاً، فإذا فجع اللّٰه تعالى بمارج النار طوائفها المارجة، وأباد بخارجها الطائرة والدارجة، خَطَبَ السيفُ منها أمّ خارجة[7]، فعند ذلك أطلقنا بها ألسنة النار ومفارقُ الهضاب بالهشيم قد شابت، والغلاّت المستغلاّت قد دعا بها القَصْلُ[8] فما ارتابت، وكأنَّ صحيفة نهرها لما

---

(1) العبشمية: نسبة إلى عبد شمس.

(2) العقوة: الساحة. محيط المحيط (عقا).

(3) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٧٣): «المحلاّت».

(4) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٩٩): «النصل». والمراد هنا أن النصر حطّم رماحها.

(5) في الطبعة نفسها: «فرع» بالعين المهملة.

(6) التَّفَث في الحجّ: حلق الشعر وتقصيره وقصّ الأظفار وغير ذلك ممّا يفعله الحاج إذا حلّ من إحرامه، والمراد أنه استوفى حجّه، فكنى به لسان الدين ابن الخطيب عن بلوغ غاية الأرب. لسان العرب (تفث).

(7) أم خارجة: هي عَمْرة بنت سعد، كانت ذوّاقة تطلّق الرجل إذا جرّبته وتتزوج آخر، فتزوجت نيفًا وأربعين زوجًا، وولدت عامة قبائل العرب. ولهذا قيل في المثل: «أَسْرَعُ مِنْ نِكَاحِ أُمِّ خارجة». وهنا يشبّه قرطبة بها لتداول الغلبة عليها دهرًا بعد دهر. مجمع الأمثال (ج ١ ص ٣٤٨). وقد ألمح ابن شهيد إلى هذا حين تغزّل بقرطبة فقال: [المتقارب]

زنت بالرجال على سِنّها فيا حبّذا هي مِنْ زانية

ديوان ابن شهيد الأندلسي (ص ١٧٧).

(8) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٩٩): «الفضل». والقَصْل: ما عُزل من الحنطة إذا نُقّيت فيُرْمَى به أو يُداس ثانية. محيط المحيط (قصل).

أضرمت النار في[1] ظهرها ذابت، وحيته فرّت أمام الحريق فانسابت، وتخلفت لغمائم الدخان عمائم تلويها برؤوسها الجبال أيدي الرياح، وتنشرها بعد الركود أيدي الاجتياح، وأُغريت بأقطارها الشاسعة، وجهاتها الواسعة، جنودُ الجوع، وتوعّدت بالرجوع، فسلب أهلها لتوقع الهجوم منزور الهجوع، فأعلامها خاشعة خاضعة، ووِلْدَانُها لِثُديّ البؤس راضعة، واللّٰه سبحانه يُوفِدُ بخبر فتحها القريب ركابَ البُشْرَى، وينشر رحمته قِبَلَنَا نشرا.

ثـم تنوّعتْ يا رسول اللّٰه لهذا العهد أحوالُ العدوّ تنوّعًا يوهم إفاقته من الغَمْرة[2]، وكادت فتنته تؤذن بخمود الجمرة، وتُوَقُّعَ الواقع، وحُذِر ذلك السمّ الناقع، وخيف الخرق[3] الذي يحار فيه الراقع، فتعرفنا عوائد اللّٰه سبحانه ببركة هدايتك، وموصول عنايتك، فأنزل النصر والسكينة، ومكّن العقائد المكينة، فثابت[4] العزائم وهبّت، واطّردت عوائد الإقدام واستتبت، وما راع العدوّ إلاّ خيل اللّٰه تعالى تجوس خلاله، وشمس الحق توجب ظلاله، وهُذَاكَ الذي هَدَيت يُدْحِض ضلاله، ونازلنا حصْنَي قنبيل والحائر، وهما معقلان متجاوران يتناحى منهما الساكن سرارًا، وقد اتّخذا بين النجوم قَرَارًا، وفصل بينهما حسام النهر يروق غرارًا، والتفّ معصمُه في حُلّة العَضْب وقد جعل الجسر سوارًا، فخذل الصليبُ بذلك الثغر مَنْ تولاّه، وارتفعت أعلام الإسلام بأعلاه، وتبرّجت عروس الفتح المبين بمَجْلاَه، والحمد للّٰه تعالى على ما أولاه.

ثـم تحرّكنا على تفيئة[5] تعدّي ثغر الموسطة على عدوّه المساور في المضاجع، ومصبحه بالفاجىء الفاجع، فنازلنا حصن روطة الآخذ بالكَظْم، المعترض بالشَّجَا اعتراضَ العظم، وقد شحنه العدو مددًا بئيسًا، ولـم يألُ اختياره رأيًا ولا تلبيسًا، فأعيا داؤه، واستقلّت بالمدافعة أعداؤه، ولما أتلع إليه جيد المنجنيق، وقد برك عليه بروك الفَنيق، وشدّ عصام المنع[6] الوثيق، لجأ أهلُه إلى التماس العهود والمواثيق، وقد غصوا بالريق، وكاد

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «حافي ظهرها».

(٢) غَمْرَةُ الشيء: شدّته. محيط المحيط (غمر).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٠٠): «الخزق» بالزاي المعجمة.

(٤) ثابتْ: عادت. لسان العرب (ثوب).

(٥) في طبعتي دار صادر (ج ٦ ص ٣٧٤) وعبد الحميد (ج ٩ ص ١٠٠): «تفئة». وعلى تفيئة: على أثر؛ يقال: دخل على تفيئة فلان: أي على أثره. محيط المحيط (تفأ).

(٦) في طبعة دار صادر (ص ٣٧٥): «العزم».

يذهب بأبصارهم لمعانُ البريق، فسكناه من حامية المجاهدين بمن يحمي ذماره، ويقرّر اعتماره، واستولى أهل الثغور إلى هذا الحدّ على معاقل كانت مستغلقة ففتحوها، وشرعوا أرْشِيَة الرماح[1] إلى قُلُب قلوبها فمتحوها[2].

ولم تكد الجيوش المجاهدة تنفُضُ عن الأعراف متراكم الغبار، وترخي عن آباط خيلها شدَّ حُزُم المغار، حتى عاودت النفوسُ شَوقَها، واستتبعت ذَوْقَها، وخطبت التي لا فَوقَها، وذهبت بها الآمال إلى الغاية القاصية، والمدارك المتصاعبة على الأفكار المتعاصية، فقصدنا الجزيرة الخضراء باب هذا الوطن الذي منه طرِقَ وادعُه، ومطلع الحق الذي صَدَعَ الباطلَ صادعُه، وثنية الفتح التي بَرَقَ منها لامعه، ومشرف الهجوم الذي لم تكن لتعثر على غيره مطامعه، وفرضة المجاز التي لا تنكر، ومجمع البحرين في بعض ما يذكر، حيث يتقارب الشطّان، ويتوازى الخطّان، وكاد أن تلتقي حَلْقَتَا البِطان، وقد كان الكفر[3] قَدَّر قَدْر هذه الفرضة[4] التي طرق منها حِمَاه، ورماه الفتح الأول بما رَمَاه، وعلم أن لا تتصل أيدي المسلمين بإخوانهم إلاّ من تلقائها، وأنه لا يعدم المكروه مع بقائها، فأجلب عليها برَجْله وخَيله، وسدّ أُفق البحر بأساطيله، ومراكب أباطيله، بقِطَع لَيله، وتداعى المسلمون بالعُدْوَتين إلى استنقاذها من لَهَوَاته، أو إمساكها من دون مَهْوَاته، فعجز الحول، ووقع بملكه إياها القول، واحتازها قَهْرًا، وقد صابرت الضيق ما يناهز ثلاثين شهرًا، وأطرق الإسلام بعدها إطراق الواجم، واسودَّتِ الوجوه لخبرها الهاجم، وبكتها حتى دموع الغيث الساجم[5]، وانقطع المدد إلاّ من رحمة من يُنَفِّس الكروب، ويغري بالإدالة الشروقَ والغروب، ولما شُكْنا بشَبَا اللّه تعالى نَحْرَهَا، وأغصصْنا بجيوش الماء وجيوش الأرض تُكاثر نجم السماء برّها وبحرها، ونازلْناها نذيقها شديد النزال، ونحجّها[6] بصدق الوعيد في سبيل الاعتزال، رأينا بأوًا لا يظاهَر[7] إلاّ باللّه تعالى ولا يُطَال، وممنّعةً يتحاماها

---

(١) الأرشية: جمع رشاء وهو حبل الدلو، شبه الرمح به كناية عن طوله. محيط المحيط (رشا).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٠١): «فنحوها».
(٣) في طبعة عبد الحميد: «الفكر».
(٤) في الطبعة نفسها: «الفرصة».
(٥) الساجم: المنصبّ. لسان العرب (سجم).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٠٢): «ونججنا».
(٧) البأو: الكبرياء. لا يظاهر: لا يغالب في القوة. لسان العرب (بأى) و (ظهر).

الأبطال، وجنابًا روّضه الغيث الهطّال، أمّا أسواقها فهي التي أخذت النجد والغَور، واسْتَغْدَتْ بخلاء[1] الجلاد عن البلاد فارتكبت الدَّوْر[2]، تحوز بحرًا من العمارة ثانيًا، وتشكّك أن يكون الإنس لها بانيًا، وأمّا أبراجها فصفوف وصنوف، تزيّن صفحات السائف[3] منها أُنوف، وآذان لها من دوامغ الصخر شُنُوف[4]، وأما خندقها فصخر مجلوب، وسورٌ مقلوب، فَصَدَقَهَا المسلمون القتالَ بحسب محلِّها من نفوسهم، واقتران اغتصابها ببوسهم، وأُفول شموسهم، فرشَقُوها من النبال بظلال[5] تحجب الشمس فلا يشرق سَنَاها، وعرجوا في المراقي البعيدة يفرعون[6] مبناها، ونفوسها أنقابًا، وحصونها عقابًا، ودخلوا مدينة إلبنة بِنْتِها[7] غلابًا، وأحسبوا السيوف استلالاً والأيدي اكتسابًا [8]، واستوعب القتل مقاتِلَتها السابغة الجُنَن [9]، البالغة المنن، فأخذهم الهول المتفاقم، وجدّلوا كأنهم الأراقم، لم تفلت منهم عينٌ تطرف، ولا لسان يلبي من يستطلع الخبر أو يستشرف.

ثـم سمت الهمم الإيمانية إلى المدينة الكبرى فداروا سوارًا على سورها، وتجاسروا على اقتحام أودية الفناء من فوق جسورها، وأدنوا[10] إليها بالضُّروب، من حيل الحروب، بروجًا مَشِيدة، ومجانيق توثق حبالها منها نَشيدة، وخفقت بنصر اللّه تعالى عَذَبَاتُ الأعلام، وأهدت الملائكة مدد السلام، فخذل اللّه تعالى كفّارها، وأكْهَمَ[11] شفارها، وقلّم بيد قدرته أظفارها، فالتمسوا الأمان للخروج، ونزلوا على مَرَاقي العروج، إلى الأباطح

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٧٦): «بجدال».

(٢) أي أنها وقعت في قضية دَوْر (والدور من مصطلح المنطق) لما استعدت به من جدال المجالدة، وهنا يتضح التلاعب بمصطلح أهل المناظرة. طبعة دار صادر (ص ٣٧٦) حاشية ١.

(٣) في طبعة دار صادر: «المسايف».

(٤) الشنوف: جمع شنف وهو حلية تلبس في الأذن. لسان العرب (شنف).

(٥) في طبعة دار صادر: «بظلالة».

(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٠٢): «الفرعون».

(٧) أي أن مدينة «إلبنة» بنت الجزيرة الخضراء، أي هي من توابعها.

(٨) أحسبوا السيوف: زادوا عددها؛ وهنا يقابل بين الاحتساب الذي هو لوجه اللّه تعالى وبين الاكتساب.

(٩) الجُنَنُ: جمع جُنّة وهي كلّ ما وَقَى من سلاح. محيط المحيط (جنن).

(١٠) في طبعة عبد الحميد: «ودنوا».

(١١) أكهم: أكَلَّ عن الضرب. لسان العرب (كهم).

والمروج، من سمائها ذات البروج، فكان بروزهم من العَرَاء إلى الأرض[1]، تذكرة بيوم العَرْض، وقد جلّل المقاتِلَةَ الصَّغار، وتعلّق بالأمان النساء والصِّغار، وبودرت المدينة بالتطهير، ونطقت المآذن العالية بالأذان الشهير، والذكر الجهير، وطرحت كفّارها التماثيلَ عن المسجد الكبير، وأزرى[2] بألسنة النواقيس لسانُ التهليل والتكبير، وأُنزلت عن الصروح أجرامُهَا، يعيي الهِنْدامَ مرامُها، وأُلفي منبر الإسلام بها مجفوًّا فأنست غربته، وأعيد إليه قربه وقربته، وتلا واعظ الجمع المشهود، قول منجز الوعود ومُورِق العود ﴿وما ظَلَمْناهُمْ ولكنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ، فما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهتُهُمُ التي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ شيءٍ لَمَّا جاءَ أمرُ رَبِّكَ، وما زادُوهُم غير تتبيبٍ، وكذلك أَخْذُ رَبِّكَ إذا أَخَذَ القُرَى وهِيَ ظالِمَةٌ إنَّ أَخْذَهُ أليمٌ شديدٌ، إنَّ في ذلك لآيَةً لمنْ خافَ عَذابَ الآخرةِ، ذلك يومٌ مجموعٌ له الناسُ وذلك يومٌ مَشْهُودٌ﴾[3] فكان الدمعُ يُغْرق الآماق، والوجدُ يستأصلُ الأرماق، وارتفعت الرغبات، وعَلَت السيات[4]، وجيء بأسرى المسلمين يرسُفُون في القيود الثقال، وينسلون من أحداب[5] الاعتقال، ففُكّت عن سوقهم أساودُ الحديد، وعن أعناقهم فلكاتُ البأس الشديد، وظلّلوا بجناح اللطف العريض المديد، وترتّبت في المقاعد الحامية، وأزهرت بذكر اللّه تعالى المآذن السامية، وعادت المدينة لأحسن أحوالها، وسكنت من بعد أهوالها، وعادت الجالية إلى أموالها، ورجع إلى القطر شبابه، ورُدَّ على دار الإسلام بابه، واتّصلت بأهل لا إله إلاّ اللّه أسبابه، فهي اليوم في بلاد الإسلام قلادَةُ النحر، وحاضرةُ البرّ والبحر، أبقى اللّه تعالى عليها وعلى ما وراءها من بيوت أمتك، ودائع اللّه تعالى في ذمتك، بكلمة دينك الصالحة الباقية! وسَدَل عليه أستار عصمته الواقية! وعُذْنا والصلاة عليك شعار البروز والقفول، وهِجِّيرَى الشروق والأفول، والجهاد يا رسول اللّه الشأن المعتمَد، ما امتدَّ بالأجل الأمد، والمستعان الفرد الصمد.

ولهذا العهد يا رسول اللّه صلّى اللّه عليك، وبَلّغ وسيلتي إليك، بلغ من هذا القُطْر المرتدي بجاهك الذي لا يذلّ من ادّرَعَه، ولا يضلّ من اهتدى بالسبيل الذي شرعه، إلى

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٧٦): «إلى العراء من الأرض».

(٢) أزرى به: قلّل من شأنه وعابه. لسان العرب (زرى).

(٣) سورة هود ١١، الآيات، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣.

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٠٣): «السبات» بالباء.

(٥) في الطبعة نفسها: «أجداث».

أن لاطَفَنَا ملكُ الروم بأربعة من البلاد كان الكفر قد اغتصبها، ورفع التماثيل ببيوت اللّه تعالى ونصبها، فانجاب[1] عنها بنورك الحلك، ودار بإدالتها[2] إلى دعوتك الفلك، وعاد إلى مكاتبها القرآن الذي نزل به على قلبك المَلَك، فوجبت مطالعةُ مقرِّك النبويّ بأحوالِ هذه الأمّة المكفولة في حِجْرك، المفضلة بإدارة تَجْرك، المهتدية بأنوار فَجْرك، وهل هو إلاّ ثمراتُ سَعْيك، ونتائج رَعْيك، وبركة حبّك؟ ورضاك الكفيل برضا ربّك، وغمام رعدك، وإنجاز وَعْدك، وشعاع من نور سعدك، وبَذْر يجنى رَيْعه من بعدك، ونصر رايتك، وبرهان آيتك، وأثر حمايتك ورعايتك؟ واستنبْتُ هذه الرسالة مائحةً[3] بحرِ الندى الممنوح، ومُفَاتحة باب الهدى بفتح الفتوح، وفارعة المظاهرِ والصروح، وملقية الرحل بمتنزل الملائكة والروح، لتمدَّ إلى قبولك يَدَ استمناح، وتطيرَ إليك من الشوق الحثيث بجناح، ثم تقف بموقف الانكسار، وإن كان تَجْرها آمنًا من الخسار، وتُقْدم بأنس القربة، وتحجم بوَحْشة الغربة، وتتأخّر بالهيبة، وتُجْهش لطول الغيبة، وتقول: ارحم بُعْدَ داري، وضعف اقتداري، وانتزاح أوطاني، وخلوّ أعطاني، وقلّة زادي، وفرَاغ مزادي، وتَقَبَّلْ وسيلة اعترافي، وتغمَّدْ هفوة اقترافي، وعجِّلْ بالرضا انصراف متحملي لانصرافي، فكم جُبْتُ من بحر زاخر، وقَفْر بالركاب ساخر، وحاش للّه تعالى أن يخيب قاصدُك، أو تتخطاني مقاصدُك، أو تطردني موائدك، أو تضيق عني عوائدك، ثم تمدّ مقتضيةً مزيد رحمتك، مستدعيةً دعاء مَنْ حضر من أمّتك، وأصحبتها يا رسولَ اللّه عرضًا من النواقيس التي كانت بهذه البلاد المفتتحة تعين الإقامة والأذان، وتسمع الأسماع الضالة والآذان، مِمَّا قَبِلَ الحركة، وسالم المعركة، ومكّن من نقله الأيدي المشتركة، واستحقّ بالقدوم عليك، والإسلام بين يديك، السابقة في الأزل البركة، وما سواها فكانت جبالاً عَجَزَ عن نقلها الهِنْدام[4]، فنسخ وجودَها الإعدام، وهي يا رسول اللّه جنى من جنانك، ورطبٌ من أفنانك، وأثرٌ ظهر علينا من مسح حنانك.

---

(١) انجاب: تبدّد وانصدع. لسان العرب (جوب).

(٢) الإدالة: النصر والغلبة؛ يقال: دالت الدولة لفلان إذا صارت له. لسان العرب (دول).

(٣) مائحة: طالبة؛ يقال: امتاح فلانًا إذا طلب منه. محيط المحيط (ميح).

(٤) الهِنْدام: الآلات.

هـذه هي الحال والانتحال، والعائقُ أنْ تشدَّ إليك الرحال، ويعمل الترحال، إلى أن نلقاك في عَرَصَات[1] القيامة شفيعًا، ونحلّ بجاهك إن شاء اللّه تعالى محلاً رفيعًا، ونقدّمَ في زُمْرَة الشهداء الدامية كلومهم من أجلك، الناهلة غللهم من سَجْلك[2]، ونبتهل إلى اللّه تعالى الذي أطلعك في سماء الهداية سراجًا، وأعلى لك في السبع الطباق معراجًا، وأم الأنبياء منك بالنبي الخاتم، وقَفَّى على آثار نجومها المشرقة بقمرك العاتم، أن لا يقطع عن هذه الأمة الغريبة أسبابك، ولا يسدّ في وجوهها أبوابك، ويوفقها لاتّباع هداك، ويثبت أقدامها على جهاد عِدَاك، وكيف تعدم ترفيها، أو تخشى بَخْسًا وأنت موفيها، أو يعذبها اللّه تعالى وأنت فيها؟ وصلاة اللّه وسلامه تحطّ بِفِنائك رحالَ طيبها، وتهدر في ناديك شَقَاشِقُ خطيبها، ما أذكر الصباحُ الطَّلْقُ هداك، والغمامُ السَّكْبُ نَدَاك، وما حَنَّ مشتاق إلى لَثْم ضريحك، وبُليتْ نسمات الأسحار عَمَّا استرقت من[3] ريحك، وكتب في كذا». انتهت الرسالة، وفيها ما لا خفاء به من براعة لسان الدين، رحمه اللّه تعالى وقدّس روحه الطاهرة! آمين.

ومِمّا علق بحفظي من نثره رحمه اللّهُ تعالى أثناء رسالة في العزاء خاطب بها ملك المغرب قوله بعد كلام: أين مروان بن الحَكَم ودَهَاؤه، وعبد الملك بن مروان وبهاؤه، والوليد وبناؤه، وسليمان[4] وغِذاؤه، وعمر بن عبد العزيز وثناؤه، ويزيد ونساؤه، وهشام وخُيَلاؤه، والوليد وندماؤه، والجَعْدي[5] وآراؤه؟ أم أين السفاح وحُسَامه، والمنصور واعتزامه، والمهدي وإعظامه، والهادي وإقدامه، والرشيد وأيامه، والأمين ونِدَامه، والمأمون وكلامه، والمعتصم وإسراجُه وإلجامه؟ انتهى.

وقد تقدّم كلام أبي الخطاب ابن دَحْية في هذا المعنى بطوله في الباب الثاني من هذا القسم، فليراجع ثمة[6].

---

(1) العَرَصات: جمع عَرْصة وهي ساحة الدار. لسان العرب (عرص).

(2) السَّجْلُ: الدلو. لسان العرب (سجل).

(3) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٠٥): «في».

(4) هو سليمان بن عبد الملك بن مروان، الذي اشتهر بشراهته.

(5) هو مروان بن محمد، المعروف بالجعدي، آخر ملوك بني أمية.

(6) تقدم كلام ابن دحية في الجزء السابع.

قلت: وقد تقدّم في الخطبة نَظْمي لمثل هذا، وقد كنت نسجت على منوال لسان الدين وأنا بالمغرب نثرًا مِمّا لم يحضرني منه الآن غير قولي: أين الإسكندر ويونانه، وشدّاد وبنيانه، والنمروذ وعدوانه، وفرعون وهامانه، وقارون وطغيانه، وكسرى أنوشروان وإيوانه، وقيصر وبطارقته وأعوانه، وسيف بن ذي يَزَن وغُمْدَانه[1]، والمنذر ونُعْمانه؟ إلى أن قلت: وأين أبو بكر رضي اللّٰه تعالى عنه وثباته، وعمر رضي اللّٰه تعالى عنه ووثَبَاته، وعثمان رضي اللّٰه تعالى عنه ورَهَبَاته، أم أين علي رضي اللّٰه تعالى عنه وشجاعته وعلمه، وأين معاوية رضي اللّٰه تعالى عنه وحلمه[2]، وأين يزيد وظلمه؟ ثم ذكرت ما تقدّم للسان الدين، وقلت بعده: وأين الواثق وغناؤه، والمتوكل ومَوَاليه وأولياؤه وأبناؤه، والمنتصر وآماله، والمعتزّ وجَمَاله، والمستعين وعُمَّاله، والمهتدي وأعماله، والمعتضد وذكاؤه وإحاطته بالأخبار واشتماله، والمقتدر ونساؤه وإهماله؟ إلى أن قلت: وأين بنو عُبيد وضلالهم، وبنو بويه وجلالهم، وبنو سَلْجوق ونظامهم، وبنو سامان وإعظامهم، وبنو أيوب وصلاحهم، والجراكسة ومبانيهم وسلاحهم؟ ثم قلت في ملوك المغرب: وأين عبد الرحمن الداخل وأمراؤه، والناصر وزَهْراؤه[3]، والحكم ووزراؤه، والمؤيد وظهراؤه، أم أين المنصور بن أبي عامر وغزواته ومواليه، والمُظَفَّر وأدواته ومعاليه، أم أين بنو حَمُّود وعُلاهم، وأوصافهم وحِلاهم، وبنو جَهْوَر وحَزْمهم، وبنو باديس وعَزْمهم، وأين مُعْتَضِد بني عَبَّاد، ومعتمدهم الذي سَنَا كرمِهِ للمعتفين باد، وبنو ذي النون وَمزِيَّتهم، وبنو صُمَادح ومريتهم، وبنو الأفطس وبنو هود، وما كان لهم من المكارم في الحفل المشهود، وأين لَمْتُونه[4]، وصبرهم الذي ركبوا مُتُونه، أم أين الموحِّدون وناصرهم ومنصورهم، ومصانعهم وقصورهم، أم أين بنو الأحمر وغُزَنَاطتهم، وإزالتهم عن حوزة الدين أدناسَ المعتدين وإماطَتهُم، وجَعْلُهم الأمورَ لمثل ابن الحكيم ولسان الدين وإناطَتُهم، أم أين بنو مَرِين وفارسهم، ومغانيهم ومَدَارسهم، وأين بنو زَيَّان ومنازلهم الشاهقة، وأشجار عزّهم الباسقة، وأين الحَفْصِيون، ومستنصرهم الذي قضى للمعالي الديون، وأبو فارس، الذي شنَّفَتْ بأخباره آذانُ الطروس والفهارس؟ طحنتْ واللّٰه تعالى الجميعَ رحى المنون، وتأيمَتِ

---

(١) غمدان: قصر عظيم باليمن. الروض المعطار (ص ٤٢٩).

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٨٠): «وحمله».

(٣) يشير إلى قصر الزهراء الذي بناه عبد الرحمن الناصر.

(٤) المراد بقبيلة لمتونة المرابطين الذين حكموا المغرب والأندلس معًا.

الأزواجُ ويتّم البنون، وطالت الأيام والسنون؛ وبقيت القصور العالية، خالية، والرسوم المتكاثرة، دائرة، والسلوك المنظومة متناثرة، وعن قريب يقف الكلُّ بين يدي ربِّ الأرباب، في يوم تَذْهَل فيه الألباب، وتنقطع إلاّ من رسول الله ﷺ الأسباب، ويقتصّ للمظلوم من الظالم، وتنبهم للنجاة الطرقُ والمعالم، وتُبْلى السرائر لدى مَنْ هو بها عالم، ﴿يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خَيرٍ مُحْضَرًا وما عَمِلَتْ مِنْ سوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بَينَها وبَينَه أَمَدًا بعيدًا﴾[1] يوم يحكم الله تعالى في الخلق، بالحقّ، حسبما سبق في علمه إذ جعلهم قريبًا وبعيدًا، وشقيًا وسعيدًا، اللهمّ اجعلنا في ذلك اليوم الصعب مِمَّنْ فاز بالنجاة، وحاز شفاعة نبيّك ومُصْطَفاك ذي الحرمة والجاه، ﷺ وشرَّف وكرّم؛ انتهى.

رجع لنثر لسان الدين بن الخطيب رحمه الله تعالى:

ومن كلام لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به سلطان المغرب أبا زَيّان لَمَّا تمَّ له الأمر، وهو مشتمل على نظم ونثر، ونصُّه: [الكامل]

يا ابن الخلائفِ، يا سميَّ محمدٍ ... يا من علاه ليس يَحْصُرُ حاصِرُ
أَبْشِرْ فأنتَ مجدِّدُ الملكِ الذي ... لولاك أصبحَ وهو رَسْمٌ داثر
من ذا يعاندُ منكَ وارثه الذي ... بسعودِهِ فَلَكُ المشيئة دائر
أَلقتْ إليك يَدُ الخلافةِ أمرها ... إذ كنتَ، أنتَ لها الوليُّ الناصرُ
هذا وبَينَكَ للصريخ وبينها ... حربٌ مضرّسةٌ وبحرٌ زاخر
من كان هذا الصنعُ أولَ أمره ... حَسُنَتْ له العقبى وعَزَّ الآخرُ
مولايَ عندي في عُلاكَ محبَّةٌ ... والله يعلمُ ما تُكِنُّ ضمائر
قلبي يُحدّثني بأنكَ جابرُ ... كسري، وحظّي منك حظٌّ وافرُ
بِشْرَى جدودك قد حَطَطْتُ حقيبتي ... فوسيلتي لِعُلاك نورٌ باهر
وبذلتُ وسعي واجتهادي مثل ما ... يلقي لملكك سيف أمرِكَ عامر
فهو الولي لدى الذي اقتحم الردى ... وقضى العزيمة وهو سَيفٌ باتر
وولي جدّكَ في الشدائد عندما ... خذلت علاهُ قَبَائِلٌ وعشائر
فاسْتَهْدِ منه النُّصْحَ واعلمْ أنه ... في كلِّ معضلةٍ طبيبٌ ماهر
إن كنت قد عجلت بعضَ مدائحي ... فهي الرياضُ، وللرياض بواكر

(١) سورة آل عمران ٣، الآية ٣٠.

«مولانا، وعمدة ديننا ودنيانا، الذي سخر اللّه تعالى البَرَّ والبحرَ بأمره، وحكم فوق السمٰوات السبع بعزِّ نصره، وأغنى يوم سَعْدِه عن سَلِّ السلاح وشَهْره، وفتق عن زهر الصنع الجميل كمامةَ تسليمه وصبره، وقيّض له في علم غيبه وزيرًا مذخورًا لشدِّ أزره، وقوّد الملك إليه على حال حَضْره، الخليفة الإمام، الذي استبشر به الإسلام، وخفقت بعزّه الأعلام[1]، ولاح بدرُ مُحَيّاه فافتضَّ الظلام، المقتدي بالنبيّ الكريم سميّه في المراشد التي تألّق منها الصبح، والمقاصد التي لازمها النُّجح، والتمحيصِ الذي نبع منه المَنْحُ[2]، حتى في الهجرة التي جاءه بعدها الفتح، أبو زيان، ابن مولانا السلطان ولي العهد ترشيحًا ومآلاً، ومؤمل الإسلام تقلّدًا للمذهب الصريح وانتحالاً، وأمير المسلمين لو أوسعه القدر إمهالاً، ووُسْطى عقد البنين خلائق متعدّدة وخِلالاً، المتحفِ بالشهادة ولَمَّا يعرفْ بدرُهُ هلالاً، المعوَّض بما عند اللّه تعالى سعادةً ألبسته سِرْبالاً، وأبلغته من رضوان اللّه تعالى آمالاً، أبي عبد الرحمن ابن مولانا أمير المسلمين عظيم الخلفاء، وعنصر الصبر والوفاء، وستر اللّه تعالى المسدول على الضعفاء، والمجاهد في سبيل اللّه تعالى بنفسه وماله، المنيف على مراكز النجوم بهممه وآماله، المقدس أبي الحسن ابن موالينا الخلفاء الطاهرين والأئمة المرضيين، من قبيل بني مَرين، وصفوة اللّه تعالى في هذا المغرب الأقصى من أوليائه المؤمنين، وزينة الدنيا وعمدة الدين، هنّأه اللّه تعالى ما أورثه من سرير الملك الأصيل، وخَوَّله من سعادة الدنيا والدين على الإجمال والتفصيل، وتوّجه من تاج العزّة القعساء عند اشتباه السبيل، وعوَّضه من قبيل الملائكة عند تشتّت القبيل، وجعل قدمه الراسخة، وآياته الناسخة، ورَبْوته السامية الباذخة، وغرّة[3] نصره الشادخة، وأوزعه شكر آلائه، في الخلاص من ملكة أعدائه، وخطر البحر وعدوان مائه، وغُول السفر، وارتكاب الغَرر، وثبات أقدام أوليائه الذين ما بَدَّلوا تبديلاً، ولا ارتضوا لقِبْلَة طاعته بعد أن ولّوا وجوههم شَطْرها تحويلاً[4]، بل صبروا صبرًا جميلاً، وباعوا نفوسهم تتميمًا لعقدة إيمانهم وتكميلاً.

---

(١) خفقت بعزّه الأعلام: كناية عن إعلان ملكه وظهوره.

(٢) التمحيص: الاختبار. المنح: الإعطاء. لسان العرب (محص) و (خبر).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٠٩): «وعزة». والغرّة الشادخة: الغرة التي تسيل فتملأ الوجه دون أن تصل إلى العينين. لسان العرب (غرر).

(٤) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المسجدِ الحَرامِ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ١٤٤.

يسلّم على مقامكم الذي وسم السعد مشرق جبينه، وذُخِرت قُبَلُ الطاعة ليمينه، وأقسم السعد[1] بمظاهرة[2] أمره السعيد فبرَّ. والشكر للّه تعالى - في يمينه، عبدكم الذي اعتلق منكم بالوسيلة الكبرى، وقرَّ بملككم عينًا وشرح صدرًا، وبذل الجهد وإن قل قُدْرَة وقدرًا، والتمس لكم الدعاء عَلَنًا وسرًا، ابنُ الخطيب الذي حَطَّ رَحْلَ اقتصاده بتراب الملوك الكرام جدودكم، محاريب برّكم وأسباب وجودكم، وآبائكم الذين في مظاهرتهم ورَغبهم يظهر للناس مخايلُ هداكم وتدرُّ سحائبُ جودكم، ملتحفًا منذ سنتين بأضونة قبورهم وثيابها، مستظلاً بأفنيتها المعظمة وقبابها، ممرغًا خدّه بترابها، مُواصلاً الصراخ بالمرين ويا ليعقوب متطارحًا على أبوابها، فلم يُتِح اللّه تعالى له نعرة ترعى الضيف وتحمي الدخيل، أو حميّةً تدفع الضيم وتشفي العليل، إلاّ على يدكم يا أيها الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وبطل الميدان في موقف الهول العظيم، المذخور[3] لنصر المظلوم وإنصاف الغريم، وإجالة أقلام الفتح بفتح الأقاليم.

كتبه مهنّئًا بما سَنّى اللّه تعالى لملككم من الصنع الذي خرق حجاب العادة، وأرى إعجاز السعادة، معجلاً ذلك بين يدي المبادرة إلى لثم بساطكم الذي شرّف[4] وجوهها بلثمه الوجوه، وتخشاه الأملاك الجبابرةُ وترجوه، وأداء الواجب من القيام بمنظوم ثنائه في الحَفْل المشهود، وإبلاغ لسان الحمد وسع المجهود، وإلقاء ما عند العبد من خلوص وجُنُوح، وحبّ واضح أيَّ وضوح، فوليُّ دعوتكم الشيخ أبو ثابت أعزّه اللّه تعالى يقرّره، ويبيّن مجمله ويفسّره، والعبد واثق بفضل اللّه تعالى على يديكم، وملتمس النصر لديكم، وقاطعٌ أن طَلِبته بكم تَتَسنّى[5]، وأنكم سبب عاقبته الحسنى، إمّا بالظهور على الوطن الذي تجرّأ به المنقلبُ على مُلْككم، ومَدَّ اليد إلى نثر سلككم، ونقص إرثكم المسلم المحرر، وزلزل وطنكم المؤسس على الطاعة المقرّر، وأضرم النار في بسائطكم[6] وجبالكم، وأطلق

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٨٣): «الدهر».
(٢) بمظاهرة أمره: بمساعدته ودعمه؛ يقال: ظاهره مظاهرة إذا قدم له العون والمساندة والدعم. لسان العرب (ظهر).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١١٠): «المدخور» بالدال المهملة.
(٤) في الطبعة نفسها: «الشرف وجوهها تلثمه..».
(٥) تتسنّى: يصبح سبيلها سهلاً. لسان العرب (سنى).
(٦) البسائط: جمع البسيط وهو السهل والأرض المنبسطة الواسعة. لسان العرب (بسط).

يَدَ الفتنةِ على بيوت أموالكم متكثرًا[1] عليكم بالقلّة، متعززًا بالذلّة، جانيًا على داركم بما لا تبيحه الملّة، أو بالشفاعة الجازمة إن لم يأذن[2] اللّه تعالى في الانتصاف، واللّه يجعلُ الظهورَ بِكم من الأوصاف، ويعينكم على جبرِ الكسير، وتيسير الأمرِ العسير، ويهنيكم منيحة الملك الكبير، ويبقي كلمته في عقبكم بعد تملّؤ التعمير، والسلام».

وله رحمه اللّه تعالى في مخاطبة السلطان أبي زيان المذكور: «المولى الذي طوق المنن، وأحيا السنن، وأنبت اللّه تعالى حبّه في القلوب النباتَ الحسن، ناظم كلمة الدين بعد انتشارها، ومُقِيل عثارها، والآخذ بثارها، والمخلد لآثارها، السلطان أبو زيان. . . إلى آخره - أبقاكم اللّه تعالى عالي القدم، منصور العَلَم، ظاهرًا على الأمم، مقصودَ الحمى كالركن الملتزم. عبدُ مقامكم الذي آويتموه غريبًا، وآنستموه مريبًا، وأنلتموه على عدوّهِ الدهْرِ نصرًا عزيزًا وفتحًا قريبًا، فلم يخش دركًا وتثريبًا، ولا عدم حظوة وشفقة ونعمة وتقريبًا، ابن الخطيب عن ثناء يعطّر الآفاق، ويرقم الأوراق، ويخلق[3] الجيوب والأطواق، وحبّ بهر نورًا وراق، وجاس اشتهاره الشام والعراق. ويطالع العبدُ محلّ مولاه الذي خلّف ببابه قلبه وولده، وصبره وجلده، وصيّر وطنه داره الحقيقيّة[4] وبلده، أنه لَمّا قدم على محلّ أخيه، المعتدّ بما أودع اللّه تعالى من الخلال الشريفة فيه، مولاي ابن مولاي أبي عبد اللّه - كفل اللّه تعالى جميل رعيه وكرم عهده! وحكم بإعلاء جدّه ومَضَاء حدّه - رَعَى الوسيلة، وصَدَّق المخيلة[5]، وجلا عند اجتلاء مخاطبتكم أسارير الفضيلة، فلم يَدَعْ حقًّا إلاّ صرفه، ولا نكرة إلاّ عرّفه، ولا نعمة إلاّ سكبها، ولا مزية إلاّ أوجبها، ولا رتبة إلاّ أعلاها، ولا نعمة إلاّ أولاها، وما ذاك يا مولاي وإن تعدّدت الرسائل والأذِمّة، وادّكرت القُرَبُ بعد أمّة، إلاّ بوَصَاتكم التي لا تُهمل، وحرمتكم التي لا تُجهل، وعطف مقامكم الذي اشتهر، واعتنائكم بعبدكم الذي راق وبَهَر، فالعبد عبدكم بكلّ اعتبار، وخديمكم وإن نأتِ الدار، ومحسوب على نعمه مقامكم الرفيع المقدار، والأمل في مقامكم غير منقطع السبب، والأهل والولد تحت كَنَف مقامكم الأصيل الحسب، حتى يمنَّ اللّهُ تعالى بحجٍّ بيته

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١١١): «ومتكثرًا».

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٨٤): «يتأذن».

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١١١): «ويخرق».

(٤) في الطبعة نفسها: «الحقيقي».

(٥) المخيلة: الكِبْر. محيط المحيط (خيل). وصدّق المخيلة: صدق الظنّ به، صدق ما كان يتوقّعه.

وزيارة رسوله على يديكم، ويكون قضاء هذا الوطر منسوبًا إليكم، وبعد هذا يستقرّ القرار، حيثُ يختار مَنْ يخلق ما يشاء ويَخْتار، بحول اللّٰه تعالى.

والعبدُ يذكّر مولاه بما بشّره به بين يدي وداعه، وبمرأى وزيره السعيد واستماعه، من انجلاء الحركة عن عزّه وظهوره، ونجاح أحواله واستقامة أموره، ويهنيه[1] بصدق الوعد، وإمطار الرعد، وظهور السعد، وهي وسيلة إذا عُدَّتِ الوسائل، وروعيت الذِّمم الجلائل[2]، ومثلُ مولاي مَنْ رَعَى وأبقى، وسلك التي هي أبرّ وأتقى، وما قصَّر عنه القلم من حقّ مولاي فالرسولُ أعزّه اللّٰه تعالى يتمّمه، وما قصر عنه الرسول فاللّٰه تعالى يعلمه، وهو جلّ وعلا يديم أيامَ مولاي ويبقي مجده، ويَصِلُ سعده، والسلام»؛ انتهى.

ومِمّا خاطب به لسان الدين رحمه اللّٰه تعالى شيخ الدولة يحيىٰ بن رحّو[3] قوله: «سيدي الذي له المزية العظمى، والمحلُّ الأسمى، شيخ قبيل بني مَرِين، وقطب مدار الأحرار على الإجمال والتعيين، والمتميز بالدهاء والرَّجَاحة، والمعرفة الفسيحة الساحة، والصدقة المُبَاحة، وشروط الصوفية من ترك الأذى ووجود الراحة، أُسَلِّم على ذاتكم الطاهرة التي بخلت الأزمان واللّٰه أن تأتي بنظيرها، وتنافست الدول في تكبيرها، وسارت المواكب الملوكية بمسيرها، وأثنت الألسُن بفضلها وخيرها، وأُقرر لديها أني أعددتُ من معرفتها بالأندلس كنزًا لم أُنْفِقْ منه إلى اليوم وَزْنًا، إعدادًا له وخَزْنًا، إذ لا يخرج العَتَاد الكبير إلاّ عن حاجة وفاقة، ولا تردّ اليد إلى الذخيرة إلاّ في إضافة وعجز طاقة، وما كانت الوصلة بمثلها ليهملها مثلي جَهْلاً بقيمتها العالية، وإزراءً بجهتها الكافلة الكافية، لكن نابت عن يدها أيدٍ، وكفى عن ابتذالها ما كفّ اللّٰه تعالى من عمرو وزيدٍ، والآن أُقرر أني قد كادت حاجتي إلى ذلك العتاد أن تتمحّض[4]، وزبدته أن تتمخّض[5]، إذ هو حظي من

---

(١) يهنيه: أصل القول: يهنئه؛ يقال: ليهنئك الولد: أي ليسرّك. لسان العرب (هنأ).

(٢) الذمم: جمع ذمّة وهي العهد. الجلائل: جمع جليلة وهي العظيمة. لسان العرب (ذمم) و (جلل).

(٣) هو أبو زكريا يحيىٰ بن عمر بن رحّو؛ وقد ولاّه سلطان الأندلس يوسف بن إسماعيل بن فرج النصري رئاسة الجند المغربي عام ٧٤٠ هـ، مكان الشيخ أبي ثابت عامر بن عثمان بن عبد الحق. وأقرّه على هذه الوظيفة السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج النصري، وبقي في هذه الوظيفة حتى سنة ٧٦٤ هـ حيث قبض عليه السلطان محمد بن يوسف بن إسماعيل بن فرج النصري. اللمحة البدرية (ص ١٠٥، ١١٦، ١٣٠).

(٤) تتمحّض: تتخلّص من الشوائب. لسان العرب (محض).

(٥) تتمخّض: من مَخَضَ اللبنَ إذا استخرج زبده. لسان العرب (مخض).

رَعْي ذلك القبيل الذي قصرت عليه رياسته، والوزير الذي من رأيه تستمدّ سياسته، وإذا وَفَد خاصّة هذه المدينة مُهنِّين، وبشكر إيالته الكريمة مُثْنِين، فخيمتُهُ ظلٌّ ظَليل، ومشاركتُه معتمدي في الكثير، فكيف ولا غرض لي إلاَّ في القليل، وعندي أنَّ رَعْيَه لمثلي لا يفتقر إلى وسيلة تجلب، ولا ذِمام يحسب، فمثله من قدر قدر الهناء، وشدّ أعلام الحمد والثناء، سامية البناء، وعرف أنَّ الدنيا على اللّه تعالى أحقر الأشياء، وقد رفعت أمري كلَّه بعد اللّه تعالى إلى رأيك، وغنيت عن سعيي لنفسي بجميل سعيك، والسلام».

ومِمَّا خاطب به لسان الدين شيخَه سيدي أبا عبد اللّه بن مرزوق التلمساني[1] رضي اللّه تعالى عنه قوله شافعًا: «يا سيدي، أبقاكم اللّه تعالى مَحَطَّ الآمال وقِبْلَةَ الوجوه، وبلَّغ سيادتكم ما تؤمّله من فضل اللّه تعالى وترجوه، وكَلأَ بعين حفظه ذاتكم الفاخرة، وجعل عزّ الدنيا متّصلاً لكم بعزّ الآخرة، بعد تقبيل يدكم التي يَدُها لا تزال تُشكر، وحَسَنَتُها عند اللّه تعالى تُذكر، أُنهِي إلى مقامكم أنَّ الشيخ الكذا أبا فلان ـ مع كونه مستحقَّ التجلّة بهجرةٍ إلى أبواكم الكريمة قَدُمَتْ، ووسائلَ من أصالةٍ وحشمةٍ كرمتْ، وفضلٍ ووقار، وتنويهٍ للولاية إن كانت ذات احتقار، وسن اقتضى الفضلُ برّه، وأدبٍ شكر الاختبار عليه وسَرَّه ـ له بمعرفة سلفكم الأرْضَى وسيلة مَرْعية، وفي الاعتراف بنعمتكم مقامات مرضية، وتوجّه إلى بابكم، والتّمسك بأسبابكم، والمؤمَّلُ من سيدي سَتْرُه بجناح رعيه في حال الكَبْرة، ولحظه بطرف المَبَرّة، إمّا في استعمال يليق بذوي الاحتشام، أو سكون تحت رَعْي واهتمام، وإعانة على عمل صالح يكون مسكة ختام، وهو أحقُّ الغرضين بالتزام، وإحالة سيدي في حفظه رسمَ مثله، على اللّه تعالى الذي يجزي المحسنين بفضله، ومنه نسأل أن يديم أيام المجلس العليّ[2] محروسًا من النوائب، مُبَلَّغ الآمالِ والمآرب، والمملوكُ قد قرّر شأنه في إسعاف المقاصد المأمولة من الشفاعة إليكم، والتحسّب في هذه الأبواب عليكم، وتقليب القلوب بيد اللّه تعالى الذي يعطي ويمنع، ويملك الأمر أجمع، والسلام».

وكتب إليه أيضًا في الشفاعة بما نصُّه: «سيدي الأعظم، ومَلاَذي الأعصم، وعروة عزي الوثقى التي لا تُفْصَم[3]، أبقاك اللّه تعالى بقاء آثارك آية للعزّ تأمر الدهر فيأتمر، ويلبي

---

(١) مرّ التعريف بأبي عبد اللّه محمد بن مرزوق في الجزء الثاني وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١١٤): «العلمي».

(٣) العروة الوثقى: العروة المتينة. قال اللّه تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرُ بالطاغُوتِ ويُؤمِنُ باللّهِ فقدِ اسْتَمْسَكَ=

بِفِنائك الطائف والمعتمر، بأي لسان أُثني على فواضلك وهي أُمّهات المِنَن، وطُرَفُ الشام واليمن، ومقامات بديع الزمن، والتحف المترفعة عن الثمن؟ فحسبي دعاء أردّده وأواليه[1]، وأرتقب مطلوب الإجابة من مُقَدَّمه وتاليه، وإن تشوَّف المنعمُ للحال الموقوفِ خيرُهُ بمشيئة اللّه تعالى على جميل سَعْيه، الموسَّد على وطاء لطفه المغشَّى بغطاء رعيه، قلبٌ خافق، وقلبٌ مؤمن يجول به وسواسُ منافق، وقد تجاوز موسى مجمع البحرين[2]، وأصبح سريّ بابه سريّ العين، ولقد كانت مراحلُ الرَّمَلِ قصيرةً قبل أن يكسبها زَجلي ثِقْلَ الحركة، ويخلط خاصيّ في وظائفها المشتركة، وليت أمري برز إلى طَرَف، وأفضى إلى منصرف، وربما ظفر آيس بما يرجوه، ويبرز المحبوب من المكروه، واللّه تعالى لا يَفْضَح جاه الكتاب الذي أحيا وأنشر، وحيّا وبشر، وأعطى صحيفته باليمين وقد جمعت مثابتكم المحشر، وموصل كتابي، ينوبُ في تقبيل اليد العليا مَنَابي.

وليعلم سيدي أنَّ هذا القطر على شهرته، وتألّق مشتريه وزُهرته[3]، إذا انتخل[4] كرامه، وعهد الفضل لم يبق إلاَّ انصرامه، فهو لُبَابُه المتخيّر، وزُلاَله الذي لا يتغيّر، أصالةً معروفة، وهمّةً إلى الإيثار مصروفة، ونُبلاً على السِّنِّ والكبرة، ورجوليةً خليقة بِصِلَةِ الحرمة والميرّة، والوسيلة لا تُطْرَح، والمعنى الذي لا يفسّر لوضوحه ولا يُشْرح، وهو انتماؤه إلى جناب سيدي حديثًا وقديمًا، واعترافه بنعمه مديرًا لها ومديمًا، واللّه تعالى يوفي من إيثار سيدي حظّه، ويجدّد لديه رعيه ولحظه، حتى يعود خافقًا عَلَم إقباله، مُعْلمًا بُردُ اهتباله[5]، مسرورًا ببلوغ آماله، فلعمري إنَّ محلَّ ولايته لكَفِيّ، وإنَّ عهد أمانته لوفيّ، وإنّ عامل جدّه لَظَاهر وخفيّ، وما يفعله سيدي من رَعْيه، وإنجاح سَعْيه، محسوب من مناقبه، ومعدود في فضل مذاهبه، والسلام الكريم يخصّكم ورحمة اللّه وبركاته»؛ انتهى.

وقد تكررت في كتابنا هذا مخاطبات لسان الدين رحمه اللّه تعالى للخطيب ابن مرزوق المذكور نظمًا ونثرًا؛ إذ كان ـ أعني ابن مرزوق ـ رئيس الدولة، ومعتمَدَ الجِلّة،

= بالعُرْوَةِ الوُثْقَى لا انْفِصامَ لها ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ٢٥٦.

(١) في طبعة عبد الحميد: «وأوليه»، وهذا ما لا يوافق السجعة.

(٢) أخذ هذا من قصة موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لفتاهُ لا أَبْرَحُ حتى أَبْلُغَ مَجْمَعَ البحرينِ أو أَمْضِيَ حُقُبًا ﴾. سورة الكهف ١٨، الآية ٦٠.

(٣) المشتري والزهرة: كوكبان.

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١١٥): «انتحل» بالحاء المهملة.

(٥) يقال: اهتبل الفرصة: اغتنمها، لسان العرب (هبل).

وسبق مِنّا التعريفُ ببعض أحواله في باب مشايخ لسان الدين مِمّا جرّته المناسبة، فليرجع إليه مَنْ أراده، والله تعالى يجعل الجميع من أهل السعادة!

ومِمّا اشتمل على نثر لسان الدين ونظمه ما خاطب به الرئيس أبا زيد ابن خلدون، لما ارتحل من بحر ألمرية واستقرّ ببلد بسكرة عند رئيسها أبي العباس بن مَزْنى، صحبة رسالة خطبها أخوه أبو زكريا، وقد تقلّد كتابة صاحب تِلمسان، ووصل الكتاب عنه من إنشائه، وهذه صورة ما كتبه لسان الدين رحمه الله تعالى[1]: [الطويل]

بنفسي وما نفسي عليَّ بِهَيْنَةٍ	فينزلَني عنها المِكاسُ بأثمانِ[2]
حبيبٌ نأى عنّي وصمّم لا يَني[3]	وراش سهامَ البين عمدًا فأصماني
وقد كان هَمُّ الشَّيبِ، لا كان، كافيًا	فقد آدني لمّا ترحّلَ همّان
شَرَعْتُ له من دمعِ عينيَ موردًا	فكدَّرَ شِرْبي بالفراق وأظماني
وأرعيتُه من حُسْنِ عهدي جميمَهُ	فأجدبَ آمالي وأوحشَ أزماني
حلفتُ على ما عنده ليَ مِنْ رضًا	قياسًا بما عندي فأحْنَثَ أيماني
وإني على ما نالني منه من قِلًى	لأشتاقُ من لقياه نُغْبَةَ ظمآن
سألتُ جنوني فيه تقريبَ عرشِهِ	فقستُ بجنِّ الشوقِ جِنَّ سليمان
إذا ما دعا داعٍ من القوم باسمه	وثَبْتُ وما استثبتُّ شيمةَ هيمان
وتا الله ما أصغيتُ فيه لعاذلٍ	تحاميتُه حتى ارْعَوَى وتحاماني
ولا استشعرتْ نفسي برحمة عاند	تُظَلِّلُ يومًا مِثْلَهُ عبدَ رَحْمنِ
ولا شعرتْ من قبله بتشوّقٍ	تخلّل منها بين روح وجثمان

أما الشوقُ فحدِّثْ عن البحر ولا حَرَج، وأمّا الصبرُ فَسَلْ به أيةَ درج، بعد أن تجاوز اللِّوَى والمنعرج، لكن الشدّة تعشقُ الفَرَج، والمؤمن يَنْشَقُ من رَوحِ الله تعالى الأَرَج، وأنّى بالصَّبْر، على إبر الدَّبْر، لا بل الضرب الهبر[4]، ومطاولة اليوم والشهر، حتى حكم القهر؟

---

(١) وردت هذه الرسالة، بما فيها الشعر، في التعريف بابن خلدون (ص ١٠٤ وما بعدها).

(٢) هَيْنَة: مخففة من «هيّنة». المِكاس: المكايسة بين المتبايعين وذلك أن يطلب صاحب السلعة من المشتري سومًا فلا يزال المشتري يراجعه وينقص له ممّا طلب شيئًا فشيئًا حتى يقفا على ما يتراضيان عليه. محيط المحيط (مكس).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١١٦): «وصم لأنتي».

(٤) الهبر: الذي يهبر، أي يقطع. لسان العرب (هبر).

وهل للعين أن تسلو سلوّ المقصر، عن إنسانها المبصر، أو تذهل ذهول الزاهد، عن سرِّها الرائي والمشاهد؟ وفي الجسد بَضْعَةٌ[1] يصلح إذا صلحت، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت، وإذا كان الفارق هو الحِمام الأوّل، فعلامَ المعوَّل؟ أَعْيَتْ مُرَاوضة الفراق، على الراق، وكادت لوعة الاشتياق، أن تُفْضِي إلى السِّياق: [السريع]

تَرَكْتُمُوني بعد تشييعكمْ   أُوسعَ أمرَ الصبرِ عصيانا
أُقَرِّعُ سِنّي ندمًا تارة   وأستميحُ الدمعَ أحيانا

وربما تعلّلتُ بغشيانِ المعاهد الخالية، وجددتُ رسوم الأسى بمباكرة الرسوم البالية، أسأل نونَ النوى عن أهليه، وميمَ الموقد المهجور عن مُصْطليه، وثاء الأثافي المثلثة عن منازل الموحِّدين، وأحارُ بين تلك الأطلال حيرة الملحدين، لقد ضللتُ إذًا وما أنا من المهتدين، كَلِفْتُ لعمر اللّه بسالٍ عن جفوني المؤرقة، ونائم عن همومي المتجمّعة المتفرّقة، ظَعَنَ عن مَلال، لا متبرمًا مني بشرّ خلال، وكدَّر الوصل بعد صفائه، وضرَّج النصل بعد عهد وفائه[2]: [الطويل]

أقِلَّ اشتياقًا أيُّها القلبُ ربّما   رأيتك تُصْفِي الوُدَّ مَنْ ليس جازيا[3]

فها أنا أبكي عليه بدمِ أسأله، وأنهل فيه أسى له[4]، وأعلّل بذكراه قلبًا صَدَعه[5]، وأودعه من الوجد ما أودعه، لَمَّا خدعه، ثم قلاه ووَدَّعه، وأنشق رَيَّاه أنفَ ارتياح قد جَدَعَه، وأستعدي به على ظلم ابتدعه[6]: [الطويل]

خليليّ، هل أَبْصَرْتُمَا أو سَمِعْتُما[7]   قتيلاً بكى، من حبِّ قاتِلِهِ، قبلي

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١١٦): «مُضْغَةٌ».
(٢) البيت للمتنبي قاله في مدح كافور بعد فراقه لسيف الدولة، وهو في ديوانه (ص ٤٧٣).
(٣) في الديوان: «صافيا».
(٤) في التعريف بابن خلدون: «وأندب في ربع الفراق، آسى له».
(٥) في المصدر السابق: «وأشكو إليه حال قلب».
(٦) البيت لجميل بثينة، وهو في ديوانه (ص ٣٧).
(٧) رواية صدر البيت في الديوان هي:
خليليّ، فيما عِشتما، هل رأيتُما

فلولا عسى الرجاء ولعلّه، لا بل شفاعة المحلّ الذي حلّه، لَمَزَجْتُ الحنينَ بالعَتْب[1]، وبثثتُ كتائبه كمناء في شعاب الكتب، تهزّ من الألفات رماحًا خُزْرَ[2] الأسنّة، وتُوَتِّر من النونات أمثال القِسِيّ المُرِنَّة[3]، وتقود من بياض الطِّرْس وسواد النِّقْس بُلْقًا تَرْدي[4] في الأعنّة، ولكنه أوى إلى الحرم الأمين، وتفيّأ ظلال الجوار المؤمن من معرّة العوار عن الشمال واليمين، حرم الخِلال المزنيّة، والظلال اليَزَنيّة، والهمم السنيّة، والشِّيَم التي لا ترضى بالدون ولا بالدَّنِيّة، حيث الرفد الممنوح، والطير المَيامن يُزْجَرُ لها السُّنُوح، والمَثْوَى الذي إليه - مهما تقارع الكرام على الضِّيفان، حول جَوَابي الجفان - الميلُ والجنوح[5]: [الكامل]

نَسَبٌ كأنَّ عليه من شَمْس الضُّحى نورًا، ومن فَلَقِ الصباح عمودا

ومن حَلَّ بتلك المثابة فقد اطمأنَّ جَنْبُه، وتُغُمّدَ بالعفو ذنبه، ولِلّه دَرُّ القائل حيث يقول: [الكامل]

فوحقِّه لقد انتدبْتُ لوصفِهِ بالبُخْلِ لولا أنَّ حمصًا دارُهُ
بلدٌ متى أذكره تَهْتَجْ لوعتي وإذا قدحْتُ الزَّنْدَ طارَ شرارُهُ

اللهمَّ غفرًا، لا كُفْرًا، وأين قرارة النخيل، من مَثْوَى الأقلف البخيل، ومكذبة المخيل؟ وأين ثانية هَجَر، من متبوّأ من ألحد وفَجَر؟: [المتدارك]

من أنكر غيثًا منشؤه في الأرض وليس بِمُخْلِفها
فبنانُ بني مَزْنى مُزْنٌ تنهلُّ بلطفِ مُصَرِّفها
شكرتْ حتى بعبارتها وبمعناها وبأحرفها[6]
مُزْنٌ مذ حَلَّ ببَسْكرةٍ يومًا نطقت بمُصَحَّفِها[7]

---

(١) في التعريف بابن خلدون: «النشرتُ ألوية العتب».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١١٧): «حذر».
(٣) المُرِنّة: ذات الرنين.
(٤) البُلْقُ: جمع أبلق وهو الخيل. تردي: تمشي الرديان وهو نوع من المشي دون العَدْو. لسان العرب (ردا).
(٥) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه (ص ٨٠).
(٦) ترتيب هذا البيت في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٣٩٢) بعد الذي يليه.
(٧) مُصَحَّف كلمة «بسكرة»: «بشكره» أو «تشكره».

ضحكتْ بأبي العباس من الـ أيـام ثـنـايـا زخـرفـهـا
وتَـنَـكَّـرتِ الـدنـيـا حـتـى عُـرفـتْ مـنـه بـمـعـرّفـهـا

بل نقول: يا محلَّ الولد ﴿أُقْسِمُ بهذا البَلَدِ وأنتَ حِلٌّ بهذا البَلَد﴾[1]، لقد حَلَّ بَيْنُكَ عُرَى الجَلَد، وخلد الشوق بعدك يا ابن خلدون في الصميم من الخَلَد، فحيّا اللّه تعالى زمنًا شُفِيَتْ برُقَى[2] قربك زَمَانَتُه، واجتليت[3] في صدف مجدك جُمانته، ويا من لمشوق لم تقض من طول خلّتك لُبانته[4]، وأهلاً برَوض أظلّت أشتات معارفك بانَتُه، فحمائمه بعدك تندب، فيساعدها الجُنْدُب، ونَوَاسِمُه ترقُّ فتتغاشى، وعشياته تتخافت وتتلاشى، ومُزْنُه باك، ودَوْحُه في مأتم ذي اشتباك، كأن لم تكن قَمَرَ هالاتِ قِبابه، ولم يكُ أُنسُك شارعَ بابه، إلى صفوة الظرف ولُبَابه، ولم يسبح إنسانُ عينك في ماء شبابه، فلهفي عليك من درّة اختلَسَتْهَا يَدُ النوى، وَمَطَل بردُّها الدهر ولَوَى، ونَعَق الغرابُ ببينها في ربوع الجَوَى، ونطق بالزجر[5] فما نطق عن الهوى، وبأي شيء نعتاضُ منكِ أيتها الرياض، بعد أن طمى نهرك الفيّاض، وفَهَقَتِ الحياض؟ ولا كان الشانيء المشنوء، والجربُ المهنوء، مِنْ قِطَع ليلٍ أغار على الصبح فاحتمل، وشارك في الذمّ الناقَةَ والجمل، واستأثر جنحه ببدر النادي لما كمل، نشر الشراع فَرَاع، وأعمل[6] الإسراع، كأنما هو تمساح النِّيل ضايق الأحباب في البرهة، واختطف لهم من الشطّ نزهة العينِ وعينَ النزهة، ولَجَّجَ بها والعيون تنظر، والغمر على الاتّباع يحظر[7]، فلم يُقْدَرْ إلاّ على الأسف، والتماح[8] الأثر المنسَف، والرجوع بملء العَيْبَة، من الخيبة، ووِقْرُ الجَسْرة[9]، من الحَسْرَة، وإنما نشكو[10] إلى اللّه

---

(1) سورة البلد ٩٠، الآيتان (١، ٢).
(2) في التعريف بابن خلدون: «في قربك».
(3) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١١٨): «واحتليت» بالحاء المهملة.
(4) في التعريف بابن خلدون: «وقضيتُ في مرعى خلّتك لبانته». واللبانة: الحاجة، محيط المحيط (لبن).
(5) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١١٩): «بالزخرف».
(6) في التعريف بابن خلدون: «وواصل».
(7) في طبعة عبد الحميد: «على الأتباع يخطر».
(8) في الطبعة نفسها: «الأسف، والأثر».
(9) الوِقْرُ: الحِمْل. الجَسْرَة: الناقة الضخمة. لسان العرب (وقر) و (جسر).
(10) في طبعة عبد الحميد: «أشكو».

البثّ والحزن، ونستمطر من عبارتنا المُزن، ويسيف الرجاء نَصُول، إذا شُرِعت لليأس النصول[1]: [البسيط]

ما أَقْدَرَ اللّه أن يُدْني على شَحَطٍ ... مَنْ دارُهُ الحَزْنُ مِمَّنْ دارُهُ صُولُ

فإن كان كَلْم الفراق رغيبًا[2]، لما نويت مَغِيبًا، وجللت الوقت الهنيء تشغيبًا، فلعلّ الملتقى يكون قريبًا، وحديثه يروي صحيحًا غريبًا. إيه ثقة[3] النفس كيف حال تلك الشمائل، المزهرة الخمائل؟ والشِّيَم، الهامية[4] الديم، هل يمرّ ببالها مَنْ راعت بالبعد بَالَه، وأخمدت بعاصف البين ذُبَاله[5]، أو ترثي لشؤون شأنها سَكْب لا يفتر، وشوق يبتّ جلال الصبر ويبتر، وضَنًى تقصر عن حلله الفاقعة صنعاء وتستر، والأمر أعظم واللّه يستر، وما الذي يضيرك؟ صِينَ من لفح السَّموم نضيرُك! بعد أن أضرمْتَ وأشعلت، وأوقدت وجعلت، وفعلت فعلتك التي فعلت، أن تترفّق بِذَماء، أو تردّ بِنُغْبَةٍ ماء، أرماقَ ظِماء[6]، وتتعاهد المعاهد بتحيّة يُشَمُّ منها شذا أنفاسك، أو تنظر إلينا على البعد بمُقْلة حَوراء من سواد أنقاسك، وبياض قرطاسك[7]، فربما قنعت الأنفسُ المحبّة بخيال زُور، وتعلّلت بنوالٍ منزور، ورضيت لما لم تَصِدِ العنقاء بزرزور: [الكامل]

يا مَنْ ترحَّلَ والنسيمُ لأَجْلِهِ ... تشتاقُ إن هَبَّتْ شذا رَيَّاها
فإذا عزمت اقرأ ﴿ومن أحياها﴾[8] ... تحيي النفوس إذا بعثت تحيّة

---

(١) البيت لحندج المري وهو في معجم البلدان (جـ ٣ ص ٤٣٥). وصُوْل: مدينة في بلاد الخزر. المصدر نفسه.

(٢) الكلم: الجرح. الرغيب: الواسع. لسان العرب (كلم) و (رغب).

(٣) في التعريف بابن خلدون: «إيه سيدي».

(٤) الشِّيَم: كل أرض لم يُحْفَر فيها قبلُ، باقية على صلابتها. الهامية: العطشى. محيط المحيط (شيم) و (همى).

(٥) الذُّبالة: فتيلة السراج. لسان العرب (ذبل).

(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٢٠): «بذما... ما، أرماق ظما». والنُّغْبة: الجرعة من الماء. لسان العرب (نغب).

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٩٤): «من بياض قرطاسك، وسواد أنقاسك».

(٨) يشير إلى الآية الكريمة: ﴿ومَنْ أَحْياها فكأنّما أَحْيَا الناسَ جميعًا﴾، سورة المائدة ٥، الآية ٣٢.

ولئن أحييت بها فيما سلف نفوسًا تفديك. والله تعالى إلى الخير يهديك. فنحن نقول معشر مريديك: ثَنِّ ولا تجعلْها بيضة الديك[1]، وعذرًا فإني لم أجْتَرِ على خطابك بالفقر الفقيرة، وأدللت لدى حجراتك برفع العقيرة، لا عن نَشَاط بعثت مَرْمُوسَه، ولا اغتباط بالأدب تغري بسياسته سُوسَه، وانبساط أوحى إليّ على الفترة ناموسَه، وإنما هو اتّفاق جَرَّته نفثة المَصْدور، وهِناء الجرِب المجدور، وخارق لا مخارق[2]، فثم قياس فارق، أو لحن غنى به بعد الممات[3] مفارق، والذي سَبَّبه، وسوّغ[4] منه المكروه وحَبَّبه، ما اقتضاه الصنوُ يحييٰ مدّ الله تعالى حياته، وحَرَس من الحوادث ذاته! من خطاب ارتشف به لهذه القريحة بُلالتها، بعد أن رضي عُلاَلَتها، ورشح إلى الصُّهر الحضرمي سلالتها، فلم يسع إلاّ إسعافُه، بما أعافُه، فأمليت مُجيبًا، ما لا يُعَدُّ في يوم الرهان نجيبًا، وأسمعتُ وَجيبًا، لما ساجلتُ بهذه[5] الترهات سحرًا عجيبًا، حتى إذا[6] أَلِفَ القلمُ العريان سَبْحَه، وجمح برذون[7] الغرارة فلم أطِقْ كبْحَه، لم أُفق من غَمرة غلوّه[8]، وموقف متلوّه، إلاّ وقد تحيّز إلى فئتك معتزًّا بل معترًّا، واستقبلها ضاحكًا مُفْتَرًّا، وهشّ لها برًّا، وإن كان لونُهُ من الوَجَل[9] مُصْفرًّا، وليس بأوّل من هجر، في التماس الوصل مِمَّنْ هَجَر، أو بعث التمر إلى هَجَر، وأي نسب بيني اليوم وبين زخرف الكلام، وإجالة جياد الأقلام، في محاورة الأعلام؟ بعد أن حال الجَرِيض، دون القريض[10]، وشغل المريض، عن التعريض، واستولى[11] الكسَل،

---

(١) أخذه من قول بشار بن برد: [البسيط]

قد زُرْتِنا مرّةً في الدهرِ واحدةً ثَنِّي ولا تجعليها بيضةَ الديكِ

ديوان بشار بن برد (ص ١٧٤).

(٢) في التعريف بابن خلدون: «وإن تعلّل به مخارق».

(٣) في المصدر نفسه: «بعد البعد».

(٤) في المصدر نفسه: «والذي هيّأ هذا القدر وسببه، وسهّل».

(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٢٠): «هذه».

(٦) كلمة «إذا» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٧) البرذون: دابة الحِمْل الثقيل. لسان العرب (برذن).

(٨) في طبعة عبد الحميد: «علوّه» بالعين المهملة.

(٩) في التعريف بابن خلدون: «الخجل».

(١٠) الجريض: الريق الذي يُغَصُّ به، يقول: حالَ العائقُ دون قول الشعر. وقوله: «حال الجريض دون القريض» مثلٌ يضرب للأمر يقدر عليه أخيرًا حين لا ينفع. مجمع الأمثال (ج ١ ص ١٩١).

(١١) في التعريف بابن خلدون: «وغلب حتى».

ونصلت[1] الشعرات البيض كأنها الأسَل[2]، تروع برقط[3] الحيات، سِرْبَ الحياة، وتطرق بذوات الغُرر والشِّيات[4]، عند البيات، والشيب الموت العاجل، وإذا ابيضَّ زَرْعٌ صبّحته المناجل، والمعتبر الآجل، وإذا اشتغل الشيخ بغير مَعَاده، حُكم في الظاهر بإبعاده، وأسره في مَلَكة عاده، فأغضِ أبقاك اللّه واسمحْ، لمن قَصَّر عن المَطْمح، وبالعين الكليلة فالمحْ، واغتنمْ لباسَ ثوب الثواب، واشْفِ بعض الجوى بالجواب، تولاّك اللّه تعالى فيما استضفت وملكت، ولا بعدت ولا هلكت، وكان لك أيةً سلكت، ووَسَمك من السعادة بأوضح السُمات، وأتاح لقاءك من قبل الممات، والسلام الكريم يعتمد جلال ولدي، وساكن خَلَدي، بل أخي وإن عتبته[5] وسيدي، ورحمة اللّه تعالى وبركاته»؛ انتهى.

قلت: هذه الرسالة الرافلة في حلل البلاغة لم أرَ مِثْلَها ولم أقفْ عليه، فرحم اللّه تعالى لسان الدين ووجَّه سحائب الرحمة إليه! فلقد كان آيَةَ اللّه في النظم والنثر وجميع العلوم على اختلافها.

وكما خاطب الولي ابن خلدون خاطب أخاه أبا زكريا يحيىٰ حسبما قال في بعض كتبه: ومِمّا خاطبت به الفقيه أبا زكريا ابن خلدون، لمّا ولي الكتابة عن السلطان أبي حمّو سلطان تِلمسان من بني زيان واقترن بذلك نصر وصنع غبطته به. وأشدْتُ به قصد تنفيقه وإنهاضه لديه: «نخصُّ الحبيب الذي هو في الاستظهار به أخ وفي الشفقة عليه وَلَد، والولي الذي ما بعد قرب مثله أمل ولا على بُعْده جَلَد، والفاضل الذي لا يخالف في فضله ساكن ولا بلد، أبقاه اللّه تعالى وفاز فوزه وعصمته لها من توفيق اللّه سبحانه عمد، ومورد سعادته المسوغ لعادته لا غَور ولا ثمد، ومدى إمداده من خزائن إلهام اللّه تعالى وسداده ليس له أمد، وحَمَى فرح قلبه بمواهب من ربّه أن يطرقه كمد.

تحية مُحِلّه، من صميم قلبه بمحلِّه، المنشىء رواق الشفقة، مرفوعًا بعمد المحبّة والمِقّة[6]، فوق ظعنه وحلّه، مؤثره ومُجِلّه، المعتني بدقِّ أمره وجِلِّه[7]، ابن الخطيب، من

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٢١): «ونسلت».

(٢) الأسل: الرماح وقد يراد السَّيْف، ليجمع بين القلم والسيف.

(٣) في طبعة عبد الحميد: «يمرط الحيات».

(٤) ذوات الغرر والشيات هي الخيل.

(٥) في التعريف بابن خلدون: «وإن اتّقيت عتبه».

(٦) المقة: المحبة. لسان العرب (ومق).

(٧) بدقِّ أمره: أي دقيقه، وأراد: قليله. جلّه: أي جليله، وأراد: كثيره.

الحضرة الجهادية غَرْنَاطة، صان اللّه تعالى خلالها، ووقى هجير هجر الغيوم ظلالها! وعمر بأسُود اللّه تعالى أغيالها، كما أغرى بمن كفر باللّه تعالى صيالها! . ولا زائد إلاّ منن من اللّه تعالى تَصُوب، وقوة يستردّ بها المغصوب، ويخفض الصليب المنصوب، والحمد للّه تعالى الذي بحمده يُنال المطلوب، ويذكره تطمئنّ القلوب، ومودّتكم المودّة التي غذتها ثُدِيُّ الخلوص بلبابها، وأحلتها حلائل المحافظة بين أعينها وأجفانها، ومهّدت مواتُ أخواتها الكبرى أساسَ بنيانها، واستحقّت ميراثها مع استصحاب حال الحياة إن شاء اللّه تعالى واتّصال زمانها، واقتضاء عهود الأيام بيمنها وأمانها، وللّه دَرُّ القائل[1] : [الطويل]

فإن لم يكُنْها أو تَكُنْه فإنه أخُوهَا غَذَتْه أمُّهُ بلبانها

وصل اللّه تعالى ذلك من أجله وفي ذاته، وجعله وسيلة إلى مرضاته، وقربة تنفع عند اعتبار ما روعي من سنن الجبار ومفترضاته. وقد وصل كتابكم الذي فاتح بالريحان والرَّوح، وحلَّ من مرسوم الولاء محلّ البَسْملة من اللوح، وأذن لنوافح الثناء بالبوح، يشهد عدله بأنَّ البيان يا آل خلدون سكن من مثواكم دارَ خلود، وقدح زندًا غير صَلود، واستأثر من محابركم السيالة، وقُضُب أقلامكم الميّادة الميّالة، بأبٍ مُنْجب وأمّ ولود، يقفو شانيه غير المشنوّ، وفصيله غير الْجَرِبِ ولا المهنوّ، من الخطاب السلطاني سفينة مُنُوح[2]، إن لم نقلْ سفينة نوح، ما شئت من آل أزواج، وزُمَر من الفضل وأفواج، وأمواج كرم تطفو فوق أمواج، وفنون بشائر، وإهطاع[3] قبائل وعشائر، وضَرْبٍ للمسرّات أعيا الشائر، فللّه هو من قلم راعى نَسَبَ القنا فوصل الرحم، وأنجد الوشيج والملتحم، وساق بعصاه من البيان الذودَ المزدحم، وأخاف من شَذَّ عن الطاعة مع الاستطاعة فقال ﴿لا عاصِمَ اليومَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إلاّ مَنْ رَحِمَ ﴾[4] ولو لم يوجب الحقّ بَرْقه ورعده، ووعيده ووعده، لأوجبه يمنه وسعده، فلقد ظهرت مَخَايِلُ نُجْحه، علاوة على نصحه، ووضحت محاسن صُبْحه، في وحشة الموقف الصعب وقبحه، وصلَ اللّه تعالى له عوائد منحه! وجعله إقليدًا كلما استقبل باب أمل وكّله اللّه تعالى بفَتْحه!

---

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي، وهو في ديوانه (ج ٢ ص ٣٧).
(٢) المُنُوحُ: جمع منح وهو الإعطاء. لسان العرب (منح).
(٣) الإهطاع: الإسراع. لسان العرب (هطع).
(٤) سورة هود ١١، الآية ٤٣.

أمّا ما قرّره ولاؤكم من حبّ زكا على حبّة القلب حبُه، وأنبته النباتَ الحسنَ ريُّه، وساعده من الغمام سَكْبُه، ومن النسيم اللذن[1] مَهَبُّه، فرسم ثبت عند المولىِّ نظيره، ومن غير معارض يَضِيره، وربما أربى بتذييل مزيد، وشهادة ثابت ويزيد[2]، ولِمَ لا يكون ذلك، وللقلب على القلب شاهد؟ وكونُهَا أجنادًا مُجَنَّدة لا يحتاج تقريره إلى ماهد، أو جَهْد جاهد، ومودّة الأخوة سبيلها لاحب، ودليلُها للدعوة الصادقة مصاحب، إلى ما سبق من فضل ولقاء، ونظافة سقاء، واعتقاد، لا يُرَاع سِرْبُه بذئب انتقاد، واجتلاء شهاب وقّاد، لا يحوج إلى إيقاد، إنما عاق عن مُوَاصلة ذلك نوًى شَطٌّ منها الشطَن، وتشذيب لم يتعيّن معه الوطن، فلمّا تعيّن، وكاد الصبحُ أن يتبيّن، عاد الوَمِيضُ دَيْجُورًا، والثماد بحرًا مسجورًا[3]، إلى أن أعلق اللّه تعالى منكم اليدَ بالسبب الوثيق[4]، وأحلّكم مَنْجَى نِيق[5]، لا يخاف من منجنيق، وجعل يراعكم لسعادة موسى[6] معجزة تأتي على الخبر بالعِيان، فتخرّ لثعبانها سَحَرَة البيان: [المتقارب]

أيحيىٰ، سقى، حيثُ لُحتَ، الحَيَا	فَنِعْمَ الشعابَ ونِعْمَ الركونْ
وحَـيّـا يـراعـك مِـنْ آيـة	فقد حرّك القومَ بعد السكونْ
دعوتَ لخدمة مُوسٰى عصاه	فجاءت تَلَقَّفُ ما يأفكُون
فأذعنَ مَنْ يَدَّعي السحرَ رغْمًا	وأَسْلَمَ مِنْ أجلها المشركون
وساعدكَ السَّعْدُ فيما أردت	فكان كما ينبغي أن يكون

فأنتم أولى الأصدقاء بصِلَة السبب، ورَعْي الوسائل والقُرَب، أبقاكم اللّه تعالى وأيدي الغبطة بكم عالية، وأحوال تلكم الجهات بدرككم المهمات حالية، ودِيَمُ المسرّات من إنعامكم المدرّات[7] على معهود المبرات متوالية!

---

(١) اللَّذْنُ: اللَّيِّنُ. لسان العرب (لدن).

(٢) ثابت: هو ثابت البناني. ويزيد: هو يزيد بن الأسود، وهنا يشير إلى قول جميل: [الطويل]
إذا قلتُ: ما بي يا بثينةُ قاتلي ... من الحبِّ، قالت: ثابتٌ ويزيدُ
ديوان جميل بثينة (ص ١٥).

(٣) الثماد: الماء القليل الذي يتجمّع في الشتاء. المسجور: البحر إذا هاج وارتفعت أمواجه؛ قال اللّه تعالى: ﴿والبحرِ المَسْجُورِ﴾. سورة الطُور ٥٢، الآية ٦، ولسان العرب (ثمد) و (سجر).

(٤) الوثيق: القويّ المتين. لسان العرب (وثق).

(٥) المنجى: اسم مكان من نجا ينجو. النِّيْقُ: أعلى موضع في الجبل. لسان العرب (نجا) و (نيق).

(٦) موسى: هو أبو حمّو، سلطان تِلِمْسان.

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٩٨): «المبرّات».

وأمّا ما تشوّفتم إليه من حال وليكم فأمل متقلّص الظلّ، وارتقابٌ لهجوم جيش الأجلِ المطلّ، ومُقام على مساورة الصّل، وعمل يكذب الدعوى، وطمأنينة تنتظر الغارة الشّعْوا، ويد بالمدخور تفتّح، وأخرى تجهد وتمنح، ومرض يزور فيثقل، وضعف عن الواجب يعقل[1]، إلاّ أنّ اللطائف تستروح، والقلب من باب الرجاء لا يبرح، وربما ظفر البائس، ولم تطّرد المقايس، تداركنا اللّه تعالى بعفوه! وأوردنا من منهل الرضا والقبول على صفوه! وأذن لهذا الخرق في رَفْوِه!

وأمّا ما طلبتم من انتساخ ديوان، وإعمال بنان في الإتحاف ببيان، فتلك عهود لديَّ مهجورة، ومعاهد لا مُتَعَهّدة ولا مَزُورة، شغل عن ذلك خَوضٌ يعلو لجبُه، وحرص يُقْضى من لغط المانح عجبُه، وهول جهادٍ تساوى جُمَادَيَاهُ وَرَجَبُه، فلولا التماسُ أجر، وتعلُّل بربح تَجْر، لقلت: أهلاً بذات النِّحْيَينِ[2]، فلئن شكت، وبذلت المَصُون بسبب ما أمسكت، فلقد ضحكت في الباطن ضعف ما بكت، ونستغفر اللّه تعالى من سوء انتحال، وإيثار المزاح بكلِّ حال، وما الذي ينتظر مثلي مِمَّنْ عرف المآخذ والمتارك، وجَرَّب لما بَلاَ المبارك، وخبر مساءة الدنيا الفارك؟

هذا أيها الحبيبُ ما وسعه الوقت الضيق، وقد ذهب الشباب الرَّيِّق[3]، فليسمح فيه معهود كمالك، جعل اللّه تعالى مطاوعة آمالك، مطاوعة يمينك لشمالك! ووطّأ لكَ موطّأ العِزِّ بباب كلِّ مالك! وقرن النُّجح بأعمالك! وحفظك في نفسك وأهلك ومالك! والسلام»؛ انتهى.

ومن مخاطبات لسان الدين لصاحبه العلامة أبي القاسم بن رضوان: [الكامل]

قد كنت أُجْهِدُ في التماسِ صنيعةٍ   نَفْسًا شهابُ ذكائها وقّادُ
وأقولُ لو كان المخاطب غيركم   عند الشدائد تَذْهَبُ الأحقادُ

---

(١) يَعْقَلُ: يُمْنَعُ ويحجب. لسان العرب (عقل).

(٢) النِّحْيُ: الزِّقُّ أو ما كان للسمن خاصة. ومن أمثالهم: «أَشْغَلُ من ذاتِ النِّحْيَيْنِ». وذات النّحيين: امرأة من بني تيم اللّه بن ثعلبة، كانت تبيع السمن في الجاهلية، فأتاها خوّات بن جبير الأنصاري يبتاع منها سمنًا، وساومها فحلّت نحْيًا ثم حلّت آخر الخ، حتى شغلَ يديها فلم تقدر على دفعه فقضى ما أراد وهرب. وهذا المثل يضرب في كثرة العوائق. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٣٧٦) ومحيط المحيط (نحا).

(٣) الشباب الرَّيِّقُ: أول الشباب. محيط المحيط (ريق).

«سيدي، أبقاكم اللّه تعالى عَلَم فضل وإنصاف، ومجموع كمال أوصاف. كلام النيّة[1] قصير، واللّه تعالى بحسنات الأقوال والأفعال بصير، وإليه بعد هذا الخباط كله المرجع والمصير[2]، وليس لنا إلاّ مولى ونصير، وهذا الرجل سيدي الخطيبُ أبو عبد اللّه ابن مرزوق - جبره اللّه تعالى! - بالأمس كُنّا نقف ببابه، ونتمسّك بأسبابه، ونتوسّل إلى الدنيا به، فإن كُنّا قد عرفنا خيرًا وجبت المشاركة، أو كفافًا تعينت المتاركة، أو شرًّا اهتبلت غرة الهدى الأنفسُ المباركة، واتّصفتْ بصفة من يُعْصى فيسمح، ويُسأل فيمنح، ويعود إلى القبح[3] بالفعل الجميل، ويجيبُ[4] يَدَ التأميل، ومع هذا فلم نَدْرِ إلاّ خيرًا كَرُمَ منه الموردُ والمصرف، ومن عرف حجّة على من لا يعرف، وأنتم في الوقت سراج علم لا يخبو سَنَاه، ومجموع تحف[5] عرفنا منه ما عرفناه، وهذه هي الشهرة التي تُغتنم إذا سفرتْ، والهنة[6] التي تُسْبَر[7] عليها النفسُ إذا نفرتْ، حتى لا تجد بعونِ اللّهِ تعالى عارضًا يَعُوقُها عن الخيرِ، وسبيل الكمال الأخير، والأجر في استيفاء كتاب الشفاعة، وتحرّي المقاصد النفاعة، وتنفيق البضاعة، قد ضمنه مَنْ وَعَدَ بقيام الساعة، والجزاء على الطاعة وغير الطاعة، وهذه المشاركة تسجيل لفضلكم قِبَلِي، وهي في الحقيقة لي، فكيف واللّه تعالى يرى عملكم وعملي، والمتروك حقير، والوجود إلى رحمة من رحمات اللّه تعالى فقير، والسلام»؛ انتهى.

ومن كلام لسان الدين رحمه اللّه تعالى قوله في مخاطبة شيخ العرب مبارك بن إبراهيم رحمه اللّه تعالى[8]: [الكامل]

ساحاتُ دارِكَ للضيافِ مَبَارِكُ ... وبضوء نارِ قِراكَ يُهْدَى السالكُ
ونوالكَ المبذولُ قد شملَ الوَرَى ... طرًّا، وفضلك ليس فيه مشارك
قُلْ للذي قال الوجودُ قد انطوى ... والبأسُ ليس له حسامٌ فاتكُ

(١) كلمة «النيّة» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٢٥).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٣٩٩): «كلّ رجعى منّا ومصير».
(٣) في الطبعة نفسها: «قبيح».
(٤) في الطبعة نفسها: «ويُخيبُ».
(٥) في الطبعة نفسها: «تخلّق».
(٦) الهَنَةُ: مؤنث هَنٌ، والهَنُ: الشيء؛ يقال: هذا هَنُكَ: أي هذا شيئك. محيط المحيط (هنو).
(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٠٠): «تُخْبَرُ».
(٨) النص شعرًا ونثرًا في الاستقصا (جـ ٤ ص ١٣ - ١٥).

والجودُ ليس له غمامٌ هاطلٌ | والمجدُ ليس له همامٌ باتك[1]
جمعَ الشجاعةَ والرجاحةَ والندى | والبأسَ والرأيِ الأصيلَ مُبَارَكُ
للدين والدنيا وللشِّيَم العُلا | والجودِ إن شحَّ الغمام السافكُ[2]
عند الهياج ربيعةُ بن مُكَدَّم | في الفضل والتقوى الفُضَيلُ ومالكُ[3]
ورث الجلالةَ عن أبيه وجَدِّه | فكأنهمْ ما غاب منهمْ هالكُ
فجيادُه للآملين مراكبٌ | وخيامُهُ للقاصدين أرائك
فإذا المعالي أصبحتْ مملوكةً | أعناقُها بالحقِّ فهو المالك
يا فارسَ العربِ الذي مِنْ بيتِهِ | حَرَمٌ لها حَجٌّ به ومناسكُ
يا مَنْ يُبَشَّر باسمه قصّادُهُ | فلهمْ إليه مساربٌ ومسالكُ
أنت الذي استأثرتُ فيك بغبطتي | وسِواكَ فيه مآخذٌ ومتاركُ
لا زلتَ نورًا يهتدي بضيائه | مَنْ جَنَّهُ للروع ليلٌ حالك
ويخصُّ مَجْدَكَ من سلامي عاطرٌ | كالمِسْكِ صاكَ به الغوالي صائكُ[4]

«الحمد للّه تعالى الذي جعل بيتك شَهيرًا، وجعلك للعرب أميرًا، وجعل اسمك فالاً، ووجهك جَمَالاً، وقربك جاهًا ومالاً، وآلَ رسول اللّه ﷺ لك آلاً، أُسلم عليك يا أمير العرب وابنَ أمرائها، وقُطْبَ سادتها وكبرائها، وأُهنيك بما منحك اللّه تعالى من شهرة تبقى، ومكرمةٍ لا يضلُّ المتّصف بها ولا يشقى، إذ جعل خيمتك في هذا المغرب على اتّساعه، واختلاف أشياعه، مأمَنًا للخائف، على قياس[5] المذاهب والطوائف، وصَرَف الألسنة إلى مدحك، والقلوبَ إلى حُبِّك، وما ذلك إلاَّ لسريرة لك عند ربِّك، ولقد كنت أيام تجمعني وإياكَ المجالسُ السلطانية على معرفتك متهالكًا، وطوع الأمل سالكًا، لما يلوحُ لي على وجهك من سيما المجد والحياء، والشِّيَم الدالّة على العلياء، وزكاء الأصول وكرم الآباء، وكان والدي ـ رحمه اللّه تعالى! ـ قد عيّنَ للقاء خال السلطان قريبكم لما توجّه في الرسالة إلى الأندلس نائبًا في تأنيسه عن مخدومه، ومنوّهًا حيث حلَّ بقدومه، واتّصلت

(١) الباتك: القاطع، يبتُّ الأمور. محيط المحيط (بتك).
(٢) السافك: المنهمر؛ يقال: سفك الدمعَ والدمَ يسفكه إذا صبّه. محيط المحيط (سفك).
(٣) الفضيل: هو الفضيل بن عياض. مالك: هو مالك بن دينار، وقد يعني به مالك بن أنس.
(٤) الغوالي: جمع غالية وهي الطيب. الصائك: الذي يخلط ويمزج. لسان العرب (غلا) و (صوك).
(٥) في الاستقصا: «على كثرة».

بعد ذلك بينهما المُهَاداة والمعرفة، والوسائل المختلفة، فعظم لأجل هذه الوسائل شوقي إلى التشرّف لزيارة[1] ذلك الجناب الذي حُلولُه شرف وفخر، ومَعرفتُه كنزٌ وذُخر، فلمّا ظهر الآن لمحلّ الأخ الكذا القائد فلان اللحاقُ بك، والتعلّق بسببك، رأيتُ أنه قد اتّصل بهذا الغرض المؤمل بعضي والله تعالى ييسّر في البعض، عند تقرير الأمنِ وهدنةِ الأرض، وهذا الفاضل بركة حيثُ حلّ لكونه من بيت أصالة وجهاد، وماجدًا وابنَ أمجاد، ومثلك لا يُوصّى بحسن جواره، ولا يُنَبّه على إيثاره، وقبيلُكَ في الحديث - من العرب - والقديم، وهو الذي أوجب لها مزيَّةَ التقديم، لم يفتخر قطُّ بذهبٍ يُجْمَع، ولا ذخرٍ يُرْفَع، ولا قصر يُبْنَى، ولا غَرْس يُجْنَى، إنما فخرها عدوّ يُغْلَب، وثناء يجلب، وجُزُر[2] تنحر، وحديث يذكر، وجود على الفاقة، وسماحة بحسب الطاقة، فلقد ذهب الذهب، وفني النشَب، وتمزّقت الأثواب، وهلكت الخيلُ العِرَاب، وكلُّ الذي فوق التراب تراب، وبقيتِ المحاسنُ تروى وتنقل، والأعراضُ تجلى وتُصْقل، ولله دَرُّ الشاعر إذْ يقول[3]: [الرجز]

وإنـمـا الـمـرءُ حـديـثٌ بَـعْـدَهُ   فكنْ حديثًا حسنًا لمن وعى

هذه مقدمة إن يسَّرَ الله تعالى بعدها لقاء الأمير، فيجلي اللسان عَمًّا في الضمير: [الطويل]

ومدحي عُلَى الأملاك مدح، وإنما   رأيتك منها فامتدحْتُ على وسمي
وما كنتُ بالمهدي لغيرك مدحتي   ولو أنه قد حلَّ في مفرق النجمِ

ومن ذلك ما خاطب به شيخه الخطيب سيدي أبا عبد الله بن مرزوق، وهو: [السريع]

راشَ زمـانـي وبَـرَى نـبـلَـهُ   فكنتَ لي مِنْ وقعِها جُنَّهْ
ولـو قـهـرتَ الـموتَ أمّنْتَني   مـنـه وأدْخَـلْـتَـنـي الـجَـنَّـهْ
فـكـيـف لا أنـشـرُهـا مـنّـةً   قـد عَـرَفَـتْـهـا الإنـسُ والـجِـنَّـهْ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٠٢): «بزيارة».

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٠٢): «وجَزُور يُنْحَرُ». والجُزُر: جمع جَزُور وهي الناقة. محيط المحيط (جزر).

(٣) البيت لابن دريد من مقصورته، وقد تقدم في الجزء الرابع. ومرَّ هناك التعريف بابن دريد والإشارة إلى مصادر ترجمته.

«بماذا أُخاطب به تلك الجلالة، فيتيسّر الخطاب وتحصل الدّلالة، أبسيدي ويشركني فيه، من قال لا إله إلاّ اللّه بفيه؟ أو بروح حياتي، وماهية[1] ذاتي، وذخري الكبير الكثير، لا بل فَلَكي الأثير، وهو تضييق على الولد والأهل، وتعدي المراتب المحدودة من الجهل، فلم يبق إلاّ الإشارة الخارجة عن وظائف اللسان، وهي بعض دلالات الإنسان، أفدت الإكسير، وجبرت الكسير، ورويت يا أبا العلا التيسير، وغمرت بالكرم وأمن حمام الحرم الظعن والمسير، فمن رام شكر بعض أياديك فلقد شدّ حقائب الرحال، إلى نيل المحال، والحقّ أن نَكِلَ جزاك، لمن جعل إلى المجد اعتزاك[2]، ونولي شكرك وثناك، إلى مَنْ عمر بما يرضيه من الرفق بالخلق وإقامة الحقّ إنَاك، وندعو منك بالبقاء إلى الروض المَجُود[3]، وغمام الجود، وإمام الرُّكّع السجود، لا بل لنور اللّه تعالى المشرق على التهائم والنُّجود، ورحمته المبثوثة أثناء هذا الوجود.

وليعلم سيدي أنَّ النفسَ طمّاعة، وسراب آمالها بحارُه لمّاعة، فلا تفيق من كدّ، ولا تقف عند حدّ، سيما إذا لم يهذبها السلوك والتجريد، ولم يَسِرْ منها في عالم الغيب البريد، ولا تجلّت لها السعادة التي يجذب بها المراد ويشمّر لها المريد، إلى أن يتأتّى عَمّا دون الحقّ المَجيد، ويصحّ التوحيد، وقد مثلت الآن خصمًا، يوسِعُ[4] ظهر استظهاري بالتسليم قَصْمًا، ويقول[5]: المال عديلي عند القيمة، وطبيبي في الأحوال السقيمة، وهو نتيجة كدّي عند الأقيسة العقيمة، ومن استخلصني على شرفي إذا تفاضلت الجواهر، وتبيّنت للحقّ المظاهر، وتعيّنت المراتب التي يقتعدها على رأي البراهمة النور الاصفهندي والنور القاهر، فخلاصُ المال طَوعُ يديه، وهو كما قال اللّه تعالى أهْوَنُ عليه، فأُلاطِفُها، حتى تلينَ مَعَاطِفُها، وأُخادِعُها، حتى تلوي أخادعها، وأقول: قد وقع الوعد، وأشرق السعد، ولان الجعد، وسكن الرعد، وللّه تعالى الأمرُ مِنْ قَبْلُ ومِنْ بعد، فتجيبني: العمر المنام، وأيام الجاه والقدرة قد يحقّ لها الاغتنام، وهمُّ العاقل إلى وقته الحاضر مصروف، و «إذا لم يغير حائطه»[6] مَثَلٌ معروف، وفي الوقت زبون يرجى به استخلاصُ الحقوق، ويُستبعد وقوع

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٠٣): «ومقدم ماهية ذاتي».
(٢) جزاك: أصل القول: جزاؤك. اعتزاك: أصل القول: اعتزاؤك، أي انتماؤك وانتسابك.
(٣) الروض المَجُودُ: الذي جاده المطر، أي همل عليه وجاد. لسان العرب (جود).
(٤) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٠٤): «توسع».
(٥) في الطبعة نفسها: «وتقول».
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٢٩): «حائط».

العقوق، فإن رأى مولاي أن يُشْفِع المنّة، ويقرع بابًا ثانيًا من أبواب الجنّة، قبل أن يشغل شاغل، أو يكدّر الأكلَ والشربَ وَارشٌ[1] أو واغل، أو يثوب للمتعدي نظر في اللجاج، أو يُدَسّ له ما يحمله على الاحتجاج. أو[2] متسعٌ مَنَاطها، فسيحٌ استنباطها، كثيرٌ هياطها ومياطها. فهو تمام صنيعته التي لم ينسج على منوالها الأحرار، ولا اهتدتْ إلى حسنتها الأبرار، ولا عرف بدرُ مجدها السِّرار، فإليه كان الفرار، ولله تعالى ثم له خَلَصَ الاضطرار، ويستقرّ تحت دخيله القَرَار، وتطمئنّ الدار فإنّ ما ابتدأ به من عِزّ ضَرَبَ على الأيدي العادية منه حكمُ الحكام، وفارع الهِضام والآكام، على ملإ ومجمع، وبمرأى من الخلق ومَسْمع، يقتضي اطِّراد قياس العِزّة القعساء، وسعادة الإصباح والإمساء، وظهورَ درجات الرجال على النساء، فهو جاهٌ حارتْ فيه الأوهامُ وهذه أذياله، ومن ركب حقيقَةَ أمرها هَانَ عليه خيالُه، والمال ماله، والعيال عياله، والوجود سريع زَيَالُه، والجزاء عند الله تعالى مكياله، وعروض المغصوب باقية الأعيان[3]، مستقلّة الشجر قائمة البنيان، تمنع عن شرائها قاعدة الأديان، وغيرها من مكيل وموزون، بين مأكول ومخزون، والكتب مُلْقَاة بالقاع، مطروحة بأخبث البقاع، فإنْ تأتّى الجَبْر، وإلاّ فالصَّبْر، على أنَّ وَعْدَ عمادي لا يفارقُ الإنجاز، ومكرمته التي طوّقها قد بلغت الشام والحجاز، وحقيقة التزامه تباين المجاز، وآية مجده تستصحب الإعجاز، ولله دَرُّ إبراهيم بن المهدي[4] يخاطب المأمون، لما أكذب في العفو عنه الظنون[5]: [البسيط]

وهَبْتَ مالي ولم تبخلْ عليَّ به ... وقبلَ ذلك ما إن قد وَهَبْتَ دمي

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٣٠): «واشٍ». والوارش: المتطفّل على الآكلين. والواغل: المتطفّل على الشاربين. لسان العرب (ورش) و (وغل).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٠٤): «و «أو» متّسع».

(٣) يشير ابن الخطيب هنا إلى ما أُخذ منه بالأندلس من عروض ومكيلات وموزونات وكتب. . الخ، ويقول إن أعيان العروض (من شجر ومبانٍ) ما تزال شاهدة. طبعة دار صادر (ص ٤٠٥، حاشية ١).

(٤) هو أبو إسحٰق إبراهيم بن المهدي بن المنصور العباسي، أخو هارون الرشيد. كانت له اليد الطولى في الغناء وحسن المنادمة. توفي سنة ٢٢٤ هـ بِسُرَّ مَنْ رأى. وفيات الأعيان (جـ ١ ص ٣٩) والأغاني (جـ ١٠ ص ١١٩).

(٥) البيت في الأغاني (جـ ١٠ ص ١٤٧) وروايته هكذا:

رَدَدْتَ مالي ولم تَمْنُنْ عليَّ به ... وقبل رَدِّكَ مالي قد حَقَنْتَ دمي

وقد كانت هذه المنقبة غريبة فعززتها بأختها الكبرى، وفريدةً فجئت بأخرى، وشفعت وِتْرا، أبقاك اللّه تعالى لتخليد المناقب، وإعلاء المراتب! وجعل أخمص نعلك تاجًا للنجم الثاقب! وتكفَّل لك في النفس والولد بحسن العواقب[1]: [البسيط]

آمينَ آمينَ لا أرضى بواحِدَةٍ حتى أُضِيفَ إليها ألفَ آمينا

وأمّا تنبيه سيدي على إنشاء رزق، وتقرير رفد ورفق، فلا أنبّه حاتمًا وكعبًا، أن يملأ قعبًا، لمن خاض بحرًا أو ركب صعبًا، هذا أمر كفانيه الكافي، وداء كَوَخْزِ الأشافي[2]، أذهبه الشافي، والسلام»؛ انتهى.

ومن إنشاء لسان الدين رحمه اللّه تعالى على لسان السلطان قوله:

«هذا ظهيرٌ كريم، مُتَضَمَّنه[3] استجلاء لأمور الرعيّة واستطلاع، ورعاية كرمت منها أجناس وأنواع، وعدل بَهَر منه شعاع، ووصايا يجب لها إهطاع، أصدرْناه للفقيه فلان لمّا تقرّر لدينا دينه وعدله وفضله، رأينا أنه أحَقّ مَنْ نقلِّده الهَمَّ الأكيد، ونرمي به من أغراض البرّ الغرضَ البعيد، ونستكشف به أحوالَ الرعايا حتى لا يغيب عنّا شيء من أحوالها، ولا يتطرّق إليها طارق من أهوالها، وينهي إلينا الحوادث التي تنشأ فيها إنهاء يتكفّل بحياطة أبشارها وأموالها.

وأمرناه أن يتوجّه إلى جهة كذا حاطها اللّه تعالى فيجمع الناس في مساجدهم، ويندبهم من مشاهدهم، ويبدأ بتقرير غرضنا في صلاح أحوالهم، وإحساب[4] أموالهم، ومكابدتنا المشقّة في مداراة عدوّهم الذي نعلم من أحواله ما غاب عنهم دفعه اللّه تعالى بقدرته، ووَقّى نفوسهم وحريمهم من مَعَرَّته، ولما رأينا من انبتات[5] الأسباب التي تؤمل، وعجز الحيل التي كانت تعمل؛ ويستدعي إنجادهم بالدعاء، وإخلاصهم فيه إلى ربّ السماء، ويسأل عن سيرة القوّاد، وولاة الأحكام بالبلاد، فمن نالته مظلمة فليرفعها إليه، ويقصّها عليه، ليبلغها إلينا، ويوفدها مقررة الموجبات لدينا، ويختبر ما افترض صدقةً

---

(١) تقدم هذا البيت في الجزء الأول والجزء الثالث.

(٢) الأشافي: جمع إشفى وهو المخرز والمِثقب. لسان العرب (شفى).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٠٥): «مُضَمَّنُهُ».

(٤) إحساب أموالهم: تكثيرها وزيادتها وإنماؤها.

(٥) انبتات الأسباب: انقطاع الوسائل.

للمجبل، وما فضل عن كريم ذلك العمل، ليعيّن إلى بناء الحصن بجبل فارُه يَسَّرَ اللَّه تعالى لهم في إتمامه، وجعل صدقتهم تلك مسكة ختامه، وغيره مِمّا افترض إعانةً للمسافرين، وإنجادًا لجهاد الكافرين، فيعلم مقداره، ويتولّى اختباره، حتى لا يجعل منه شيء على ضعيف، ولا يُعدل به لمشروف عن شريف، ولا تقع فيه مضايقة ذي الجاه، ولا مُخَادعة غير المراقب للّه، ومتى تَحَقّق أن غنيًا قُصِّر به عن حقّه، أو ضعيفًا كلف منه فوق طَوقه، فيجير الفقير من الغني، ويجري من العدل على السَّنن السَّوِي[1]، ويعلم الناس أنَّ هذه المعونة[2] وإن كانت بالنسبة إلى محلّ ضرورتها يسيرة، وأنَّ اللّه تعالى يُضاعفها لهم أضعافًا كثيرة، فليست مِمّا يلزم، ولا من المعاونِ التي بتكريرها[3] يجزم، وينظر في عهود التوفيق فيصرفها في مصارفها المتبيّنة، وطرقها الواضحة البيّنة.

ويتفقّد المساجد تفقّدًا يكسو عاريها، ويتمّم منها المآب تتميمًا يُرْضي باريها، ويندب الناس إلى تعليم القرآن لصبيانهم، فذلك أصل أديانهم، ويحذرهم المغيب على كلّ شيء من أعشارهم، فالزكاةُ أختُ الصلاة وهما من قواعد الإسلام، وقد احترْنا لهم بأقصى الجدّ والاعتزام، ورفعْنا عنهم رسم التعريف نظرًا إليهم بعين الاهتمام، وقدَّمْنا الثقات لهذه الأحكام، وجعلْنا الخَرْصَ[4] شرعيًا في هذا العام، وفيما بعده إن شاء اللّه تعالى من الأعوام.

ومن أهم ما أسندْناه إليه، وعوّلْنا فيه عليه، البحث بتلك الأحواز عن أهل البدع والأهواء، والسائرين من السبيل على غير السَّواء، ومن ينبز[5] بفساد العَقْدِ، وتحريف القَصْدِ، والتلبّس بالصوفية وهو في الباطن من أهل الفساد، والذاهبين إلى الإباحة وتأويل المعاد، والمؤلّفين بين النساء والرجال، والمتبعين لمذاهب الضلال، فمهما عثر على مُطَوَّق بالتهمة، منبز بشيء من ذلك من هذه الأمة، فليشدّ ثقافه شدًّا، ويسدّ عنه سبيل الخلاص

---

(١) السَّنَنُ السّويّ: الطريق الذي لا عوج فيه. لسان العرب (سنن) و (سوي).

(٢) المعونة: الضريبة، والجمع معاون. لسان العرب (عون).

(٣) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٠٧): «بتكرّرها».

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٣٢): «الخوض». والخَرْصُ: تخمين الكرم والنخيل. لسان العرب (خرص).

(٥) يُنْبَزُ: يُلَقَّبُ؛ يقال: نبزه بكذا إذا لقبه. قال اللّه تعالى: ﴿ولا تَنَابَزُوا بالألقابِ بِئْسَ الاسمُ الفُسُوقُ بَعْدَ الإيمانِ﴾. سورة الحُجرات ٤٩، الآية ١١.

سدًا، ويسترع[1] في شأنه الموجبات، ويستوعب الشهادات، حتى ينظر في حَسْم دائه[2]، ويعاجل المرض بدوائه، فليتولَّ ما ذكرنا نائبًا بأحسن المناب، ويقصد وجه اللّه تعالى راجيًا منه جزيل الثواب، ويعمل عملَ مَنْ لا يخاف في اللّه لومة لائم ليجد ذلك في موقف الحساب.

وعلى من يقف عليه من القوّاد والأشياخ والحكّام أن يكونوا معه يدًا واحدة على ما حررنا في هذه الفصول، من العمل المقبول، والعدل المبذول، ومن قصر عن غاية من غاياته، أو خالف مقتضًى من مقتضياته، فعقابه عقاب من عصى أمر اللّه وأمرنا فلا يلم إلاً نفسه التي غَرَّته، وإلى مصْرَع النكير جرَّته، واللّه تعالى المستعان»؛ انتهى.

ومن ذلك ما خاطب به تربة السلطان الكبير أبي الحسن المريني لما قصدها عقب ما شرع في جواره وتوسّل إلى أغراضه بذلك إلى ولده رحم اللّه تعالى الجميع:

«السلام عليك ثم السلام، أيُها المولى الهمام، الذي عرف فضله الإسلام، وأوجبت حقّه العلماء الأعلام، وخفقت بعزّ نصره الأعلام، وتنافست في إنفاذ أمره ونهيه السيوفُ والأقلام. والسلام عليك أيُها المولى الذي قسم زمانه بين حكم فَصْل، وإمضاء نَصْل، وإحراز خَصْل، وعبادة قامت من اليقين على أصْل. السلام عليك يا مقرّر الصدقات الجارية، ومُشْبع البطون الجائعة وكاسي الظهور العارية، وقادح زناد العزائم الوارية، ومُكَتِّب الكتائب[3] الغازية، في سبيل اللّه تعالى والسرايا السارية. السلام عليك يا حجّة الصبر والتسليم، وملتقى أمر اللّه تعالى بالخلق المرضي والقلب السليم، ومُفَوّض الأمر في الشدائد إلى السميع العليم، ومُعْمل البنان الطاهر في اكتتاب الذكر الحكيم. كرّم اللّه تعالى تربتك وقدّسها، وطيّب روحك الزكية وآنسها. فلقد كنت للدهر جمالاً، وللإسلام ثمالاً، وللمستجير مجيرًا، وللمظلوم وليًا ونصيرًا، لقد كنت للمحارب صدرًا، وفي المواكب بَدْرًا، وللمواهب بَحْرًا، وعلى العباد والبلاد ظلاً ظليلاً وسترًا؛ لقد فَرَعَتْ أعلام عزّكَ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٠٧): «ويسترعي».
(٢) حَسْمُ الداء: استئصاله. لسان العرب (حسم).
(٣) مُكَتِّبُ الكتائب: مجمّع الكتائب، والكتائب: جمع كتيبة وهي القطعة من الجيش. لسان العرب (كتب).

الثنايا[١]، وأجزلت همّتك لملوك الأرض الهدايا، كأنك لم تعرض الجنود، ولم تنشر البنود، ولم تبسط العدل المحدود، ولم توجد الجود، ولم تزين الرُّكّع السُّجود، فتوسّدت الثرى، وأطلت الكرى، وشربت الكأس التي يشربها الورى، وأصبحت ضارعَ الخَدّ، كليل الحَدّ، سالكًا سَنَنَ الأب والجَدّ، لم تجد بعد انصرام أجلك، إلاّ صالح عملك، ولا أصبحت لقبرك، إلاّ رابح تجرك، وما أسلفت من رضاك وصبرك، فنسأل اللّه تعالى أن يؤنس اغترابك، ويَجُودَ بسحاب الرحمة ترابك! وينفعك بصدق اليقين! ويجعلك من الأئمة المتقين! ويعلي درجتك في عِلّيِّين! ويجعلك مع الذين أنعم اللّه عليهم من النبيين والصِّدِّيقين.

وليَهنك[٢] أنْ صَيَّر اللّهُ تعالى ملكك من بعدك، إلى نير سعدك، وبارق رَعْدك، ومنجز وعدك، أرْضَى ولدك، وريحانة خَلَدك، وشقّة نفسك، والسَّرْحة المباركة من غَرْسك، ونور شمسك، وموصل عملك البرّ إلى رمسك، فقد ظهر عليه أثر دعواتك، في خلواتك وأعقابَ صلواتك، فكلمتك والمنّة للّه تعالى باقية، وحسنتك إلى محلّ القبول راقية، يرعى بك الوسيلة، ويتمّم مقاصدك الجميلة، أعانه اللّه تعالى ببركة رضاك على ما قلّده، وعمر بتقواه يومَه وغده، وأبعد في السعد أمَدَه، وأطلق بالخير يَدَه، وجعل الملائكة أنصاره والأقدار عُدَدَه.

وإنني أيُّها المولى الكريم، البرّ الرحيم، لما اشتراني، وراشني[٣] وبراني، وتعبدني بإحسانه، واستعمل في استخلاصي خطّ بنانه، ووصيّة لسانه، لم أجد مكافأة إلاّ التقرّب إليك وإليه برثائك، وإغراء لساني بتخليد عَلْيائك، وتعفير الوَجْنة في حرمك، والإشادة بعد الممات بمجدك وكرمك، ففُتحت الباب في هذا الغرض، إلى القيام بحقِّك المفترض، الذي لولاه لاتّصلت الغفلة عن أدائه وتمادت[٤]، فما يبست الألسُن ولا كادت، متحيّزًا بالسبق، إلى أداء هذا الحقّ، بادئًا بزيارة قبرك الذي هو رحلة الغرب ما نويته من رحلة

---

(١) فَرَعَتْ: علتْ وارتفعتْ. الثنايا: جمع ثنيّة وهي الطريق الصاعدة في الجبل. لسان العرب (فرع) و (ثنا).

(٢) يقال في الدعاء: لِيَهْنِئْكَ، وقد حذف الهمزة، وهو جائز.

(٣) راشني: نفعني وأعانني وأغناني؛ يقال: راش السَّهْمَ إذا ألزق عليه الريش. محيط المحيط (ريش).

(٤) تمادت: يريد: استمرّت ولم تنقطع.

الشرق، وما أعرضت عنه فأقطعه أثر مواقع الاستحسان، وقد جمع بين الشكر والتنويه والإحسان، واللّه سبحانه يجعله عملاً مقبولاً، ويبلغ فيه من القبول مأمولاً، ويتغمّد مَنْ ضاجعته من سلفك الكرام بالمغفرة الصَّيِّبة[1]، والتحيّات الطيّبة، فنعم الملوك الكبار، والخلفاء الأبرار، والأئمة الأخيار، الذين كرمت منهم السِّيَرُ وحَسُنَتِ الأخبار، وسعد بعزماتهم الجهادية المؤمنون وشقي الكُفّار، وصلوات اللّه تعالى عَودًا وبَدْءًا على الرسول الذي اصطفاه واختاره فهو المصطفى المختار، وعلى آله وأصحابه الذين هم السادة الأبرار، وسلّم تسليمًا»؛ انتهى.

وقال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: ومِمّا خاطبت به الوزير المتغلّب على الملك بالمغرب ما نصُّه: [السريع]

لا تَرْجُ إلاّ اللّهَ في شدّةٍ	وَثِقْ به فهْوَ الذي أيَّدَكْ
حاشاك أن ترجُوَ إلا الذي	في ظلمة الأحشاء قد أوجدكْ
فاشكُرْهُ بالرحمةِ في خَلْقِهِ	ووجهك ٱبْسُطْ بالرضا أو يَدَكْ
واللّه لا تُهْمِلُ ألطافُهُ	قلادةَ الحَقِّ الذي قلّدك
ما أسعدَ الملكَ الذي سُسْتَهُ	يا عُمرَ العدلِ، وما أَسْعَدَكْ!

«نخصُّ الوزير الذي بهر سعده، وحُمد في المضاء قصده، وعوّل على الشِّيَم التي اقتضاها مجده، وأورثه إيّاها أبوه وجَدُّه، الوزير عمر الكذا ابن الشيخ الكذا، أبقاه اللّه تعالى ثابت القَدَم، خافق العَلَم، شهيرًا حديثُ سعده في الأمم، مثلاً خَبَرُ بسالته وجلالته في العرب والعجم

تحية معظِّم مجده الكبير، المستند إلى عهده الوثيق وحَسَبه الشهير؛ المسرور بما سَنّاه[2] اللّه تعالى له من نُجْحِ التدبير، والنصر العديم النظير، وإنجاده إيّاه عند إسلام التصير[3]، وفراق القَبيل والعَشير، ابن الخطيب، واليدُ ممدودة إلى اللّه تعالى في صِلَة سعد الوزير ـ أبقاه اللّه تعالى! ـ ودوام عصمته، واللسان يطنب ويسهب في شكر نعمته،

---

(١) المغفرة الصَّيِّبة: الغزيرة المباركة؛ يقال: صابَ المطرُ إذا انصبَّ. قال اللّه تعالى: ﴿أو كَصَيِّبٍ مِنَ السماءِ فيه ظُلُماتٌ ورَعْدٌ وبَرْقٌ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ١٩.

(٢) سَنّاه اللّه: يسّر طريقه وسهّلها. لسان العرب (سنى).

(٣) يقال: أسلم فلانًا أنصاره وقومه إذا خذلوه وتركوه للعدو. لسان العرب (سلم).

والأمل متعلّق بأسبابه الكريمة وأذِمّته، وقد كان شَيَّعه مع الشفقة التي أذابت الفؤاد، وألزمت الأرق والسهاد، على علم بأنّ عناية اللّه تعالى عليه عاكفة، ودِيَم آلائه لديه واكفة[1]، فإن الذي أقدره وأيّده ونصره، وأنفذت مشيئته ما دبّره، كفيل بإمداده، ومَليٌّ بإسعاده، ومَرْجُوٌّ لإصلاح دنياه ومَعَاده، وفي أثناء هذه الأراجيف استولى على معظَم وزارته الجَزَع، وتعاوَرَتْه الأفكارُ تأخذ وتَدَع، فإني كما يعلم الوزير أعزّه اللّه تعالى منقطع الأسباب، مستوحش من الجهة الأندلسية على بُعْدِ الجناب، ومستعدًى عليَّ بكوني من المعدودين فيمن له من الخلصاء[2] والأحباب، فشرعت في نظرٍ أَخْصُل منه على زوال اللّبْس، وأمان النفس، واللحاق بمأمن يرعاني برعي الوزير، بخلال ما يدبّر الأمر مَنْ له التدبير، ففي أثنائه، وتمهيد أساس بنائه، وَرَد البشير بما سَنّاه اللّه تعالى لسيدي وجابر كسري، ومنصفي بفضل اللّه تعالى من دهري، من الصنع الذي ظهر، وراق نوره وبَهَر، فأمنتُ وإن لم أكن مِمَّنْ جَنَى، وحفتني المسرّات بين فرادى وثُنَى، وانشرح بفضل اللّه تعالى صدري، وزارتني النعم والتهاني من حيث أدري ولا أدري، ووجهت الولد الذي شملته نعمةُ الوزير وإحسانه، وسبق إليه امتنانه، نائبًا عني في تقبيل يده، وشكر يده، والوقوف ببابه، والتمسّك بأسبابه، آثرته بذلك لأمور: منها المزاولة فيما كان يلزمني من إخوته الأصاغر، وتدريبه على خدمة الجلال الباهر، وإفرادي له بالبركة، ولعائق ضعف عن الحركة، وبعد ذلك أشرعُ بفضل اللّه تعالى في العمل على تجديد العهد بباب الوزارة العليّة، عارضًا من ثنائها ما يكون وفق الأمنية، ورُبَّ عمل أغنى عنه فضل نيّة، والسلام الكريم على سيدي ورحمة اللّه تعالى وبركاته».

قال: وكتبت إليه أيضًا على أثر الفتح الذي تكيف له:

«سيدي الذي أُسَرُّ بسعادته، وظهور عناية اللّه تعالى به في إبدائه وإعادته، وأعلم كرم مَجَادته، وأعترف بسيادته، الوزير الميمون الطائر، الجاري حديثُ سعده ومَضَائه مجرى المثل السائر، أبقاه اللّه تعالى عزيز الأنصار! جارية بيمن نَقيبته حركة الفَلَك الدوّار، معصومًا من المكاره بعصمة الواحد القهّار، معظِّمُ سيادته الرفيعة الجانب، وموقّر وزارته

---

(١) الدِّيَمُ: جمع دِيمة وهي المطر الدائم. واكفة: منسكبة؛ يقال: وَكَفَ المطرُ إذا انسكب وانهمل. لسان العرب (ديم) و (وكف).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤١١): «الخلصان».

الشهيرة المناسب، الداعي إلى اللّه تعالى بطول بقائه في عزّ واضح المذاهب، وصنع واكف السحائب، ابنُ الخطيب، عن الذي يعلم سيدي من لسان طَلْق بالثناء، ويد ممدودة إلى اللّه تعالى بالدعاء، والتماس لما يعدُّ من جزيل النعماء، والفتح الذي تفتح له أبواب السماء، وقد اتّصل ما سَنّاه اللّه تعالى له من النصر والظهور، والصنع البادي السفور، لَمّا التقى الجمعان، وتهوّدت أكؤس[1] الطِّعان، وتبين الشجاع من الجبان، وظهر من كرّات سيدي وبسالته ما تحدّث به ألسنةُ الركبان، حتى كانت الطائلة[2] لحزبه، وظهرت عليه عناية ربّه، فقلت: الحمد للّه الذي جعل سَعْدَ عمادي متّصلَ الآيات، واضح الغرر والشِّيات[3]. وقد كنت بعثت أُهَنِّئه بما قدم من صنع جميل، وبلوغ تأميل، فقلت: اللهمّ أَفِدْ علينا التهاني تَتْرَى، واجعل الكبرى من نعمتك السالفة بنعمتك الرادفة الخالفة هي الصغرى، واجْمَعْ له بين نعم الدنيا والأخرى، والناس - أبقى اللّه تعالى سيدي! - لهم مع الاستناد إليك جهات، وأمور مشتبهات، إلاّ المحب المتشيّع فجهتك هي التي آنست الغربة، وفَرَّجَتِ الكربة، ووعدتْ بالخير، وضمنتْ عاقبة الضير[4]، وأنا أرتقب ورود التعريف المولوي على عبيده بهذه المدينة واصَلَ[5] اللّه تعالى لمباشرتها الهناء! وقرت العين بمشاهدة الآلاء! واللّه عزَّ وجلَّ يديم سعادة سيدي ويطيل بقاءه! ويرادف قِبَلَهُ نعمه وآلاءه، بفضله»؛ انتهى.

وقال: ومِمّا خاطبت به المذكور وأنا ساكنٌ بسلا: [الطويل]

أيا عُمَرَ العَدْلِ الذي مَطَلَ المدى ... بوعدِ الهدى حتى وفيت بدَيْنِهِ
ويا صارمَ الملكِ الذي يستعدُّه ... لدَفْع عِداه أو لمجلسِ زينه
هَنَتْ عينَكَ اليقظى من اللّه عصمةٌ ... كفتْ وجهَ دينِ اللّه موقعَ شينه
وهل أنت إلاّ الملكُ والدينُ والدُّنا ... ولا يلبس الحقّ المبين بمَيْنِهِ
إذا نالَ منك العينَ ضرٌّ[6] فإنما ... أصيب به الإسلام في عين عينِهِ

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤١٢): «أكواسُ».
(٢) الطائلة: النصر والغلبة. لسان العرب (طول).
(٣) الشِّيات: جمع شية وهي العلامة. لسان العرب (وشى).
(٤) الضير: الضّرر؛ يريد ما لحقه من حُسّاده من ضرر أجبره على الفرار من الأندلس.
(٥) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤١٢): «وأَصِلْ إن شاء اللّه تعالى لمباشرة الهناء، وقرةِ العين..».
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٣٨): «طرفا».

«الوزير الذي هو للدين الوزَر الواقي، والعَلَم السامي المراقب والمراقي، والحلي المقلّد فوق الترائب والتراقي، والكنز المؤمَّل والذخرُ الباقي، حجب اللّه تعالى العيون عن عين كمالك! وصيَّرَ الفَلَك الدوّار مطيّةَ آمالك! وجعل اتّفاقَ اليُمْن مقرونًا بيمينك، وانتظام الشمل معقودًا بشمالك!.

إعْلَمْ أنَّ مطلق لسان الثناء على مجدك، والمستضيء على البعد بنور سعدك، ومعقود الرجاء بعروة وعدك، لا يزالُ في كلِّ ساعة يسحبُ الفلك فيه ذيلها، ويعاقب يومها وليلها، مُصْغي الأذن إلى نبإ يهدي عنك للّه تعالى دفاعًا، أو يمدّ في ميدان سعدك باعًا، وأنت اليوم النصير على الدهر الظلوم، وآسي الكُلُوم[1]، وذو المقام المعلوم، فتعرفت أنّ بعض ما يتلاعب به بين أيدي السادة الخدام، وتتفكّه به المثاقِفَةُ والأفدام[2]، من كرةِ مرسلةِ الشهاب، أو نارنجة ظهر عليها من اسمها صبغة الالتهاب، حوّمتْ حول عينك لا كُدِّر صفاؤها، ولا هُدم فوق مهاد الدعة والأمن إغفاؤها، فرعت حول حماها، ورامت أن تصيب[3] فخيب اللّه تعالى مرماها[4]: [الطويل]

نَرَى السوء مِمّا نتقي فنهابُهُ ... وما لا نرى مِمّا يَقِي اللّه أكْثَرُ

فقلت: مكروه أخطأ سَهْمُه، وتنبيه من اللّه تعالى لمن نبل عقله وفهمه، ودفاع قام دليله، وسعد أشرق جليله، وأيام أعربت عن إقبالها، وعصمة غطت بسربالها، وجوارح جعل اللّه تعالى الملائكة تحرسها، فلا تغتالها الحوادث ولا تفترسها، والفَطِنُ يشعر بالشيء وإن جهل أسبابه، والصوفي يسمع من الكون جوابه، فبادرت أُهَنِّئه تهنئة من يرى تلك الجوارح الكريمة أعزّ عليه من جوارحه، ويرسل طير الشكر للّه تعالى في مساقط اللطف الخفي ومسارحه، وسألته سبحانه أن يجعلك عن النوائب حِجْرًا[5] لا يُقرب، وربعك رَبْعًا

---

(١) الآسي: المداوي؛ يقال: أَسَا الجرحَ يأسوه إذا داواه. الكلوم: جمع كلم وهو الجرح. محيط المحيط (أسا) و (كلم).

(٢) المثاقِفَةُ: أهل الثقافة، أي الذين يصارعون الحيوانات المتوحشة؛ يقال: ثقفه بالرمح إذا طعنه. الأفدام: جمع فَدْم وهو الأحمق. لسان العرب (ثقف) و (فدم).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٣٩): «تعيب».

(٤) تقدم هذا البيت في الجزء الخامس باختلاف يسير عمّا هنا.

(٥) الحِجْر: الممنوع المحمي؛ قال اللّه تعالى: ﴿وجَعَلَ بَيْنَهُما بَرْزَخًا وحِجْرًا مَحْجُورًا﴾: سورة الفرقان ٢٥، الآية ٥٣.

لا يخرب، ما سَبَح الحوتُ ودبَّ العقرب، ثم إنني شفعت الهناء ووترته، وأظهرت السرور فما سترته، بما سَنَّاه لتدبيرك من مسالمة تكذّب الإرجاف، وتغني عن الإيجاف، وتخصب للإبل العجاف، وتريح من كيد، وتفرغ إلى مجادلة عمرو وزَيْد، وكأني بسعدك قد سَدَلَ الأمان، وعدل الزمان، وأصلح الفاسد، ونفق الكاسد، وقهر الروع المستاسد، وسرّ الحبيب وساء الحاسد، والسلام»؛ انتهى.

ومن إنشاء لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به الرئيس عامر بن محمد بن علي الهنتاني مُعَزِّيًا له عن أخيه عبد العزيز: [الطويل]

أبا ثابتٍ، كُنْ في الشدائدِ ثابتا	أُعِيذُكَ أنْ يُلْفَى حسودُكَ شامتا
عزَاؤكَ عنْ عبد العزيزِ هو الذي	يليقُ بعزّ منكَ أعجزَ ناعتا
فَدَوْحَتُكَ الغنّاءُ طالتْ ذوائبًا	وسَرْحَتُكَ الشَّمَاءُ طابتْ منابتا
لقد هَدَّ أركانَ الوجود مُصابُهُ	وأنطق منه الشجوُ من كان صامتا
فمن نَفَس حرّ أوثق الحزنُ كظمها	ومِنْ نَفَسٍ بالوجدِ أصبح خافتا
هو الموتُ للإنسانِ فصلٌ لِحَدِّهِ	وكيف ترجّي أنْ تصاحبَ مائتا
وللصبر أولى أن يكون رجوعنا	إذا لم نكنْ بالحزن نَرْجع فائتا

«اتّصلَ بي أيها الهمام، وبَدْرُ المجد الذي لا يفارقه التَّمام، ما جَنَتْه على عليائك الأيام، واقتنصه مُحَلِّق الردى بعد أن طال الحيام[1]، وما استأثر به الحِمَام، فلم يغن الدفاع ولا نفع الذِّمام، من وفاة صنوك الكريم الصفات، وهلاك وُسْطى الأسلاك، وبدر الأحلاك، ومجير الأملاك، وذهاب السَّمْح الوَهّاب، وأنا لديغ صِلِّ[2] الفراق، الذي لا يُفِيقُ بألف راق، وجريح سَهْم البَين، ومُجاري العيون الجارية بدمع العين، لِفَقْدِ أنيسٍ سَهَّل عليَّ مَضَضَ النكبة، ونَحّى ليث الخطب عن فريستي بعد صدق الوثبة، وآنسني في الاغتراب، وصحبني إلى منقطع التراب، وكفل أصاغري خير الكفالة، وعاملني من حسن العشرة بما سجّل عقد الوكالة، انتزعه الدهر مِنْ يدي حيث لا أهل ولا وطن، والاغترابُ قد ألقى بِعَطَن، وذات اليدِ يعلم حالها مَنْ يعلم ما ظهر وما بطن، ورأيت مِنْ تطارح الأصاغر على

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٤٠): «الخيام» بالخاء المعجمة.

(٢) اللديغ: الملدوغ، الذي لدغته حيّة أو عقرب. الصِّلُّ: الثعبان الخبيث. لسان العرب (لدغ) و (صلل).

شِلْو الغريب، النازح عن النسيب والقريب، ما حملني على أن جعلت البيت له ضريحًا، ومدفنًا صريحًا، لأخدع من يرى أنه لم يزل مقيمًا لديه، وأنَّ ظلَّ شفقتِهِ منسحبٌ عليه، فأعْيا مصابي عند ذلك الفرح، وأعظم الظمأ البرح، ونكأ القرح القرح، إذ كان ركنًا قد بَتَتْهُ لي يد معرفتك، ومتّصفًا في البرّ بي والرعي لصاغيتي بكريم صفتك، فوالهفًا عليه من حسام، وعزّ سام، وأيادٍ جسام، وشهرة بين بني حام وسام، أيُّ جمال خَلْق، ووجه للقاصد طَلْق، وشيم تطمح للمعالي بحق؟ وأيُّ عضدٍ لك يا سيدي لا يَهِنُ[1] إذا سطا، ولا يقهر[2] إذا خطا، يوجب لك على تحليه بالشيبة، ما توجبه البُنُوّة من الهيبة، ويرد ضيفك آمنًا من الخيبة، ويسدّ ثغرك عند الغيبة، ذهبت إلى الجزع فرأيت مُصَابه أكبر، ودعوت بالصبر فولّى وأدبر، واستنجدتُ الدمع فنضب، واستصرختُ الرجاء فأنكر ما روى واقتضب، وبأي حزن يُلْقى[3] عبد العزيز وقد جَلَّ فقده، أو يطفأ[4] لاعجه وقد عظم وَقْده، اللهمّ لو بكى بِنَدَى أياديه، أو بغمائم غواديه، أو بِعُبَاب واديه، وهي الأيام أي شامخ لم تَهُدَّه، أو جديد لم تُبْلِه وإن طالتِ المدة؟ فرّقت بين التيجان والمفارق، والخدود والنمارق[5]، والطُّلى والعقود، والكأس وابنة العنقود، فما التعلّل بالفان، وإنما هي إغفاءة أجفان، والتشبّث بالحبائل، وإنما هو[6] ظِلٌّ زائل؟ والصبر على المصائب، ووقوع سهمها الصائب، أولى ما اعتمد طِلابًا، ورجع إليه طوعًا أو غِلابًا، فأنا يا سيدي أقيمُ رسم التعزية، وإن بُؤْتُ[7] بمضاعف المرزية، ولا عتب على القَدَر، في الوِرْد من الأمر والصَّدَر، ولولا أن هذا الواقع مِمَّا لا يجدي فيه الخُلْصان، ولا يغني فيه اليَرَاع ولا الخرصان، لأبلى جده[8] مَن اقترضتموه معروفًا، وكان بالتشيّع إلى تلك الهضبة معروفًا، لكنها سوقٌ لا ينفقُ فيها إلاّ سلعة التسليم، للحكيم العليم، وطَيّ الجوانح على المضض الأليم،

---

(١) يَهِنُ: يضعف. لسان العرب (وهن).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤١٥): «يقهقر».

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٤١): «يُلْفى».

(٤) في الطبعة نفسها: «يطفى».

(٥) النمارق: جمع نمرقة وهي الوسادة. وفي قوله تعالى: ﴿ونَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ﴾. سورة الغاشية ٨٨، الآية ١٥، ولسان العرب (نمرق).

(٦) في طبعة عبد الحميد (ص ١٤١): «هي».

(٧) في الطبعة نفسها: «بُؤْتُ».

(٨) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤١٦): «جهده».

ولعمري لقد خلّدت لهذا الفقيد وإن طمس الحِمام محاسنه الوضّاحة، لـمّا كبس منه الساحة، صحفًا منشّرة، وثغورًا بالحمد موشّرة، يفخر بها بَنُوه، ويستكثر بها مكتسبو الحمد ومُقْتَنُوه، وأنتم عماد البازة، وعلم المفازة، وقطب المَدَار، وعامر الدار، وأسد الأَجَمَة، ويطل الكتيبة الملجمة، وكافل البيت، والستر على الحيّ والميت، ومثلك لا يُهْدَى إلى نهج لاحب[1]، ولا ترشده نار الحباحب، ولا ينبّه على سنن نبيّ كريم أو صاحب، قدرُكَ أعلى، وفضلك أجلى، وأنت صدر الزمان بلا مدافع، وخير مُعْلٍ لأعلام الفضل ورافع، وأنا وإن أخّرت فرض بيعتك لما خَصَّني من المصاب، ونالني من الأوصاب[2]، ونزل بي من جَور الزمان الغَصَّاب، مِمَّنْ يَقبل عُذْرَهُ الكرم، ويسعه الحرم المحترم، والله سبحانه الكفيل لسيدي وعمادي ببقاء يكفل به الأبناء وأبناء الأبناء، ويعلي لقومه رُتَبَ العِزّ سامية البناء، حتى لا يوحش مكان فقيد مع وجوده، ولا يحسّ بِعَضّ زمانٍ مع جوده، ويقرّ عينه في ولده وولد ولده، ويجعل أيدي مُنَاويه تحت يده»؛ والسلام.

وخاطبه لسانُ الدين أيضًا بما نصُّه:

«سيدي الذي هو رجل المغرب كلّه، والمجمَعُ على طهارة بيته وزكاء أصله، علم أهل المجد والدين، وبقية كبار الموحِّدِين.

بعدَ السلامِ الذي لتلك الجلالة الراسخة القواعد، السامية المصاعد، والدعاء للّه أن يفتح لك في مضيقات هذه الأحوال مسالكَ التوفيق، ويمسكك من عصمته بالسبب الوَثِيق، أُعَرِّفُك أنَّ جبلك اليوم وقد عظم الرَّجَفَان، وفاض التنور وطغى الطوفان، تؤمل النفوسُ الغَرْقى جُودِيَّ جودِهِ، وتغتبط غايةَ الاغتباط بوجوده. ووالله لولا العلائقُ التي يجب لها الالتزام، ما وقع على غير قصدك الاعتزام، والله تعالى يمدّك بإعانته على تحمّل القُصَّاد، ويُبْقي محلّك رفيعَ العماد كثيرَ الرماد[3]، ويجعل أبا يحيىٰ خلفًا منك بعد عمر النهاية البعيد

---

(1) النهج اللاحب: المستقيم الواضح. لسان العرب (لحب).

(2) الأوصاب: جمع وصب وهو المرض والوجع الدائم. لسان العرب (وصب).

(3) أخذه من قول الخنساء في أخيها صخر: [المتقارب]

طويلُ النِّجاد رفيعُ العمادِ كثيرُ الرَّمادِ إذا ما شَتَا

ويدخل البيت في باب الكناية، راجع علم البيان للدكتور عبد العزيز عتيق (ص ٢١٢).

الآماد، ويُبْقي كلمة التوحيد فيكم إلى يوم التناد[1]. وحامله القائد الكذا معروف النباهة والجهاد، ومحلّه لا ينكر في الفؤاد، لما استبهمت[2] السبل، والْتَبَسَ القول والعمل، لم يجد أنجى من الركون إلى جنابك، والتمسُّك بأسبابك، والانتظام في جملة خواصّك وأحبابك، حتى ينبلج الصبح، ويظهر النُّجح، ويعظم المنح، ويكون بعد هجرته الفتح، ومثلُكم من قُصِد وأُمِّل، وأُنْضي إليه المَطيّ[3] وأُعمل، وأمّا الذي عندي من القيام بحقّ تلك الذات الشريفة، والقول بمناقبها المنيفة، فهو شيء لا تفي به العبارة، ولا تؤدّيه الألفاظ المستعارة، واللّه تعالى المسؤول في صلة عزّ سيدي ودوام سعده، والسلام عليكم ورحمة اللّه تعالى وبركاته»؛ انتهى.

وقال لسان الدين رحمه اللّه تعالى: ومِمّا خاطبْتُ به شيخ الدولة - وقد استقلّ من مرض - ما نصُّه: [البسيط]

لا أعدم اللّه دار الملك منكَ سَنًا ... يجلى به الحالكان الظُّلم والظُّلَمُ
وأَنْشَدَتْكَ الليالي وهي صادقة ... «المجدُ عُوفيَ إذ عُوفِيتَ والكَرَمُ»[4]

«مَنْ علم - أعلى اللّه تعالى قدرك! - أنَّ المجد جوادٌ حُلاكَ شِياتُه، لا بلِ الملكُ بَدْرٌ أنتَ آياته، لا بلِ الإسلامُ جسمٌ أنتَ حياته، دعا منك بالبقاء لمجد يروق بك جبينُه، ومُلْكٍ تُتيره وتَزينه، ولدينٍ تعامل اللّه تعالى بإعزازه وتَدِينُه، فلقد ألمتْ نفوس المؤمنين لآلامك، ووجم الإسلامُ لتوقّع إسلامك، وتأخرت[5] الأعلام لتأخُّر أطرافك بمصالح الملك وأعلامك، فإنما أناملُ الدين والدنيا متشبّثة بأذيال أيامك، ورحالُ الأمل مخيّمة بين جِلالك وخيامك، فإذا قابلت الأشرافُ نِعَمَ اللّه تعالى بشكر، ورمت الغفلة عن ذلك بنكر، فاشكرْهُ

(١) يوم التناد: يوم القيامة، قال اللّه تعالى: ﴿ويا قوم إنّي أخافُ عليكُمْ يَوْمَ التَّنادِ﴾. سورة غافر ٤٠، الآية ٣٢.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤١٧): «اشتبهت». واستبهمت: خفيت ولم تتضح لسالكها. لسان العرب (بهم).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٤٣): «المطا».

(٤) عجز هذا البيت صدر بيت للمتنبي، وبيت المتنبي هو:

المَجْدُ عُوفِيَ إذ عُوفِيتَ والكَرَمُ ... وزال عنك إلى أعدائك الألَـمُ

ديوان المتنبي (ص ٣٧٩).

(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤١٧): «وخفقت الأعلام».

جلَّ وعلا بملء لسانك وجنانك، وأَجْرِ في ميدان حمده مطلقًا من عنانك، على ما طوّقك من استرقاق حرّ، وإفاضة أيادٍ غُرّ، واقتناء عسجدٍ من الحمد ودرّ، وإتاحةِ نفعٍ ودفعِ ضُرّ، وإدالة حلو من مرّ، وكنْ على ثقةٍ من مدافعةِ اللّه تعالى عن حِمَاك، وعزّ تبلغ ذوائبه السِّماك، ورزق يجرّه فألُ منتماك، ودونك مجلسَ الإمامة فَقُدْ تدبيره بزمامك، وحُظْوة الخلافة فاستحقَّها بوسائلك القديمة وذمامك، ومحاسن الدولة فَاْجلُهَا على منصّة إمامك[1]، ورسوم البرّ فأغْرِ بها عينَ اهتمامك، وذروة المنبر فأمضِ بها ظُبَةَ حُسامك، وأجز[2] الآملين زهرَ الأيادي البيض من كمائم أكمامك، فيا عزّ دولة بك - يا جملة الكمال - قد استظهرت، وأذلّت المعاند وقهرت، وبأعمال آرائك اشتهرت، فراقت فضائلها وبَهَرَتْ: جزالةٌ كما شَقَّ الجوَّ جارح، ولطافةٌ كما طارح بفن[3] التأليف مُطارح، وفكر في الغيب سارح، ودين لغوامض الحلم والعدل شارح، ومكارم محت آثار الكرماء ونَسَخَتْ، وحَلَّتْ عقود أخبار الأجواد في الأعصار وفَسَخَتْ، فلم تدع لفضل الفضلِ ذكرًا، وتركت معروف يحيىٰ بن خالد نكرًا، لا بل لم يبق لكعب، من علو كعب، وأنسَتْ دعوة حاتم، بأيّ ماحٍ وخاتم[4]، فصارت[5] سبي جَوار، ومنع جِوار، وعقر ناب، عند اقشعرار جَناب، وأين يقع من كبر قَدْرٍ ترفَّعَ عن الكبر، وجودٍ خَضَب الأيدي بحنّاء التبر، وعزّ استخدم الأسَلَ الطِّوال بيراع أقلَّ من الشبر، وحَقَن الدماء المُرَاقة بإراقة نجيع الحبر، وفكُّ العِقال، ورَفَعَ النُّوَبَ الثقال، وراعى[6] الذرّة والمثقال، وعَثَر الزمانُ فأقال، ووجد لسان الصدق فقال:

أُقسم بباريء النَّسَم، وهو أبرُّ القَسَم، ما فازت بمثلك الدول، ولا ظفرت بمثلك الملوك الأواخر والأول، ولو تقدّمت لم يُضْرَبْ إلاَّ بك المثل، ولم يقع إلاَّ على سنَنك وكتابك والإجماع المنعقد على آدابك العمل، والمملوك لمّا شام مالكه بَرْقَ العافية، وتَدَرَّعَ بالألطاف الخافية، كتب مبشّرًا بالهَنَاء، ومذيعًا ما يجبُ من الحمد والثناء، وشاكرًا ما له بوجوده من الاعتناء، فقد بادر ركن الدين بالبناء، وأبقى الستر والمنّة على الآباء والأبناء،

(١) يشبّه محاسن الدولة بعروس تجلس على المنصة بجانب عريسها.
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤١٨): «وأجْزِ».
(٣) في الطبعة نفسها: «نغم التأليف».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٤٤): «وحاتم» بالحاء المهملة.
(٥) في طبعة دار صادر (ص ٤١٨): «فَصارةُ شيُّ حُوار، ومنع جِوار، وعقر..».
(٦) في الطبعة نفسها: «وراعَ».

فنسأل اللّه تعالى أن يمتّع منك بأثير الملوك، ووسطى السلوك[1]، وسُلالة أرباب المقامات والسلوك، ويبقيك وحصّة الصحّة وافرة، وغُرّة العزّة القعساء سافرة، وغادةُ عادةِ السعادةِ غيرُ نافرة، وكتيبة الأمل في مقامك السعيد غانمةٌ ظافرة، ما زَحَفَتْ للصباح شُهُبُ المواكب، وتفتَّحتْ بشطِّ نهر المجرّة أزهارُ الكواكب، والسلام»؛ انتهى.

ومن ذلك ما خاطَبَ به سيدي أبا عبد اللّه بن مرزوق، جوابًا عن كتابه، وقد استقرَّ خطيب السلطان بتونس:

ولَـمَّـا أن نـأت مـنـكـمْ ديـارٌ   وحـالَ الـبـعـدُ بـيـنـكـمُ وبـيـنـي
بعثتُ لكمْ سوادًا في بياضٍ   لأنظركُمْ بشيءٍ مثلِ عيني

بم أفاتحك يا سيدي، وأجلَّ عُدَدي؟ كيف أُهدي سلامًا، فلا أحذر ملامًا؟ أو أنتخبُ لك كلامًا، فلا أجدُ لِتَبِعَةِ التقصيرِ في حقِّك الكبيرِ إيلامًا؟ إن قلت: تحيّةَ كسرى في الثناء وتُبَّع، فكلمة في مربع[2] العجمة تربع، ولها المصيفُ فيه والمربع، والجَميمُ والمنبع، فَتَرْوَى متى شاءت وتشبع، وإن قلتُ: إذا العارض خطر، ومهما همى أو قطر، سلام اللّه يا مطر[3]، فهو في الشريعة بَطَر، وركبه خطر، ولا يُزعى به وطنٌ ولا يُقْضَى به وطر، وإنما العِرق الأوشج، ولا يستوي البان والبنفسج، والعَوسَج والعَرْفج[4]: [الطويل]

سلامٌ وتسليمٌ ورَوحٌ ورحمةٌ   عليك وممدودٌ مِنَ الظِّلِّ سجسجُ

وما كان فضلك ليمنعني الكفرانُ أن أشكره، ولا لينسيني الشيطان أن أذكره، فأتخذ في البحر سبيًا[5]. أو أسلك غير الوفاء مذهبًا، تأبى ذلك - والمنّة للّه تعالى - طِباع، لها في مجال الرَّعْي باع، وتحقيق وإشباع، وسوائم[6] من الإنصاف، ترعى في رياض الاعتراف،

---

(١) السلوك: جمع سلْك وهو ما تنظم فيه الجواهر. ووسطى السلوك: الجوهرة الكبيرة التي تكون وسط السلْك. لسان العرب (سلك).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤١٩): «مرتع».

(٣) أخذه من قول الأحوص بن عبد اللّه بن محمد: [الوافر]

سلامُ اللّهِ يا مَطَرٌ عليها   وليس عليكَ يا مَطَرُ السلامُ

طبقات الشعراء (ص ١٩٠).

(٤) البيت لابن الرومي من مرثية في يحيىٰ بن عمر العلوي، ومطلعها:

أمامك فانظر أي نهجيك تنهج   طريقان شتى مستقيم وأعوجُ

(٥) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿واتَّخَذَ سَبِيلَهُ في البحرِ﴾ سورة الكهف ١٨، الآية ٦٣.

(٦) السوائم: جمع سائمة وهي ما يترك من الماشية والدواب ترعى ما تشاء. لسان العرب (سوم).

فلا يطرقها ارتياع، ولا تخيفها سباع، وكيف نجحد تلك الحقوق وهي شمسُ ظَهيره، وأذان عَقيرة جَهيرة[1]، فوق مئذنة شهيرة، آدت الأكتادَ[2] لها ديون تستغرقُ الذمم، وتسترقُّ حتى الرمم، فإن قضيت في الحياة فهي الخطّة التي نرتضيها، ولا نقنع من عامل الدهر المساعد إلاّ أن ينفذ مراسمها ويُمْضيها، وإن قُطع الأجل فالغنيُّ الحميد ـ من خزائنه التي لا تبيد ـ يقضيها، ويُرْضِي من يقتضيها. وحيّا اللّه تعالى أيها العَلَم السامي الجلال، زمنًا بمعرفتك المبرّة على الآمال. برَّ وأتحف، وإن أساء بفراقك وأجحف، وأعرى بعدما ألحف، وأظفر باليتيمة المذخورة للشدائد والمزاين[3]، ثم أوحش منها أصْونة هذه الخزائن، فآبَ حُنَيْنُ الأملِ بخُفَّيه[4]، وأصبح المغربُ غريبًا يقلّب كَفَّيه، ونستغفر اللّه تعالى من هذه الغَفَلات، ونستهديه دليلاً في مثل هذه الفَلَوات، وأي ذنب في الفراق للزمن، أو لغِرابِ الدِّمَن، أو للرواحل المدلجة ما بين الشام إلى اليمن، وما منها إلاّ عبد مقهور، وفي رُمة القدر مبهور، عقد والحمد للّه مشهور، وحجّة لها على النفس اللّوّامة ظهور، جعلنا اللّه تعالى مِمَّنْ ذكر المسبب في الأسباب! وتذكّر ﴿وما يَذَّكَّرُ إلاّ أُولوا الأَلبابِ﴾[5] قبل غلق الرَّهْن وسدّ الباب، وبالجملة فالفراق ذاتيّ، ووعده مأتيّ، فإن لم يكن فكأَنْ قَدْ، ما أقرب اليوم من الغد، والمرء في الوجود غريب، وكل آتٍ قريب، وما من مقام إلاّ لزيال، من غير احتيال، والأعمار مَرَاحل والأيام أمْيَال[6]: [الوافر]

نَصِيبُكَ في حياتكَ مِنْ حبيبٍ نَصِيبُكَ في مَنامِكَ مِنْ خيالِ

جعل اللّه تعالى الأدب مع الحقّ شأننا! وأبعد عنّا الفراقَ الذي شانَنَا! وإني لأسر لسيدي بأن رعى اللّه تعالى صالح سَلَفِه، وتداركه بالتلافي[7] في تَلَفِه، وخلّص سعادته من كلفه، وأحَلَّه من الأمن في كَنَفه، وعلى قدرها تصاب العلياء، وأشدّ الناس بلاء الأنبياء ثم الأولياء.

---

(١) العقيرة: صوت المغني والباكي والقارىء. الجهيرة: المرتفعة. محيط المحيط (عقر) و (جهر).

(٢) الأكتاد: جمع كتد وهو ما بين الكتفين. لسان العرب (كتد).

(٣) المزاين: يريد أمور الزينة.

(٤) أخذه من المثل: «رَجَعَ بِخُفَّيْ حُنَينٍ»، يضرب عند اليأس من الحاجة والرجوع بالخيبة. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٢٩٦).

(٥) سورة البقرة ٢، الآية ٢٦٩؛ سورة آل عمران ٣، الآية ٧.

(٦) البيت للمتنبي، وهو في ديوانه (ص ٢٧١).

(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٤٧): «بالتلاقي».

هذا، والخيرُ والشَّرُّ في هذه الدار، المؤسّسة على الأكدار، ظلاّن مضمحلاّن، فقد ارتفع، ما ضرَّ أو نفع، وفارق المكان، فكأنه ما كان، ومن كلمات الملوك، البعيدة عن الشكوك[1]، إلى أن يشاء ملك الملوك[2]: [مجزوء الكامل]

خُذْ مِنْ زمانِكَ ما تَيَسَّرْ ... واتركْ بجهدِكَ ما تَعَسَّرْ
ولربَّ مجملِ حالةٍ ... ترضى به ما لم يُفَسَّرْ
والدهرُ ليس بدائم ... لا بُدَّ أن سيسوء إن سرّ
واكتمْ حديثَكَ جاهدًا ... شمِتَ المحدِّثُ أو تَحَسَّرْ
والناسُ آنيةُ الزجا ... جِ إذا عثرتَ به تكسرْ
لا تعدمِ التَّقْوَى فَمَنْ ... عدم التُّقى في الناس أعسرْ
وإذا امرؤ خسر الإلـ ... ـهَ فليس خلقٌ منه أخسرْ

وإنّ للّه تعالى في رَعْيك لسرًّا، ولطفًا مستمرًّا مستقرًّا، إذ ألقاك اليَمُّ إلى الساحل[3]، فأخذ بيدك من ورطة الواحل، وحرّك منك عزيمة الراحل، إلى الملك الحُلاحل[4]، فأدالك من إبراهيمك سميًا، وعرفك بعد الوَليّ وَسْمِيًا، ونقلك من عناية إلى عناية، وهو الذي يقول وقوله الحقّ ﴿ما نَنْسَخ مِنْ آيَةٍ ـ الآية ﴾[5].

وقد وصل كتاب سيدي يحمد ـ وللّه الحمد ـ العواقب، ويصف المراقي التي حَلَّها والمراقب، وينشر المفاخر الحَفْصِيَّة والمناقب، ويذكر ما هيّأه اللّه تعالى لديها من إقبال، ورَخاء بال، خصِّيصَى اشتمال، ونشوة آمال، وأنه اغتبط وارتبط، وألقى العصا بعد ما خبط، ومثل تلك الخلافة العليّة مَنْ تَزِنُ الذوات، المخصوصة من اللّه تعالى بتشريف

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٢١): «السلوك».

(٢) الأبيات في مشاهدات لسان الدين (ص ١١٥).

(٣) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿فَلْيُلْقِهِ اليَمُّ بالساحلِ يأْخُذْهُ عَدُوٌّ لي وعَدُوٌّ له ﴾. سورة طه ٢٠، الآية ٣٩.

(٤) الحلاحل: العظيم، السيد الشريف. لسان العرب (حلحل). يقول امرؤ القيس حين بلغه أن بني أسد قتلت أباه: [الرجز]

القاتلين المَلِكَ الحُلاحِلا

ديوان امرىء القيس (ص ١٣٤).

(٥) سورة البقرة، الآية ١٠٦.

الأدوات، بميزان تمييزها، وتفرق بين شَبَه المعادن وإبريزها، «وشِبْهُ الشيء» مَثَلٌ معروف[1]، ولقد أخطأ من قال: الناس ظروف، إنما هم شَجَراتُ مربع[2] في بقعةٍ ماحلةٍ، وإبلٌ مائةٌ لا تجد فيها راحلة[3]، وما هو إلاّ اتفاق، ونجح للملك وإحقاق[4]، وقلّما كَذَب إجماعٌ وإصفاق، والجليسُ الصالحُ لربّ سياسةٍ أمَلٌ مطلوب، وحظّ إليه مَجْلوب، وإن سئل أطرف، وعمر الوقت ببضاعةٍ أشرف، وسَرَقَ الطباع، ومَدَّ في الحسنات الباع، وسَلّى في الخطوب، وأضحك في اليوم القَطُوب، وهدى إلى أقوم الطرق، وأعان على نوائب الحقّ، وزرع له المودّة في قلوب الخلق، زاد اللّه تعالى سيدي لديها قُرْبًا أثيرًا، وجعل فيه للجميع خيرًا كثيرًا، بفضله وكرمه.

ولعلمي بأنه - أبقاه اللّه تعالى! - يقبل نصحي، ولا يرتاب في صدق صبحي، أغبطه بِمَثْوَاه، وأنشده ما حضر من البديهة في مسارة هداه ونجواه: [الكامل]

بمقام إبراهيمَ عُذْ واصرفْ به ... فِكَرًا تؤرّقُ عن بواعثَ تنبري

فجوارُهُ حَرَمٌ وأنتَ حمامةٌ ... وَرْقاءُ والأغصانُ عودُ المنبرِ

فلقد أمنتَ من الزمان ورَيبِهِ ... وهو المروّع للمسيء وللبري

وإن تشوّف سيدي فلعمر وليّه لو كان المطلوب دنيا[5] لوجب وقوع الاجتراء، ولاغتبط بما تحصّل في هذه الجزور، المبيعة في حانوت الزور، من السهام الوافرة الأجزاء، فالسلطان - رعاه اللّه تعالى! - يوجب ما فوق مزية التعليم، والولد - هداهم اللّه تعالى! - قد أخذوا بحظّ قلّ أن ينالوه بغير هذا الإقليم، والخاصّة والعامّة تعامل بحسب ما بلته من نصح سليم، وتركٍ لما بالأيدي وتسليم، وتدبير عاد على عدوّها بالعذاب الأليم، إلاّ مَنْ أبدى السلامة وهو من إبطانِ الحسدِ بحالِ السليم، ولا ينكر ذلك في الحديث ولا

---

(١) المثل هو: «شِبْهُ الشيءِ مُنْجَذِبٌ إليه»، وهو من قول المتنبي: [الوافر]

وشِبْهُ الشيء مُنْجَذِبٌ إليه ... وأَشْبَهُنا بدنيانا الطَّغامُ

ديوان المتنبي (ص ٩٧).

(٢) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٢٢): «ربْع».

(٣) الراحلة: الناقة الصالحة القوية على الأسفار والأحمال، والجمع رواحل. وهذا من حديث شريف عن عبداللّه بن عمر: «تجدون الناسَ كإبلٍ مائةٍ لا تجدُ فيها راحلة». لسان العرب (رحل).

(٤) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٢٢): «ونجح للمسلك وإخفاق».

(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٤٨): «دينا».

في القديم، ولكن النفس منصرفة عن هذا الغرض، نافضة يَدَهَا من العرض، قد فوّتت الحاصل، ووصلت في الله تعالى القاطع وقطعت الواصل، وصدقت لما نصح الفَودُ الناصل[1]، وتأهّبت للقاء الحِمام الواصل، وقلت: [المنسرح]

انظرْ خضابَ الشباب قد نَصَلا[2] وزائـرَ الأنـسِ بَـعْـدَهُ انـفـصـلا
ومـطـلـبـي والـذي كَـلِـفْـتُ بـه حـاولْـتُ تـحـصـيـله فـمـا حـصـلا
لا أمـلٌ مُـسْـعِـفٌ ولا عَـمَـلٌ ونحن في ذا والموتُ قد وصلا

والوقت إلى الإمداد منكم بالدعاء في الأصائل والأسحار، إلى مُقِيل العِثار، شديدُ الافتقار، والله عَزَّ وجلَّ يَصِلُ لسيدي رَعْي جوانبه، ويتولّى تيسير آماله من فضله العميم ومآربه، وأقرأ عليه من التحيّات، المحملة من فوق رحال الأريحيات، أزكاها، ما أوجع البرقُ الغمائمَ فأبكاها، وحسد الروضُ جمالَ النجوم الزواهر فقاسها بمباسم الأزهار وحكاها، واضطبن[3] هَرِمُ الليلِ عند الميل عصا الجوزاء وتوكّاها، ورحمة الله تعالى وبركاته»؛ انتهى.

ومِمّا خاطب به لسان الدين ـ رحمه الله تعالى! ـ ابنَ مرزوق المذكور قوله:

«سيدي، وعمادي، كَشْفُ قناع النصيحة من وظائف صديق، أو خديم لصيق، وأنا بكلتا الجهتين حقيق، ويتلجلج في صدري كلام أنا إلى نَفْثه ذو احتياجٍ، ولو في سبيل هياجٍ، وخرقِ سياجٍ، وخوض دَيَاجٍ، وقد أصبحت سعادتي عن أصل سعادَتك فرعًا، فوجب النصحُ طبعًا وشرعًا، فليعلمْ سيدي أنَّ الجاه ورطة، والاستغراقَ في تيار الدول غلطة، وبمقدار العلو ـ إلاَّ أن يقي الله تعالى ـ تكون السقطة، وأنه ـ والله تعالى يعصمه من الحوادث، ويقيه من الخطوب الكوارث! ـ وإن تبعه الجمع[4] فهو مفرد، وبسهام الحَسَدة مُقْصَد، وأنّ الذي يقبِّل يده، يُضْمر حسده، وما من يوم إلاّ والعِلل تستشري، والحِيَلُ تريش وتَبْري، وسمومُ المكايد تسري، والعينُ الساهرة تطرقُ العينَ النائمة من حيث تدري

(١) نصح: أخلص وصدق. الفود: مصدر فاد الرجل إذا مات. الناصل: المولّي. لسان العرب (نصح) و (فود) و (نصل).
(٢) نصل خضاب الشباب: ولّى، يقول: ذهب سواد الشعر وظهر الشيب فيه.
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٤٩): «واضطبر». واضطبن العصا: وضعها تحت ضِبْنه ليتوكأ عليها، والضِّبْن: ما بين الكشح والإبط. لسان العرب (ضبن).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٢٤): «الجَمّ».

ولا تدري، وهذا الباب الكريم مخصوص بالزيارة والبركة، وخصوصًا في مثل هذه الحركة، فثمّ ظواهر تُخَالف السرائر، وحِيَلٌ تصيبُ في الجوّ الطائر، وما عسى أن يتحفّظ المحسود، وقد عَوَتِ الكلابُ وزأرت الأسود، وإن ظنّ سيدي أنّ الخطّة الدينية تذبّ[1] عن نفسها، أو تنفع مع غير جنسها، فذلك[2] قياسٌ غير صحيح، وهبوب ريح[3]، وإنما هي درجة فوق الوزارة والحجابة، ودهر يدعى فيبادر بالإجابة، وجاه يجرّ على القبيل الأذيال، ويفيدُ العِزَّ والمال، وبحرٌ هال، وصدور تحمل الجبال، وإن قطع بالأمان، من جهة السلطان، لم يؤمن أن يقع فيه، واللّه سبحانه يَقِيه، ويمتّع به ويُبْقِيه، ما البشر بصَدَده، والحي يجري إلى أمَدِه، فيستظهر الغير بقَبيل، ويجري من التغلّب على سبيل، ويبقى سيدي - واللّه تعالى يعصمه! - طائرًا بلا جناح، ومحاربًا دون سلاح، ينادي من كان يثق بودّه في طَلَل، ويقرع سنَّ النادم والأمر جَلَل، ومثله بين غير صنفه - مِمّن لا يتّصف بظَرْف، ولا يلتفت إلى الإنسانية بطَرْف، ولا يعبد اللّه تعالى ولو على حَرْف - محمول عليه من حيث الصنفية، متعمّد بالعداوة الخفيّة، وإن ظنّ غير هذا فهو مخدوع مسحور، ومفتون مغرور، وبالفكر في الخلاص تفاضلت النفوس، واسْتُدْفِعَ البوس، وله وجوه كلّها متعذّر الحصول، دونه بِيضُ النصول[4]، إلاّ[5] ما كان من الغرض الذي بان فيه بعد الجِدِّ الفُتُور، وعدل عنه وقد أخذ الدستور، وتيسّرت الأمور، وتقرّرت الأيمان والنذور، فإنه عَرَض قريب وسفر قاصد[6]، ومَسْعًى لا يُنْفَقُ فيه سيدي من المال درهمٌ واحد، ووطنٌ لحركتِهِ راصد، لا يمنع عليه أهله، ولا يستصعب سَهْله، وأميره جبره اللّه تعالى يتطارح في تعيينكم لاقتضائه، وإحكام آرائه، وتأمين خائفه، واستقدام أصنافه وطوائفه، ويتحرّكون حركة العِزّ والتَّنْوِيه، والقَدْر النبيه، لا يُعْوِزكم مِمَّنْ وراءكم مَطْلَب، ولا يُلْفَى عن مخالفتكم مذهب، ولا يكدّر لكم مشرب. وتمرُّ أيام وشهور، وتظهر بطون للدهر وظهور، وتُفْتَحُ أبواب، وتُسَبَّبُ أسباب، من رجوع يتأتّى بعد السكون والفتور، وقد سكنت الخواطر وتنوّعت الأمور، أو مقام تمهّد به البلاد، ويعمل في ترتيب الصلة الحسنة الاجتهاد، وتستغرق في

(١) تذبُّ عن نفسها: تدفع عنها وتمنع. محيط المحيط (ذبب).
(٢) كلمة «فذلك» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٥٠).
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٢٤): «الريح».
(٤) أراد ببيض النصول: السيوف.
(٥) في طبعة عبد الحميد: «وإلاّ».
(٦) أخذه من قول اللّه تعالى: ﴿لَوْ كانَ عَرَضًا قَرِيبًا وسَفَرًا قاصِدًا لاتَّبَعُوكَ﴾. سورة التوبة ٩، الآية ٤٢.

هذا الغرض الآماد، ويتأتى أن حدث وتراكم حادث الاستقلال والاستبداد، تتهنأ فيه[1] الأعمار، ويكون لمن ينتقل به على الشرق والغرب الخيار، أو التحكّم في ذخيرة سما منها المقدار، وذُهِل عند مشاهدتها الاعتبار، وخزانة الكتب بجملتها وفيها الأمّهات الكبار، وقد تجافت عنها الحاجة وعُدِم إليها الاضطرار، والربع الذي يُسَوَّغ بالشرع والعَقار، فهذا كلّه حاصل، وثمّ ضامن لا يُتّهم وكافل، وعهود صِبْغُها غير ناصل[2]. وبالجملة فالوطن لأغراض الملك جامع، ولمقاصده من المقام أو الانتقال مطيع وسامع، وإن توقّع إثارة فتنة، أو ارتكاب إحْنَة، فالأمر أقرب، وحالة[3] التيسير أغرب، وهذه الحجّة في تلمسان غير معتبرة، وأجوبتها مقرّرة، وقدوم رسول الطاغية وإعانته تحصل في الغالب، على هذه المطالب، وبالجملة فالدنيا قد اختلّتْ، والأقدامُ قد زلّتْ، والأموال قد قلّتْ، وشبيبةُ الدهر وَلّتْ، وذلك القطر على علاّته أحكم لمن يروم الجاهَ وأمنع، وأجدى بكلّ اعتبار وأنفع، وقد حَضَرَتْ لاستخلاصكم إياه الآلةُ التي لا تتأتّى في كل زمان، وتهيّأ إمكانٌ أيّ إمكان، واقْتُضِيت أيمان، وعُرضت سلعٌ تقلُّ لها أثمان، وارتهنت الوفاء مروءاتٌ وأديان، وتحقّق بذلك القطر الفساد الذي اشتهر به مأموره وأميره، والمنكر الذي يجب على كلّ مسلم تغييره، فإن شئت شرعًا فالحكم ظاهر، أو طبعًا فالطبع حاضر، وما ثَمّ عاذل بل عاذر، والمؤونة التي تلزم أقلّ من أن تكون ثمن بعض الحصون، فضلاً عن الشجرة ذات الغصون، وما يُسْتهلك في هذا الغرض شيء له خطر، ولا يُستنقذ من الصحيفة سطر، واليد محكمة بكلّ أو شطر. وما يخصّ المملوك من هذا الأمر إلاّ استنقاذ نَشَب، واستخلاص مؤمّل بين موروث ومكتسب، وبعيد أن لا ينفر[4] له في زمن من الأزمان، ملوك في كل وقت وأعيان[5]، ومروءات وأحساب وأديان، والله سبحانه كلّ يوم هو في شان، وأمّا خدمة دولة فهي عليّ حرام، لا ينجح لي فيها أن أعتمدها مرام، وكأني بالمشرق لاحق، ولأنفاسه الذكية ناشق، فما هي إلاّ أطماع، سَرَابُهَا لماع، فإذا انقطعت، انفسحت الدنيا واتّسعت، ومعاش في غمار، أو عكوف في كِسْر دار، لمداومة استقالة[6] واستغفار، والله

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٥١): «تتهافت الأعمار».

(٢) صِبْغُها غير ناصل: غير ذاهب، أي لم تذهب صبغة الشعر ليظهر الشَّيب.

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٢٥): «وحاله المتيسّر..».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٢٦): «ينعر».

(٥) في الطبعة نفسها: «الأزمان، فلا بُدّ في كل وقت من أعيان..».

(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٥٢): «اشتقالة».

ما تُوُهِّم أنّ من بتلك البلاد يستنسر بُغَاثُه عليكم[1]، أو يحتقر ما لديكم، فقد ظهر الكائن، وتطابق المخبر والمعاين، فسبحان من يقوي الضعيف ويهين المخيف، ويجري يد المشروف والشريف، والهمم بيد الله تعالى يُنْجِدُها ويخذلها، والأرضُ في قبضته يرعاها ويهملها.

هذا بثٌّ لا يسع إفشاؤه، وسِرٌّ إن لم يُطْوَ سقط به على السرحان شاؤه[2]، وفيه ما ينكره الآمر، وتتعلّق به الظنون وتعمل الخواطر، فتدبّروه واعتبروه، وبعقلكم فاسْبُروه، ثم غطّوه بالإحراق واستروه، والله تعالى يرشدكم للتي هي أسعد[3]، ويحملكم على ما فيه لكم العِزّ السَّرْمَد، والفخر الذي لا ينفد، والسلام»[4]؛ انتهى.

وقال رحمه الله تعالى: ومِمّا صدر عني ما أجبت به عن كتاب بعث به إليَّ الفقيهُ الكاتبُ عن سلطان تِلمسان أبي عبد الله بن يوسف القيسي الثغري[5]: [الكامل]

حَيَّا تِلِمْسان الحَيَا فَرُبُوعُها ... صَدَفٌ يجودُ بدرِّهِ المكنونِ
ما شئتَ من فضلٍ عميمٍ إنْ سَقَى ... أَرْوَى ومَنٌّ ليس بالممنونِ[6]
أو شئتَ من دِينٍ إذا قدح الهدى ... أورى ودُنْيا لم تكنْ بالدون
وَرَدَ النسيمُ لها بنشرِ حديقةٍ ... قد أزهرتْ أفنانُها بفنون
وإذا حبيبة أم يحيى أنجبت ... فلها الشفوفُ على عيون العِينِ

«ما هذا النشر، والصفّ والحشر، واللفّ والنشر، والفجر والليالي العشر، شَذًا كما تنفّست دَارِين، وسطور رقم خللها التزيين، وبَيَان قام على إبداعه البرهان المُبين، ونِفْس،

(١) البُغاث: ضرب من الطير. استنسر: صار كالنسر في القوة عند الصيد بعد أن كان من ضعاف الطير. أخذه من المثل: «إنّ البُغاثَ بأرضنا يَسْتَنْسِرُ». يضرب للضعيف يصير قويًا، وللذليل يعزّ بعد الذّلّ. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ١٠).

(٢) لعلّ الصواب: «عشاؤه»، وقد أخذ ذلك من المثل: «سَقَطَ العشاءُ به على سرحانٍ». يضرب في طلب الحاجة يؤدي صاحبها إلى التلف. مجمع الأمثال (جـ ١ ص ٣٢٨).

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٢٧): «أسدّ».

(٤) يطلب ابن الخطيب أن تحرق رسالته هذه؛ لأنه حاطها بالغموض واعتمد فيها على التورية.

(٥) سترد هذه الأبيات في هذا الجزء وجاء هناك: «بدرُها» بدل «بدرِّه» في البيت الأول.

(٦) ليس بالممنون: أي إنه عطاء ليس فيه منّة، أو إنه عطاء لا ينقطع. والمنّ: الفضل. لسان العرب (منن).

وشّي به طِرْس، فجاء كأنه العيون العِين، لا بل ما هذه الكتائب الكتيبة التي أطلقت علينا الأعِنّة، وأشرعت إلينا الأسنّة، وراعت الإنس والجِنّ، فأُقسم بالرحمٰن، لولا أنها رفعت شعار الأمان، وحَيَّت بتحيّة الإيمان، لراعت السِّرْبَ، وعاقت الذودَ أن يردَ الشِّرب، أظنّها مدد الجهاد قُدِّم، وشاردَ العرب اسْتُعمل في سبيل الله واسْتُخْدم، والمتأخّر على ما فاته ندم، والعزم وجد بعد ما عدم، نستغفر الله! إنما هي رقاع الرفاع[1]، وصِلات صَلاة ليس فيها سَبْقٌ ولا إرباع[2]، ويقاعٌ لها بطَلِّ الطباع الكريمة انتفاع، وألحان بيان يعضدها إيقاع، ودرّ منسوق، ورطب لنخلها بُسُوق، ولله دَرُّ القائل: «الملك سوق»[3]، ومَنْ نصر[4] الشيخ على كتيبة تعقبها كتيبة، واقتضاء وجيبة من ذي غَلَّةٍ غير نجيبة، بينا هو يكابد من مراجعة الحيّ من حضرموت الموت، ولا يكاد يرجع الصوت، إذ صبّحته قيس وهي التي شَذّت عن القياس، وأحجمت[5] عن مبارزتها أُسود الأخياس، فلولا امتثال أمرٍ، وصبر على جمر، لأعاد ما حكي في مبارزة الوصيّ عن عمرو[6]، فتحرّج من الخطل، وبيَّن عُذْرَ المكرهِ عن مناجزة البطل، ألم يَدْرِ قائدُ رَعِيلها، وزائر غِيلها، أني أَمُتّ بذمةٍ من عميده لا تُخفَر، وأنّ ذنب إضافتي إليه لا يُغْفر، وحقّه الحق الذي لا يُجْحَدُ ولا يُكْفر: [البسيط]

لَـمّـا رأتْ رايةَ الـقَـيـسـيّ زاحـفـةً	إلـيّ رِيعتْ وقـالـتْ لـي وما الـعَـمَـلُ
قلتُ الوغى ليس من رأيي ولا عملي	لا نـاقَـةٌ لـي فـي هـذا ولا جَـمَـلُ[7]
قد كان ذاك ورَنّاتُ الصَّهيلِ ضُحًى	تَـهـزُّ عِـطْـفـي كـأنـي شـاربٌ ثَـمِـلُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٥٣): «الرقاع» بالقاف. والرفاع: رفع الحَبِّ بعد الحصاد. لسان العرب (رفع).

(٢) في طبعة عبد الحميد: «إرقاع». والإرباع: الإسراع. لسان العرب (ربع).

(٣) أخذه من المثل: «المُلْكُ سُوقٌ يُحْمَلُ إليها ما نَفَقَ فيها».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٢٨): «نصير».

(٥) في الطبعة نفسها: «وأجحمت».

(٦) الوصيّ: علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وعمرو: هو عمرو بن العاص، ويشير هنا إلى مبارزة الإمام علي، رضي الله عنه، لعمرو بن العاص، وتدل هذه المبارزة على أن عمرو بن العاص لم يكن من رجال الحرب، بل كان من أهل الدهاء والحيل.

(٧) أخذ عجز البيت من المثل: «لا ناقتي في هذا ولا جَمَلي». وأصل المثل للحارث بن عُباد حين قتل جسّاس بن مرة كليبًا وهاجت الحرب بين الفريقين، وكان الحارث اعتزلهما. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٢٢٠).

والآن قد صَوَّحَ المرعى وقوضت[1] الـ خيمات والركب بعد اللبث محتملُ
قالت ألستَ شهاب الدين تضرمها حاشا العلا أن يقال: استنوقَ الجمل
وإنَّ أحســـنَ مِـنْ هــذا وذا وزرٌ بـمثـلـه فـي الـدواهـي يُـبْـلَـغُ الأمـل
هو الحمى لأبي حمُّو استجره ففيـ ـه الأمنُ منسدلٌ والفضلُ مكتمل
واللّه لو أهمل الراعي النَّقادَ به ما خاف من أُسدِ خَفَّانٍ به هَمَلُ[2]
تكون من قوم موسى إن قَضَوا عدلوا وإن تقاعدَ دهرٌ جائرٌ حملوا
هُمُ الجبال الرواسي كلّما حكموا هُمُ البحارُ الطوامي كلّما جملوا[3]
فقلتُ: كان لك الرحمن بعديَ ما سواهُ معتمَدٌ والرأيُ معتمِلُ
فها أنا تحت ظلّ منه يلحفني والشملُ مني بسترِ العِزِّ يشتمل
فَقُلْ لقيس لقد خاب القياسُ فلا تُذْكُوا المصاعَ وتحت الليل فاحتملوا
دامتْ له دِيَمُ النعمى مُسَاجلة يمناه، تنهلُّ باليمنى فتنهملُ
وآمنتْ شمسُ علياه الأفولَ إلى طيّ الوجودِ فلا شمسٌ ولا حَمَلُ

ولو خوى - والعوذ باللّه - نجم هذا المتات، ولم يتّصف السبب - وحاشاه - بالاتّصال ولا بالانبتات، فمرعى العدل مكفول، وسببُ الرفقِ موصول، وإن اشتجرتْ نُصُول، والهَرِمُ تأبى الأبطالُ التنزلَ إلى نزاله، والناسكُ التائبُ يدينُ ضربُ الغارات باعتزاله، إلاَّ مَنْ أعرق في مذهب الخارجي الأخرق، نافع بن الأزرق، وحسبي، وقد ساء كسبي، أن أترك الخطر لراكبه، وأخلّي الطريق لمن يَبْني المنَارَ به، ونسير بسير أمثالي من الضعفاء، ونكفّ فهو زمان الانكفاء، ونسلّم مخطوبةَ هذا الفنّ إلى الأكفاء، ونقول: بالبنين والرفاء، فقد ذهب الزمن المُذْهَب، وتبين المَذْهَب، وشاخ البازي الأشهب، وعتادُ العمر يُنْهب، ومرهب الفوت من فَوْقِ الفود[4] يرهب، اللهمّ ألهمْ هذه الأنفس رُشْدَها، وأذكرها السكرات[5] وما بعدها. إيه أخي والفضلُ وَصْفك ونعتك، والزَّيْفُ يُبَهْرِجه بحتك، وسهامُ اليراعة انفردَ بها بَرْيُك وَنَحْتُك، وصلتني رسالتك البرّة، بل غمامتك الثرّة، وحيتني ثُغُور

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٥٤): «وقيضت».
(٢) في الطبعة نفسها: «لو أعمل الراعي..». والنّقاد: الغنم. وخفّان: اسم موضع. لسان العرب (نقد).
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٢٩): «الرواسي كلّما حلموا... كلّما حملوا».
(٤) الفَوْدُ: مصدر فادَ الرجلُ إذا مات. لسان العرب (فود).
(٥) يريد: سكرات الموت. قال اللّه تعالى: ﴿وجاءتْ سَكْرَةُ المَوتِ بالحقّ﴾. سورة ق ٥٠، الآية ١٩.

نضلك المُفتَرّة، فعظمتْ بورودها المسرّة، جدّدتِ العهدَ بمحبوبِ لقائك، وأنهلت ظامي الاستطلاع من[1] سقائك، واقتضتْ تجديدَ الدعاء ببقائك، إلاّ أنها ربما ذُهلت عند وداعك، وأبهر عَقْلَها نورُ إبداعك، فلم تَلْقَنِ الوصيّة، وسلكتِ المسالك القَصِيَّة، وأبعدتْ من التطوّف، وجاءت تبتغي من أسرار التصوّف، ومتى تُقْرَنُ هيبةُ السبع الشداد، بحانوت الحدّاد، أو تنظر أحكام الاعتكاف، بدكان الإسكاف، أو يُتَعَلَّمُ طبعُ المثقال، بحانوتِ البقال؟ والظنُّ الغالب[2]. وقد تلتبس المطالب. أنكم أمرتموها، لما أصدرتموها، بإعمال التشوّف، فطردت حكم الإبدال، غائبة عَمَّا يلزم من الجدال، وسمَّت الشين صادًا، وعيّنت لزرع الوصيّة حَصَادًا، واللّه تعالى يجعل المحبَّ عند ظنّ من نظر بمرآته، أو وَصَفَهُ ببعض صفاته، وهي تزلق عن صَفَاته، فالتصوّف أشرف، وظلاله أوْرَف، من أن يناله[3] كلفٌ بباطل، ومغرورٌ بسرابٍ ماطل، لا برَبَاب هاطل، ومفتون بحالِ حالٍ أو عاطل، ومن قال ولم يتّصف بمقاله، فعقله لم يَرِمْ عن عقاله، وجبالُ أثقاله، مانعة له عن انتقاله. وعلى ذلك، وبعد تقرير هذه المسالك، فقد عمرت يدها كيلا تعود بها صِفْرًا[4] بعد إعمال السفر، أو ترى أنها قد طُولبت بذنب الغلط المغتفر، وأصبحت المراجعة بمجلس وعظٍ فتحت به باب الحرج، إلى إنكار الإمام أبي الفرج[5] وفنُّ الوعظ لما سأل الأخ هو الصديق المسعد، والمُبْرِقُ قبل غمام رحمته والمُرْعِد، وللّه دَرُّ القائل: لستَ به ولم تبعد، والاعتراض بَعْدُ ملازم، لكنَّ الإسعاف لقصده لازم، وعامله عند الاعتلال بالعذر جازم، وإغضاؤه ملتمَس، وفضله لا يخبو منه قَبَس، وعذرًا أيها الفاضل، وبعد الاعتذار، عن القلم المِهْذَار، وإغفال الحِذار، اقرأ عليهم من طيّب السلام، ما يُخْجِلُ أزهارَ الكمام عقبَ الغمام، ورحمة اللّه تعالى مِمَّنْ يُمليه[6] على الكاتب، ولعلّها تفثأ[7] من عَتْبِ العاتب، ابنِ الخطيب؛ فإني كتبته والليلُ دامس، وبَحْرُ الظلامِ طامس، وعادة الكسل طبعٌ خامس،

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٢٩): «في».

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٥٥): «للغالب».

(٣) في الطبعة نفسها: «ينال».

(٤) أي صِفْر اليدين، خالية الوفاض.

(٥) يريد الإمام جمال الدين أبا الفرج عبد الرحمن بن الجوزي البغدادي، الفقيه المفسّر. ترجمته في وفيات الأعيان (جـ ٣ ص ١٤٠ ـ ١٤٢).

(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٣٠): «مِنْ مُمْليه على..».

(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٥٦): «ولعلّها تفتؤ..».

والنافخُ بشكوى البرد هامس، والذبالُ المُنَادم خافت، لا يهتدي إليه الفَرَاش[1] المتهافت، يقوم ويقعد، ويفيق ثم يرعد، ويزفر ثم يخمد، وربّما صار وزقةَ آس، أو مبضَعَ آس، وربما أشبه العاشقَ في البَوْح بما يخفيه، وظهوره من فيه، فتميله الآمال وتُلْويه، وتميته النواسم الهفافة بعد ما تحييه، والمطر، قد تَعَذَّرَ معه الوطَر، وساقه الخطر، وفعل في البيوت المتداعية ما لا تفعل[2] الترك والططر، والنشاط، قد طُوي منه البساط، والجوارحُ بالكلال تعتذر، ووظائف الغدِ تنتظر، والفكرُ في الأمور السلطانية جائل، وهي بحر هائل، ومثلي مقنوع منه باليسير، ومعذورٌ في قِصَرِ الباع وضعفِ المسير، والسلام»؛ انتهى.

وهي من البلاغة في الذروة.

ومن نثر لسان الدين رحمه اللّٰه تعالى قوله: ومِمَّا صدر عني في السياسة: «حدَّث[3] منِ امتاز بأعتبار الأخبار، وحازَ درجةَ الاشتهار، بنقل حوادثِ الليل والنهار، وولج بين الكمائم والأزهار، وتلطّف لخجل الورد من تبسّم البهار[4]، قال: سهر الرشيد ليله، وقد مال في هجر النبيذ ميله، وجهد ندماؤه في جلب راحته، وإلمام النوم بساحته، فشحَّتْ عِهادهم[5]، ولم يُغْنِ اجتهادهم، فقال: اذهبوا إلى طُرُقِ سمّاها ورسمها، وأمهاتِ قسمها، فمَنْ عثرتُمْ عليه من طارقِ ليل، أو غُثَاء سيل، أو ساحبِ ذَيْل، فبلغوه، والأمَنَةَ سوّغوه، واستدعوه، ولا تَدَعُوه، فطاروا عَجَالى، وتفرّقوا ركبانًا ورجالا، فلم يكن إلاَّ ارتدادُ طرف، أو فُوَاق حَرْف[6]، وأتوا بالغنيمة التي اكتسحوها، والبضاعة التي ربحوها، يتوسّطهم الأشعث الأغبر، واللجُ الذي لا يُعْبَر، شيخ طويل القامة، ظاهر الاستقامة، سَبَلَتُه مُشْمَطَّة، وعلى أنفه من القَبْع[7] مَطَّة، وعليه ثوب مرقوع، لطير الحرق عليه وقوع، يُهَيْنِمُ بذكر مسموع، وينبىء عن وقتٍ مجموع، فلمَّا مَثَلَ سلَّم، وما نبس بعدها ولا تكلَّم، فأشار إليه الملك فَقَعد، بعد أن انشمر وابتعد، وجلس، فما استرق النظر ولا اختلس، إنما حركة فكره، معقودةٌ بزمام ذكره، ولحظات اعتباره، في تفاصيل أخباره، فابتدره الرشيدُ

---

(١) أي الفراش المتهافت على نور القنديل، وهو مضرب المثل في الجهالة فيقال: يتهافت تهافت الذباب على الشراب، والفراش على الشهاب.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٣١): «يفعل».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «حديث».

(٤) في الطبعة نفسها: «النهار».

(٥) العِهادُ: جمع عَهْد وهو أول مطر الوسميّ. محيط المحيط (عهد).

(٦) الفُواق: ما بين الحلبتين من الوقت. الحَرْفُ: الناقة الضامرة. لسان العرب (فوق) و (حرف).

(٧) القَبْعُ: الصياح؛ يقال: قَبَعَ فلانٌ إذا صاح. محيط المحيط (قبع).

سائلاً، وانحرف إليه مائلاً، وقال: مِمَّن الرجل؟ فقال: فارسيُّ الأصل، أعجميُّ الجنس عربيُّ الفَضْلِ، قال: بلدك وأهلك وولدك؟ قال: أمَّا الولد فولد الديوان، وأمَّا البلدُ فمدينة الإيوان، قال: النِّحْلة، وما أعملتَ إليه الرحلة؟ قال: أمَّا الرحلة فالاعتبار، وأمَّا النِّحْلة فالأمر الكُبار، قال: فَنّكَ، الذي اشتمل عليه دَنّكَ؟ فقال: الحكمة فنّي الذي جعلته أثيرًا، وأضجعت فيه فراشًا وَثِيرًا، وسبحان الذي يقول ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فقد أُوتِيَ خَيرًا كثيرًا ﴾[1] وما سوى ذلك فتَبَع، ولي فيه مُصْطَاف ومُرْتَبَع، قال: فتعاضد جَذَلُ الرشيد وتوقّر، كأنما أغشى وجهه قطعة من الصبح إذا أسفر، وقال: ما رأيت كالليلة أجمعَ لأملٍ شارد، وأنعمَ بمؤانسة وارد، يا هذا إني سائلك، ولن تخيبَ بعدُ وسائلُك، فأخبرني ما عندك في هذا الأمر الذي بُلينا بحَمْل أعبائه، ومُنينا بمراوضة إبائه[2]، فقال: هذا الأمر قلادةٌ ثقيلة، ومن خُطّة العجز مستقيلة، ومفتقرةٌ لسَعَةِ الذَّرْع، وربط السياسة المدنية بالشرع، يفسده الحكم في غير محلِّه، ويكون ذريعةً إلى حلّه، ويُصْلحه مقابلة الشكل بشكله، ومن لم يكن سبعًا آكلاً تداعتْ سباعٌ إلى أكله.

فقال الملك: أجملتَ ففصِّلْ، وبَرَيتَ فَنَصِّلْ، وكِلْتَ فأوصِلْ، وانثرِ الحَبَّ لمن يُحَوْصِل، واقسم السياسة فنونًا، واجعلْ لكلٍّ لقبٍ قانونًا، وابدأ بالرعيّة، وشروطها المرعيّة.

فقال: رعيّتك ودائع اللّه تعالى قِبَلَكَ، ومرآة العدل الذي عليه جَبَلَكَ، ولا تصل إلى ضبطهم إلاّ بإعانة اللّه تعالى التي وهب لك، وأفضلُ ما استدعيت به عَونه فيهم، وكفايته التي تكفيهم، تقويمُ نفسك عند قصد تقويمهم، ورضاك بالسهر لتنويمهم، وحراسة كهلهم ورضيعهم، والترفّع عن تضييعهم، وأخذ كلِّ طبقة بما عليها وما لها، أخذًا يحوط مالها، ويحفظُ عليها كمالها، ويقصُرُ عن غير الواجبات آمالها، حتى تستشعرَ عِلْيَتُها رأفتك وحنانك، وتعرف أوساطها في النَّصَب امتنانك، وتحذر سِفْلَتها سنانَكَ، وحظِّرْ على كلِّ طبقةٍ منها أن تتعدّى طورها، أو تخالف دورها، أو تجاوزَ بأمرِ طاعتك فَورها، وسُدَّ فيها سُبُلَ الذريعة، وأقصرْ جميعها عن خدمة الملك بموجب الشريعة، وامنع أغنياءها من البطر والبطالة، والنظر في شبهات الدين بالتمشدق والإطالة، وليقلَّ فيما شجر بين الناس كلامها،

---

(١) سورة البقرة ٢، الآية ٢٦٩.

(٢) مراوضة إبائه: أي ترويضه والتغلّب عليه وجعله طوع البنان. لسان العرب (روض).

ويرفض ما[1] تنبز به أعلامها، فإنَّ ذلك يُسقطُ الحقوقَ، ويرتّب العقوقَ، وامنعهمْ من فحشِ الحرص والشَّرَهِ، وتَعاهدهم بالمواعظ التي تجلو البصائر من المرَهِ، واحملهمْ من الاجتهاد في العمارة على أحسن المذاهب، وانْهَهُمْ عن التحاسد على المواهب، ورُضْهُمْ على الإنفاق بقدر الحال، والتعزّي عن الفائت فَرَدُّه من المحال، وحذّر[2] البخل عن أهل اليسار، والسخاء على أولي الإعسار، وخُذْهُمْ من الشريعة بالواضح الظاهر، وامْنَعْهُمْ من تأويلها مَنْعَ القاهر، ولا تطلقْ لهم التجمّع على من أنكروا أمرهُ في نواديهم، وكفَّ عنهم أكفَّ تعدِّيهم، ولا تبحْ لهم تغيير ما كرهوه بأيديهم، ولتكنْ غايتهم، فيما توجَّهَتْ إليه إيابتهم، ونكصتْ عن الموافقة عليه رايتهم، إنهاءه إلى من وَكَلْتَه بمصالحهم من ثقاتك، المحافظين على أوقاتك، وقدِّمْ منهم من أمنتَ عليهم مكره، وحمدت على الإنصاف شكره، ومن كثر حياؤه من التأنيب، وقابل الهفوةَ باستتابة المنيب، ومن لا يتخطّى[3] عن محلّه الذي حلَّه، فربما عمد إلى المُبْرَمِ فحلَّه، وحسِّنِ النيَّةَ لهم بجهد الاستطاعة، واغتفرِ المكاره في جنب حسن الطاعة، وإن ثار جوادهم، واختلف في طاعتك مُرَادهم، فتحصّنْ لثورتهم، واثبت لفورتهم، فإذا سالوا وسلّوا، وتفرّقوا وانسلّوا، فاحتقرْ كثرتهم، ولا تُقِلْ عَثْرَتَهُم[4]، واجْعَلْهُم لما بين أيديهم وما خلفهم نكالاً، ولا تتركْ لهم على حلمك اتّكالاً.

ثم قال: والوزيرُ الصالح أفضلُ عددك، وأوصلُ مددك، فهو الذي يصونك عن الابتذال، ومباشرة الأنذال، ويثبُ لك على الفرصة، وينوبُ في تجرع الغصَّة، واستجلاء القصّة، ويستحضر ما نَسِيتَهُ من أمورك، ويغلبُ فيه الرأي بموافقة مأمورك، ولا يسعه ما تمكنك المسامحة فيه، حتى يستوفيه، واحذر مصادمة تيّاره، والتجوّز في اختياره، وقدِّمِ استخارة اللّه تعالى في إيثاره، وأرسل عيون الملاحظة على آثاره، وليكن معروفًا بالإخلاص لدولتك، معقود الرضا والغضب برضاك وصَوْلَتك، زاهدًا عمّا في يديك، مؤثرًا لكلِّ ما يُزْلِفُ لديك، بعيد الهمّة، راعيا للأذِمَّة[5]، كامل الآلة، محيطًا بالإيالة، رحيب الصدر،

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٥٨): «ممّا».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٣٣): «وحذِّر البخلَ على أهل. .».
(٣) في الطبعة نفسها: «يتخطّى عندك محلّه الذي. .».
(٤) تقلْ: فعل أمر من أقال اللّه عثرتك: رفعك من سقوطك. والعثرة: السقطة. يقول: لا تساعِدْهُمْ على النهوض من عثرتهم. محيط المحيط (قيل) و (عثر).
(٥) الأذِمّة: جمع ذمام وهو العهد.

رفيع القَدْر، معروف البيت، نبيه الحيّ والميت، مؤثرًا للعدل والإصلاح، دريًا بحمل السلاح، ذا خبرة بدخل المملكة وخَرْجها، وظهرها وسرْجها، صحيح العقد، متحرّزًا من النقد، جادًا عند لهوك، متيقّظًا في حال سَهْوِك، يلينُ عند غضبك، ويَصِلُ الإسهاب بمقتضبك[1]، قلقًا من شكره دونك وحمده، ناسبًا لك الإصابة بِعَمْده، وإن أعيا عليك وجودُ أكثر هذه الخِلال، وسبق إلى نقضها شيء من الاختلال، فاطلبْ منه سكونَ النفس وهدونها[2]، وأن لا يرى منك رتبةً إلاّ رأى قَدْرَه دونها، وتقوى اللّه تعالى تفضلُ شرفَ الانتساب، وهي للفضائل فَذْلَكَةُ الحساب، وساوِ في حفظ غَيْبه بين قربه ونأيه، واجعلْ حَظَّهُ من نعمتك موازيًا لِحَظِّكَ مِنْ حُسْنِ رأيه، واجتنبْ منهم من يرى في نفسه إلى الملك سبيلاً، أو يقودُ من عِيصِه للاستظهار عليك قبيلاً، أو من كاثر مالك مالَه، أو من تقدّم لعدوك استعماله، أو من سَمَتْ لسواك آماله، أو من يَعْظُم عليه إعراضُ وجهك، ويهمّه نادرُ نَجْهك، أو من يداخلُ غير أحبابك، أو من ينافسُ أحدًا ببابك.

وأَمّا الجند فاصرفِ التقديم منهم للمقاتلة، والمكايدة والمخاتلة، واستوفِ عليهم شرائط الخدمة، وخُذْهُمْ بالثبات للصدمة، ووفِّ ما أوجبتَ لهم من الجراية والنعمة، وتَعاهدهم عند الغناء بالعَلُْفةِ والطعمة، ولا تكرمْ منهم إلاّ مَنْ أكرمه غَنَاؤه، وطاب في الذبِّ عن ظَنِّك ثناؤه، وولِّ عليهم النبهاء من خيارهم، واجتهدْ في صرفهم عن الافتتان بأهليهم وديارهم، ولا توطئهم الدَّعَة مهادًا، وقَدِّمْهُمْ على حصصك وبعوثك مهما أَرَدْتَ جهادًا، ولا تُلَيِّنْ لهم في الإغماض عن حُسْن طاعتك قيادًا، وعَوِّدْهُمْ حُسْنَ المواساة بأنفسهم اعتيادًا، ولا تسمحْ لأحدٍ منهم في إغفالِ شيء من سلاحِ استظهاره، أو عُدَّةِ اشتهاره، وليكُنْ ما فضل مِنْ شِبَعهم وريّهم، مصروفًا إلى سلاحهم وزيّهم، والتزيّد في مراكبهم وغِلْمانهم، من غير اعتبار لأثمانهم، وامنعهم من المستغلاّت[3] والمتاجر، وما يتكسّب به غير المشاجر، وليكن من الغزو[4] اكتسابهم، وعلى المغانم حسابهم، كالجوارح التي تفسد باعتيادها، أن تُطْعَمَ من غير اصطيادها.

---

(١) المقتضب: الموجز، المختصر. لسان العرب (قضب).

(٢) هُدُونُ النَّفْسِ: سكونها. لسان العرب (هدن).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٦١): «المشغلات».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٣٥): «الغوار».

واعلمْ أنها لا تبذل نفوسها من عالم الإنسان، إلاّ لمن يملك قلوبها بالإحسان وفضل اللسان، ويملك حركاتها بالتقويم، ورُتَبَهَا بالميزان القويم، ومن تثق بإشفاقه على أولادها، ويشتري رضا اللّه تعالى بصبره على طاعته وجِلادها، فإذا اسْتَشْعَرَتْ لها هذه الخلالَ تقدمتك إلى مواقف التلف، مطيعةً دواعي الكلف، واثقةً منك بحسن الخلف، واسْتَبِقْ إلى تمييزهم استباقًا، وطبّقهم طباقًا، أعلاها من تأمّلْتَ منه في المحاربة عنك أخطارًا، وأبْعدُهم في مرضاتك مَطَارًا[1]، وأضبطهم لما تحت يده من رجالك حزمًا ووقارًا، واستهانة بالعظائم واحتقارًا، وأحسنهم لمن تقلّده أمرك من الرعيّة جِوارًا، إذا أجدت اختباراً، وأشَدّهم على مماطلة من مارسه من الخوارج عليك اصطبارًا، ومن بَلا[2] في الذي عَنَّ لك إحلاء وإمرارًا، ولحقه الضر في معارض الدفاع عنك مرارًا، ويعده مَنْ كانت محبّته لك أزيد من نَجْدَتة، وموقعُ رأيه أنفعَ من موقع صَعْدته[3]، ويعدهما مَنْ حَسُنَ انقيادُهُ لأمرائك، وإحماده لآرائك، ومَنْ جعل نفسه من الأمر حيث جعله، وكان صبره على ما عراه أكثر من اعتداده بما فعله. واحْذَرْ منهم من كان عند نفسه أكبر من موقعه في الانتفاع، ولم يَسْتَحْي من التزيّد بأضعاف ما بذله من الدفاع، وشكا البخس فيما تعذّر عليه من فوائدك، وقاسِ بين عوائد[4] عدوّك وعوائدك، وتوعّدْ بانتقاله عنك وارتحاله، وأَظْهِرِ الكراهية لحاله.

وأما العمال فإنهم ينبئون عن مذهبك، وحالهم في الغالب شديدة الشبه بك، فعرِّفهم في أمانتك السعادة، وألزمهمْ في رعيّتك العادة، وأنزلهمْ من كرامتك بحسب منازلهم في الاتّصاف، بالعدل والإنصاف، وأحِلّهم من الحفاية، بنسبة مراتبهم من الأمانة والكفاية، وقِفْهم عند تقليد الأرجاء، مواقفَ الخوف والرجاء، وقرِّرْ في نفوسهم أن أعظمَ ما به إليك تقربوا، وفيه تدربوا، وفي سبيله أعجموا وأعربوا، إقامةُ حقّ ودَحْضُ باطل[5]، حتى لا يشكو غريمٌ مَطْلَ ماطل، وهو آثر لديك من كل رَبَابٍ[6] هاطل، وكفّهم من الرزق

(١) يريد أنه أسرع في إنجازه غاية السرعة.
(٢) بلا: اختبر وجرّب. لسان العرب (بلا).
(٣) الصَّعْدَة: القناة المستوية، أي الرمح. محيط المحيط (صعد).
(٤) العوائد: جمع عائدة وهي الأمر النافع. لسان العرب (عود).
(٥) دحض الباطل: إبطاله. لسان العرب (دحض).
(٦) الرّباب: السحاب الأبيض. محيط المحيط (ربب).

الموافق، عن التصدّي لدنيء المرافق، واصطنعْ منهم من تيسّرت كلفته، وقويتْ للرعايا أُلفته، ومن زاد على تأميله صبرُه، وأربى على خَبَره خُبْره، وكانت رغبته في حسن الذكر، تشفُّ على بناتِ الفكر، واجتنبْ منهم من يغلبُ عليه التخرقُ في الإنفاق، وعدم الإشفاق، والتنافس في الاكتساب، وسَهُلَ عليه سوء الحساب، وكانت ذريعته المصانعة بالنفاية، دون التقصي والكفاية، ومن كان منشؤه خاملاً، ولأعباء الدناءة حاملاً، وابْغِ مَنْ يكون الاعتذار في أعماله، أوضحَ من الاعتذار في أقواله، ولا يفتننّك مِمَّنْ قلّدته اجتلاب الحظّ المقنع، والتنفقُ بالسعي المسمع، ومخالفة السنن المرعيّة، واتّباعه رضاك بسخط الرعيّة، فإنه قد غَشَّك، من حيث بَلَّك ورَشَّك، وجعل من يمينك في شمالك، حاضر مالك، ولا تُضَمِّنْ عاملاً مال عمله، وحُلْ بينه فيه وبين أمله، فإنك تميتُ رسومك بمحيّاه، وتخرجه من خدمتك فيه إلاّ أن تملكه إياه، ولا تجمع له بين الأعمال فيسقط استظهارك ببلد على بلد، والاحتجاج على والدٍ بولد، واحرصْ على أن يكون في الولاية غريبًا، ومنتقله منك قريبًا، ورهينةً لا يزال معها مريبًا، ولا تقبلْ مصالحته على شيء اختانه، ولو برغيبة فَتّانه، فتقبلَ المصانعةَ في أمانتك، وتكونَ مشاركًا له في خيانتك، ولا تُطِلْ مدّة العمل، وتعاهدْ كشف الأمور مِمَّنْ يَرْعَى الهمل، ويبلغ الأمل.

وأمّا الولد فأحْسِنْ آدابهم، واجعلِ الخير دابهم[1]، وخَفْ عليهم من إشفاقك وحَنَانك، أكثر من غلظةِ جنانك، واكتمْ عنهم ميلك، وأفضْ فيهم جودك ونَيْلَك، ولا تستغرق بالكلَف بهم يومَكَ ولا لَيْلَك، وأَثِبْهُمْ على حُسْنِ الجواب، وسَبِّقْ لهم خوفَ الجزاء على رجاء الثواب، وعلّمهم الصبرَ على الضرائر، والمهلة عند استخفاف الجرائر، وخُذْهم بحسن السرائر، وحَبِّبْ إليهم مراسَ[2] الأمور الصعبة المِراس، وحُسْنَ الاصطناع والاحتراس، والاستكثار من أُولي المراتب والعلوم، والسياسات والحلوم، والمقام المعلوم، وكرّهْ إليهم مجالسة الملهين، ومصاحبة الساهين، وجاهدْ أهواءَهُمْ عن عقولهم، وحذِّرِ الكذبَ على مَقُولهم، ورَشِّحْهُمْ إذا آنستَ منهم رُشْدًا أو هَدْيًا، وأرضعْهُمْ من الموازرة والمشاورة ثديًا، لتمرّنهم على الاعتياد، وتحملهم على الازدياد، ورُضْهُم رياضة الجياد، واحْذَرْ عليهم الشهوات فهي داؤهم، وأعداؤك في الحقيقة وأعداؤهم، وتداركِ

---

(١) دابهم: أصل القول «دأبهم»، وقد حذف الهمزة مراعاة للسجع. والدأب: العادة. لسان العرب (دأب).

(٢) مراس الأمور: ممارستها ومزاولتها واختبارها. لسان العرب (مرس).

الخلقَ الذميمة كلّما نَجَمَت، واقذعْها[1] إذا هجمت، قبل أن يظهر تضعيفها، ويقوى ضعيفها، فإن أعجزتك في الصغر الحيل، عظم الميل: [البسيط]

إنَّ الغصُونَ إذا قَوَّمْتَها اعتدلتْ ولن تَلِينَ إذا قَوَّمْتَها الخشبُ

وإذا قدروا على التدبير، وتشوّفوا للمحلّ الكبير، إياك أن توطّنهم في مكانك، جهد إمكانك، وفرقهم في بلدانك، تفريق عِبْدَانك، واستعملْهُم في بعوث جهادك، والنيابة عنك في سبيل اجتهادك، فإنَّ حَضْرَتك تشغلهم بالتحاسد، والتباري والتفاسد، وانظرْ إليهم بأعين الثقات، فإنَّ عين الثقة، تُبْصِرُ ما لا تُبْصِرُ عين المحبّة والمِقَة.

وأما الخدم فإنهم بمنزلة الجوارح التي تفرق بها وتجمع، وتبصر وتسمع، فرُضْهُم بالصدق والأمانة، وصُنْهُمْ صَوْنَ الجُمَانة، وخُذْهُم بحسن الانقياد إلى ما آثرته، والتقليل مِمّا استكثرته، واحْذَرْ منهم من قويتْ شَهَوَاته، وضاقت عن هواه لَهَواته، فإنَّ الشهوات تنازعُكَ في استرقاقه، وتشاركك في استحقاقه، وخَيْرهم من ستر ذلك عنه بلطف الحيلة، وآدابِ للفساد محيلة، وأشرِبْ قلوبهم أنَّ الحقَّ في كلِّ ما حاولته واستنزلته، وأنَّ الباطل في كلِّ ما جانبته واعتزلته، وأنَّ مَنْ تصفَّحَ منهم أمورك فقد أذنب، وباينَ الأدبَ وتجنّب، وأعْطِ من أكددته، وأَضَقْتَ منه مَلْكَهُ وشَدَدْتَهُ، رَوحَةً يشتغلُ فيها بما يعنيه، على حسب صعوبة ما يُعَانيه، تغبطهم فيها بمسارحهم، وتجمّ كليلةَ جوارحهم، ولتكنْ عطاياك فيهم بالمقدار الذي لا يُبطر أعلامهم، ولا يُؤسف الأصاغرَ فيفسد أحلامهم، ولا تَرِم مُحْسِنَهُمْ بالغاية من إحسانك، واتركْ لمزيدهم فضلة من رفدك ولسانك. وحَذِّرْ عليهم مخالفتك ولو في صلاحك، بِحَدِّ سلاحك، وامنعهمْ من التواثب والتشاجُر، ولا تحمد لهم شيم التقاطع والتهاجر، واستخلص منهم لسرِّك من قَلَّتْ في الإفشاء ذنوبه، وكان أصبرَ في إحسانك، وضَبْطُهُ لما تقلّد من وديعتك، أحبّ إليه من حسن صنيعتك، وللسفارة عنك مَنْ حلا الصدق في فمه، وآثره ولو باختطار دمه، واستوفى لك وعليك فهم ما تحمَّله، وعُني بلفظه حتى لا يهمله، ولمن تودعه أعداء دولتك مَنْ كان مقصور الأمل، قليل القول صادق العمل، ومن كانت قسوته زائدة على رحمته، وعَظْمه في مرضاتك آثر من شحمته، ورأيه في الحذر سَديد، وتَحرُّزُه من الحيل شديد؛ ولخدمتك في ليلك ونهارك مَنْ لانت طباعه،

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٣٧): «واقدعها» بالدال المهملة.

وامتدَّ في حُسْنِ السجيَّة باعُه، وأمن كيده وغدره، وسلم من الحقد صدره، ورأى المطامع فما طمع، واستثقل إعادة ما سمع، وكان بريئًا من المَلاَل، والبشر عليه أغلب الخلال، ولا تؤنسهم منك بقبيح فعل ولا قول، ولا تؤيسهم من طَول[1]، ومكن في نفوسهم أن أقوى شفعائهم، وأقرب إلى الإجابة من دعائهم، إصابة الغرض فيما به وكلوا، وعليه شكلوا، فإنك لا تعدم بهم انتفاعًا، ولا يعدمون لديك ارتفاعًا.

وأمّا الحرم فهنّ مغارس الوُلد، ورياحين الخُلد، وراحة القلب الذي أجهدته الأفكار، والنفس التي تقسّمها الإحماد إلى المساعي والإفكار، فاطلب منهنّ من غلب عليهنّ من حسن الشيم، المترفعة عن القيم، ما لا يسوءُك في خلدك، أن يكون في ولدك، واحذرْ أن تجعل لفكر بشر دون بصر إليهنّ سبيلاً، وانصبْ دون ذلك عذابًا وبيلاً[2]، وأَزْعِهِنَّ من النساء العُجُزِ مَنْ بانتْ في الديانة والأمانة سبله، وقَوِيَتْ غَيْرَتُه ونبله، وخذهنّ بسلامة النيّات، والشيم السنيّات، وحسن الاسترسال، والخلق السَّلسال، وحَذِّرْ عليهنّ التغامُزَ والتغاير، والتنافس والتخاير، وآسِ[3] بينهنّ في الأغراض، والتصامم عن الإعراض، والمحاباة بالأعراض، وأَقْلِلْ من مخالطتهنّ فهو أبقى لهمّتك، وأسبلُ لحرمتك، ولتكن عشرتك لهنّ عند الكلال والملال، وضيق الاحتمال، بكثرة الأعمال، وعند الغضب والنوم، والفراغ من نَصَبِ اليوم، واجعلْ مَبيتَكَ بينهنّ تَنُم بركاتك، وتستترْ حركاتك[4]، وافصل من ولدتْ منهنّ إلى مسكنٍ يختبرُ به استقلالها، وتعتبر[5] بالتفرّد خلالها، ولا تطلق لحرمةٍ شفاعةً ولا تدبيرًا، ولا تَنُطْ بها من الأمرِ صغيرًا ولا كبيرًا، واحذرْ أن يظهر على خدمهنّ في خروجهنّ عن القصور، وبروزهنّ من أَجَمَة الأسد الهَصُور[6]، زي بارع، ولا طيب للأنوف مسارع، واخصصْ بذلك مَنْ طعن في السّنّ، ويئس من الإنس والجنّ، ومن توفّر النزوع إلى الخيرات قبله، وقصر عن جمال الصورة ورُسم بالبَلَه.

---

(١) الطَّوْلُ: الفضل والنعمة. لسان العرب (طول).

(٢) الوبيل: الشديد. لسان العرب (وبل).

(٣) آسِ بينهنّ: سوِّ بينهنّ. لسان العرب (أسا).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٦٥): «وحركاتك».

(٥) في الطبعة نفسها: «ويعتبر».

(٦) الأسدُ الهَصُورُ: الشديد الوثبة الذي يكسر فريسته ويهصرها. لسان العرب (هصر).

ثم لَمّا بلغ إلى هذا الحَدّ حمي وطيس استجفاره[1]، وختم جِزْيَهُ باستغفاره، ثم صمت مَلِيًا، واستعاد كلامًا أوّليًا.

ثم قال: واعلمْ يا أمير المؤمنين. سدَّد اللّه تعالى سهمك لأغراض خلافته! وعصمك من الزمان وآفته! . أنك في مجلس الفصل، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل، في طائفة من عزّ اللّه تعالى تذبُّ عنك حُمَاتها، وتدافع عن حوزتك كماتها، فاحذرْ أن يعدل بك غضبك عن عدل تزري منه بضاعة، أو يهجم بك رضاك على إضاعة، ولتكنْ قدرتك وقفًا على الاتّصاف، بالعدل والإنصاف، واحكمْ بالسَّوِية، واجنحْ بتدبيرك إلى حُسْنِ الرويّة، وخَفْ أن تقعدَ بك أناتُكَ عن حزم تعين، أو تستفزّك العجلة في أمر لم يتبين، وأطعِ الحجّة ما توجّهت إليك، ولا تحفلْ بها إذا كانت عليك، فانقيادُك إليها أحسنُ من ظفرك، والحقُّ أجدى من نفَرك، ولا تردَّنَّ النصيحةَ في وجه، ولا تقابلْ عليها بنَجْه، فتُمنعها إذا استدعيتها، وتُحجب عنك إن استوعيتها، ولا تستدعها من غير أهلها، فيشغبك أُولو الأغراض بجهلها، واحرصْ على أن لا ينقضي مجلس جلسته، أو زمن اختلسته، إلاّ وقد أحرزت فضيلة زائدة، أو وثقت منه في مَعَادك بفائدة. ولا يزهدنَّك في المال كثرته، فتقل في نفسك أثرته، وقِسِ الشاهدَ بالغائب، واذكرْ وقوع ما لا يحتسب من النوائب، فالمالُ المصون، أمنعُ الحصون، ومَنْ قلَّ مالُه، قصرتْ آماله، وتهاون بيمينه شماله، والملك إذ فقد خزينه، أخنى على أهل الجدة التي تزينه، وعاد على رعيّته بالإجحاف، وعلى جبايته بالإلحاف، وساء معتاد عيشه، وصغر في عيون جيشه، ومَنُّوا عليه بنصره، وأنفوا من الاقتصار على قصره، وفي المال قوة سماوية تصرف الناس لصاحبه، وتربط آمال أهل السلاح به، والمال نعمة اللّه تعالى فلا تجعله ذريعة إلى خلافه، فتجمع بالشهوات بين إتلافك وإتلافه، واستأنس بحسن جوارها، واصرف في حقوق اللّه تعالى بعضَ أطوارها، فإنْ فَضَلَ المالُ عن الأجل فأجَلّ[2]، ولم يضر ما خلف منه بين يدي اللّه عزَّ وجلّ، وما ينفق في سبيل الشريعة، وسدّ الذريعة، مأمول خَلَفُه، وما سواه فمتعين تَلَفُه. واستخلصْ لنواديك الغاصّة، ومجالسك العامّة والخاصّة، من يليق بولوج عَتَبها، والعروج[3] لرتبها،

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٤٠): «استحفاره».
(٢) أجلُّ: أعظم، أفعل التفضيل من الجلالة. لسان العرب (جلل).
(٣) العروج: الصعود؛ قال اللّه تعالى: ﴿تَعْرُجُ الملائِكَةُ والرُّوحُ إليهِ﴾. سورة المعارج ٧٠، الآية ٤.

أمّا العامية فمن عظم عند الناس قَدْرُه، وانشرح بالعلم صَدْرُه، أو ظهر يسارُه، وكان للّه تعالى إخْبَاتُه وانكسارُه، ومن كان للفتيا منتصبًا، وبتاجِ المشورةِ معتصبًا، وأمّا الخاصيّة فمن رَقَّت طباعُه، وامتدَّ فيما يليق بتلك المجالس باعُه، ومن تَبَحَّرَ في سِيَرِ الحكماء، وأخلاق الكرماء، ومن له فضل سافر، وطبع للدَّنيّة منافر، ولديه من كلٍّ ما تستتر به الملوك من العوامّ حظٌّ وافر، وصف ألبابهم بمحصول خيرك، وسكِّنْ قلوبهم بِيُمْنِ طيرك، وأَغْنِهِمْ ما قدرت عن غيرك.

واعلم بأنَّ مواقع العلماء من ملكك مواقع المشاعل المتألّقة، والمصابيح المتعلّقة، وعلى قدر تَعَاهدها تبذلُ من الضياء، وتجلو بنورها صُوَرَ الأشياء، وفرّغها[1] لتحبير ما يزين مدتك، ويحسّن من بعد البلاء جِدّتك، وبعناية الأواخر ذكرت الأُوَل، وإذا محيت المفاخرُ خربت الدول.

واعلـمْ أنَّ بقاء الذكر مشروطٌ بعمارة البلدان، وتخليد الآثار الباقية في القاصي والدان، فاحرصْ على ما يوضح في الدهر سُبُلك، ويحرز المزية على من قبلك، وأنَّ خير الملوك من ينطق بالحجّة وهو قادر على القَهْر، ويبذل الإنصاف في السِّرِّ والجهر، مع التمكّن من المال والظَّهْر، ويسار الرعيّة جمال للملك وشرف، وفاقتهم من ذلك طرف، فغلِّبْ أليق الحالين بمحلّك، وأولاهما بظعنك[2] وحِلِّك.

واعلـمْ أن كرامة الجور دائرة، وكرامة العدل متكاثرة، والغلبة بالخير سيادة، وبالشَّرِّ هَوَادة، واعلـمْ أنَّ حسن القيام بالشريعة يحسمُ عنك نكايةَ الخوارج، ويسمو بك إلى المعارج، فإنها تقصدُ أنواع الخدع، وتوري بتغيير البدع، وأطلق على عدوّك أيدي الأقوياء من الأكفاء، وألسنةَ اللفيفِ من الضعفاء، واستشعر عند نكثه شعارَ الوفاء.

ولتكـنْ ثقتك باللّه تعالى أكثرَ من ثقتك بقوة تجدها، وكتيبة تنجدها، فإنَّ الإخلاص يمنحك قوى لا تُكْتَسب، ويمهّد لك مع الأوقات نصرًا لا يحتسب.

والتمسْ أبدًا سلْمَ من سالمك بنفيس ما في يدك، وفَضِّلْ حاصلَ يومك على مُنْتَظر غدك، فإنْ أبى وضحتْ محجّتك، وقامت عليه للناس بذلك حجّتك، فللنفوس على

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٦٧): «وفَرِّغها».

(٢) الظَّعْنُ: الارتحال. لسان العرب (ظعن).

الباغين مَيْل، ولها من جانبه نَيل، واسْتَهْدِ في كلِّ يوم سيرة[1] من يناويك، واجتهدْ أن لا يوازيك في خير ولا يساويك، وأكذبْ بالخير ما يُشِيعه من مساويك، ولا تقبل من الإطراء إلاّ ما كان فيك فضل عن إطالته، وجدٌّ يُزْرِي على بطالتِهِ، ولا تلقَ المذنبَ بحميّتك وسَبِّكَ، واذكرْ عند حركة الغضب ذنوبك إلى ربِّك، ولا تَنْسَ أنَّ ربَّ المذنب أجلسك مجلس الفصل، وجعل في قبضتك رياشَ النصل. وتشاغلْ في هدنة الأيام بالاستعداد، واعلمْ أنَّ التراخي منذرٌ بالاشتداد، ولا تهملْ عَرْضَ ديوانك، واختبارَ أعوانك، وتحصينَ معاقلك وقلاعك. وعُمَّ إيالتك[2] بحسن اطّلاعك، ولا تشغلْ زَمَنَ الهدنة بلذّاتك، فتجني في الشدّة على ذاتك، ولا تطلقْ في دولتك ألسنةَ الكهانة والإرجاف، ومطاردة الآمال العِجَاف[3]، فإنه يبعثُ سوء القول، ويفتحُ باب العَول، وحذر[4] على المدرسين والمتعلمين، والعلماء والمتكلّمين، حَمْلَ الأحداث على الشكوك الخالجة والْمَزَلاّتِ الوالجة، فإنه يفسدُ طباعهم، ويغري سباعهم، ويمدُّ في مخالفة الملّة باعَهم، وسُدَّ سبيلَ الشفاعات فإنها تفسد عليك حُسْنَ الاختيار، ونفوسَ الخيار، وابذل في الأسرى من حُسْن ملكتك ما يرضي مَنْ مَلَّكك رقابها، وقلّدك ثوابها وعقابها، وتَلَقَّ بدء نهارك بذكر اللّه تعالى في ترفّعك وابتذالك، واختم اليوم بمثل ذلك.

واعلمْ أنك مع كثرة حُجّابك، وكثافة حِجَابك، بمنزلة الظاهر للعيون، المطالَب بالديون، لشدّة البحثِ عن أمورك، وتعرّف السرّ الخفي بين أمرك ومأمورك، فاعملْ في سرّك ما لا تستقبحُ أن يكون ظاهرًا، ولا تأنفْ أن تكون به مُجَاهرًا، وأحْكِمْ بَرّيك في اللّه ونَحْتَكَ، وخَفْ مَنْ فوقَكَ يخفْ مَنْ تحتك، واعلمْ أنَّ عدوَّك من أتباعك من تناسيتَ حسنَ قَرْضه، أو زادت مؤونته على نصيبه منك وفَرْضه، فأصمتِ الحججَ، وتوقَّ اللّجج[5]، واستربْ بالأمل، ولا يحملنك انتظامُ الأمور على الاستهانة بالعمل، ولا تحقرنَّ صغير الفساد، فيأخذَ في الاستشاد، واحْبسِ الألسنة عن التخالي باغتيابك، والتشبّث بأذيال ثيابك، فإنَّ سوء الطاعة ينتقلُ من الأعين الباصرة، إلى الألسن القاصرة، ثم إلى الأيدي

---

(١) اسْتَهْدَى سِيرَتَهُ: طلب أن يُهْدَى إليها، أي طلب أن يتعرّف على أخباره. محيط المحيط (هدى).

(٢) الإيالة: السياسة، وأراد هنا البلاد التي يسوسها. محيط المحيط (أول).

(٣) العِجاف: الهزيلة الضعيفة، مفردها: عَجْفاء. لسان العرب (عجف).

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٤٢): «وخُذْ».

(٥) تَوَقَّ اللُّجَجَ: أي تحفّظ من الاسترسال في الجدال.

المتناصرة، ولا تثق بنفسك في قتالِ عدوّ ناواك، حتى تظفرَ بعدوّ غضبِكَ وهواك، وليكن خوفك من سوء تدبيرك، أكثر من عدوّكَ الساعي في تتبيرك[١]، وإذا استنزلت ناجمًا[٢]، أو أمنت ثائرًا هاجمًا، فلا تقلّده البلد الذي فيه نَجَم، وهَمَى عارضةُ[٣] فيه وانسجم، يعظم عليك القدح في اختيارك، والغَضُّ[٤] من إيثارك، واحترز من كَيْده في حَوْرِك[٥] ومأمُك، فإنك أكبر هَمِّه وليس بأكبر همّك، وجَمِّلِ المملكة بتأمين الفلوات، وتسهيل الأقوات، وتجديد ما يُتعامَلُ من الصرف في البياعات، وإجراء العوائد مع الأيام والساعات، ولا تبخسْ عِيَار قِيم البضاعات، ولتكنْ يدك عن أموال الناس محجورة، وفي احترامها إلاَّ عن الثلاثة مأجورة: مال مَنْ عدا طَورُهُ طَورَ أهله، وتخارقَ في الملابس والزينة، وفضول المدينة، يرومُ معارضتك بجهله[٦]؛ ومَنْ باطَنَ أعداك، وأمن اعْتِدَاك؛ ومَنْ أساء جوارَ رعيّتك بإخساره[٧]، وبذل الأذاية فيهم بيمينِهِ ويساره. وأضَرُّ ما مُنِيتَ به التعادي بين عبدانك، أو في بلد من بلدانك، فسُدَّ فيه الباب، واسأل عن الأسباب، وانقلهم بوساطة أُولي الألباب، إلى حالة الأحْبَاب، ولا تطوّق الأعلامَ أطواقَ المنون، بهواجسِ الظنون، فهو أمر لا يقفُ عند حدّ، ولا ينتهي إلى عدّ، واجعلْ ولدكَ في احتراسك حتى لا يطمعَ في افتراسك.

ثم لَمَّا رأى الليلَ قد كاد ينتصف، وعموده يريدُ أن ينقصف، ومجالُ الوصايا أكثر مِمَّا يصف، قال: يا أمير المؤمنين، بحرُ السياسة زاخر، وعمر المتمتّع بناديك متناخر، فإن أذنْتَ في فنّ من فنون الأنس يجذبُ بالمَقَاد، إلى راحة الرقاد، ويُعْتِقُ النفسَ بقدرة ذي الجلال، من ملكة الكَلاَل[٨].

---

(١) التتبير: الهلاك. قال الله تعالى: ﴿وَلِيُتَبِّرُوا ما عَلَوْا تَتْبِيرًا﴾. سورة الإسراء ١٧، الآية ٧، ولسان العرب (تبر).

(٢) الناجم: الثائر. لسان العرب (نجم).

(٣) العارض: السحاب. لسان العرب (عرض).

(٤) الغَضُّ: الانتقاص. لسان العرب (غضض).

(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٧٠): «حوارك». والحور: العودة. والمأمّ: القصد. لسان العرب (حور) و (أمم).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «بحمله».

(٧) في الطبعة نفسها: «بإحساره».

(٨) الكَلاَل: التعب والإعياء. لسان العرب (كلل).

فقال: أَمَا واللّه قد استحسنًا ما سردت، فشأنك وما أردت.

فاستدعى عودًا فأصلحه حتى حمده، وأبعد في اختباره أَمَدَه، ثم حرّكَ بمّه، وأطال الجسّ ثمّه، ثم تغنّى بصوت يستدعي الإنصات، ويصدع الحَصَاة[1]، ويستفزّ الحليم عن وقاره، ويستوقفُ الطيرَ ورزقُ بنيه في منقاره، وقال: [الخفيف]

صاحِ، ما أعطرَ القبولَ بِنَمَّهْ ... أتراها أطالتِ اللبثَ[2] ثَمَّهْ

هي دارُ الهوى مُنَى النفسِ فيها ... أَبَدَ الدهرِ والأمانيُّ جَمَّهْ

إنْ يكنْ ما تَأَرَّجَ الجوُّ منها ... وآستفاد الشَّذا وإلاَّ فَمِمَّهْ

مَنْ لطرفي بنظرة ولأنفي ... في رباها وفي ثراها بشَمَّهْ

ذُكِرَ العهدُ فانتفضتُ كأني ... طَرَقَتْني من الملائك لَمَّهْ

وطنٌ قد نَضَيْتُ فيه شبابًا ... لم تُدَنِّس منه البرودَ مَذَمَّهْ

بِنْتُ عنه والنفسُ من أجلِ من قد ... خَلَّفتُهُ خلاله مُغتَمَّهْ

كان حلمًا فويحُ مَنْ أَمَّلَ الدَّهـ ... ـر وأعماه جَهلُهُ وأَصَمَّهْ

تَأْمُلُ العيشَ بعد أن خلقَ الجسـ ... ـم وبنيانُهُ عسيرُ المرمَّهْ

وغدت وَفرةُ الشبيبة بالشيـ ... ـب على رغم أنفها معتمَّهْ[3]

فلقد فازَ سالكٌ جَعَلَ اللَّـ ... ـه إلى اللَّه قصدَه ومأَمَّهْ

من يَبِتْ من غرور دنيا بهمّ ... يلدغ القلبَ أكثرَ اللَّهُ هَمَّهْ

ثم أحالَ اللحن إلى لون التنويم، فأخذ كلٌّ في النعاس والتهويم، وأطال الجس في الثقيل، عاكفًا عكوف الضاحي في المقيل، فخاط عيونَ القوم، بخيوط النوم، وعمر بهم المراقد، كأنما أدار عليهم الفراقد، ثم انصرف، فما علم به أحد ولا عرف، ولمّا أفاق الرشيد جَدَّ في طلبه، فلم يعلم بمُنْقلبه، فأسف للفراق، وأمر بتخليد حِكَمه في بطون الأوراق، فهي إلى اليوم تُتْلَى وتُنْقَل، وتُجْلَى القلوبُ بها وتُصْقل، والحمد للّه رب العالمين»؛ انتهى.

---

(١) أراد بالحصاة القلب.

(٢) اللبث: الإقامة. لسان العرب (لبث).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٧١): «مغتمة» بالغين المعجمة.

وقال في «الإحاطة» بعد إيراد نبذة من نثره ما صورته[١]: فهذا ما حضر[٢] من المنثور وحظّه عندي من الإجادة[٣] ضعيف، وغرضه كما شاء الله تعالى سخيف، لكن الله سبحانه بعباده لطيف؛ انتهى.

ومِمّا علق بحفظي من نثره قوله في تحليته لبعض أهل زمانه: هو إمام الفئة، وعينُ أعيان هذه المائة.

وقوله في وصف فاس: نِعْمَ العَرِين، لأُسُودِ بني مَرِين، ذات المشاهد التي منها مطرح الجنّة ومسجدِ الصابرين[٤]: [الكامل]

بَلَدٌ أَعَارَتْهُ الحَمامةُ طَوقَهَا　　وكَساهُ ريشَ جناحِهِ الطاووسُ
فكأنّما الأنهارُ فيه مُدامَةٌ　　وكأنَّ ساحاتِ الديارِ كؤوسُ

جمعت ما ولد سام وحام، وكثرة الالتئام والالتحام، واشتدّ الزحام، إلى أن قال: يلقى الرجل أبا مثواه[٥] فلا يدعوه لبيته، ولا يُطْعِمُه من بَقْله وزيته، ولا يطرق الضيف حِمَاهم، ولا يعرف اسمهم ولا مسمّاهم ﴿إلاّ الذين آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ وقَلِيلٌ ما هُمْ﴾[٦].

وقوله في وصف مراكش المحروسة: ذات المقاصر والقصور، ومأوى الليث الهَصُور، ومسكن الناصر والمنصور، إلى أن قال: ومنارها في الفَلاَة، بمنزلة وَالِي الولاة. ثم قال بعد كلام: إلاّ أنَّ خرابَها هائل، وزحامها حرب وائل، وعقاربها كثيرة الدبيب، منغصة لمضاجعة الحبيب؛ انتهى ما كتبته من حفظي لطول العهد.

---

(١) الإحاطة (جـ ٤ ص ٦٣٤).
(٢) في الإحاطة: «هذا ما حضرني من. .».
(٣) في الإحاطة: «في الإفادة خطٌ ضعيف».
(٤) البيتان في المغرب (جـ ٢ ص ٤٦٦) لابن اللبانة قالهما في وصف ميورقة، وفي روايتهما هناك بعض الاختلاف عمّا هنا. كذلك تقدّما في الجزء الأول منسوبين إلى ابن اللبانة في وصف ميورقة، ولكن دون تغيير عمّا هنا. وفي هذا الجزء التاسع أورد المقري هذين البيتين بعد أن قال: «وقد تمثّل لسان الدين رحمه الله تعالى في مدينة فاس بقول القائل. .».
(٥) أبو مثواه: مُضيفه، أي صاحب محل إقامته. لسان العرب (ثوى).
(٦) سورة ص ٣٨، الآية ٢٤.

وقال رحمه الله تعالى في وصف مدينة بَسْطة[1] من كلام لم يحضرني جميعه الآن:
-حلّ خصيب، ومنزل رحيب، وكفاها مسجد الجنّة دليلاً على البركة وباب المسك دليلاً على الطيب، ولها من اسمها نصيب، إذ هي بحر الطعام، وينبوع العيون المتعدّدة بتعدّد أيام العام؛ انتهى.

ولمّا أجرى ذكر بسطة الإمام أبو الحسن القَلَصادي[2] في رحلته قال: سقى الله تعالى أرجاءها المشرقة، وأغصانها المورقة، شآبيبَ[3] الإحسان، ومهّدها بالهدنة والأمان، دار تخجل منها الدُّور، وتتقاصر عنها القصور، وتقرّ لها بالقصور، مع ما حَوَتْهُ من المحاسن والفضائل، من صحّة أجسام أهلها وما طُبعوا عليه من كرم الشمائل، وحسبك فيها من عدم الحرج، أنَّ داخلها باب الفرج، ثم قال: ولله دَرُّ القائل: [الكامل]

دارٌ مشى الإتقانُ في تنجيدها ... حتى تناسَبَ روضُها وبناؤها
مرقومةُ الجنبات ذاتُ قرارةٍ ... يمتدُّ قُدَّامَ العيونِ فضاؤها
ما زال يضحكُ دائمًا نوّارها ... في وجه ساحته ويلعبُ ماؤها

ولبعض أصحابنا فيها وهو الأديب الكاتب أبو عبد الله بن الأزرق: [الكامل]

في بسطةٍ حيث الأباطحُ مُشرِقَةْ ... أضحتْ جفوني بالمحاسن مُغْلَقَةْ

وله أيضًا في تورية: [الرمل]

قُلْ لمنْ رام النوى عن وَطَنٍ ... قَوْلَةً ليس بها مِنْ حَرَجِ
فرِّجِ الهَمَّ بسكنى بسطةٍ ... إنَّ في بسطةَ بابَ الفَرَجِ

رجع.

ومن نثر لسان الدين رحمه الله تعالى ما خاطب به السلطان على لسان جدّته، وهو:

---

(١) راجع مشاهدات لسان الدين (ص ٣١).
(٢) هو علي بن محمد بن علي القرشي البسطي، نزيل غرناطة، وأحد أئمة الأندلس. توفي سنة ٨٩١ هـ. وقد ترجم له المقري في الراحلين إلى المشرق في الجزء الثالث.
(٣) الشآبيب: جمع شؤبوب وهو الدفعة من ماء المطر. محيط المحيط (شأب).

«إلى قرّة أعيننا وأعين المؤمنين، وفِلْذة[1] كبدنا الذي نصل للقائه الحنين بالحنين، وعزّنا الذي حللنا من كَنَفه بالحرم الأمين، وسترنا الذي خلفنا رضاه من أفقده الدهر من كرم البنين، ووارثنا المستأثر بعدنا بطول السنين، أمير المسلمين الأسعد المؤيّد الموفّق الطاهر البرّ الرحيم الأرضى الكافل الفاضل حفيدنا محمد ابن ولدنا الرضى وواحدنا الكريم الحفي السلطان الكبير الجليل السعيد الطاهر الظاهر المقدّس، جعل اللّه تعالى من عصمته لزيمًا يرافقه! وأجرى القدر بما يوافقه! وحفظ عليه الكمال الذي تناسب فيه خلقه وخلائقه! والبرّ الذي حسنت فيه طرقه وطرائقه!

من المستظلّة بظلال رضاه وبرّه، المبتهلة إلى اللّه تعالى في عزّ نصره وسعادة أمره، الداعية إلى اللّه تعالى أن يسترها في الحياة وما بعدها بستره، وما يَفْضل عمرها من عمره، جدّته التائقة إليه، كتبته من كَنَفه العزيز بحَمْرائه العليّة عن الخير الدائم بدوامه، واليسر الملازم ببركة أيامه، ولا زائد بفضل اللّه تعالى إلاّ الشوق إليه، وتحويم الكبد الخافقة خفوق رايته عليه، وتجهيز مواكب الدعاء المقبول من خلفه ومن بين يديه.

وقد وصل كتابُهُ العزيزُ الوفادةِ والوصول، الكريمُ الجُمَلِ والفصول، مُطْلعُ وجهِ السرور والجَذَلِ[2]، ومُهْدي قَصِيَّ الأمل، ومجدّدُ العهد بحديثه الذي في ضمنه شفاء الغُلَل، وبرء العِلَل، مُهْديًا تحفة عافيته وهي الهدية التي جَلَّتْ عن المكافاة، وترفّعت عن المجازاة، إنما يجازي عليها مَنْ يصل بفضله عادتها، ويُوَالي بعد الإبداء إعادتها، ووصفتم يا ولدي ما عرفتم من نعم اللّه تعالى التي انثالت عليكم سَحَابُها، وعنايته التي يلقى ركابكم تسهالها وترحابها، واستبشار الجهات بقدومكم الميمون، واجتلاء وجهكم الذي فيه للإسلام قرّة العيون، وكيف لا يكون ذلك وأنتم ذخرهم الغزيز، وحرزهم الحريز[3]، والندرة التي خلصها من معادن سلفكم الذهب الإبريز، في أيامكم والحمد للّه نامت أجفانهم، وتكيف أمانهم، نسأل اللّه تعالى أن يديم لنا ولهم نعمة بقائكم، ويُعْلي الدين بعلوّكم في معارج العزّ وارتقائكم، فقابلنا ما قرّره سلطانكم بالحمد والثناء، والشكر المتّصل على الآناء، ومحضتكم من خالص الدعاء، ما يتكفّل لكم بالحسنى وما وعد اللّه

---

(١) الفِلْذة: القطعة. لسان العرب (فلذ).

(٢) الجَذَلُ، بالفتح: الفرح. مختار الصحاح (جذل).

(٣) الحريز: المنيع الذي لا يستطاع الوصول إليه. لسان العرب (حرز).

تعالى من نيل الرجاء، وتمهيد الأرجاء، وأصدرت هذا الجواب لكم مصدر الهناء، بنعم الله تعالى المُغْدقة والآلاء، ونسألُ من فضلكم وبِرّكم صلة التعريفِ بمثلِ هذه الأخبار السارّة والأنباء، وإتحافَنا بمثلها مع الصباح والمساء، وإن كان مجدكم غنيًّا عن الشبه لمثل هذه الأشياء، أدام الله تعالى لكم أسباب البقاء، وكان لكم في كلّ حال، من إقامة وارتحال، بعزّة وجهه وقدرته»؛ انتهى.

ويرحم الله تعالى لسان الدين ابن الخطيب، فإنه يعبّر في كلّ مقامٍ بما يليق، فتارة يترقّى في أدراج البراعة، وطورًا يهتك عنانَ اليراعة[1].

وأمّا شعر لسان الدين رحمه الله تعالى فهو من النهاية في الحسن، وقد قدّمنا في هذا الكتاب منه نبذة في أثناء نثره وكلامه الذي جلبناه، وفي مواضع غيرهما؛ جملةً مفيدة من شعره رحمه الله تعالى.

وقال رحمه الله تعالى في «الإحاطة» ما نصّه: الشعر. ولنثبت جملة من مطوّلاته، ونتله بشيء من مقطوعاته، ونقدّم من المطوّلات أمداحَ رسول الله ﷺ تبركًا بها، فمن ذلك قولي[2]: [الكامل]

هل كنتَ تعلمُ في هبوبِ الريحِ ... نَفَسًا يؤجِّجُ لاعجَ التَّبْريحِ

أهدتْكَ من شيحِ الحجازِ تحيّةً ... فاحتْ لها عَرَضَ الفِجاج الفِيحِ[3]

باللّه قُلْ لي كيف نيرانُ الهوى ... ما بين ريحٍ في[4] الفلاة وشِيحِ

وخَضِيبَةِ المِنْقارِ تَحْسَبُ أنها ... نهلتْ بموردِ دمعيَ المَسْفُوحِ

باحَتْ بما تُخْفي وناحتْ في الدُّجى ... فرأيتُ في الآماق دَعْوَةَ نُوحِ

نطقتْ، بما يخفيه قلبي، أدمعي ... ولطالما صَمَتَتْ عن التصريح

عجبًا لأجفاني حَمَلْنَ شهادةً ... عن خافتٍ بين الضلوع جريح

ولقلّما كتبتْ رُوَاةُ مدامعي ... في صفحتيها[5] حِلْية التجريح

---

(١) اليراعة هنا: القلم.

(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٦٢ ـ ٤٦٤).

(٣) الفِيْحُ: الواسعة، واحدها فَيْحاء وأفيح.

(٤) في الإحاطة: «بالفلاة».

(٥) في الإحاطة (ص ٤٦٣): «في طُرَّتيها».

جاد[1] الحِمى بعدي وأجراعَ الحمى ... جَـوْدٌ تـكـلُّ بـه مـتـونُ الـريـح
هُـنَّ الـمـنـازلُ، ما فـؤادي بـعـدهـا ... سـالٍ، ولا وجـدي بـهـا بـمـريـح
حسبي وَلُوعًا أنْ أزورَ بفكرتي ... زُوّارهـا والـجـسـمُ رهـنُ نُـزوح
فأبُثُّ فيها من حديثِ صبابتي ... وأحثُّ فيها من جناح جُنوحي
ودُجُنَّةٍ كادتْ تضلُّ بها السُّرى[2] ... لـولا وَمِـيـضَـا بـارقٍ وصـفـيـح
رعشتْ[3] كواكبُ جوِّها فكأنها ... وَرِقٌ تُـقَـلِّـبُـهـا بـنـانُ شَـحِـيـحِ
صابرتُ منها لُجّةً مهما ارتمتْ ... وطَمَتْ رميتُ عُبَابَها بِسَبُوحِ
حتى إذا الكَفُّ الخضيبُ بأُفقها ... مـسـحـتْ بوجه لـلصباح صَبيحِ
شمتُ المنى وحمدتُ إدلاجَ السُّرى ... وزجـرتُ لـلآمـال كـلَّ سَـنـيـح
فكأنما ليلي نسيبُ قصيدتي ... والصبحُ فيه تخلُّصي[4] لمديح
لَمَّا حَطَطْت لخيرِ من وطىء الثَّرَى ... بـعِـنـان كـلِّ مـولَّـدٍ وصـريـح
رَحْـمى إلـه الـعـرشِ بـيـن عـبـادِهِ ... وأمـيـنِهِ الأرْضَى عـلـى ما يـوحـي
والآيـةُ الـكـبـرى الـتـي أنـوارُهـا ... ضـاءتْ أشـعّتُهـا بـصـفـحـة يُوحِ[5]
ربُّ المقال[6] الصِّدْقِ والآيِ التي ... راقـتْ بـهـا أوراقُ كـلِّ صـحـيـح
كهف[7] الأنام إذا تفاقم مُعْضِلٌ ... مَـثَـلُـوا بـسـاحـةِ بـابِـهِ الـمـفـتـوحِ
يَـرِدُون مـنـه عـلـى مَـثـابـةِ راحِـم ... جَمِّ الهِبَاتِ عن الذنوب صَفوحِ
لهفي على عُمْرٍ مضى أنْضَيْتُهُ ... في مـلـعـبٍ لـلـتُّـرهـات فـسـيـح[8]
يا زاجرَ الوَجْناء يَعْتَسفُ الفَلاَ ... والـلـيـلُ يَـعْـثُـرُ في فضول مُسُوحِ
يَصِلُ السُّرى سبقًا إلى خير الورى ... والـرَّكْـبُ بـيـن مُـوَسَّـد وطـريـح

---

(١) في الإحاطة: «أجاد»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٢) في الإحاطة: «بني الشرى».
(٣) في الإحاطة: «وعشت».
(٤) في المصدر نفسه: «تخلّص».
(٥) يوح: اسم الشمس. محيط المحيط (يوح).
(٦) في الإحاطة: «المقام».
(٧) في الإحاطة: «كيف».
(٨) أَنْضَيْتُهُ: اخْتَبَرْتُهُ. التُّرَّهات: الأباطيل، واحدها تُرَّهَة. محيط المحيط (نَضا) و (تره).

لي في حمى ذاك الضَّريح لُبانةٌ إن أصبحتْ لُبْنَى أنا ابن ذَرِيحِ[1]

ويمهبطِ الروح الأمينِ أمانةٌ اليُمْنُ فيها والأمانُ لِرُوحي

يا صفوةَ اللَّهِ المَكِينَ مكانُهُ يا خيرَ مؤتمن وخيرَ نصيح

أَقْرَضْتُ فيك اللَّه صِدْق محبّتي أيكونُ تَجْرِي فيك غيرَ ربيح

حاشا وكلاً أن[2] تخيبَ وسائلي أو أن أرى مَسْعاي غير نجيح

إنْ عاقَ عنك قبيحُ ما كَسَبَتْ يدي يومًا فوجْهُ العفوِ غيرُ قبيح

واخجلتي من خَلبة الفكر التي[3] أغريْتُها بغراميَ المشروح

قَصَرَتْ خُطاها بعد ما ضمّرتها من كلّ موفورِ الجِمام جَمُوحِ

مَدَحَتْكَ آياتُ الكتابِ فما عسى يُثْني على عَلْياكَ نظمُ مديحي

وإذا كتابُ اللَّه أثنى مُفْصِحًا كان القُصُور قُصارَ كلِّ فصيح

صلّى عليك اللَّه ما هَبَّتْ صَبًا فَهَفَتْ بغصنٍ في الرياض مَرُوحِ

واستأثر الرحمنُ جَلَّ جلاله عن خلقِهِ بخفيِّ سِرِّ الروح

وأنشدتُ السلطانَ مَلِكَ المغرب ليلةَ الميلاد الأعظم من عام ثلاثة وستين وسبعمائة هذه القصيدة[4]: [الطويل]

تألَّقَ نَجْدِيًّا فأذْكَرَنِي نَجْدَا وهاجَ بي الشوقَ المبرِّحَ والوَجْدَا

وَميضٌ رأى بُرْدَ الغمامةِ مُغْفلاً[5] فمدَّ يَدًا بالتِّبْر أعلمتِ البَرْدا

تَبَسَّمَ في بحريّةٍ[6] قد تَجهَّمَتْ فما بَذَلَتْ وَصْلاً ولا ضَرَبَتْ وَعْدا

وراوَدَ منها فاركًا قد تَنَعَّمَتْ فأهوى لها نَصْلاً وهدَّدها رَعْدا

وأغرى بها كَفَّ الغِلابِ فأصبحتْ ذَلُولاً ولم تسطعْ لإمرته ردّا

فَحُلَّتُها الحمراءُ من شَفَقِ الضحى نَضَاها وحلَّ المزنُ مِنْ جِيدها عِقْدا

لكَ اللَّه من بَرْقٍ كأنَّ وَميضَهُ يَدُ الساهر المقرورِ قد قَدَحَتْ زَنْدا

---

(١) لبنى: معشوقة ابن ذريح.

(٢) في الإحاطة (ص ٤٦٤): «أنت».

(٣) في الإحاطة: «واخجلتا من جلبة الفكر التي».

(٤) الإحاطة (ج ٤ ص ٤٦٥ ـ ٤٦٩).

(٥) في الإحاطة: «معقلاً».

(٦) في الإحاطة: «في مجرّية». والبحرية: صفة للسحابة.

تعلَّمَ من سكانه شِيَمَ الندى | فغادر أجراعَ الحِمَى روضةً تَنْدَى
وتوَّجَ من نوّارها قُنَنَ[1] الرُّبا | وخَتَّم من أزهارها القُضُبَ المُلْدَا
لسرعانَ ما كانتْ مناسِفَ للصَّبا | فقد ضحكت زَهرًا وقد خجلتْ وَرْدا
بلادٌ عهدنا في قرارتها الصّبا | يقلُّ لذاك العهد أن يألفَ العهدا
إذا ما النسيمُ اعتلَّ في عَرَصاتها | تناولَ فيها البانَ والشِّيحَ والرَّندا
فكم في مجاني وِرْدها من علاقةٍ | إذا ما اسْتُثيرتْ أرضها أنبتت وَجْدا
إذا استشعرتْهَا النفسُ عاهدتِ الجَوَى | إذا الْتَمَحَتْها العينُ عاقدتِ السُّهدا
ومن عاشقٍ حُرٍّ إذا ما استماله | حديثُ الهوى العذريِّ صَيَّره عَبْدا
ومن ذابلٍ يحكي المحبِّين رقَّةً | فيثني إذا ما هبَّ عَرْفُ الصَّبا قَدّا
سقى اللّه نَجْدًا ما نضحتُ بذكرها | على كبدي إلاَّ وَجَدْتُ لها بَرْدا
وآنسَ قلبي فهو للعهدِ حافظ | وقَلَّ على الأيام مَنْ يحفظ العهدا
صبورٌ وإن لم يَبْقَ إلاَّ ذبالةٌ | إذا استقبلتْ مسرى الصَّبا اشتعلتْ وَقْدا
صبورٌ إذا الشوقُ استجادَ كتيبةً | تجوسُ خلالَ الصبر كان لها بَنْدَا
وقد كنت جَلْدًا قبل أن يُذْهب النوى | ذَمائي وأن يستأصلَ العظمَ والجلدا
أأجحدُ حقَّ الحبِّ والدمعُ شاهدٌ | وقد وقع التسجيلُ من بعد ما أَدَّى
تناثر في إثر الْحُمُول فريدُهُ[2] | فللّه عينا من رأى الجوهرَ الفَرْدا
جرى يَقَقًا في ملعبِ الخدِّ[3] أشهبًا | وأجهده ركضُ الأسى فجرى وَرْدَا
ومُرْتحلٍ أجريتُ دَمْعِيَ خَلْفَهُ | ليرجعه فاسْتَنَّ في إثْرِهِ قصدا
وقلتُ لقلبي طِرْ إليه برقعتي | فكانَ حمامًا في المسير بها هَدّا
سرقتُ صُوَاعَ العزمِ يومَ فراقه | فلجَّ ولم يرقبْ سُوَاعًا[4] ولا وُدّا
وكَحَلْتُ عيني من غُبارِ طريقه | فأعْقَبَها دمعًا وأورثها سهْدا
إلى[5] اللّه كم أُهْدى بنجدٍ وحاجرٍ | وأُكْنى بدعدٍ في غراميَ أو سُعْدَى

(١) القُنَنُ: جمع قنة وهي أعلى مكان في الجبل، وأراد بها هنا: المرتفعات. لسان العرب (قنن).
(٢) الحُمُول: الهوادج أو الإبل عليها الهوادج، الواحد حِمْل، والمراد هنا الأحباب الذين على الهوادج. محيط المحيط (حمل).
(٣) في الإحاطة (ص ٤٦٦): «الجدّ».
(٤) في الإحاطة: «صواعًا».
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٥٢): «اليَ اللّه كم أهذي بنجدٍ...».

وما هو إلاّ الشوقُ ثارَ كمينُه ... فأذهل نفسًا لم تُبِنْ عنده قَصْدا

وما بيَ إلاّ أن سَرَى الركب مُوهِنًا ... وأعمل في رملِ الحِمى النَّصَّ والوَخْدا

وجاشتْ جنودُ الصَّبْرِ والبَيْنِ والأسى ... لديَّ فكان الصَّبرُ أضعفَها جُنْدا

ورُمْتُ نهوضًا واعتزمْتُ مودِّعًا ... فَصَدَّني المقدورُ عن وجهتي صَدًّا

رقيقٌ بَدَتْ للمشترين عيوبُهُ ... ولم تُلْتَفَتْ دعواه فاستوجبَ الرَّدَّا

تخلّف عنّي[1] ركبُ طيبةَ عانيًا ... أَمَا آن للعاني المُعَنَّى بأنْ يُفْدَى

مُخَلَّفُ سرْبٍ[2] قد أُصِيبَ جناحُه ... وطِرْنَ فلم يسطع مَرَاحًا ولا مغْدى

نشدتُكَ يا ركبَ الحجاز، تضاءلت ... لك الأرضُ مهما استعرض السَّهْبُ وامْتَدَّا

وجَمَّ لك المرعى وأذعنتِ الصُّوَى ... ولم تفتقد ظلاًّ ظليلاً ولا وِرْدا

إذا أنتَ شافهتَ الديارَ بطيبةٍ ... وجئتَ بها القبرَ المقدَّسَ واللحدا

وآنسْتَ نورًا من جنابِ محمدٍ ... يُجَلِّي القلوبَ الغُلْفَ[3] والأعينَ الرُّمْدا

فَنُبْ عن بعيدِ الدارِ في ذلك الحمى ... وأذْرِ بهِ دمعًا وعَفِّرْ به خَدّا

وقُلْ يا رسولَ اللّه عبدٌ تقاصرتْ ... خُطاهُ وأضحى مِنْ أحبَّتِهِ فَرْدَا

ولم يستطعْ من بَعْد ما بَعُدَ المدى ... سوى لوعةٍ تعتاد أو مِدْحةٍ تُهْدَى

تداركْهُ يا غوثَ العِباد برحمةٍ ... فجودُك ما أجدى وكفُّك ما أندى

أجار بك اللّه العِبادَ من الرّدى ... وبَوَّأهم ظلاًّ من الأمنِ مُمْتَدَا

حمى دينُكَ الدنيا وأَقْطَعَك الرِّضا ... وتَوَّجك العليا وأَلْبَسَكَ الحَمْدا

وطَهَّر منكَ القلبَ لمَّا استخصّه ... فجلَّلَهُ نورًا وأوسَعَهُ رُشْدا

دعاهُ فما ولَّى، هَداه فما غَوَى ... سقاه فما يظما، جلاه فما يَصْدَا

تقدَّمتَ مختارًا، تأخَّرت مبعثًا ... فقد شملتْ علياؤك القَبْلَ والبَعْدَا

وعلّةُ هذا الكونِ أنت، وكلُّ ما ... أعاد فأنتَ[4] القصدُ فيه وما أَبْدا

وهل هو إلاّ مظهرٌ أنتَ سِرُّهُ ... ليمتاز في الخَلْق المُكبُّ من الأهْدَى

ففي عالَمِ الأسرارِ ذاتُكَ تَجْتَلي ... ملامحَ نورٍ لاحَ للطُّور فانْهَدّا

---

(١) في الطبعة نفسها: «منّي».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٧٩): «سربي».

(٣) في الإحاطة: «الغُلق».

(٤) في الإحاطة (ص ٤٦٧): «وأنت».

وفي عالم الحسّ اغتديتَ مُبَوّأً ... لِتَشْفي من استشفى وتَهْدي من اسْتَهْدى
فما كنتَ لولا أن ثبتَّ[1] هدايةً ... من اللّه مثل الخلق رسمًا ولا حدّا
فماذا عسى يُثْني عليك مُقَصِّرٌ ... ولم يألُ فيك الذكرُ مدحًا ولا حمدا[2]
بماذا عسى يجزيك هاوٍ على شَفًا ... من النار قد أوردته[3] بعدها الخُلْدا
عليكَ صلاةُ اللّه يا كاشفَ العَمَى ... ومُذْهِبَ ليل الروعِ[4] وهو قد ازْبَدّا
إلى كم أراني في البطالةِ كانعًا ... وعمريَ قد ولّى، ووزريَ قد عدّا
تقضّى زماني في لعلّ وفي عَسَى ... فلا عزمةٌ تمْضي ولا لوعة تَهْدَا
حُسامُ جبانٍ كلّما شِيمَ نَصْلُهُ ... تراجعَ بعد العَزْم والتزمَ الغِمْدا
ألاَ ليت شعري هل أرانيَ ناهدًا ... أقودُ القلاص البُدْنَ والضّامرَ النَّهْدا
رضيع لبان الصّدق فوق شِمِلّة ... مُضَمَّرةٍ وُسّدْتُ من كورها مَهْدا[5]
فتُهدى بأشواقي السراةَ إذا سَرَتْ ... وتُحْدى بأشعاري[6] الركابُ إذا تُحْدَى
إلى أن أحُطَّ الرّحلَ في تربك الذي ... تَضَـوَّعَ نَدًا ما رأينا له نِدّا
وأُطفىءَ في تلك الموارد غُلّتي ... وأحْسِبَ قُرْبًا مُهْجةً شَكَتِ البُعْدا
لمولدك[7] اهتزَّ الوجودُ فأشرقتْ ... قصورٌ بِبُصْرَى ضاءت الهَضْبَ والوَهْدا
ومن رُعْبه الأوثانُ خَرَّتْ مهابةً ... ومن هوله إيوانُ كسرى قد انهدّا
وغاض له الوادي وصبَّحَ عزَّهُ ... بيوتًا لنارِ الفرسِ أعدمها الوَقْدَا
رعى اللّه منها ليلةً أطلع الهدى ... على الأرضِ من آفاقها القمرَ السَّعْدا
وأقرضَ مُلْكًا قام فينا بحقِّها ... لقد أحرز الفخرَ المؤثَّل والمجدا
وحَيًّا على شطِّ الخليج محلّةً ... يحالف من ينتابها العِيشَةَ الرَّغْدا
وجاد الغمامُ العِدُّ فيها خلائفًا ... مآثرهم لا تعرفُ الحصرَ والعدّا

---

(١) في الإحاطة: «بُثّتْ».

(٢) في الإحاطة: «فما عسى. . فيك اللّه شكرًا ولا حمدا».

(٣) في المصدر نفسه: «قد أسكنته».

(٤) في المصدر نفسه: «ليل الشّرْك».

(٥) في الإحاطة (ص ٤٦٨): «فوق شمله». والشملة: الناقة السريعة. والكور: الرحل، يريد أنه جعل كورها مهدًا ينام عليه. لسان العرب (شمل) و (كور).

(٦) في الإحاطة: «بأشعار».

(٧) في المصدر نفسه: «بمولدك».

عليًّا وعثمانًا ويعقوب، لا عدا رضا اللّه ذاك النجلَ والأبَ والجدا
حَمَوا وهُمُ في حومة البأس والندى فكانوا الغيوثَ المُسْتَهِلَّةَ والأُسْدا
وللّه ما قد خلَّفوا من خليفةٍ حَوَى الإرْثَ عنهمْ والوصيَّةَ والعَهْدا
إذا ما أراد الصَّعْبَ أغرى بِنَيْله صدورَ العوالي والمطَهَّمةَ الجُرْدا
وكم مُعْتَدٍ أردى وكم تائهٍ هَدَى وكم حكمةٍ أخفى وكم نعمة أبدى
أبا سالمٍ، دينُ الإله بك اعتَلَى أبا سالم، ظِلُّ الإلهِ بك امتَدًا
فَدُمْ من دفاع اللّه تحتَ وقايةٍ كفاك بها أن تسحبَ الحلَقَ السَّرْدَا
ودونكها مني نتيجةَ فكرةٍ إذا استرشحت للنظم كانت صَفًا صلدا
ولو تركتْ مني الليالي صُبابةً لأجهدْتُها رَكْضًا وأرهقْتُها شَدًّا
ولكنه جَهْدُ المُقِلِّ بَلَغْتُهُ[1] وقد أوضحَ الأعذارَ مَنْ بَلَغَ الجَهْدا

وقلت أخاطب السلطان الملك الكبير العالم أبا عِنان على أثر انصرافي[2] من بابه رحمه اللّه تعالى[3]: [الكامل]

أبْدَى لداعِي الفَوز وَجْهَ مُنيبِ وأفاقَ من عَذْلٍ ومن تأنيبِ
كَلِفُ الجنان إذا جرى ذكْرُ الحِمى والبانِ حَنَّ له حنينَ النِّيب[4]
والنفسُ لا تنفكُّ تَكْلَفُ بالهوى والشَّيبُ يلحظُها بعين رقيب
رحلَ الصِّبا فطرحْتُ في أعقابه ما كان من غَزَلٍ ومن تَشْبيب
أترى التغزُّل بعد أن ظَعَنَ الصِّبا شأني الغداةَ أو النسيبَ نسيبي[5]
أنّى لمثلي بالهوى من بعد ما للوَخْط في الفَودين أيُّ دبيب
لبسَ البياضَ وحَلَّ ذِرْوةَ مِنْبرٍ منِّي ووالى الوَعْظَ فِعْلَ خطيب
قد كان يسترني ظلامُ شبيبتي والآنَ يفضحني صباحُ مشيبي[6]

---

(١) في الإحاطة (ص ٤٦٩): «المقلّ على الثوى».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٥٥): «انصرافه».
(٣) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٧٣ ـ ٤٧٩).
(٤) النِّيبُ: جمع ناب وهو الناقة المسنّة، وهي مضرب المثل في الحنين.
(٥) في الإحاطة (ص ٤٧٤): «نسيب».
(٦) في الإحاطة: «مشيبِ».

وإذا الجديدانِ[1] استجدَّا أبْلَيا من لبسةِ الأعمارِ كلَّ قشيب
سَلْني عن الدهر الخؤونِ وأهلِهِ تَسَلِ المهلَّبَ عن حروبِ شَبِيب[2]
مُتَقَلِّبُ الحالات فاخْبُرْ تَقْلُهُ مهما أعدتَ يدًا إلى تقليب
فكِلِ الأمورَ إذا اعترتْكَ لربِّها ما ضاقَ لُطْفُ الرَّبِّ عن مَرْبُوب
قد يَخْبَأُ المحبوبَ في مكروهها مَنْ يَخْبَأُ المكروهَ في المحبوب
واصبرْ على مَضَضِ الليالي إنها لَحواملٌ سَيَلِدْنَ كلَّ عجيب
واقْنَعْ بحظٍّ لم تَنَلْهُ بحيلَةٍ ما كلُّ رامٍ سَهْمُهُ بِمُصيب
يقع الحريصُ على الردى ولكم غدا تَرْكُ التسبُّب أنفعَ التسبيب
مَنْ رامَ نَيلَ الشيءِ قبل أوانِهِ رامَ انتقالَ يَلَمْلَمٍ[3] وعَسيبِ
فإذا جعلتَ الصبرَ مفزعَ مُعْضِلٍ عاجلْتَ علَّتَهُ بطبِّ طبيبِ
وإذا استعنتَ على الزمان بفارس[4] لَبَّى نداءك منه خيرُ مجيبِ
بخليفة اللَّه الذي في كَفِّه غَيثٌ يروِّضُ ساحَ كلِّ جديب
المنتقى من طينةِ المجدِ الذي ما كان يومًا صِرْفُه بمَشُوب
يرمي الصِّعابَ بصعبه[5] فيقودها ذُلُلاً على حَسَبِ الهوى المرغوب
ويرى الحقائقَ من وراءِ حجابِها لا فَرْقَ بين شهادةٍ ومَغِيبِ
من آلِ عبد الحقِّ حيثُ توشّحتْ شُعَبُ العُلا ورَبَتْ بأيِّ كثيب
أُسْدُ الشَّرى سُرُجُ الورى فمقامهم لِلَّه بين محاربٍ وحُروب
إمَّا دَعَا الداعي وثوّبَ صارخًا ثابوا وأَمُّوا حَومَةَ التثويب
شهبٌ ثواقبُ في سماءِ[6] عَجاجَةٍ مأثورها قد صحَّ بالتجريب
ما شئتَ في آفاقها من رامحٍ يبدو وكفٍّ بالنجيع خَضِيبِ
عجبتْ سيوفُهُمُ لشدّة بأسهم فتبسَّمتْ والجوُّ في تقطيب

---

(١) الجديدان: الليل والنهار. القاموس المحيط (جدد).

(٢) المهلب: هو المهلب بن أبي صفرة، الذي قاتل الخوارج في عهد عبد الملك. شبيب: هو أحد زعماء الخوارج.

(٣) في الإحاطة: «بِلَمْلَم».

(٤) فارس: هو السلطان أبو عنان.

(٥) في الإحاطة (ص ٤٧٥): «بسعده».

(٦) في الإحاطة: «والسماء».

نُظموا بلَبَّاتِ العُلا واسْتَوْسقوا ... كالرُّمح أُنبوبًا على أُنبوب
تَرْوي العوالي والمعالي[1] عنهمُ ... أَثَرَ الندى المولودِ والمكسوب
مِنْ[2] كلِّ موثوقٍ به إسنادُه ... بالقَطْعِ أو بالوضعِ غير معيب
فأبو عنان عن عليّ نَصُّهُ ... للنقلِ عن عثمانَ عن يعقوب
جاءوا كما اتَّسَقَ الحسابُ أصالةً ... وغدوا فذالِكَ ذلك المكتوب[3]
مُتَجَسِّدًا من جَوهَرِ النور الذي ... لم تُرْمَ يومًا شمسُه بغروب
متألِّقًا من مطلعِ الحقِّ الذي ... هو نورُ أبصارٍ وسرُّ قلوب
قُلْ للزمانِ وقد تبسَّمَ ضاحكًا ... من بَعْدِ طولِ تجهُّمٍ وقطوبِ
هي دعوةُ الحَقِّ التي أوضاعُها ... جَمَعَتْ من الآثارِ كلَّ غريبِ
هي دعوةُ العدلِ الذي شمل الورى ... فالشاةُ لا تخشى اعتداءَ الذيب
لو أنَّ كسرى الفُرْسِ أدرك فارسًا ... ألقى إليه بتاجِهِ المَغْصُوب
لمّا حللتُ بأرضِهِ مستمليًا[4] ... ما شئتَ من برّ ومن ترحيبِ
شمل الرِّضا فكأنَّ كلَّ أقاحَةٍ ... تُومي بثغرٍ للسلام شَنِيبِ
وأتيتُ في بحر القِرى أُمَّ القرى ... حتى حَطَطْتُ بمرفَإِ التقريب
فرأيتُ أمْنَ اللّه في[5] ظلِّ التُّقى ... والعدلِ تحت سُرادقٍ مَضروب
ورأيتُ سيفَ اللّه مَطْرورَ الشَّبا[6] ... يمضي القضاءُ بحدِّه المرهوب
وشهدتُ نور الحقِّ ليس بآفلٍ ... والدِّينَ والدنيا على ترتيب
ووردتُ بحرَ العلمِ يقذفُ مَوْجُهُ ... للناس مِنْ دُرَرِ الهدَى بضُروب
للّه مِنْ شِيَمٍ كأزهارِ الرُّبا ... غِبَّ انثيالِ العارضِ المسكوب
وجمالِ مرأًى في رِداء مَهابة ... كالسيفِ مصقولِ الفِرِنْد مهيب

---

(١) في المصدر نفسه: «في المعالي».
(٢) في المصدر نفسه: «عن كلّ».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٥٦): «وغدا فذالك». والفذالك: جمع فذلكة وهي محصّل الحساب. محيط المحيط (فذلك).
(٤) في الإحاطة (ص ٤٧٦): «متملّيًا».
(٥) في المصدر نفسه: «من ظلّ».
(٦) المطرور: المشحوذ؛ يقال: طرّ السكينَ إذا شحذها وحدّدها. الشبا: جمع شباة وهي الرمح. لسان العرب (طرر) و (شبا).

يا جنّةً فارقتُ من غُرفاتها دارَ القرار بما اقتضته ذنوبي
أسفي على ما ضاعَ من حَظّي بها لا تنقضي تَرَحَاتُهُ ونحيبي
إن أشرقتْ شمسٌ شرقتْ بِعَبْرتي وتفيضُ في وقتِ الغروبِ غروبي
حتى لقد عَلَّمْتُ ساجعةَ الضحى شَجْوي وجانِحَةَ الأصيل شحوبي
وشهادةُ الإخلاص توجبُ رَجْعتي لنعيمها من غير مَسِّ لُغوب
يا ناصرَ الدين الحنيفِ وأهْلَهُ أنضاءُ مَسْغَبَةٍ وفَلُّ خطوب
حَقِّقْ ظنونَ بنيهِ فيكَ فإنهمْ يَتَعَلَّلُونَ بِوَعْدِكَ المرقوب
ضاقتْ مذاهبُ نصرهمْ فتعلّقوا بجناب عِزٍّ مِنْ عُلاكَ رحيب
ودَجَا ظلامُ الكُفْر في آفاقهم أوَلَيْسَ صُبْحُكَ منهمُ بقريب[1]
فانظرْ بعينِ العزِّ مِنْ ثَغْرٍ غَدَا حَذَرَ العِدا يرنو بطرفِ مُريب
نادتْكَ أندلسٌ ومَجْدُكَ ضامنٌ أنْ لا يخيبَ لديك ذو مطلوب[2]
غَصَبَ العدوُّ بلادَها وحُسامك الـ ماضي الشَّبا مُسْتَرجعُ المَغْصُوب
أرضِ السوابحَ في المجاز حقيقةً من كلِّ قعدةِ مُحْرَبٍ وجنيب[3]
يتأوَّدُ الأسَلُ المثقَّفُ فوقَها وتُجيبُ صاهلةٌ رغاءَ نجيب[4]
والنصرُ يُضحكُ كلَّ مَبْسَمِ غرّة واليُمْنُ[5] مَعْقُودٌ بكلِّ سَبيبِ
والرومُ فارْمِ بكلِّ نجمٍ ثاقبٍ يُذكي بأربعِها شُوَاظَ لهيب
بذوابلِ[6] السُّلُبِ التي تركتْ بني زيّانَ بين مُجَدَّلٍ وسليب
وأضِفْ إلى لام الوغى أَلِفَ القنا تَظْهَرْ لديك علامةُ التغليب
إن كنتَ تعجُمُ بالعزائمِ عُودَها عودُ الصليبِ اليومَ غيرُ صليب
ولكَ الكتائبُ كالخمائلِ أطلعتْ زهرَ الأسنَّةِ فوق كلِّ قضيب

---

(١) أخذ عجز البيت من قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾. سورة هود ١١، الآية ٨١.

(٢) في الإحاطة (ص ٤٧٧): «تخيب لديك في مطلوب».

(٣) في الإحاطة: «أرها السوابح... بمخرب وجنيب».

(٤) الأسل: الرماح. المُثَقَّفُ: المقوّم المعدّل. الصاهلة: الخيل. لسان العرب (أسل) و (ثقف)؛ و (صهل).

(٥) في الإحاطة: «والفتح».

(٦) في الإحاطة: «بذمايل».

فَمُرَنَّحُ العِطْفين لا من نشوةٍ ... ومورَّدُ الخدَّينِ غيرُ مُريب

يبدو سدادُ الرأي في راياتها ... وأُمورها تجري على تجريب

وترى الطيورَ عصائبًا من فوقها ... لحلولِ يومٍ في الضلالِ عصيب

هذَّبتها بالعرض يُذْكِرُ يومُهُ ... عَرْضَ الورى للموعدِ المكتوب

وهي الكتائبُ إن تُنُوسيَ عَرْضُها ... كانت مُدَوَّنَةً بلا تهذيبِ[1]

قَدُمَتْ سالبةَ العدوّ وبعدها ... أُخرى بعزِّ النصرِ ذاتَ وجوب[2]

حتى إذا فرضَ الجلادُ جدالَه[3] ... ورأيتَ ريحَ النصر ذاتَ هُبوب

وإذا توسّط وصلُ[4] سيفك عندها ... جُزأَيْ قياسِك فُزْتَ بالمطلوب

وتبرَّأَ الشيطانُ لمّا أنْ علا ... حِزْبُ الهدى من حزبه المغلوبِ

الأرضُ إرْثٌ والمطامِعُ جَمَّةٌ ... كلٌّ يَهَشُّ إلى التماسِ نَصيب

وخلائفُ التَّقْوَى هُمُ ورّاثُها ... فإليكها بالحظّ والتَّعْصيب

لكأنني بكَ قد تركتَ ربوعَها ... قفرًا بكرِّ الغَزْو والتعقيب[5]

وأقمتَ فيها مأتمًا لكنه ... عِرْسٌ لنسرٍ بالفلاة وذِيب

وتركتَ مُقْلِتَها بقلبٍ واجِبٍ ... رَهَبًا وخدّ بالأسى مندوب[6]

تبكي نوادبها وينقلْنَ الخُطا ... من شِلْوِ طاغيةٍ لِشِلْوِ سليب[7]

جعلَ الإلهُ البيتَ منكَ مَثابَةً ... للعاكفينَ وأنتَ خيرُ مُثيب

فإذا ذكرتَ كأنَّ هَبَّاتِ الصَّبا ... قَضَتْ بمدرجها لَطِيمةَ[8] طِيب

لولا ارتباطُ الكون بالمعنى الذي ... قَصُرَ الحِجا عن سرِّه المحجوب

قُلْنا لعالمكَ الذي شرَّفته ... حَسَدَ البسيطُ مزيَّةَ التركيب

---

(١) يشير إلى المدونة في الفقه المالكي، وإلى تهذيب المدونة للبرادعي.

(٢) ترتيب هذا البيت في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٥٨) بعد البيت الذي يليه. وفي هذا البيت والذي قبله إشارات إلى المصطلح المنطقي.

(٣) في الإحاطة (ص ٤٧٨): «جلادة».

(٤) في المصدر نفسه: «نَصْلٌ».

(٥) التعقيب: العودة ثانية. لسان العرب (عقب).

(٦) واجبٌ: خافقٌ مضطرب. مندوب: مجروح. لسان العرب (وجب) و (ندب).

(٧) في الإحاطة: «صليب».

(٨) اللطيمة: وعاء الطِّيب أو قافلة تحمل طيوبًا. لسان العرب (لطم).

ولأجلِ قُطْرِكَ شمسُها ونجومُها | عدلتْ من التشريق للتغريب
تبدو بمطلع أُفْقِها فِضيَّةً | وتغيبُ عندك[1] وهي في تذهيب
مولايَ، أشواقي إليكَ تهزُّني | والنارُ تفضحُ عَرْفَ عودِ الطِّيب
بِحُلَى عُلاكَ أطلْتُها وأطبْتُها | ولكم مُطيلٍ وهو غيرُ مُطِيب
طالبتُ أفكاري بفرضِ بديهها | فَوَفَتْ بشرطِ الفَوْرِ والتَّرْتيب
متنبيء[2] أنا في حُلَى تلك العُلا | لكنَّ شعري فيكَ شعرُ حبيب
والطبع[3] فحلٌ، والقريحةُ حُرَّةٌ | فاقْبَلْهُ بين نجيبة ونجيب
هابَتْ مقامكَ فاطَّبَيْتَ[4] صعابها | حتى غَدَتْ ذُلُلاً على التَّدْريب
لكنني سَهَّلْتُها وأَذَلْتُها | مِنْ كلِّ وحشيّ بكلِّ رَبيب[5]
إن كنتُ قد قاربتُ في تَعْديلها | لا بُدَّ في التَّعديل من تقريبِ[6]
عُذْري لتقصيري وعجزي ناسخٌ | ويجلُّ منكَ العفوُ عن تَثْريب
مَنْ لم يَدِنْ للّه فيكَ بِقُرْبةٍ | هو من جنابِ اللّهِ غيرُ قريب

ولَمَّا احتفل السلطان لإعذار[7] ولده نظمتُ هذه القصيدة مساعدة لمن نظم من الأصحاب، وتشتمل على أوصافٍ من ذكر الحلبة التي أرسلها، والطلبة التي نصبها في الهواء للفرسان يرسلون العصيّ إليها، والثيران التي أرسل عليها الأكلب الرومية تمسكها في صورة القرط من آذانها، وهي آخر النظم في الأغراض السلطانية، قصر اللّه تعالى ألسنتنا على ذكره، وشغلها به عن غيره![8]: [الطويل]

شَحَطْتُ وفَوْدُ الليل بَانَ به الوَخْطُ[9] | وعَسْكَرُهُ الزنجيُّ هَمَّ به القبْطُ

(١) في الإحاطة: «عنك».
(٢) في الإحاطة: «مُتَنَبِّىءٌ».
(٣) في المصدر نفسه: «الطبع».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٨٦): «فاطنيت».
(٥) الوحشيّ: أي اللفظ الوحشيّ. الربيب: المربوب، أي المألوف. لسان العرب (وحش) و (ربب).
(٦) التعديل والتقريب مصطلحا الحساب والفلك.
(٧) الإعذار: مصدر أعذر؛ يقال: عذر الغلامَ وأعذره إذا ختنه. محيط المحيط (عذر).
(٨) القصيدة في الإحاطة (ج ٤ ص ٤٧٩ - ٤٨٣).
(٩) شَحَطْتُ: نأَيْتُ. الفَوْدُ: معظم شعر الرأس. الوخط: الشيب. لسان العرب (شحط) و (فود) و (وخط).

أتاهُ وليدُ الصُّبحِ من بعد كَبْرةٍ — أَيُولَدُ أَجْنَى[1] ناحِلُ الجسم مُشْمَطُّ
كأنَّ النجومَ الزُّهْرَ أعشارُ سَورةٍ — ومن خَطَراتِ الرَّجم أثناءها مَطُّ
وقد وردتْ نهرَ المجرَّةِ سَحْرَةً — غوائصَ فيه مثل ما تفعلُ البَطُّ
وقد جعلتْ تَفْلي بأَنْمُلِها الفَلاَ — ويرسلُ منها في غدائره مِشْط[2]
يشفُّ عُبابُ الليلِ عنها جواهرًا[3] — فيكثرُ فيها النَّهْبُ للحينِ واللُّقْط
فسارتْ[4] خيالاً مثلها، غير أنه — من البثِّ والشكوى يَبينُ له لَغْطُ
سَرَتْ سَلْخَ شهرٍ في تَلَفُّتِ مقلةٍ — على قَتَبٍ[5] الأحلامِ تسمو وتَنْحَطُّ
لَيَ اللّه مِنْ نَفْسٍ شَعَاعٍ ومُهْجةٍ — إذا قُدِحَتْ لم يَخْبُ من زندها سَقْطُ
ونُقْطةِ قلبٍ أصبحتْ مَنْشَأَ الهوى — وعن نُقْطةٍ مَفْروضةٍ ينشأ الخَطُّ[6]
فأُقْسِمُ لولا زاجرُ الشَّيْب والنُّهى — ونَفْسٌ لغير اللّه ما خضعتْ قطُّ
لريع لها الأحراسُ منّي بطارقٍ — مَفَارِقُهُ شُمْطٌ وأسيافُهُ شُمْطُ
تناقله كَوماءُ[7] سامِيَةُ الذُّرا — ويَقْذِفُهُ شهمٌ من النُّيق مُنْحَطُّ
ولولا النُّهى لم تَسْتَهِنْ[8] سُبُلَ الهدى — وكاد وِزانُ الحَقِّ يُدْرِكُهُ الغَمْطُ
ولولا عَوادي الشَّيْبِ لم يَبْرَحِ الهوى — يُهَيِّجه نوءٌ على الرَّمْل مُخْتَطُّ
ولولا أميرُ المسلمينَ محمدٌ — لهالتْ بحارُ الرَّوع واحْتجبَ الشَّطُّ
ينوبُ عن الإصباح إنْ مَطَلَ الدُّجى — ويَضْمَنُ سقي السَّرْحِ إنْ عَظُمَ القَحْطُ
تُقِرُّ له الأملاكُ بالشِّيَمِ العُلا — إذا بُذِلَ المعروفُ أو نُصِبَ القِسْطُ
أرادوه فارتَدُّوا وجاروه فانثنوا — وساموه في مَرْقى الجلالة فانحطّوا

---

(١) الأجنى والأجنأ: الأحدب؛ يقال: جنىء الرجل يجنأ إذا حَدِبَ. لغة في المهموز. محيط المحيط (جنىء) و (جنأ).
(٢) في الإحاطة: «بأنملها الدُّجى وتُرْسِلُ...».
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٦٠): «يجفُّ عُباب..». وفي الإحاطة (ص ٤٨٠): «يحفُّ عباب... جواهر».
(٤) في الإحاطة: «فعادتْ».
(٥) في المصدر نفسه: «على كتب».
(٦) يظهر ابن الخطيب شيئًا من معارفه في الهندسة، كما أظهر استخدامه لمعارفه في الشعر.
(٧) الكوماء: الناقة العالية السنام. لسان العرب (كوم).
(٨) في الإحاطة: «تَسْتَبِنْ».

تُبِرُّ على المُدّاحِ غُرُّ خِلالِه ... وما رسموا فوقَ الطُّرُوس وما خَطّوا[1]

تَعَلَّمَ منه الدهرُ حالَيْهِ في الورى: ... فآونةً يَسْخُو، وآونةً يَسْطو[2]

ويجمعُ[3] بين القبْض والبَسْط كَفُّه ... بحكمةِ مَنْ في كَفِّه القبضُ والبسط

خلائق قد طابَتْ مَذَاقًا ونَفْحَةً ... كما مُزِجَتْ بالباردِ العذبِ إسفنط[4]

أَسِبْطَ الإمام الغالبيِّ محمدٍ ... ويا فخرَ ملكٍ كنتَ أنتَ له سِبْط

وَقَتْكَ أواقي اللّهِ مِنْ كلِّ غائل ... فأيُّ سلاحٍ ما المجَنُّ وما اللَّمْطُ[5]

لقد زلزلتْ منكَ العزائمُ دولةً ... أناخَتْ على الإسلام تَجْني وتَشْتَطُّ

إيالَةُ غَدْرٍ ضَيَّعَ اللّهُ رُكْنَها ... ونادى بأهليها التَّبارُ فلم يُبْطُوا[6]

على قَدَرٍ جلّى بكَ اللّهُ بؤسها ... ولا يكملُ البُحْرانُ أو ينضجَ الخلط

وكانوا نَعِيمَ الجَنَّتَيْنِ تفيّأوا ... ولَمَّا يَقَعْ منها النزولُ ولا الهبْطُ[7]

فقد عُوِّضوا بالأَثْلِ والخمطِ بعدها ... وهيهاتِ أينَ الأثلُ منها[8] أو الخمطُ

فمن طائحٍ فوقَ العَراءِ مُجَدَّلٍ ... ومن راسفٍ في القَيْدِ أَرْهَقَهُ الضغطُ

وأتحفَ[9] منكَ اللّه أُمَّةَ أحمدٍ ... أمانًا كما يضفو على الغادة المِرْطُ

أنَمْتَ على مَهْدِ الأمانِ عيونها ... فَيُسْمَعُ من بعد السُّهاد لها غَطُّ

وضَمَّ صدى الدنيا فلمّا رَجِمْتَها ... تزاحَمَ مرتادٌ عليها ومُخْتَطُّ[10]

وأحكمتَ عَقْدَ السِّلم لم تألُ بعده ... وجاء فصحَّ العقدُ واستوثقَ الرَّبْطُ

وأيقنَ مرتابٌ، وأصحبَ نافرٌ ... وأذعنَ مُغْتاصٌ، وأَقْصَرَ مُشْتَطُّ

---

(١) في الإحاطة: «تبَرُّ على المداح... وما خَطُّ».

(٢) في الإحاطة: «يَسْطُ».

(٣) في المصدر نفسه (ص ٤٨١): «وتجمّع».

(٤) في المصدر نفسه: «اسقط». والإسْفنط: اسم للخمر. محيط المحيط (سفنط).

(٥) المجنُّ: التُّرس ونحوه. اللَّمْطُ: الدرق المنسوبة إلى لمطة إحدى قبائل المغرب، وهي جمع درقة، والدرقة هي الترس تصنع من جلود. لسان العرب (جنن) و (لمط).

(٦) في الإحاطة: «ضعضع اللّه... ونادى بأهلها... فلم يَبْطُ».

(٧) اعتمد هنا على قول اللّه تعالى: ﴿لقد كانَ لِسَبإٍ في مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنّتانِ عن يمينٍ وشمالٍ كُلُوا من رزقِ رَبِّكُمْ﴾. سورة سبأ ٣٤، الآية ١٥.

(٨) في الإحاطة: «منهم».

(٩) في المصدر نفسه: «وألحف».

(١٠) في الإحاطة: «ومختط» بالخاء المعجمة.

ولـلّـه مَـبْـنـاكَ الـذي مـعـجـزاتُـهُ ... سَمَتْ[1] أن توافيها الشِّفاهُ أو الخطُّ

وأنْسَتْ غريبَ الدارِ مسقطَ رأسه ... ومن دون فرخيهِ القتادةُ والخَرْطُ[2]

تناسبتِ الأوضاعُ فيك[3] وأَحْكَمَتْ ... على قَدَرٍ حتى الأرائكُ والبُسْطُ

فجاء على وفق العُلا رائقُ الحلى ... كما سُمْطَ المنظومُ أو نُظم السِّمْطُ

ولـلّـه إعـذارٌ دَعَـوْتَ لـه الـورى ... فهبُّوا لداعيه المَهيبِ وإن شطُّوا

تقودهمُ الزّلفى، ويدعوهمُ الرِّضا ... ويحدوهمُ الخصبُ المضاعَفُ والغبط

وأغريتَ بـالبـهـمِ العـلاجَ تـحـفِّيـا ... فلم يُدَّخر الشيءُ الغريبُ ولا السِّمْطُ[4]

أتت صورة[5] معلولة عن مِزاجها ... وأصل اختلاف الصورة المَزْجُ والخَلْطُ

قَضَيتَ بها دَين الزمان، ولم يزل ... أكدّ[6] كذوبَ الوعد يلوي ويَشْتَطُّ

وأرسـلـت يـوم الـسَّـبْـق كـلّ طِـمِـرَّةٍ ... كما قذف[7] الملمومةَ النارُ والنِّفْط

رَنَتْ عن كحيلٍ كالغزال إذا رنا ... وأَوْفَتْ بهادٍ كالظّليم إذا يَغطُو[8]

وقامتْ على منحوتة من زبرجد ... تخطُّ على الصُّم الصِّلاب إذا تخطو

وكـلُّ عـتـيـق مـن تـمـاثـل رومـة ... تأنّق في اَستخطاطه القسُّ والقُمْطُ

وطـاعـتـه نـحـر الـسُّـكـاك أعـانـهـا ... على الكون عِزقٌ واشجٌ ولحًى سِبْطُ

تَـلَـقَّـف حـيـاتِ الـعَـصى إذا هَـوَتْ ... فثعبانُها لا يستقيم[9] له سَرْطُ

أَزَرْتَ بـهـا بـحـر الـهـواءِ سـفـيـنـة ... على الجوِّ لا الجودي كان لها حطُّ

---

(١) في الإحاطة: «أبت».

(٢) القتادة: واحدة القتاد وهو شجر صلب له شوك كالإبر. وفي المثل: «من دونه خرط القتاد» أي إنَّ خرط القتاد أسهل أو إنه لا يُنال إلاَّ بمشقّة عظيمة. والخرط: نزع الشوك من الغصن باليد. محيط المحيط (قتد) و (خرط).

(٣) في الإحاطة: «فيه».

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ١٨٩): «وأغريت». والسمط: الخفيف الجسم. لسان العرب (سمط).

(٥) في الإحاطة: «صورًا».

(٦) في الإحاطة: «ألَدّ».

(٧) في المصدر نفسه: «كما تُرْسل».

(٨) في المصدر نفسه: «يُغط».

(٩) في المصدر نفسه: «يُسْتَتَمُّ».

وطاردْتَ مِقْدامَ الصُّوار بجارحٍ يُصابُ به منه الصِّماخُ أو الإبطُ[1]
متينُ الشَّوى في رأسه سَمْهَرِيَّةٌ مقصَرةٌ عنهنَّ ما يُنْبِتُ الخطُّ
وقد كان ذا تاجٍ فلمّا تعلَّقا بسامِعَتَيهِ زانَهُ منهما قُرط
وجيء بشبْلِ الملكِ يُنْجدُ عزمه عليه الحفاظُ الجَعْدُ والخلُقُ السَّبْطُ
سمحتَ به لم ترعَ فرطَ ضَنانةٍ وفي مثلها من سُنَّة يُترك القَرْطُ
فأقْدمَ مختارًا، وحَكَّم عاذِرًا ولم يشتمل مَسْكٌ عليه ولا ضَبْطُ
ولو غيرُ ذاتِ اللَّه رامته نَضْنَضَتْ قنًا كالأفاعي الرُّقطِ أو دونها الرُّقط[2]
وأُسدِ نزالٍ من ذؤابةِ خَزْرجٍ بَهَالِيلُ لا رومُ القديمِ ولا قِبْطُ
جلادهمُ مثنى إذا اشتجر الوغى كأنَّ رعاءً بالعضاه لها خَبْط[3]
كتائبُ أمثالُ الكتابِ تتاليًا فمن بيضها شكلٌ، ومن سُمْرها نَقْطُ
دليلهمُ القرآنُ، يا حبّذا الهُدى ورَهْطهُمُ الأنصارُ يا حبّذا الرَّهْطُ
وبيضٌ كأمثالِ البروقِ غمامُها إذا وشحتْ سُحبَ القتام دمٌ عَبْطُ
ولكنه حُكْمٌ يُطاع وسنَّةٌ وأعمالُ برّ لا يليقُ بها الحبط
وربَّت[4] نَقْصٍ للكمال مآلُهُ ولا غَزْوَ فالأقلامُ يُصْلِحُها القَطُّ
فَهُنِّيتَهُ صُنْعًا ودُمْتَ مُمَلَّكًا عزيزًا تُشيدُ المعلواتِ وتَخْتَطُّ
ودون الذي يُهْدي ثناؤك في الورى من الطِّيب ما تهدي الألُوَّةُ والقُسْطُ[5]
رضيت ومَنْ لم يَرْضَ باللَّه حاكمًا ضلالاً فللَّه الرِّضا وله السُّخْطُ
حياتُكَ للإسلام شَرْطُ حياتِهِ ولا يوجدُ المشروطُ إن عُدِمَ الشَّرْطُ

هذا كافٍ في المطوّلات لنجلب منها عرضًا يدلّ على حبوبها، ونتحف منها أنفس الظرفاء بمطلوبها، منقولة من الكتاب المسمى بـ «أبيات الأبيات» ومن الكتاب المسمى بـ «الصَّيِّب والجَهَام».

---

(١) في الإحاطة: «الصِّماح أو الإبط». والصُّوار: القطيع من البقر الوحشي.

(٢) في الإحاطة: «تَضَنْضَتْ قتلى كالأفاعي. . .».

(٣) في المصدر نفسه: «كأنّ رعاه بالعضاة».

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ١٩٠): «وربة».

(٥) الألُوَّة: العود يُتَبَخَّرُ به. القُسْطُ: عود هندي. محيط المحيط (ألا) و (قسط).

فمن التورية على طريقة المشارقة قولي[1]: [الخفيف]

مضجعي فيكَ عن قَتَادَةَ يروي ... ورَوَى عن أبي الزِّناد فؤادي[2]
وكذا النومُ شاعرٌ[3] فيكَ أمْسَى ... من دموعي يَهيمُ في كلِّ وادي

ومن هذا الباب أيضًا[4]: [الطويل]

ولَمَّا رأتْ عزمي حثيثًا على السُّرَى ... وقد رابَها صبري على موقف البَيْنِ
أتتْ بِصِحاحِ الجوهريِّ دموعُها ... فعارضْتُ من دمعي بِمُخْتَصَرِ العَيْنِ[5]

وفي هذا المعنى[6]: [الوافر]

كتبتُ بدمعِ عيني صَفْحَ خدِّي ... وقد منع الكَرَى هَجْرُ الخليلِ
ورابَ[7] الحاضرينَ، فقلتُ: هذا ... كتابُ العَين يُنْسَبُ للخليلِ

ومن الأغراض الظريفة فيها[8]: [الطويل]

تَعَجَّلت وَخْط الشيب في زمن الصِّبا ... لخوضي غمارَ الهَمِّ في طلبِ المجدِ
فمهما رأيتم شيبةً فوق مَفْرِقي ... فلا تنكروها إنها شيبةُ الحَمْدِ

(١) البيتان في الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٩٨) ونثير فرائد الجمان (ص ٢٤٩) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٠٥).

(٢) قتادة: هو قَتادة بن دِعامة السدوسي البصري، المتوفَّى سنة ١١٧ هـ. ترجمته في وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٨٥) وجمهرة أنساب العرب (ص ٣١٨). وأراد هنا القتاد وهي شجر صلب له شوك كالإبر. لسان العرب (قتد). وأبو الزناد: هو عبد الله بن ذكوان. وأراد الزناد وهو العود الذي يقدح به النار. يقول: إن الرقاد ينبو عن مضجعه وإن قلبه مشتعل بنار المحبة.

(٣) في نثير فرائد الجمان: «شاعرًا».

(٤) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٩٨) ونثير فرائد الجمان (ص ٢٥٠) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٠٤)، وسيردان في هذا الجزء.

(٥) في نثير فرائد الجمان: «بكتاب الجوهريّ». وكتاب «العين» للخليل بن أحمد، ومختصره ألّفه أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي.

(٦) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٩٧) ونثير فرائد الجمان (ص ٢٥٠) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٠٤).

(٧) في الإحاطة: «ورأيت»، وهكذا ينكسر الوزن.

(٨) الإحاطة (جـ ٤ ص ٥٠١).

ومن التورية بالنجوم والكاتب بيته بيت شرفه[1]: [المتقارب]

بَأَوْتَ على زمني هِمّةً فأعتبني الزمنُ[2] العاتِبُ
وشرّفني اللّه في موطني وفي بيته يشرف الكاتبُ

وأبدع منها قولي لمن يُدْعى بشمس الدين[3] : [الرمل]

قُلْ لشمس الدين وُقِّيتَ الردى لم يدعْ سُقْمُكَ عندي جَلَدَا
رمِدَتْ عَينُكَ هذا عَجَبٌ[4] أَوَ عَينُ الشمسِ تَشْكُو الرَّمَدا

وقلت في غرض التورية بما يظهر من الأبيات[5]: [مجزوء الكامل]

أَفَلَ[6] الأُلى كانوا نجو مًا للورى فالكون مُظْلِمْ
وتناكر[7] الناسُ الحديـ ـثَ الحقَّ وافْتُقِدَ المُعَلِّمْ
أنا كاتبُ السلطانِ ما طالعتُ قَطُّ[8] كتابَ مُسْلِمْ
إلاّ سخامًا قادحًا في الدين واللّهُ المُسَلِّمْ

وفي معنى الدعابة مع بعض الطلبة[9]: [الخفيف]

قال لي عندما أتى بجدالٍ وشُكُوكٍ على أصولِ الدينِ
ولساني يبدِّلُ الدالَ تاءً عاجزٌ[10] في الأمور عن تبيين
التمسْ مخرجًا يوافقُ قولي قلت: أحسنتَ يا جلال[11] التِّين

---

(١) الإحاطة (ج ٤ ص ٥٠٥) وفيها أنه يشير إلى الكاتب ابن الكواب.
(٢) في الإحاطة: «الزمان»، وهكذا ينكسر الوزن.
(٣) الإحاطة (ج ٤ ص ٥٠٣).
(٤) في الإحاطة: «عجيبٌ».
(٥) الإحاطة (ج ٤ ص ٥٠٢ ـ ٥٠٣) وفيه أنه قال في التورية بكتاب مسلم من كتب الحديث.
(٦) في الإحاطة: «ذهب».
(٧) في الإحاطة: «وتذاكر».
(٨) كلمة «قط» غير واردة في الإحاطة.
(٩) الإحاطة (ج ٤ ص ٥٢٠).
(١٠) في الإحاطة: «عاجزًا».
(١١) في المصدر نفسه: «يا حلاّل» بالحاء المهملة.

وفي التورية[1]: [السريع]

اذممْ ذوي التطفيلِ مهما أتى   وإنْ تكنْ أجملتهمْ فاغْنِهِ
يمشي على رجليه مع[2] أنه   من جنس من يمشي على بَطْنِهِ

وقلت[3] : [السريع]

أَفْقَدَ جَفْنيَّ[4] لذيذَ الوَسَنْ   من لم أزلْ فيه خليعَ الرَّسَنْ
عِذارُهُ المِسْكيُّ في خدِّه   أَنْبَتَهُ اللَّهُ النباتَ الحَسَنْ

وقلت في رثاء من اسمه حسن [5] : [البسيط]

أشكو إلى اللَّه من بَثِّي ومن شَجَني   لم أَجْنِ مِنْ محنتي شيئًا سوى مِحَنِ
أصابتِ الحَسَنَ العَينُ التي رَشَقَتْ   وعادةُ العين لا تُصْمي سوى الحَسَنِ

وفي الشيب: [الطويل]

تَفِرُّ عن الشَّيبِ الغواني تعزُّزًا   كما يعتريها إن رأت سَامَّ أبرصا[6]
بدا وَضَحًا في جدة العمر شانيًا   فمن سام شيخًا فهو قد سام أبرصا

وقلت في السها من النجوم الجوفية: [الكامل]

قالوا[7] السها بادي النحول كأنه   متسَتِّرٌ تبدو مخايلُ خوفِهِ
أتراه يشكو؟ قلت: هذا ممكنٌ   واللَّهُ يَعْلَمُ دارَهُ مِنْ جوفِهِ[8]

---

(١) الإحاطة (جـ ٤ ص ٥٠٢).

(٢) في الإحاطة: «مع كونه».

(٣) الإحاطة (جـ ٤ ص ٥١٠).

(٤) في الإحاطة: «عيني».

(٥) الإحاطة (جـ ٤ ص ٥٠٠). ومعظم الشعر الذي يلي هذين البيتين في الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٩٧ - ٥٢٥).

(٦) سامُّ أبرصَ: من كبار الوَزَغ، ويقولون في التثنية: هذان سامّا أبرصَ، وفي الجمع: هؤلاء سوامّ أبرص. محيط المحيط (برص). والوَزَغُ: ضرب من الزحافات السامة. لسان العرب (وزغ).

(٧) في الإحاطة (ص ٥٠١): «ما للسُّهى بادي..».

(٨) في المصدر نفسه: «قالوا عليك قلتُ... واللَّه أعلم داؤه..».

وقلت: [المنسرح]

عابوا وقالوا: بساقِهِ شَعَرٌ | لقد عداهُ الكمالُ من ساقِ
قلت انظروا ورد روضٍ وجنته | وكلُّ وردٍ مُشَوَّكُ الساقِ

وقلت في التضمين: [الخفيف]

رُفِعَتْ قصةُ اشتياقي ليحيىٰ | فَزَوَى[1] الوجهَ رافضًا للفتوَّهْ
ورمى بالكتاب ضعفَ اهتبالٍ | قلت يحيىٰ خُذِ الكتابَ بقوَّهْ[2]

وقلت: [الطويل]

وذي حِيَلٍ يُغْيي التَّقِيَّةَ أمرُهُ | مكايدُهُ في لجّةِ الليلِ تسبحُ
يدبُّ شبولَ اللبثِ والليثُ ساهرٌ | ويسرقُ نابَ الكلبِ والكلبُ ينبحُ

وقلت: [الكامل]

لَمّا رأوا كلفي به ودَرَوْا | مقدار ما لي فيه من حُبِّ
قالوا الفتى حلوٌ فقلتُ لهم | طَلَعَتْ حلاوتُهُ على قلبي

وقلت، ولهما حكاية: [الطويل]

وذي زوجةٍ تشكو فقلتُ له اسْقِها | دواءً من الحُبِّ المليِّن للبَطْنِ
فقال: أَبَتْ شربَ الدواء بِطَبْعِها | فقلتُ اسْقِها إن عافت الشربَ بالقرن

وقلت: [الكامل]

لعنوا بَرِيًّا من خبائثِ ظنّهمْ | فاللّه يلعنُ أهلَ سوق العنبرِ
واللّهِ لا أوطأتُ ساقيَ سوقَهم | أبدَ الزمان فتلك سوق ألعنْ بري

ومن الفكاهات: [المتقارب]

ولمّا دعانيَ داعي الهوى | وأخلف ما كنتُ أمّلْتُهُ
ولم يَبْقَ غير البكا حيلةٌ | بكيتُ بمقدارِ ما نِلْتُهُ

---

(١) زوى وجهه: أشاحه. لسان العرب (زوى).

(٢) هنا تضمين لقول اللّه تعالى: ﴿يا يَحْيَى، خُذِ الكتابَ بِقُوَّةٍ﴾. سورة مريم ١٩، الآية ١٢.

وقلت، وقد رُفع للسلطان باكورة بنفسج: [الكامل]

قَدِمَ البنفسجُ وَهْوَ نِعْمَ الواردُ قد نَمَّ[1] منه إليَّ طيبٌ زائدُ
فسألته: ما باله؟ فأجابني والحقُّ لا يُبْغَى عليه شاهدُ
أقبلتُ أطلبُ من بنانِ محمدٍ صلةً فعاد عليَّ منه عائد

وقلت من التشبيه: [الطويل]

سهرنا وفي سير النجوم اعتبارنا إلى أنْ ضَفَا للَّيلِ من فوقنا رَيطُ[2]
فخِلْنَا شهابَ الرجمِ إبرة خائطٍ مسوحًا وما يبقى من الذَّنَبِ الخيطُ

وقلت أُوَدِّعُ صديقًا أنستُ به: [المتقارب]

فلاحةُ مثليَ ممقوتةٌ وإن أعْجَبَ البدءُ منها وراقْ
زَرَعْتُ اللقاءَ وعالَجْتُهُ فلم أستفدْ منه إلاَّ الفراقْ

ومن تضمين المثل: [المديد]

لا تُهِجْ بالذكرِ في كبدي نارَ وَجْدٍ شَقَّ مُحْتَمَلُهْ
ويقولُ الناسُ في مَثَلٍ لا تحرِّكْ مَنْ دنا أَجَلُهْ

ومن المدح: [الكامل]

عَجَبًا لراحَتِكَ المِلِثَّةِ بالندى أن لا تكونَ على الغمام غماما
يَهْمِي ووجهُكَ نورُهُ متألِّقٌ والقَطْرُ إن سَحَبَ السحابُ أغاما

ومن أبيات المدح: [البسيط]

يا ناصرَ الدينِ لمَّا قَلَّ ناصرُهُ ومطلعَ الجودِ في الدنيا وقد أفلا
لولا التشهّدُ والترداد منكَ له لم يسمعِ الناسُ يومًا من لسانك لا[3]

---

(١) نمَّ: انتشر وفاح. لسان العرب (نمم).

(٢) الرَّيْطُ: جمع ريطة وهي الملاءة التي تلبسها المرأة، وتلقيها أحيانًا على رأسها. لسان العرب (ريط).

(٣) أخذه من قول الفرزدق في زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: [البسيط]

ما قال لا قطّ إلاّ في تشهّده لولا التشهّد كانت لاءَهُ نَعَمُ

وفيات الأعيان (ج ٦ ص ٩٦)، وهو لم يرد في ديوان الفرزدق.

ومن أوصاف صنيع سلطاني: [الكامل]

ماذا أُحَدِّثُ في صنيعِ خلافةٍ		هَشَّتْ إليه الشُّهْبُ في آفاقها
فكأنما الجوزاءُ حين تَعَرَّضَتْ		شَدَّتْ لتخدم فيه عَقْدَ نطاقها

ومن قصيدة في وصف فَرَس: [الطويل]

فَبَوَّأْتُهُ مِنْ مهجتي مُتَبَوَّأً		خفيًا على سرِّ الفؤادِ المُكَتَّمِ
ويا عَجَبًا مني وفرط تشيُّعي		أهيم بوجدي فيه وهو ابن مُلْجمِ

ومن الحماسة في التورية بالمنطق[1]: [الكامل]

حتى إذا فرضَ الجلادُ جدالَهُ		ورأيتُ ريحَ النصرِ ذاتَ هُبُوبِ
قَدَّمْتَ سالِبَةَ العدوِّ وبعدها		أُخرى بعزِّ النصرِ ذاتَ وجوب
وإذا تَوَسَّطَ حَدُّ سيفِكَ عندها		جُزْأيْ قياسٍ فُزْتَ بالمطلوب

وفي خاتمة قصيدة: [الكامل]

ما ضَرَّني إن لم أجِىءْ متقدِّمًا		السبقُ يُعرَفُ آخرَ المضمارِ
ولئن غدا رَبْعُ البلاغةِ بَلْقعًا[2]		فلربَّ كنزٍ في أساسِ جدار

ومن المدح: [البسيط]

إنْ أبهمَ الخطبُ جلَّى في دُجُنَّته		رأيًا يفرِّقُ بين الغيِّ[3] والرشدِ
وإن عتا الدهرُ أبدى من أسرّتِهِ		وكَفِّهِ هَدْيَ حَيران وَرِيَّ صَدِ
وإن نَظَرْتَ إلى لألاء غُرَّتِهِ		يوم الهياج رأيتَ الشمسَ في الأسد

ومن الأوصاف في قصيدة: [الرمل]

كم ليالٍ بتُّ في ظَلْمائها		أمتطي من نار شوقي فُرُشا
وكأنَّ النجمَ شَرْبٌ ثَمِلٌ		واصَلَ الشملةَ حتى ارتعشا

---

(١) مرت هذه الأبيات في البائية التي مدح فيها أبا عنان، وجاء هناك: «وصل سيفك» بدل «حَدُّ سيفك» في البيت الثالث.
(٢) البلقع: الأرض القفر. لسان العرب (بلقع).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٦٨): «الرأي».

ومن التورية بالكفّتين من الحيل العددية: [البسيط]

لا عدلَ في الملْكِ إلاّ وَهْوَ قد نَصَبَهْ وصَيَّرَ الخَلْقَ في ميزانه عَصَبَهْ
والكفّتانِ ترى من كفِّه دربا أن تخرج العددَ المجهولَ للطَّلَبَهْ

وفي رجل يحتال على الولاية[1]: [الوافر]

حَلَفْتَ لهم بأنّكَ ذو يسارٍ وذو ثقةٍ وبَرٌّ في اليمينِ
ليستندوا إليكَ بحفظِ مالٍ فتأكلَ باليسارِ وباليمين

وقلت، ولهما حكاية تظهر من الأبيات: [الخفيف]

قلتُ لَمَّا استقلَّ مولايَ زَرْعِي ورأى غَلَّةَ الطعامِ قليلَهْ
دمنتي لانتجاعيَ الحرثَ كَلَّتْ فهيَ اليومَ دمنةٌ وكليلَهْ

ومِمَّا صدرتُ به كتابًا لأحد الفضلاء: [الكامل]

يا مَنْ تَقَلَّدَ للعلاء سلوكا والفضلُ صَيَّرَ نَهْجَهُ مسلوكا
كاتبتني متفضِّلاً فملكتني لا زلتُ منك مُكَاتَبًا مملوكا

وقلت في غرض يظهر منه: [الرمل]

جلس المولى لتسليمِ الورى ولفصلِ البردِ في الجَوِّ احتكامْ
فإذا ما سألوا عن يومنا قلتُ: هذا اليومُ بَرْدٌ وسلامْ

وقلت من التورية: [المجتث]

يا مالكي بخلالٍ تُهْدي إلى القَلْبِ خَيرَهْ[2]
أَضْرَمْتَ قلبيَ نارًا يا مالكَ بن نُويرهْ[3]

(١) يذهب ابن الخطيب في التورية هنا مذهب ابن رضوان في أبياته النونية التي تقدمت في الجزء الثامن فلتنظر.

(٢) في الإحاطة (جـ ٤ ص ٥٠٠): «تهدي إلى الفكر خَيْرَه». وفي أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٠٦): «تهدي الفكرة..».

(٣) مالك بن نويرة: من رؤساء بني يربوع من تميم، له ذكر في حروب الردّة. توفي سنة ١١٢ هـ. الشعر والشعراء (ص ٢٥٤).

وقلت أيضًا[1]: [الوافر]

أضاف إلى الجفون السودِ شَعْرًا ... كجنحِ الليلِ أو صبغِ المدادِ
فقلتُ أميرُ هذا الحسنِ تزكو الأ ... جورُ له بتكثيرِ السواد

وقلت أيضًا: [مجزوء الرمل]

بأبي بَدْرٌ غزاني ... مستبيحًا شرح صدري
فأنا اليومَ شهيدُ الـ ... حبِّ من غزوةِ بَدْرِ

وقلت، ولهما حكاية: [الطويل]

أيا ليلةً بالخصبِ لم تَألُ شهرةً ... كما اشتهرتْ في فضلها ليلةُ القَدْرِ
فآمن قلبُ اللوزِ من علّة النوى ... وأصبحَ فيها التينُ منشرحَ الصَّدْرِ

ومن النزعات المشرقية في التورية: [الكامل]

يا قائدي نحو الغرام بِمُقْلَةٍ ... نَفَقَتْ حلاوتها بكلِّ فؤادي
ماذا جَنَيْتَ عليَّ من مَضَضِ الهوى ... اللهُ يُنْصِفُ منك يا قَوَّادي

ومن هذا النمط المشرقي: [الطويل]

وقالتْ حَلَقْتُ الكسَّ مني بِنَورَةٍ ... فقلتُ لها اسْتَنْصَرْتِ من ليس ينصرُ
ألاَ فابلغي عني فَدَيْتُكِ واصدقي ... محلّق ذاك الكسُّ أني مقصِّرُ

ومنها[2]: [الخفيف]

قال لي والدموعُ تنهلُّ سَحًّا ... في عِراضٍ من الخُدُودِ مُحولِ[3]
بكَ ما بي فقلتُ مولاي عافا ... كَ المعافي من عَبْرتي ونُحولي[4]
أنا جفني القريحُ يروي عن الأعـ ... ـمشِ، والجفنُ منك عن مكحولِ[5]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٧٠): «وقلت في التورية».

(٢) سترد هذه الأبيات في هذا الجزء؛ وجاء هناك: «سحبًا» بدل «سحًا» في البيت الأول.

(٣) في الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٩٨): «تنهلُّ سُحُبًا». وفي نثير فرائد الجمان (ص ٢٤٨): «تنهلّ سُحبًا في عراضٍ..».

(٤) في الإحاطة: «ونحولِ». وفي نثير فرائد الجمان (ص ٢٤٩): «من عبرةٍ ونحولِ».

(٥) الأعمش لغةً: ضعيف البصر، وهو لقب سليمان بن مهران، وهو تابعي مشهور من رواة الحديث، =

ومن أبيات التورية أو ما داخلته: [الكامل]

في مصرِ قلبي من خزائنِ يوسفٍ   حَبٌّ وعِيرُ مدامعي تمتارُهُ[1]
حَلّيْتُ شعري باسمه فكأنه   في كلِّ قُطرٍ حلُّه دينارُهُ

ومن المدح أيضًا ولا أستحضر لقبه: [المتقارب]

رأيتُ بكفِّكَ اعتبارا   بأسًا وندى ما إن يبارى
فقلتُ وقد عجبتُ منها   يا بحرُ، متى تدعو نوارا

وقلتُ مِمّا يجري مجرى الحكم[2]: [الكامل]

إنَّ الهوى لَشكايةٌ معروفةٌ   صبرُ التصبّر من أَجَلِّ علاجِها
والنفسُ إن ألفتْ مرارَةَ طَعْمِهِ   ضمنتْ بذاك له صلاحَ مزاجها

ومن الغرائب في الأوصاف: [المجتث]

كأنما الروضُ مَلْكٌ   باهى به جُلَساهُ
يَرْضَى النديمُ فمهما   سقى الرياض كساه

وفي غرض النسيب: [الخفيف]

أصْبَحَ الخدُّ منكَ جَنَّةَ عَدْنٍ   مُجْتَلَى أعينٍ وشَمَّ أنوفِ
ظَلَّلَتْهُ من الجفون سيوفٌ   جنّة الخلدِ تحتَ ظلِّ السيوفِ

وقلت في النسيب: [الكامل]

أرسلتُ طرفي في حُلاكَ بنظرةٍ   هي كانتِ السببَ الغريبَ لما بي
وأراكَ بالعبراتِ قد عاقبتها   ليس الرسولُ بموضعٍ لعقابِ

= توفي سنة ١٤٨ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٢ ص ٤٠٠). ومكحول: هو مكحول بن أبي مسلم، فقيه الشام في عصره ومن حفاظ الحديث. توفي سنة ١١٢ هـ، وقيل: ١١٨ هـ. وفيات الأعيان (جـ ٥ ص ٢٨٠).

(١) تمتاره: تأتيه بالميرة، والميرة: الطعام الذي يدّخره الإنسان. لسان العرب (مير).

(٢) سيرد هذان البيتان في هذا الجزء ببعض الاختلاف في عجز البيت الثاني.

ومن تحسين القبيح: [الطويل]

وأحْوَلَ يعدي القلبَ سهمُ جفونه ... فتضحي صحيحات القلوب به مرضى
رأى الحسنُ أنَّ اللحظَ منه مُهَنَّدٌ ... فَحَرَّفَهُ كيما يكونَ له أمضى

ومن النزعات الحسنة: [الكامل]

من لي بذكرى كلّما أوجستها ... تمحو سُلُوِّيَ واشتياقي تثبتُ
وسحابُ دمعٍ كلّما أمطرته ... غير القتادِ بمضجعي لا يُنْبِتُ

ومن النسيب: [البسيط]

جاء العِذارُ بظلّ غيرِ ممدودِ ... فمنتهى الحُسْنِ منه غيرُ محدودِ
ناديتُ قلبيَ إذ لاحتْ طلائعُهُ ... يا صبرَ أيوبَ هذا درعُ داودِ

وفي نقيضه: [البسيط]

ما ضَرَّ مِنّيَ أنْ أخْلَفْتَ موعودي ... وروض خدّك أضحى ذَاوِيَ العُودِ
وقال قوسُ عِذارٍ فوقَ صفحتِهِ ... سفينة الحسن قد حَطَّتْ على الجودي

ومن التضمين: [السريع]

يا مَنْ بأكنافِ فؤادي رَبَعْ ... قد ضاقَ بي عن حبِّكَ المتّسعْ
ما فيكَ لي جَدْوَى ولا أرعوي ... «شُحٌّ مطاعٌ وهوى متّبع»

ومن الأغراض المخترعة: [المنسرح]

أنكرتُ لمّا أطَلَّ عارضُهُ ... فقال لي حين رَابَهُ نظري
ألم تقلْ لي بأنني قَمَرٌ ... فانظرْ إلى وَبْرِ أرنَبِ القمرِ

ومن التضمين: [البسيط]

يا كوكبَ الحسنِ يا معناهُ يا قَمَرَهْ ... يا روضَةَ المتناهي الرَّيْعِ يا ثَمَرَهْ
أمرتني بسلُوّ عنكَ ممتنعٍ ... «مأمورُ حسنكَ لمّا يقضِ ما أمرهْ»

وقلت: [الكامل]

لَمَّا رضيتَ بفرقتي وبعادي ... وصرمتَ آمالي وخُنْتَ ودادي
لاعَنْتُ أُمَّ الصبرِ فيكَ وبعده ... ورّثتُ للأشجان كَنْزَ فؤادي
فالصبرُ مني أجنبيٌّ بعدها ... ولواعجُ الأشجانِ من أولادي

ومن الأغراض المشرقية: [الخفيف]

سار بي للأمير يشكو اعتراضي ... يوسفٌ والشهودُ أبناءُ جِنْسِهْ
قال لي ما تقولُ قلتُ مجيبًا ... لم نخفْ من نكاله أو لحبسهْ
حَصْحص الحقُّ يا خَوَنْدُ فدعني ... أنا راودتُ يوسفًا عن نفسهْ

ومن الأوصاف: [البسيط]

بِتْنا نطارحُ همَّ القحطِ ليلتنا ... وأَيَّدَ الْهَمُّ والسّهدُ البراغيثا
وكان يحمدُ ما كُنّا نُكابِدُهُ ... من المشقّةِ لو أنَّ البرا غيثا

وفي قريب من المعنى: [الطويل]

وقالوا بَدَتْ منكمْ على الجسمِ حمرةٌ ... فقلتُ براغيثٌ لكمْ رَقَّطُونا[1]
عَدَتْ نحونا ليلاً ومن بعدنا اغتدتْ ... كما رَقَصَتْ في القلْوِ بزر قَطُونا[2]

ومن التضمين: [مجزوء الرجز]

قال جَوادي عندما ... همزتُ همزًا أَعْجَزَهْ
إلى متى تهمزني ... ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ﴾[3]

وفي رثاء السلطان أبي الحجاج رحمه الله تعالى[4]: [السريع]

غِبْتَ فلا عينٌ ولا مَخْبَرٌ ... ولا انتظارٌ منكَ مرقوبُ
يا يوسفٌ، أنتَ لنا يوسفٌ ... وكلُّنا في الحزنِ يعقوبُ

---

(١) رَقَّطَ: نقش، وهذا ما أحدثته البراغيث من نقط حمراء باللسع على جلده. لسان العرب (رقط).

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٠٠): «بعدنا اعتدت» بالعين المهملة. والقلو: مصدر قلا الطعامَ إذا وضعه على النار. وبزر قَطُونا: نبات لا يجاوز الذراع دقيق الأوراق والساق، يشبه به البراغيث. محيط المحيط (قلا) و (البزر قطونا).

(٣) عجز البيت من قول الله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾. سورة الهُمَزة ١٠٤، الآية ١.

(٤) البيتان في الإحاطة (ج ٤ ص ٣٣٨) وقد تقدما في الجزء السابع.

وقلت، ولهما حكاية: [الرمل]

طالَ حزني لنشاطٍ ذاهبٍ كنتُ أُسْقَى دائمًا من حَانِهِ
وشبابٍ كان يندى نضرةً نَزَلَ الثلجُ على ريحانِهِ

وقلت، وقد أعجبني نشاطُ ولدي[1]: [الرمل]

سَرَقَ الدهرُ شبابي من يدي ففؤادي مُشْعَرٌ بالكَمَدِ
وحمدتُ الأمرَ إذ أبصرته باعَ ما أفقدني من ولدي

وقلت، ولهما حكاية: [الخفيف]

قلتُ للشيب لا يَرِنْكَ جَفَائي في اختصاري لك البَرورُ ومَقْتِكْ
أنتَ بالعتبِ يا مشيبيَ أولى جئتني غَفْلَةً وفي غير وَقْتِكْ

ومِمّا خططتهُ في رملة نزلْتُها[2]: [الوافر]

أَقَمْنا بُرْهَةً ثم ارتحلْنا كذاك الدهرُ حالٌ بعد حالِ
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاءٍ وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحالِ
ومن سام الزمانَ دوامَ أمرٍ[3] فقد وَقَفَ الرجاءَ على المحالِ

وقلت أيام مقامي بسَلاَ[4]: [الطويل]

أيا أهلَ هذا القُطْرِ ساعَدَهُ القَطْرُ بُليتُ[5] فدلّوني لمن يُرْفَعُ الأمرُ
تَشاغَلْتُ بالدنيا ونِمْتُ مُفَرِّطًا وفي شُغْلي أو نَوْمَتي سُرِقَ العُمْرُ

---

(١) سيأتي هذان البيتان في الجزء العاشر؛ وفيه: «جملة» بدل «وحمدت» في البيت الثاني.

(٢) الأبيات في الإحاطة (ج ٤ ص ٥٢٥) كتبها في بعض الحيطان لمّا اجتاز على مدينة سبتة، وقد تقدمت في الجزء السابع؛ وجاء هناك: «حال» بدل «أمر» في البيت الأول.

(٣) في الإحاطة: «بعام أمرٍ».

(٤) سيرد هذان البيتان في الجزء العاشر؛ وجاء هناك: «دُهِيتُ» بدل «بُلِيتُ» في البيت الأول. وهما في نفاضة الجراب (ص ١٦٥) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٢٩٩).

(٥) في نفاضة الجراب: «دُهيتُ».

وقلت، والبقاء لله وحده، وبه نختم الهَذر[1]: [مجزوء الرمل]

عَـدِّ عـن كـيـتٍ وكـيـتٍ ... مـا عـلـيـهـا غـيـرُ مـيـتِ
كـيـف تـرجـو حـالـة البُـقْـ ... ـيـا لـمـصـبـاحٍ وزيـتِ

انتهى ما نقلته من «الإحاطة» من ترجمة نظمه، وبعض ما ذكر هنا قد تقدّم، وكرّرته لكونه بلفظه في «الإحاطة»، وقد ذكرت أثناء الأبواب غير هذا الباب من نظم لسان الدين ـ رحمه اللّه تعالى! ـ كثيرًا، ولنعزّز ذلك هنا بذكر ما لم يتقدّم ذكره، إذ نظمه بحرٌ لا ساحل له، ولذا كتب ابنه أبو الحسن على هذا المحلّ من الإحاطة ما صورته: ولوالدي أيضًا المترجم به ـ رحمه اللّه تعالى! ـ في سكين الأضاحي لسلطانه أبي الحجاج يوسف بن نصر فيما يكتب بالسكين المضحية: [الطويل]

ليَ الفخرُ إن أبْصَرْتَني أو سمعتَ بي ... على كلِّ مصقول الغرارين مرهفِ
كـفـانـيَ فَـخْـرًا أن تـرانـيَ قـائـمًـا ... بسنّة إبراهيمَ في كَفِّ يوسفِ

ومقطوعاته كثيرة لم يتضمّن هذا الديوان منها إلاّ القليل بسبب الاختصار، ومن أراد الوقوف على جملتها فعليه بكتاب «الصَّيِّب والجَهام» في شعره، رحمه اللّه تعالى! قال ذلك ولده علي، لطف اللّه تعالى به! آمين؛ انتهى.

فمن ذلك قوله رحمه اللّه تعالى[2]: [الطويل]

عَسَى خَطْرَةٌ بالرَّكْبِ يا حاديَ العِيسِ ... على الهَضْبَةِ الشَّمّاءِ مِنْ قَصْرِ باديسِ[3]
لـنـظـفـرَ مـن ذاك الـزلالِ بـعَـلَّـةٍ[4] ... ونـنـعـمَ فـي تـلـك الـظـلال بـتـعـريـسِ
حبستُ بها ركبي فُوَاقًا، وإنما ... عقدتُ على قلبي بها عَقْدَ تحبيسِ[5]

---

(١) تقدم هذان البيتان في الجزء السابع؛ وجاء فيه: «تُزجي» بدل «ترجو» في البيت الثاني.
(٢) القصيدة في الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٨٦ ـ ٤٨٨) ونثير فرائد الجمان (ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٣٤ وما بعدها).
(٣) هو قصر باديس بن حبوس الزيري، صاحب غرناطة في عهد ملوك الطوائف. ولي غرناطة من عام ٤٢٩ هـ إلى عام ٤٦٧ هـ. ترجمته في الذخيرة (ق ١ ص ٦٦٢) والإحاطة (جـ ١ ص ٤٣٥) والمرقبة العليا (ص ٩١) واللمحة البدرية (ص ٣١).
(٤) في نثير فرائد الجمان: «بعذبه».
(٥) الفُواق: ما بين الدرّتين من حليب الإبل. التحبيس: الوقف الدائم. لسان العرب (فوق) و (حبس).

لقد[1] رسختْ آيُ الجوى في جوانحي — كما رسخ الإنجيلُ في قلب قِسِّيس
بميدان جَفْني للسُّهاد كتيبةٌ — تُغير على سَرْحِ الكرى في كراديس
وما بي إلاَّ نَفْحَةٌ حاجريّةٌ[2] — سَرَتْ والدُّجى ما بين وَهْنٍ وتغليسِ
ألاَ نَفَسٌ يا ريح من جانبِ الحمى — تُنَفِّسُ من نار الجوى بعض تنفيس[3]
ويا قَلْبُ لا تُلْقِ السلاحَ فربما — تَعَذَّرَ في الدَّهْرِ اطِّرادُ المقاييس
وقد تُعْتِبُ الأيامُ بَعْدَ عتابها — وقد يُعْقِبُ اللّه النعيمَ من البُوس
ولا تخشَ لُجَّ الدمع يا خطرة الكرى — إلى الجفن بل قيسي على صرح بلقيسِ[4]
تقولُ سُلَيْمى ما لجسمكَ شاحبًا — مقالةَ تأنيبٍ يُشَابُ بتأنيس
وقد كنتَ تَعْطُو كلّما هَبَّتِ الصَّبا — بريَّانَ في ماء الشبيبة مَغْمُوس
ومَنْ رَابحَ الأيامَ يا ابنةَ عامرٍ — بِجَوْبِ الفلا راحت يداه بتفليس[5]
فلا تحسبي والصِّدْقُ خيرُ سجيّةٍ — ظهورَ النَّوى إلاَّ بطون النواميسِ
وقفراء أمّا رَكْبُها فمضلَّلٌ — ومربعُها من آنس غير مأنوس
سحبنا بها من هَضْبةٍ لقرارةٍ — ضلالاً وملنا من كِناس إلى خِيس[6]
إذا ما نهضنا عن مقيل غزالةٍ — نَزَلْنا فَعَرَّسْنا بساحة عِرِّيس[7]
أدرْنا بها كأسًا دهاقًا[8] من السُّرى — أمَلْنَا بها عند الصباح من الرُّوس
وحانةِ خمّارٍ هَدانا لقصدها — شميمُ الحُمَيَّا واصطكاكُ النواقيس

---

(١) في الإحاطة: «وقد».
(٢) حاجرية: نسبة إلى حاجر وهو منزل للحاج بالبادية. محيط المحيط (حجر).
(٣) في الإحاطة: «من جانب اللّوى، يُنَفِّسُ..».
(٤) في الإحاطة: «على الجفنِ..». وفي نثير فرائد الجمان (ص ٢٤٦): «ولا تخشي..» وعرش بلقيس يضرب به المثل.
(٥) في الإحاطة: «فُلَّت يداه». وفي نثير فرائد الجمان: «جاءت يداه». وفي أزهار الرياض: «يا بنت عامرٍ، يجوب».
(٦) في الإحاطة (ص ٤٨٧): «خبطنا بها من هضبة..». وفي نثير فرائد الجمان: «سنحنا بها من هضبة..». والكناس: مسكن الظباء. والخيس: مسكن السباع. لسان العرب (كنس) و (خيس).
(٧) في الإحاطة: «من مقيل». والعِرِّيسُ: مأوى الأسد. لسان العرب (عرس).
(٨) الكأس الدهاق: الممتلئة أو المتتابعة. لسان العرب (دهق).

تَطَلَّعَ ربّانيُّها من جدارِهِ[1] يُهَيْنِمُ في جُنْحِ الظلام بتقديس

بكرْنا وقلْنا إذ نزلْنا بساحه[2] عن الصافنات الجُرْدِ والضُّمَّرِ العِيسِ:

أيا عابدَ الناسُوتِ إنّا عصابةٌ[3] أتينا لتثليثٍ، بلى، ولتسديس

وما قَصْدنا إلاّ المُقامَ بحانةٍ وكم أُلْبِسَ الحقُّ المبينُ بتلبيس

فأنزلَنَا قوراءَ على جنباتها[4] محاريبُ شتى لاختلاف النواميس

بَدَرْنا بها طين الخِتام بِسَجْدَةٍ أردْنا بها تجديدَ حَسْرَةِ إبليس[5]

ودَارَ العذارى بالمُدام كأنها قَطًا تتهادى في رياش الطواويس[6]

وصارَفنا فيها نُضارًا بمثله كأنّا ملأنا الكاسَ ليلاً من الكيس[7]

وقمْنا نَشاوَى عندما مَتَعَ الضحى كما نهضتْ غُلْبُ الأسود من الخيس[8]

فقال لبئسَ المسلمون ضيوفُنا أما وأبيكَ الحَبْرِ[9] ما نحن بالبِيس

وهل في بني مَثْوَاكَ إلاّ مبرِّزٌ بحلبةِ شُورى أو بحلقة تدريس

إذا هَزَّ عسّالَ اليراعة فاتكًا أسال نجيعَ الحِبْرِ فوق القراطيس

يُقَلِّبُ تحت النَّقْعِ مُقْلَةَ ضاحكٍ إذا التفتَ الأبطالُ عن مُقَلٍ شُوسٍ[10]

---

(١) في نثير فرائد الجمان: «من جراره». والرَّبّانيّ: الحَبْر.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٠٣): «بساحة». وفي الإحاطة: «نزلنا بحانة». وفي نثير فرائد الجمان (ص ٢٤٧): «فكِدْنا وقلنا إذ نزلنا..».

(٣) في طبعة عبد الحميد: «صبابة» وهو تحريف.

(٤) في الطبعة نفسها: «فأنزلنا فورًا» وهو تحريف. وفي نثير فرائد الجمان: «في جنباتها».

(٥) في نثير فرائد الجمان: «وبها طين..». وفي هذا البيت يشير إلى ما كان من عصيان إبليس أمر ربّه من السجود لآدم عليه السلام؛ لأنه من طين. قال الله تعالى: ﴿وإذ قُلْنا للملائكةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إلاّ إبليسَ، قال ءَأَسْجُدُ لمن خَلَقْتَ طِينًا﴾. سورة الإسراء ١٧، الآية ٦١.

(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٧٧): «قطيع تهادى في..». وفي الإحاطة: «وطافَ العذارى». وفي نثير فرائد الجمان: «بالمدام كأنما».

(٧) في نثير فرائد الجمان: «وصارفننا... كأنّا مُلاة..». وصارفنا: من الصرف وهو مبادلة المال بالمال. لسان العرب (صرف).

(٨) في الإحاطة: «من الحيس» بالحاء المهملة. وفي أزهار الرياض: «كما متعت». ومتع الضحى: بلغ آخر غايته. لسان العرب (متع).

(٩) في نثير فرائد الجمان: «أما وإليك الخير».

(١٠) في الإحاطة: «يحدق تحت النقع... إذا التقت الأبطال..». وفي نثير فرائد الجمان: «إذا التقت الأبطال». والمُقَل الشُوسُ: التي تنظر تكبرًا أو غيظًا. لسان العرب (شوس).

سبيْنا عُقارَ الرومِ في عقرِ دارها بحليَةِ تمويهِ[1] وخِدْعَةِ تدليس
لئن أنكرتْ شكلي ففضليَ واضحٌ وهل جائزٌ في العقل إنكارُ محسوس
رسبت بأقصى الغربِ ثغرَ مضنَّةٍ[2] وكم دُرَّة علياء في قاع قاموس
وأغريت سُوسِي بالعُذَيب وبارق على وطنٍ داني الجِوار من السوس[3]

ومن أبدع ما صدر عن لسان الدين رحمه اللّه تعالى لاميته المشهورة التي خاطب بها سلطانه[4] حين عاد من المغرب إلى الأندلس، وأعاد اللّه تعالى عليه ملكه الذي كان خُلع منه، ويقال: إنَّ السلطان أمر بكتب هذه القصيدة على قصوره بالحمراء إعجابًا بها، وإنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور التي استولى عليها العدوّ الكافر، أعادها اللّٰه تعالى للإسلام! وأول هذه القصيدة[5]: [الكامل]

الحقُّ يعلو والأباطلُ تَسْفُلُ واللّٰهُ عن أحكامه لا يُسْألُ

قال لسان الدين رحمه اللّٰه تعالى: نظمْتُها للسلطان ـ أسعده اللّٰه تعالى! ـ وأنا بمدينة سَلاَ، لمّا انفصل طالبًا حقَّه بالأندلس، كان صُنْعُ اللّٰه تعالى براعةَ استهلالها، ووجهت بها إليه إلى رُنْدَة قبل الفتح، ثم لما قدمت أنشدتها بعد الفتح وفاء بنذري، وسميتها «المنح الغريب، في الفتح القريب» ومنها:

وإذا استحالت حالةٌ وتبدَّلَتْ فاللّٰهُ عَزَّ وجَلَّ لا يَتَبَدَّلُ
واليسرُ بَعْدَ العسرِ موعودٌ به والصبرُ بالفَرَجِ القريب موكَّلُ
والمُسْتَعِدُّ لما يؤمّلُ ظافرٌ وكفاك شاهد «قَيّدوا وتوكّلوا»[6]
أمحمدٌ والحمدُ منكَ سجيَّةٌ بحليّها دون الورى تَتَجَمَّلُ

---

(١) في الإحاطة ونثير فرائد الجمان: «عقر حانها بحيلة..».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٠٤): «ثغر مضلة». وفي نثير فرائد الجمان: «رَسيتْ بأقصى.. ذُخر..».
(٣) في الإحاطة: «بالعذيب وهاجر». وفي نثير فرائد الجمان: «وأغريت سوسي..». والسوس: الطبيعة والأصل. لسان العرب (سوس). والعذيب وبارق: اسما مكان وقد تقدم الحديث عنهما. والسوس: كورة بالمغرب مدينتها طنجة. الروض المعطار (ص ٣٢٩).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٧٨): «السلطان».
(٥) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٦٢ وما بعدها).
(٦) يشير إلى الحديث: «اعقلها وتوكَّلْ».

أمّا سعودكَ فهو دون مُنازعٍ | عقدٌ بأحكامِ القضاء مسجَّلُ
ولكَ السجايا الغُرُّ والشِّيَمُ التي | بغريبها يتمثَّلُ المتمثِّلُ
ولكَ الوقار إذا تزلزلتِ الرُّبا | وهَفَتْ من الروعِ الهضابُ المثَّل[1]
عَوِّذْ كمالَكَ ما استطعتَ فإنه | قد تنقصُ الأشياءُ مِمّا تكمل[2]
تابَ الزمانُ إليكَ مِمّا قد جنى | واللّٰهُ يأمرُ بالمتاب ويَقْبَلُ
إن كان ماضٍ من زمانك قد مضى | بإساءةٍ قد سرَّكَ المستقبلُ
هذا بذاك فَشَفَّعِ الجاني الذي | أرضاكَ فيما قد جَناهُ الأول
واللّٰه قد ولاَّكَ أمرَ عبادِهِ | لمّا ارتضاك ولاية لا تُعزل[3]
وإذا تَغَمَّدَكَ الإلٰهُ بنصره | وقضى لك الحسنى فمن ذا يخذل

ومنها:

وظعنتَ عن أوطانِ ملككَ راكبًا | مَتْنَ العُبَاب فأيّ صبرٍ يجمل
والبحرُ قد حُنِيَتْ عليك ضلوعُهُ | والريحُ تقطعُ للزفيرِ وترسلُ
ولك الجواري المُنْشَآتُ وقد غدتْ[4] | تختالُ في بُرْدِ الشباب وترفل
جوفاء يحملها ومن حملت به | من يعلم الأنثى وماذا تحملُ

ومنها:

صَبَّحْتَهُمْ غُرَرَ الجياد كأنما | سَدَّ الثنيَّةَ عارضٌ مُتَهلِّلُ
من كلِّ منجردٍ أغرَّ مُحَجَّلٍ | يرمي الجلادَ به أغرُّ محجّلُ
زَجِلُ الجناحِ إذا أَجَدَّ لغايةٍ[5] | وإذا تغنّى للصهيل فبلْبُلُ
جِيدٌ كما التفتَ الظليمُ وفوقَهُ | أُذنٌ مُمَشَّقَةٌ وطرفٌ أكحل
فكأنما هو صورةٌ في هيكلٍ | من لطفه وكأنما هو هَيْكَلُ

---

١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٠٥): «الميل».
٢) في الطبعة نفسها: «يكمل».
٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٧٩): «لمّا ارتضى بك قيِّمًا لا تُعْزَلُ».
٤) في الطبعة نفسها: «قد اغتدت».
٥) في أزهار الرياض: «لغارة».

ومنها:

وخليج هندٍ راقَ حُسْنُ صفائه حتى يكاد يعومُ فيه الصيقلُ
غرقتْ بصفحته النمالُ وأوشكَتْ تبغي النجاةَ فأوثقتْها الأرجل
فالصرحُ منه ممرَّدٌ، والصفح منـ ـه مُوَرَّدٌ، والشطُّ منه مُهَدَّلُ[1]
وبكلِّ أزرقَ إن شَكَتْ ألحاظُهُ مَرَهَ العيونِ فبالعجاجَةِ تُكْحَلُ
متأوِّدٌ أعطافُهُ في نَشْوَةٍ مِمّا يعلُّ من الدماء وينهل
عجبًا له أنَّ النجيع بطرفِهِ رمدٌ، ولا يخفى عليه مقتل

ومنها:

للّه موقفكَ الذي وثَبَاته[2] وثباته[3] مَثَلٌ به يُتَمَثَّلُ
والخيلُ خَطٌّ، والمجالُ صحيفةٌ والسُّمْرُ تنقطُ، والصوارم تشكلُ
والبِيضُ قد كُسرتْ حروفُ جفونِها وعواملُ الأَسَلِ المثقَّفِ تعمل
للّه قومكَ عند مشتجر القنا إذْ ثَوَّبَ الداعي المهيب وأقبلوا
قَومٌ إذا لَفَحَ الهَجِيرُ وجوهَهُمْ حجبوا برايات الجهاد وظلّلوا

وهي طويلة لم يحضرني الآن منها سوى ما كتبته.

ومن نظمه رحمه اللّه تعالى قوله[4]: [الخفيف]

يا إمامَ الهُدَى وأيّ إمامٍ أوضحَ الحقَّ بعد إخفاء رَسْمِهْ
أنتَ عبدُ الحليم، حِلْمَكَ نرجو فالمسمّى له نصيبٌ من اسمه

وقال يخاطب عبد الواحد بن زكريا بن أحمد اللحياني أبا مالك ابن سلطان إفريقية مودّعًا[5]: [المتقارب]

أبا مالكٍ، أنتَ نجلُ الملوكِ غيوثُ الندى وليوثُ النزالِ
ومثلكَ يَرْتَاحُ للمكرمات وما لك بين الورى من مثال

(١) في المصدر نفسه: «مصندل».
(٢) الوثبات: جمع وثبة وهي القفزة. لسان العرب (وثب).
(٣) الثبات: مصدر ثبت، ضدّ الحركة. لسان العرب (ثبت).
(٤) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٦١).
(٥) المصدر نفسه.

عـزيـزٌ بـأنـفـسـنـا أنْ نَـرَى ركـابَـكَ مـؤذنـةً بـارتـحـال
وقد خبرت منك خُلقًا كريمًا أنـافَ عـلـى درجـات الـكـمـال
وفـازتْ لـديـك بـسـاعـاتِ أُنْـسٍ كما زار في الليل طَيفُ الخيال
ولـولا تـعـلُّـلـنـا أنـنـا نـزورك فـوق بـسـاط الـجـلال
ونـبـلـغُ فـيـك الـذي نـبـتـغـي وذاك عـلـى الـلّـه سَـهْـلُ الـمـنـال
لـمـا فَـتَـرَتْ أنـفـسٌ مِـنْ أسـى ولا بـرحـتْ أدمـعٌ فـي انـهـمـال
تَلَقَّتْكَ حيثُ احتللت[1] السعودُ وكـان لـك الـلّـه فـي كـلِّ حـال

وتوفي أبو مالك المخاطب بهذا في بلاد الجريد سنة ٧٥٠[2].

ومن نظم ابن الخطيب قوله لما أشرف على الحضرة المراكشية حاطها اللّه تعالى[3]: [البسيط]

ماذا أُحَدِّثُ عن بحرٍ سَبَحْتُ به مـن الـبـحـارِ فـلا إثـمٌ ولا حَـرَجُ
دعـاه[4] مـبـتـدعُ الأشـيـاء مـسـتـويًـا مـا إن بـه دَرَكٌ كـلاً ولا دَرَجُ
حتى إذا ما المنارُ الفَرْدُ لاحَ لنا صحت ابْشِري يا مطايا جاءك الفَرَجُ
قـريـتِ مـن عـامـرٍ دارًا ومـنـزلـةً والشاهد العدل هذا الطِّيبُ والأرجُ

وقال رحمه اللّه تعالى[5]: [الطويل]

كـأنّـا بـتـامـسـنـا نـجـوسُ خـلالـهـا ومـمـدودهـا فـي سـيـرنـا لـيـس يُـقْـصرُ
مراكبُ في البحر المحيطِ تخبَّطَتْ ولا جهةً تدري ولا البرَّ تُبْصِرُ[6]

وقال سامحه اللّه تعالى، وهو مكتوب بالمدرسة التي بناها السلطان أبو الحجاج بن نصر رحمه اللّه تعالى[7]: [الطويل]

ألاَ هـكـذا تُـبْـنَـى الـمـدارسُ لـلـعـلـمِ وتَـبْـقَـى عـهـودُ الـمـجـدِ ثـابـتَـةَ الـرسـمِ

---

(١) هكذا في أزهار الرياض، وفي طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٤٨١): «حللت».
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٠٧): «سنة ٧٤٠».
(٣) أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٦٥).
(٤) في طبعة عبد الحميد: «وعاه».
(٥) أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٦٥).
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٠٨): «يبصر».
(٧) أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٧٢).

ويُقْصد وجه اللّه بالعملِ الرضا وتجنى ثمار العزّ من شجر العزم
تفاخر مني حضرة الملكِ كلّما تقدم خَصْم في الفخار إلى خصم
فأجدى إذا ضنّ الغمامُ من الحَيَا وأهدى إذا جَنَّ الظلام من النجم
فيا ظاعنًا للعلم يطلبُ رحلةً كُفِيتَ اعتراض البيد أو لجج اليَمّ
ببابيَ حُطَّ الرحلَ لا تَنْوِ وجهةً فقد فزت في حال الإقامة بالغُنم
فكم من شهابٍ في سمائيَ ثاقبٌ ومن هالةٍ دارتْ على قمرٍ تمّ
يفيضون من نورٍ مبينٍ إلى هُدًى ومن حكمةٍ تجلو القلوب إلى حكم
جزى اللّه عني يوسفًا خير ما جزى ملوك بني[1] نصر عن الدين والعلم

وقال رحمه اللّه تعالى[2]: مررت يومًا مع شيخنا أبي البركات ابن الحاج ببعض مسالك غرناطة حرسها اللّه تعالى فأنشدني من نظمه: [السريع]

غرناطةٌ ما مثلها حَضْرَةْ الماءُ والبهجةُ والخضرةْ

واستجازني رحمه اللّه تعالى، فقلت: [السريع]

سكانها قد أُسكنوا جَنَّةً فهم يُلَقَّون بها نضرةْ

وقال في تورية طبية[3]: [مخلع البسيط]

إنـي وإن كـنـتُ ذا اعـتـلالِ رثُّ الـقـوى بَـيِّـنَ الـهـزالِ
فـي عـارضِ الـتـيـسِ لـي شـفـاءٌ فـكـيـف فـي عـارضِ الـغـزالِ

وقال رحمه اللّه تعالى يخاطب شيخه سيدي أبا عبد اللّه بن مرزوق موطئًا على بيت المشارقة في العذار[4]: [الطويل]

أما والذي تُبْلَى لديه السرائرُ لما كنت أرضى الخسفَ لولا الضرائرُ
غدوتُ لضيم ابنِ الربيب فريسةً أما ثار من قومي لنصريَ ثائرُ

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٠٨): «بين» وهو على الأرجح، خطأ من الناسخ.
(٢) أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٧٢).
(٣) أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٧٤).
(٤) المصدر نفسه.

إذا التمستْ كَفّي لديه جرايتي كأنيَ جانٍ أوبَقَتْهُ الجرائر[1]
وما كان ظنّي أن أنالَ جرايَةً يحكّم من جرّائها فيَّ جائر
متى جاد بالدينار أخضرَ زائفًا ودارتُهُ دارتْ عليها الدوائر
وقد أخرج التعنيتُ كيسَ مرارتي ورقَّتْ لبلوايَ النفوسُ الأخاير[2]
تذكرتُ بيتًا في العِذارِ لبعضهمْ له مَثَلٌ بالحسن في الأرض ثائر[3]
«وما اخْضَرَّ ذاك الخدُّ نبتًا، وإنما لكثرةِ ما شُقَّتْ عليه المرائر»
وجاهُ ابنِ مرزوقٍ لديَّ ذخيرةٌ وللشدّةِ العظمى تُعَدُّ الذخائر
ولو كان يدري ما دهاني لساءه وأنكرَ ما صارتْ إليه المصائر

وقال رحمه اللّه تعالى يخاطب أحد الشرفاء[4]: [الكامل]

أعيا اللقاءُ عليّ إلاّ لمحةً في جملةٍ لا تقبلُ التفصيلا
فجعلتُ بابكَ عن يمينكَ نائبًا أُهديه عند زيارتي تقبيلا
فإذا وَجَدْتُكَ نِلْتُ ما أمّلْتُهُ أو لم أجدكَ فقد شفيتُ غليلا

ولمّا دخل رحمه اللّه تعالى مدينة أنفا[5]، ومرَّ منها على دار عظيمة تُنْسَبُ إلى والي جبايتها عَبّو من بني الترجمان قارون قومه وغني صنفه، قال[6]: [الخفيف]

قد مررنا بدار عَبّو الوالي وهي ثكلى تشكو صروفَ الليالي
أَقْصَدَتْ ربَّها الحوادثُ لمّا رَشَقَتْهُ بصائباتِ نبال[7]
كان بالأمسِ واليًا مستطيلاً وهو اليومَ ما له من والِ

وقال في الشيخ ابن بطّان الصنهاجي[8]: [الكامل]

للّه دَرُّكَ يا ابن بطّان فما لشهيرِ جودك في البسيطة جاحدُ

---

(١) أَوْبَقَتْهُ: أَهْلَكَتْهُ. الجرائر: جمع جريرة وهي الذَّنْب والجناية. لسان العرب (وبق) و (جرر).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٠٩): «الأمائر».
(٣) في الطبعة نفسها: «سائر».
(٤) أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٧٥).
(٥) أنفا: هي مدينة الدار البيضاء الحديثة في المغرب.
(٦) أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٨٨).
(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢١٠): «زوال».
(٨) أزهار الرياض (ج ١ ص ٢٨٨).

إن كان في الدنيا كريمٌ واحدٌ ... يزنُ الجميعَ فأنتَ ذاك الواحدُ
أجريتَ فضلكَ جعفرًا يحيا به ... ما كان من مجدٍ فذكرُك خالد[1]
فالقومُ منكَ تجمّعوا في مفردٍ ... وَلَدٌ كما شاء العَلاءُ ووالد
وهي الليالي لا تزالُ صروفها ... يشقى بموقعها الكريمُ الماجدُ
وبمستعين الله يصلحُ منكَ ما ... قد كان أفْسَدَهُ الزمانُ الفاسد

وقال رحمه الله تعالى وقد انتابه البرغوث[2]: [الكامل]

زحفتْ إليَّ ركائبُ البرغوثِ ... نَمَّ الظلام بركبها المحثوثِ
بالحبّةِ السوداءِ قابل مقدمي ... للّه أي قِرًى، أعَدَّ، خبيثِ
كسحتْ بهنّ ذباب سرح تجلّدي ... ليلاً فحبلُ الصبر جدُّ رَثيثِ
إن صابرتْ نفسي أذاه تَعَبَّدَتْ ... أو صحتُ منه أنفتُ من تخنيثِ[3]
جيشانِ مِنْ ليلٍ وبرغوثٍ فهل ... جيشُ الصباح لصرختي بمغيث

وقال يخاطب الوالي محمد بن حسون بن أبي العلاءِ، وصدَّر بها رسالة[4]: [الكامل]

لم يُبْقِ لي جودُ الولاية حاجةً ... في الأمن أو في الجاه أو في المالِ
بعد اللقاء أُولو الفضائل بغيتي ... ورأيتُ هذا القصدَ شَرْطَ كمال
أَجْمَلْتُهُ وتَشَوَّفَتْ لبيانِهِ ... هممٌ فكنتَ مُفَسِّرَ الإجمالِ
وخصصتُ بالإلقاء غيركَ غيرةً ... وجعلتُ ذكرك شاهد الأعمال
للبستَ يا ابن أبي العلا قُشُبَ الملا ... وتركتَ أهل الأرض في أسمال
إن دوّن الفضلاء فضلاً مُعْلَمًا ... فلقد أتيتَ عليه بالإكمال
تُثْني عليك رعيَّةٌ آمالُهَا ... في أن تفوزَ يداكَ بالآمال
أرعَيْتَهَا هملاً فلم يطرقْ لها ... بمنيعِ سورك طارقُ الإهمال
من كنتَ واليه تولَّتْهُ العلا ... ومن اطَّرحتَ فما له من والي

---

(١) الجعفر: النهر. لسان العرب (جعفر). وأراد هنا جعفر ويحيىٰ وخالد البرامكة.

(٢) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٨٩).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢١٠): «تحنيثي».

(٤) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٨٩).

وقال في عثمان بن يحيىٰ بن عمر بن روح[1]: [الكامل]

أسميَّ ذي النورين وجهك في الوغى ... شمسُ الضحى حَلَّتْ بليث عرينِ
أن تفتخر بمَرِينَ أرضُ العُدْوة الـ ... قصوى فإنّك أنتَ فخرُ مرين

وقال رحمه اللّٰه تعالى عند وقوفه على مراكش واعتباره بما صار إليه أمرها[2]: [الخفيف]

بلدٌ قد غزاهُ صَرْفُ الليالي ... وأباحَ المصونَ منه مُبِيحُ
فالذي خَرَّ من بناهُ قتيلٌ ... والذي خَرَّ منه بعضٌ جريح
وكأنَّ الذي يزورُ طبيبٌ ... قد تأتّى له بها التشريح
أُعجِمتْ منه أربُعٌ ورسومٌ ... كان قِدْمًا بها اللسانُ الفصيح
كم معانٍ غابت بتلك المغاني ... وجمالٍ أخفاهُ ذاك الضريح
وملوكٍ تعبَّدُوا الدهرَ لمّا ... أصبح الدهرُ وهو عبدٌ صريح
دوّخوا نازحَ البسيطةِ حتى ... قالَ ما شاء ذابِلٌ وصفيح[3]
حين شبَّتْ لهم من البأس نارٌ ... ثم هَبَّتْ لهم من النصر ريح
أثرٌ يندبُ المؤثِّر لمّا ... طالَ بعد الدنوِّ منه النزوح
ساكن الدار روحُهَا، كيف يبقى ... جسدٌ بعد ما تولّى الروحُ

وقال رحمه اللّٰه تعالى يخاطب أحمد بن يوسف حفيد الولي الصالح سيدي أبي محمد صالح النائم في ظل صيته رحمه اللّٰه تعالى[4]: [الخفيف]

يا حفيدَ الوليِّ يا وارثَ الفخـ ... ـر الذي نال في مقام وحالِ
لك يا أحمد بنَ يوسفَ جُبْنا ... كلَّ قطرٍ[5] يعيي أَكُفَّ الرِّحال

---

(١) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٨٩).
(٢) المصدر نفسه.
(٣) الذابل: أراد به الرماح. الصفيح: أراد به السيف. لسان العرب (ذبل) و (صفح).
(٤) نفاضة الجراب (ص ٧٠) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٩٨).
(٥) في نفاضة الجراب: «كلّ قفر».

وقال في «نفاضة الجراب»: لما خرجت من آسفي[1] سرتُ إلى منزل ينسب إلى أبي خَدّو[2]، وفيه رجل من بني المنسوب إليه اسمه يعقوب، فألطف وأجزل، وآنس في الليل، وطلبني بتذكرة تثبت عندي معرفته فكتبت له[3]: [الطويل]

نَزَلْنا على يعقوبَ نجل أبي خدّو[2] فعرَّفنا الفضلَ الذي ما له حَدُّ
وقابلَنا بالبِشْرِ واحتفلَ القِرَى فلم يبق لحمٌ لم نَنَلْهُ ولا زُبْدُ
يحقُّ علينا أن نقومَ بحقِّهِ ويلقاه مِنَّا البِرُّ والشكرُ والحمدُ

وقال: [الطويل]

أأُلْقِي إلى الأيام فضلَ مَقَادتي[4] فتجنبني ما بين كدّ وإرهاقِ
وأُتْلِفُ بين الخلق والرزق فكرتي ولستُ بخلاّقٍ ولست برزّاق
إذا كنتُ بالإثراء لي في تملّق رضيتُ بعزِّ النَّفس في عِزّ إملاقِ

وقال: [الطويل]

لك الملك ملك الحسن فاقْضِ بنا الذي تشاء فما يُعْصَى لأمرك واجِبُهْ
إذا ما كسرت اللحظ من تحت حاجبٍ تحكَّم في الألباب كسرى وحاجِبُهْ

وقال: [الطويل]

سألْنا ربيعَ العامِ للعام رحمةً فضَنَّ ولم يسمخ بذرَّةِ إنعامِ
فقلْنا وقد رَدَّ الوجوهَ ولم يُبَلْ[5] قليلُ الحَيَا قُبِّحتَ واللّه من عامِ

وقال: [الطويل]

تخوّنه[6] صرفُ الزمان وهل ترى بقاءً لحيّ أو دوامًا على أمرِ
هو الدهر ذو وجهين يومٍ وليلةٍ ومن كان ذا وجهين يعتبُ في غدر

---

(١) آسَفي: مدينة بالمغرب على ساحل المحيط الأطلسي.
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢١٢): «حذو» بالحاء المهملة والذال المعجمة.
(٣) نفاضة الجراب (ص ٧٣) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٢٩٨).
(٤) المقادة: مصدر ميمي من فعل قاد، ويريد الإذعان. لسان العرب (قود).
(٥) لم يَبَلْ ولم يُبالِ: لم يكترث. محيط المحيط (بلا).
(٦) تَخَوَّنه: تنقّصه. محيط المحيط (خون).

وقال رحمه اللّه تعالى في شجر الجوز: [الكامل]

انظرْ إلى يَنْعي وحُسْنِ بُسُوقي ... يهفو النسيمُ بقدِّيَ الممشوقِ
يجلو اللواحظَ منظري حسنًا كما ... يجلو ثُغُورَ الغانياتِ عروقي

وقال رحمه اللّه تعالى في ساقٍ: [الخفيف]

كيف آمنتما على الشُّرْبِ ظبيًا ... لحظُهُ في القلوبِ غيرُ أمينِ
راح يسقي فَصَبَّ في الكأس نزرًا ... ثقةً منه بالذي في العيون

وقال يخاطب السلطان[1]: [الخفيف]

أنتَ للمسلمين خيرُ عمادٍ ... وملاذٍ وأيُّ حِرْزٍ حريزِ
لو رأى ما شرعتَ للخلقِ فيه ... عمرُ الفاضل ابن عبد العزيز
لجزى ملكك المباركَ خيرًا ... وقضى بالشفوفِ والتبريز
فاشكر اللّه ما استطعتَ بفعلٍ ... وبقولٍ مُطَوَّلٍ أو وجيزِ
كلُّ مَلْكٍ يُرَى بصحبة أهل الـ ... ـعلم قد باء بالمحلِّ العزيز
فإذا ما ظفرتَ منهم بإكْسِيـ ... ـر ملأت البلادَ من إبريز
والبرايا تبيدُ والملك يفنى ... أين كسرى الملوكِ مع أبرويز

وقال رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

ما لي أهذِّبُ نَفْسي في مطامعها ... والنفسُ تأنف تهذيبي وتهذي بي
إذا استعنتُ على أهلي[2] بتجربة ... تأبى المقاديرُ تجريبي وتجري بي

وقال: [الكامل]

من لا نصيبَ لصَحْبه في خيره ... وإذا سعى لم يَقْضِ حاجةَ غَيْرِهِ
فاقصدْ أباه متى أردتَ وقُلْ له ... اللّه يُلهِمُهُ العزاءَ بأيرِهِ

---

(١) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٩٨).

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٨٨): «على دهري».

وقال رحمه الله تعالى[1]: [الطويل]

أَمُسْتَخْرِجًا كَنْزَ العقيقِ بآماقي[2] أُناشدكَ الرحمنَ في الرَّمَقِ الباقي
فقد ضعفتْ عن حمل صبريَ طاقتي عليك وضاقتْ عن زفيريَ أطواقي

وقال رحمه الله تعالى: [الطويل]

إذا لم أُشاهدْ منكَ قبل منيتي نهايةَ آمالي وغايةَ غاياتي
فَحُسْنُ عزائي حيل بيني وبينه وقرّة عيني لم تحلَّ بمرآتي
شهودك أمني من عُداة خواطري وقربك حِرْزِي من توقُّع آفاتِ
فإن لم يكن وصلٌ فَهَبْها إشارةً فيا حُسْنَ شاراتي بها من إشاراتِ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب الدنيا: [المنسرح]

دُنْيَا خَدَعْتِ الذي سَفَرْتِ له عن صفحةٍ لم يحلْ بها كَرَمُ
سَرَقْتِ حظَّ الإله من يده فهانَ ما كان منه يحترم
هذا الذي نالَ منك ليس له منقطعٌ دائمٌ ومنصرمُ
وهَبْهُ نالَ الذي أراد أما بين يديه المشيبُ والهَرَمُ

ولمّا أورد رحمه الله تعالى قول القائل في وصف الدنيا[3]: [الخفيف]

كلما أنبتَ الزمانُ قناةً ركَّبَ المرءُ في القناة سِنانا
وكأنّا لم نَرْضَ[4] فيها بريْبِ الـ دهرِ حتى أعانه من أعانا

قال أثره ما نصّه: والحقّ ما قلته من أبيات تناسب ذلك، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله:

[البسيط]

---

(١) البيتان في الإحاطة (جـ ٤ ص ١٣٧) والكتيبة الكامنة (ص ١٨٦)، وقد تقدّما في الجزء الثامن دون تغيير عمّا هنا.

(٢) العقيق: حجر نادر أحمر اللون شبّه به الدمع. الآماق: جمع مؤق وهو مجرى الدمع من العين. القاموس المحيط (عقق) و (مأق).

(٣) البيتان للمتنبي وهما في ديوانه (ص ٥١١).

(٤) في الديوان: «لم يَرْضَ».

واللّهِ إنْ لم يُدَارِكُها وقد وحلتْ بلمحةٍ أو بلطفٍ من لدنه خفي
ولم يَجُدْ بتلافيها على عجلٍ ما أمرها صائرٌ إلاً إلى تلف[1]

فحب الدنيا رأس كل بليّة، ولولاه لم تزل النفس صافية عالية عن سجيّتها الأولية.

ومن نظمه رحمه اللّه تعالى قوله: [الخفيف]

إنْ رأى الحقُّ فيك منه بقيَّهْ فاتّقِ البعدَ فيه حق التقيَّهْ
وإذا لم يكن لذاتكَ رسمٌ قائمٌ تلك حالةٌ حَقِّيَّهْ

وقوله رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

فسامحْ إذا ما لم تفدكَ عبارةٌ وإن أشكلت يومًا فخذْها كما هِيَا
وتلخيصُ ما دندنتَ[2] بالقول حوله إذا قمتَ بالباقي فما زلت باقيا

وقال رحمه اللّه تعالى[3]: [الطويل]

ففي عالم الأسرارِ ذاتُكَ تَجْتَلِي ملامِحَ نورٍ لاحَ للطُّور فانهدّا
وفي عالمِ الحسِّ اغتديتَ مبوّأً لتشفي من استشفى وتهدي من استهدى
فما كنتَ لولا أن ثبت[4] هداية من اللّه مثلَ الخلق رسمًا ولا حدّا

وهذه الأبيات في مدح النبي ﷺ.

وقال رحمه اللّه تعالى: [البسيط]

حمامةَ البانِ، ما هذا البكاء على مَرِّ الليالي وما ذا البثُّ والحزنُ
لا منزلٌ بنتَ عنه أنتَ تندبُهُ ولا حبيبٌ ولا خِلٌّ ولا سكنُ
لو كنتَ تَنْفثُ عن شوقٍ مُبِيتَ به إذًا لصار رمادًا تحتك الغُصُنُ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٨٩): «إلى التلف».
(٢) دَنْدَنَ: نَغَّم ولم يفْهَمْ منه كلامٌ. محيط المحيط (دندن).
(٣) تقدمت هذه الأبيات ضمن قصيدة طويلة في هذا الجزء .
(٤) في طبعة دار صادر (ص ٤٩٠): «أن أتيت».

وقال رحمه اللّٰه تعالى مضمّنًا: [الطويل]

أمِطْ عنك مهما اسطعتَ كلَّ إرادةٍ ... وإلاَّ فمغْنَى القومِ عنكَ بعيدُ

تكونُ مريدًا ثم فيك إرادة ... إذا لم ترد شيئًا فأنتَ مريدُ

وقال رحمه اللّٰه تعالى: [الطويل]

تعلَّقته من دوحةِ الجُودِ والباس ... قضيبًا لعوبًا بالرجاء وباليأس

ضَروبًا بضربٍ لليراعة والقَنا ... طروبًا بحمل المشرفيّة والكاس[1]

يذكرنيه الصبحُ عند انصداعه ... جمالَ رُوَاء في تأرُّج أنفاس

ويبدو لعيني شَعْرُهُ وجبينُهُ ... إذا ما سفحتُ الحبرَ في صفح قرطاس

وقال رحمه اللّٰه تعالى: [الوافر]

أُحِبُّ لحبِّها جَمَلي ورحلي ... وعزمي والقَتَادةَ والطريقا

ومَنْ أخشاه من سبعٍ ولصّ ... فكيف فريقها؟ سلموا فريقا!

وكيف أُخَصُّ باسم الحبِّ إن لم ... أُحبَّ لأجلها إلاَّ صديقا

وقال رحمه اللّٰه تعالى: وقلت من قصيدة: [الطويل]

أنا نسخةُ الأكوانِ أدمجُ خطَّها ... فَسِرُّ ذوي التحقيق في طيِّ أوراقي

فمن عالم الأشباحِ ليلي وظلمتي ... ومن عالم الأرواح نوري وإشراقي

وقال رحمه اللّٰه تعالى: [البسيط]

مولايَ مولايَ إن أرضاك بَذْلُ دمي ... فقد أتيتُ به أسعى على قدمي

وإن تَعاظَمَ ذَنْبٌ قد جَنَتْهُ يدي ... وطالَ قَرْعِي عليه السِّنَّ مِنْ نَدَمِ

فَهَبْهُ لي واغتفرْ ما كان من خطإٍ ... وزلّةٍ وازْعَ لي حبِّي على القدم

وقال رحمه اللّٰه تعالى من قصيدته العينية السلوية التي وجهها إلى سَلاَ أيام خلَّف بها أهله وولده: [الرمل]

بوليِّ اللّٰهِ فابدأ وابتدرْ ... واحِدِ الآحادِ في باب الوَرَعْ

---

(١) القنا: جمع قناة وهي الرمح. المشرفيّة: أي السيوف المشرفية، نسبةً إلى مشارف الشام. لسان العرب (قنا) و (شرف).

قلت: هذا الولي هو العارف بالله تعالى سيدي الحاج أحمد بن عاشر أحد الصلحاء أصحاب الكرامات المشهورة بالمغرب، وقد زُرْتُ قبره بسلا عام تسعة وألف، وهو أحمد ابن عمر بن محمد بن عاشر[1]، الأندلسي، نزيل سَلاَ، الولي الزاهد المشهور بالمناقب والأحوال.

قال ابن عرفة: ما أدركت مبرِّزًا في زماننا هذا إلاَّ الشيخ أبا الحسن المنتصر وأحمد ابن عاشر بسَلاَ؛ انتهى.

وقال بلديُّنا أبو عبد الله بن صعد التلمساني في كتابه «النجم الثاقب، فيما لأولياء الله تعالى من المناقب»: كان أحَدَ الأولياء الأبدال، معدودًا في كبار العلماء، مشهورًا بإجابة الدعاء، معروفًا بالكرامات، مقدَّمًا في صدور الزهاد، منقطعًا عن الدنيا وأهلها، ولو كانوا من صالحي العباد، ملازمًا للقبور في الخلاء المتّصل ببحر مدينة سَلاَ، منفردًا عن الخلق، لا يفكر في أمر الرزق، وله أخبار جليلة، وكرامات عجيبة مشهورة، مِمَّن جُمِع له العلم والعمل، وأُلقي عليه القبول من الخلق، شديد الهيبة، عظيم الوقار، كثير الخشية، طويل التفكّر والاعتبار، قصده أميرُ المؤمنين أبو عنان، وارتحل إليه عام سبعة وخمسين وسبعمائة، فوقف ببابه طويلاً، فلم يأذن له، وانصرف وقد امتلأ قلبه من حُبِّه وإجلاله، ثم عاود الوقوف ببابه مرارًا، فما وصل إليه، فبعث له بعض أولاده بكتاب كتبه إليه يستعطفه لزيارته ورؤيته، فأجابه بما قطع رجاءه منه، وأيس من لقائه، واشتدَّ حزنه، وقال: هذا ولي من أولياء الله تعالى حجبه الله عنّا؛ انتهى.

ولَمَّا أجرى ذكره لسان الدين في «نفاضة الجراب» قال ما ملخَّصُه: ولقيت من أولياء الله تعالى بسَلاَ الولي الزاهد الكبير المنقطع القرين، فرارًا عن زهرة الدنيا، وعزوفًا عنها، وإغفاء في الورع، وشهرة بالكشف، وإجابة الدعوة وظهور الكرامة، أبا العباس بن عاشر، يسّر الله تعالى لقاءه على تعذّره لصعوبة تأتّيه، وكثف هيبته، قاعدًا بين القبور في الخلاء، رثّ الهيئة، مُطْرِق اللحظ، كثير الصمت، مفرط الانقباض والعزلة، قد فرَّ من[2] أهل الدنيا

(١) ترجمة ابن عاشر في أنس الفقير (ص ٩) ونيل الابتهاج (ص ٤٣) والمقري ينقل عن نيل الابتهاج.

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢١٨): «قد ضرّسه أهل..».

وتطارحهم، فهو شديد الاشمئزاز من قاصده، مُجَرمز[1] للوثبة من طارقه، نفع اللّه تعالى به!

وقال ابن الخطيب القسطميني الشهير بابن قنفذ: لقيته بسلا سنة ٧٦٣، وهو على أتمّ حال في الورع، والفرار من الأمراء، والتمسّك بالسنّة، وهو الشيخ الفقيه الولي، توفي في سنة خمس وستين وسبعمائة؛ انتهى.

ومِمَّن انتفع به ونال بركته الوليّ العارف باللّه سيدي أبو عبد اللّه بن عَبَّاد شارح الحكم، وقد ترجمناه في هذا الكتاب.

وقال ابن عباد المذكور في رسائله: وقد كنت قِدمًا خرجت في يوم مولده ﷺ صائمًا إلى ساحل البحر، فوجدت هناك سيدي الحاج ابن عاشر رحمه اللّه تعالى وجماعة من أصحابه معهم طعام يأكلونه، فأرادوا مني الأكل، فقلت: إني صائم، فنظر إليَّ سيدي الحاج نظرة منكرة، وقال لي: هذا يوم فرح وسرور يُسْتَقبح في مثله الصوم كالعيد، فتأمّلت قوله فوجدته حقًّا، وكأنه أيقظني من النوم؛ انتهى.

وقال ابن قنفذ السابق في رحلته ما صورته: وكان ابن عاشر رحمه اللّه تعالى فريدًا في الورع، ميسرًا عليه في ذاك أتمّ تيسير، محفوظًا من كلّ ما فيه شبهة، كثير النفور من الناس، وخصوصًا أصحاب الولاية في الأعمال، وخرجت على يده تلامذة نجباء أخيار، وطريقه أنه جعل «إحياء علوم الدين»[2] بين عينيه، واتبع ما فيه بجدّ واجتهاد، وصدق وانقياد، وكان الحجّة في ذلك الطريق، وأول اجتماعي به نَفَر مني، فحَبسْتُه بيدي وهززته، فتبسّم ووقف معي، وسألني عن نسبي، ودعا لي، وطلبته بما يطعمني، فاعتذر لي بالإقلال، ثم قال: أمهل، فدخل وأخرج لي حبّات تين يابسة في يده اليمنى، وغطّاها باليد اليسرى، ودفعها إليَّ، وضحك معي، وعجب الحاضرون من ليانته وانشراحه معي؛ لأنه لا ينبسط إلى أحد، وحصل لي بذلك فخر لا يدري قدره إلاَّ مَنْ حاول بعضه معه، وقصدني

---

(١) مجرمز: منقبض؛ يقال: جرمز الرجلُ إذا انقبض واجتمع بعضه إلى بعض، كناية عن أنه متحفّز للانطلاق في أمره. لسان العرب (جرمز).

(٢) إحياء علوم الدين: كتاب شهير لحجة الإسلام المتصوف الفيلسوف أبي حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي، المتوفّى سنة ٥٠٥ هـ. وهذا الكتاب من أنفس الكتب. وفيات الأعيان (ج ٤ ص ٢١٦).

كثير من الخواص فسألني عن مجلسي معه وما وقع من جوابه وسؤاله، وقد حاول ملك المغرب لما ارتحل إليه في عام سبعة وخمسين وسبعمائة على لقائه فلم يقدر عليه بوجْهٍ، وحجبه اللّه تعالى حتى تبعه يوم جمعة من الجامع الأعظم على قدمه، والناس ينظرونه، وهو لم يره، فرجع، ولم يكن قوته إلاّ من نسخ العمدة في الحديث، وكيف يبيعها، ولمن يبيعها، ولا يأخذ إلاّ قيمتها، ولم تزل حالته وبركته في زيادة إلى أن توفي سنة ٧٦٥، وسأله بعض الأخيار بمحضري عن الفرق بين مكاشفة المسلم ومكاشفة النصراني؛ لوجود ذلك من بعضهم، فقال: المسلم الذي له هذه الدرجة يبرىء من العاهة، والنصراني لا يبرىء، ثم قال: وهل يبرىء الفقيه من العاهة؟ فقال له: نعم، ثم نظر يمينًا وشمالاً ليجد صاحب عاهة فيأتي بالعيان، فلم يجد أحدًا، وكأنه اغتاظ لهذا السؤال، ثم أخرج يده وقال: يأتي لمن يقعد عن الحركة، فيحبسُه بيده، ويقيمه وقد ذهب ألمه بعد أن جئنا إلى الأرض في الصفة، ثم قال: وسئل بعضهم عن هذا، وكان السائل نصرانيًا في زي المسلم، فقال له: الفرق بينهما سقوط الزنَّار من وسطك، قال: فسقط، وفضحه اللّه تعالى! وأسلم بسبب ذلك؛ انتهى كلام ابن قنفذ القسطميني، رحمه اللّه تعالى!

وترجمة وليّ اللّه تعالى سيدي الحاج ابن عاشر. نفعنا اللّه تعالى ببركاته.! متّسعة جدًا، وكراماته ومناقبه لا نبلغ لها حدًّا، ولا نطيق لها عدًا، وإنما ألمعْنا بذكره قصدًا للتبرّك به، واللّه ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء الطريق.

رجع إلى نظم لسان الدين ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى. فنقول: ومن مداعباته رحمه اللّه تعالى قوله[1]: [السريع]

ومولع بالكتب يبتاعُها ... بأرخصِ السومِ وأغلاهُ
في نصف الاستذكار أعطيته ... مختصر العين فأرضاه

ويعني بمختصر العين الزبيدي فافهمْ. وقال رحمه اللّه تعالى من قصيدة: [الطويل]

ووالله ما اعتلّ الأصيلُ، وإنما ... تعلّم من شَجْوِي فبانَ اعتلالُهُ

وهذا غاية في المبالغة وحسن التعليل.

---

(١) نفاضة الجراب (ص ٥٧) وأزهار الرياض (ج ١ ص ٢٩٧). وقد تقدمت الأبيات في الجزء الخامس دون تغيير عمّا هنا.

وقال رحمه اللّه تعالى: وقفت على قبر المعتمد باللّه في مدينة أغمات في حركة حاجة[1] أعملتها إلى الجهات المراكشية، باعثُهَا لقاء الصالحين ومشاهدة الآثار، عام واحد وستين وسبعمائة، وهو بمقبرة أغمات في نَشَز[2] من الأرض، وقد حفَّت به سِدْرة، وإلى جنبه قبر «اعتماد» حظيّة مولاه رُمَيك، وعليهما أثر التغرّب ومعاناة الخمول من بعد الملك، فلا تملك العين دمعها عند رؤيتهما، فأنشدت في الحال[3]: [البسيط]

قد زرتُ قبرك عن طَوْعٍ بأغماتِ ... رأيتُ ذلك من أولى المهمّاتِ

لِمْ لا أزورُكَ يا أندى الملوك يَدًا ... ويا سراجَ الليالي المُدْلَهِمّاتِ

وأنت من لو تخطّى الدهرُ مَصْرَعَهُ ... إلى حياتي لجادتْ فيه أبياتي[4]

أنافَ قبرُكَ في هَضْبٍ يميّزُهُ ... فَتَنْتَحِيهِ حَفِيَّاتُ التحيّات[5]

كَرُمْتَ حَيًّا ومَيْتًا واشتهرتَ عُلاً ... فأنتَ سلطانُ أحياءٍ وأمواتِ

ما رِيءَ مثلُكَ في ماضٍ، ومعتقدي ... أن لا يُرَى الدهرَ في حالٍ ولا آتِ[6]

وقد تقدّم هذا في القسم الأول في الباب السابع منه، وكرّرته هنا، واللّه الموفق.

وقال رحمه اللّه تعالى موزّيًا حين أكل مشرفُ الدار القابِضَ: أي أكل ماله[7]: [السريع]

مُشْرِفُ دارِ الملك ما باله ... منتفخ الجوف شكا نافضا[8]

فَقِيلَ لي ليس به علّةٌ ... لكنه قد أكلَ القابضا[9]

---

(1) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٤٩٥): «راحة».

(2) النشز: المكان المرتفع من الأرض. لسان العرب (نشز).

(3) الأبيات في نفاضة الجراب (ص ٥٧) وأزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٩٧)، وقد تقدمت في الجزء الخامس دون تغيير عمّا هنا.

(4) في نقاضة الجراب: «وأنت مولّى تخطّى... أجادتْ فيه أبياتي».

(5) أناف: ارتفع. تنتحيه: تقصده. الحفيّات: جمع حفيّة وهي التي تريد الحفاوة به. لسان العرب (نوف) و (نحا) و (حفا).

(6) في نقاضة الجراب: «ومعتقد... ولا آتِ». ورِيء: رُئي؛ مجهول رأى، أُخّرت عينه إلى مكان اللام.

(7) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٠٠).

(8) النافض: الحُمّى. محيط المحيط (نفض).

(9) القابض: هو عند أهل الأندلس المال المقبوض.

وقال[1]: [السريع]

يا نفسُ، لا تصغي إلى سلوةٍ   كم أخلف الموعدَ عرقوبُ
وأنتَ يا قلبيَ وصّاك إبـ   ـراهيمُ بالحزن ويعقوبُ

وقال في السعيد أبي بكر ابن السلطان أبي عنان: [المتقارب]

أميرٌ كأنَّ قُمَيرَ الدُّجى   أفاضَ الضياءَ على صَفْحَتَيْهِ
تملأ قلبيَ من حُبِّه   غداةَ نظرتُ بعيني إليه
فَلا بسطَ الدهر كفَّ الردى   لذاك الشخيصِ وذاك الوجيه

وقال يخاطب الخطيب ابن مرزوق: [الطويل]

تعلَّم طَيفُوري خلالَ سميِّه   وإن كان منسوبًا إلى غير بسطامِ[2]
وجاء فقيرَ الوقتِ لابسَ خرقةٍ   فليس براضٍ غيرَ صحبة صوام
فديتك لا تردُدْهُ عنكَ مخيبًا   ودرّسْهُ يا مولاي قصّة بلعام

وقال: مِمّا كتبت به إلى ابن مرزوق المذكور، وقد وصل ولده إلى سلا ومنع ابنَ الخطيب عن لقائه عذرُ مرضٍ، وكان نزوله بزاوية النسّاك: [الخفيف]

صدَّني عن لقاء نجلكَ عذرٌ   يمنعُ الجسمَ عن تمامِ العبادَهْ
واختصرتُ القرى لأن حطَّ رحلاً   في محلِّ الغنى ودار الزَّهاده
وَلَوَ انّي احتفلتُ لم يُعِنِ الدهـ   ـرُ ولا نِلْتُ بعضَ بعضِ أراده
وعلى كلِّ حالةٍ فقصوري   عادةٌ إذ قبولُكَ العذرَ عاده
لا عدمتَ الرضى من اللّه والحُسْـ   ـنى كما نصَّ وَحْيُه والزياده

وقال يخاطبه من ضريح السلطان أبي الحسن بشالة لاستنهاض عزيمته في قضاء غرضه: [البسيط]

برئت للّه من حَولي ومن حِيَلي[3]   إن نام عني وليّي فَهْوَ خيرُ ولي
أصبحتُ ما ليَ من عطفٍ أؤمّله   من غيرهِ في مهمّات ولا بَدَلِ

(١) هذه المقطوعة والمقطوعات العشر التي تليها في أزهار الرياض (ج ١ ص ٣٠٠ - ٣٠٤).
(٢) الطَّيفور: طائر صغير، وأراد هنا أبا يزيد البسطامي الذي يسمّى أيضًا طيفور. محيط المحيط (طفر).
(٣) الحَوْلُ: القوة. الحيل: جمع حِيْلة. لسان العرب (حول) و (حيل).

ما كنت أحسبُ أن أُرمى بقاصيةٍ ... للهجر أقطعُ بها جانبَ الأمل
من بعد ما خلصت نحوي الشفاعةُ ما ... بين العُلا[1] والدُّجا والبِيض والأسَلِ
إن كنتُ لستُ بأهلٍ للذي طمحتْ ... إليه نفسي وأهْوَى نحوه أملي
فكيف يُلْغَى ولا تُرْعَى وسيلتُه؟ ... دخيلُ قبرِ أمير المسلمين علي
من بعد ما اشتهرتْ حالي به وسَرَتْ ... بها الركائبُ في سهلٍ وفي جبل
والرسلُ تَتْرَى ولا تخفى نتائجها ... عند التأمّلِ من قولٍ ولا عمل
ولا لليليَ من صبحٍ أُطالعه ... كأنَّ هَمِّيَ قد مدَّ الدجُنَّةَ لي[2]
لو أنني بابن مرزوقٍ عقدتُ يدي ... وكان محتكمًا في خيرة الدول
لكان كربيَ قد أفضى إلى فرجٍ ... وكان حزنيَ قد أوفى على جَذَلي[3]
ألمحتُ بالعتبِ لم أحذرْ مواقعه ... «أنا الغريق فما خوفي من البللِ»
ولستُ أجحدُ ما خُوِّلْتُ مِنْ نعم ... لكنها النفس لا تنفكُّ عن أمل
ولست أيأس من وعد وعدت به ... «وإنما خُلِقَ الإنسانُ من عَجَلِ»

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا الحجاج: [الطويل]

أمولاي إنَّ الشعرَ ديوان حكمةٍ ... يفيد الغنى والعزّ والجاه من كانا
وقد وُجِدَ المختارُ في الحفلِ مُنْصِتًا ... له وحَبَا كعبًا عليه وحسّانا[4]
وفيما رواه الناقلون وأثبتوا ... بذلك ديوانًا صحيحًا فديوانا
بأنَّ أبا بكر خليفَتَه الرضا ... وفاروقه الأدنى إليه وعثمانا
وأنَّ عليًّا قدَّس اللّه جمعهم ... وكَرَّمَنا بالقرب منهم وحَيَّانا
لهم في ضروب القول إذ هم فحوله ... خطابٌ وشعرٌ يستقرّان تبيانا
وفاض على أهل القريض نوالُهُم ... فَرَوَّضَ روضَ القول سحًا وتهتانا

---

(١) في أزهار الرياض. «القلا».
(٢) الدُّجُنَّةُ: الظلام. لسان العرب (دجن).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٢٢): «جذلٍ».
(٤) كعب: هو كعب بن زهير. وحسان: هو حسّان بن ثابت الأنصاري. يقول: إن الرسول ﷺ استمع للشعر ومنح كعبًا بردته حين أنشده قصيدته التي مطلعها (بانت سعاد)، وأكرم حسانًا وحثّه للردّ على شعراء المشركين.

وأنت أحقُّ الناسِ أن تفعلَ الذي ... به فَعَلَ المختارُ دينًا وإيمانا
فما زلت تهدي في البريّة هديه ... وتقضي بما يرضيه سرًّا وإعلانا
وإن قيل قَدْرُ المرء ما هو محسنٌ ... فصنعةُ نظمِ القولِ أَرْفَعُهُ شانا

وقال موريًا: [الطويل]

بنفسي حبيبٌ في ثناياه «بارق» ... ولكنها للواردين عِذَابُ
إذا كان لي منه عن الوصل «حاجر» ... فدمعي «عقيق» بالجفون مذاب

وقال: [الكامل]

عَذَّبْتَ قلبي بالهوى فقيامه ... في نارِ هجرِكَ دائمًا وقعودُهُ
ولقد عهدتُ القلبَ وهو موحِّدٌ ... فعلامَ يقضي في العذاب خلودُهُ

وقال في التجنيس: [الطويل]

دعوتُكَ للودِّ الذي جَنَبَاتُهُ ... تداعَتْ مبانيها وهَمَّتْ بأن تهي
وقلتُ لعهد الوصل والقربِ بعد ما ... تناءى وهل أسلو حياتي وأنت هي
ومَنْ شام من جوّ الشبيبة بارقًا ... ولم تنهه عنه النُّهَى كيف ينتهي

وقال: [البسيط]

ناديتُ دمعيَ إذ جدَّ الرحيلُ بهم ... والقلبُ من فَرَقِ التوديع قد وَجَبا[1]
سقطتَ يا دمعُ من عيني غداةَ نأى ... عنّي الحبيبُ ولم تقضِ الذي وجبا

وقال: [المتقارب]

شُلَيْرُ[2]، لَعَمْري أساءَ الجِوارَ ... وسَدَّ عليَّ رحيبَ الفَضَا
هو الشيخُ أبردُ شيءٍ يُرَى ... إذا لَبِسَ البُرْنُسَ الأَبْيَضَا

---

(١) الفَرَقُ، بالفتح: الفزع. وَجَبَ القلبُ: خفق. لسان العرب (فرق) و (وجب).
(٢) شلير: جبلٌ، يصف ابن الخطيب شدّة برده، وقد تقدم الحديث عنه وأشرنا إلى أن الثلج يغطيه شتاء وصيفًا.

وقال: قلت أخاطب بعض من أدلّ عليه وما أولاني بذلك: [المتقارب]

إذا قمتَ قُلْ بعقيب الكرى إلـهـيَ أنـتَ إلـه الـورى
تباركتَ أنشأتهم من تراب وأنشأتني بينهمْ من خرا

قلت: ولا خفاء ببشاعة هذا، فحذفه أولى من إثباته.

وقال يداعب بعض أصحابه: [السريع]

شيخُ رباطٍ إن أتى شادنٌ خلوته عند انسدالِ الظلامْ
أدْلَى وقد أبصره دَلْوه وقال يا بشرايَ هذا غلامْ

وقال في غرض يظهر: [الخفيف]

لم أجد فيه لين بَثّ لقلبي وقبولاً لحجّتي واعتذاري
ثَقَّلَ اللّهُ ظهره بعيالٍ سوَّدَ اللّهُ وجهه بعذارِ

وقال من قصيدة: [الطويل]

أخذْتَ وأمواجُ الردى متلاطمَهْ بضَبْعِيَ[1] يا نجلَ الوصيِّ وفاطمهْ

وقال: [الطويل]

ووجه غَرَسْتُ الوردَ فيه بنظرةٍ فيا ليتَ كفّي مُتِّعَتْ بجَنَى غَرْسي
كأنَّ سوادَ الخال في وَجَناته علامةُ مولانا على أحمرِ الطرس
وبينهما في باطن الأمرِ نسبةٌ لذلك أمضيتُ الغرامَ على نفسي

وقال يشير إلى بعض طبقات الغناء: [الكامل]

ضرط الفقيه فقلتُ ذاك غريبة ما كان ذلك منه بالمعلومِ
فَدَنَا إليَّ وقال قد أصرفتكم من ضرطتي بغريبةِ المزموم

وفي آخر سنة أربع وسبعين وجّه إلى السلطان أبي حمّو[2] سلطان تِلمسان أبياتًا لزومية في غرض الهَنَاء، وهي: [الكامل]

وَقَفَ الغرامُ على ثَناكَ لساني رعيًا لما أوليتَ من إحسانِ

---

(١) الضَّبْع: هو وسط العضد من اليد. لسان العرب (ضبع).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٢٥): «أبي حم».

فكأنما شكري لما أوليته / شكرُ الرياضِ لعارضِ النيسانِ
أنا شِيعَةٌ لك حيث كنتُ، قضيّةٌ / لم يختلفْ في حكمها نفسانِ
ولقد تشاجرتِ الرماحُ فكنتُ في / ميدانِ نهرك فارسَ الفرسان
ورويتُ غُرَّ مآثرٍ أسندتُها / لعلاكَ بين صحائحٍ وحسان
ولأنتَ أولى بالتشيّع شيمةً / لم تتفقْ لسواك من إنسان
الشمسُ أنتَ قد انفردْتَ وهل يُرَى / بين الورى في مطلعٍ شمسان
جبرت بجبرك كلّ نفسٍ حرّةٍ / وشدا بشكر اللّه كلُّ لسان
وبَدَتْ سعودك مستقيمًا سيرُها / وعلتْ فَفَرَّ أمامها النحسان
فاستقبِلِ السعدَ المعاود سافرًا / عن أيّ وجه للرضا حسّانِ
وابْغِ المَزيدَ بشكر ربِّك ولْتَثِقْ / بمضاعَفِ الإنعام والإحسانِ
فالشكرُ يقتادُ المزيدَ ركائبًا / تنتابُ بابكَ منه في أرسان[1]
ثمّ السلامُ عليكَ يُزري عَرْفه / طيبًا بعَرْفِ العود والبَلَسَانِ[2]

وقال[3]: [البسيط]

بحقٍّ ما بيننا يا ساكني القَصَبَهْ / رُدُّوا عليَّ حياتي فَهْيَ مُغْتَصَبَهْ
ماذا جنيتم على قلبي ببينكمُ / وأنتمُ الأهلُ والأحبابُ والعَصَبَهْ

قلت: ولعل ابن زَمْرَك قال أبياته التي على هذا الرويّ المذكورة في غير هذا الموضع من هذا الكتاب جوابًا لهذه حين كان ابن زمرك من جملة أتباع لسان الدين، رحم اللّه تعالى الجميع!.

وقال لسان الدين ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى[4]: [الخفيف]

حين ساروا عني وقد خَنَقَتني / عبراتٌ قد أعربت عن وَلُوعي
صحتُ من ينصرُ الغريبَ؟ فلمّا / لم أجدْ ناصرًا بلعتُ دموعي

---

(١) الأرسان: جمع رسن وهو ما تُقاد به الدابّة. لسان العرب (رسن).
(٢) البَلَسان، بالفتح: نبات أبيض الزهر يستعمل زهره في الأدوية. لسان العرب (بلسن).
(٣) البيتان في أزهار الرياض (ج ١ ص ٣٠٤).
(٤) أزهار الرياض (ج ١ ص ٣٠٥).

وقال[1]: [الخفيف]

قالَ لي والدموعُ تَنْهَلُّ سُحْبًا في عراض[2] من الخدود محولِ
بكَ ما بي فقلتُ مولاي عافا كَ المعافي من عَبْرتي ونحولي
أنا جفني القريح يروي عن الأعـ ـمش والجفنُ منكَ عن مكحول

وقال[3]: [الكامل]

أشكو لمبسمه الحريقَ وقد حمى عني لَمَاه المشتَهَى ورحيقَهُ
يا ريقه حيرتَني ومطلتني ما أنتَ إلاّ باردٌ يا ريقَهُ

وقال فيمن ركب البحر وماد[4]: [الكامل]

ركب السفينةَ واستقلَّ بأُفقها فكأنما ركبَ الهلالَ الفَرْقَدُ
وشكوا إليه بميده فأجبتهم لا غرو إن ماد القضيبُ الأملدُ

وقال عندما خرج السلطان ابن الأحمر من فاس متوجّهًا إلى الأندلس لطلب حقّه[5]: [الطويل]

ولما حَثَثْتُ السيرَ واللّه حاكم لملكِكَ في الدنيا بعزّ وفي الأخرى
حكى فرسَ الشطرنج طرفُك لا يُرى ينقِّل من بيضاءَ إلاّ إلى حَمْرا

ويعني بالبيضاء فاسًا الجديدة، وبالحمراء حمراء غرناطة.

وتذكَّرْتُ هنا أنَّ بعض علماء الأندلس، وأظنّه أبا عبد اللّه بن جُزَيّ، لما رَمِدَت عينُ بعض أهل فاس سأله عنها، فقال: [مجزوء الرجز]

يا سيدي عينيَ قد أودى قذاها بالأنَسْ
فانظرْ إليها ترَهَا دار مليك الأندلسْ

---

(١) المصدر نفسه. وقد تقدمت هذه الأبيات في هذا الجزء، وفيه: «سحّا» بدل «سُحْبًا» في البيت الأول.
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٥٠١): «عراصِ»، بالصاد المهملة.
(٣) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٠٥).
(٤) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٠٦).
(٥) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٠٦).

يعني حمراء، فأجابه بقوله: [مجزوء الرجز]

وُقِّيتَ مِمَّا تشتكي ... من القَذَى والوَصَبِ
ما رمدتْ عيناك بل ... عينُ العُلا والأدبِ
فلتحمدن إن لم تكن ... دار مليك المغربِ

يعني بيضاء، وهذا من غريب ما يحاضَرُ به.

رجع. وقال لسان الدين رحمه الله تعالى[1]: [الطويل]

أجاد يراعُ الحُسْنِ خَطَّ عِذارِهِ ... وأودعه السِّرَّ المصون الذي يدري
ولم يفتقرْ فيه لختمٍ وطابعٍ ... فمبْسِمُهُ أغناه عن طابعِ السِّرّ

وقال في غرناطة: [الطويل]

أُحَيِّيكَ يا مَعْنَى الكمال بواجب[2] ... وأقطعُ في أوصافك الغُرِّ أوقاتي
تَقَسَّم منك الترب قومي وجيرتي ... ففي الظَّهْر أحيائي وفي البطن أمواتي

وقال في غرض ينحو نحو المشارقة: [المتقارب]

رموا بالسلوِّ حليفَ الغرامِ ... وأدمُعُه كالحَيَا الهاطلِ
أعوذ بعزِّكَ يا سيدي ... لذلِّيَ من دعوةِ الباطلِ

وقال: [الكامل]

يا ليلُ طُلْتَ ولم تَجُدْ بتبسّمٍ ... وأريتني خُلُقَ العبوسِ النادمِ
هلاَّ رحمتَ تغرّبي وتفرّقي ... لله ما أقساكَ يا ابنَ الخادمِ

وقال في مروحة سلطانية: [الطويل]

كأنيَ قوسُ الشمسِ عند طلوعها ... وقد قدمتْ من قبلها نسمةُ الفجرِ
وإلاَّ فما هَبَّتْ بمحتدمِ الوغى ... بنصرٍ ولكنْ من بنود بني نصر

---

(١) هذه القطعة والقطع العشر التالية في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٠٧ - ٣١٠).
(٢) في أزهار الرياض: «أحبك يا مغنى الكمال..».

وقال يخاطب شيخه ابن الجيّاب: [الكامل]

بين السهام وبين كُتْبِكَ نسبةٌ ... فبها يصابُ من العدوّ المقتلُ
وإذا أردتَ لها زيادةَ نسبةٍ ... هذي وهذي في الكِنانة[1] تجعلُ

وقال يتغزّل، وفيه معنى غريب: [الكامل]

إنَّ اللحاظ هي السيوفُ حقيقةً ... ومن استراب فحجّتي تكفيهِ
لم يُدْعَ غِمْدُ السيفِ جفنًا باطلاً ... إلاّ لشبه اللحظِ يغمد فيه

قيل: وأحسن منه قول غيره: [الكامل]

إنَّ العيونَ النُّجل أمضى موقعًا ... من كلِّ هنديّ وكُلِّ يماني
فضلُ العيون على السيوف بأنها ... قتلتْ ولم تخرجْ من الأجفانِ

وأصل ما قال لسان الدين قول الأول: [البسيط]

بين اللحاظ[2] وعينيه مناسبةٌ ... من أجلها قيل للأغمادِ أجفانُ

وقال لسان الدين رحمه اللّه تعالى في الساعة، وتسميها المغاربة المنجانة: [البسيط]

تأمَّلِ الرملَ في المنجان منقطعًا ... يجري وقَدِّرْهُ[3] عُمْرًا منك منتهيا
واللّه لو كان وادي الرمل ينجده ... ما طال كامله إلاّ وقد ذهبا

وقال: [الوافر]

أقولُ لعاذلي لمّا نَهَانِي ... وقد وجد المقالة إذ جفاني
علمتَ بأنهُ مُرُّ التجنِّي ... وفاتكَ أنه حُلْوُ اللسان

وقال في غرض صوفي: [الكامل]

لا تنكروا إن كنتُ قد أحببتكم ... أو أنني استولى عليَّ هواكُمُ
طوعًا وكرهًا ما ترون فإنني ... طُفْتُ الوجود فما وجدتُ سواكُمُ

---

(١) الكِنانة: الجعبة تُجْعَلُ فيها السهام تكون من جلد. محيط المحيط (كنن).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٥٠٤) وأزهار الرياض: «السيوف».
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٢٩): «يجري وقد ردَّ..».

وقال يمدح، وفيه تورية: [البسيط]

وإن نَظَرْتَ إلى لألاءِ غُرَّتِهِ ... يومَ الهياجِ رأيتَ الشمسَ في الأسدِ[1]

وقال مِمّا يُكْتَبُ على طاق الماء بباب القبّة[2]: [الخفيف]

أنا طاقٌ تزهو بيَ الأيامُ ... تعبتْ في بدائعي الأفهامُ
وتَبَدَّيْتُ للنواظر محرا ... بًا كأنَّ الإناءَ فيَّ إمامُ
واقفٌ للصلاة حتى إذا ما ... جئت للشربِ حان مني سلامُ

وقال في ذلك أيضًا: [الكامل]

يا صانعي للّه ما أحكمته ... فلأنتَ بين العالمين رئيسُ
أحكمتَ تاجي يوم صُغْتَ رقوشه ... فصبتْ إليه مَفَارقٌ ورؤوسُ
وأقمتَ في محرابه فكأنه ... مجلى إناء الماءِ فيه عروسُ

وقال في المشيب[3]: [الكامل]

إني لمثلي بالهوى مِنْ بعد ما ... للوَخْط في الفَوْدَين أيّ دبيبِ[4]
لبس البياضَ وحَلَّ ذروةَ منبرٍ ... مني ووالى الوَعْظَ، فعلَ خطيب

وقال رحمه اللّه تعالى: [السريع]

واللّهِ ما جانٍ على مالِهِ ... أو جاهه مَنْ ذبَّ عن عِرْضِهِ
والناسُ في خيرٍ وفي ضِدِّه ... هم شهداء اللّهِ في أَرْضِهِ

وقال[5]: [الطويل]

إلهيَ بالبيتِ المقدَّس والمسعى ... وجَمْعٍ إذا ما الخلق قد نزلوا جمعا[6]

---

(١) الأسد: أحد أبراج الشمس، وأراد به الممدوح نفسه. لسان العرب (أسد).

(٢) هذه القطعة والقطع الثلاث التالية في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣١٢ ـ ٣١٣).

(٣) تقدم هذان البيتان ضمن قصيدة طويلة في هذا الجزء.

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٢٩): «إني لمبلي بالهوى...». والوخط: الشيب. والفودان: جانبا الرأس. لسان العرب (وخط) و (فود).

(٥) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٧١).

(٦) البيت المقدس: أراد به البيت الحرام. المسعى: بين الصفا والمروة. جمع: أراد به المزدلفة، وهو من مناسك الحج.

وبالموقف المشهود يا ربّ في منى | إذا ما أسالَ الناسُ من خوفك الدَّمْعا
وبالمصطفى والصحب عَجِّلْ إقالتي | وأنجح دعائي فيك يا خير من يُدْعَى
صُدِعْتُ وأنتَ المستغاثُ جَنابه | أَقِلْ عثرتي يا موئلي واجبرِ الصدعا

وقال رحمه اللّه تعالى في بنيونش سبتة[1] : [الكامل]

بنيونش[2] أسنى الأماكنِ رقعةً | وأجلُّ أرضِ اللّهِ طُرًّا شانا
هي جَنَّة الدنيا التي مَنْ حَلَّها | نالَ الرضا والرَّوحَ والريحانا
قالوا القرودُ بها فقلتُ فضيلةٌ | حيوانُهَا قد قارب الإنسانا

وفي بينونش هذه يقول أبو عبد اللّه ابن مجبر[3] : [مخلع البسيط]

بينونشٌ جنّةٌ ولكنْ | طريقُها يَقْطَعُ النياطا[4]
وجنّةُ الخلدِ لا يراها | إلاّ فتى يقطع الصراطا

وقال ابن الخطيب رحمه اللّه تعالى[5]: [الكامل]

إنَّ الهوى لشكاية معروفة | صبر التصبر من أجلِّ علاجها
والنفس إن ألفت مرارة طعمه | يومًا ضمنت لها صلاح مزاجها

وقال رحمه اللّه تعالى[6]: [الطويل]

ولما رأتْ عزمي حثيثًا على السُّرى | وقد رابها صبري على موقف البينِ
أتت بصحاحِ الجوهري دموعُهَا | فقابلت من دمعي بمختصر العين

وقال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

تذكّرتُ عهدًا كان أحلى من الكرى | وأقصر من إلمام طيف خيالِهِ
فيا ليت شعري مَنْ أتاح لي المنى | وعذّب بالي هل أمرُّ ببالِهِ

---

(١) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣٤).
(٢) في أزهار الرياض: «بليونش».
(٣) ورد هذان البيتان في أزهار الرياض (جـ ١ ص ١٣٨) منسوبين إلى القاضي عياض.
(٤) النياط: مصدر ناط، أي علق، والمراد هنا عرق غليظ متصل بالقلب إذا قطع مات صاحبه. لسان العرب (ناط).
(٥) تقدم هذان البيتان في هذا الجزء ببعض الاختلاف في عجز البيت الثاني.
(٦) تقدم هذان البيتان في هذا الجزء وأشرنا هناك إلى المصادر التي وردا فيها.

وقال رحمه الله تعالى: [الكامل]

عيني جَنَتْ فعَلامَ تُحرَقُ أضلعي؟ ... أبما جنى جارٌ يعذَّبُ جارُ
يا قلبُ لا تدهشْك نيرانُ الهوى ... فكنارِ إبراهيمَ تلك النارُ[1]
فاصبرْ على ما حُمِّلُوا تَنَلِ المنى ... بالسبكِ أدرك نَقْشَهُ الدينارُ

وقال رحمه الله تعالى: [الطويل]

وما كان إلاَّ أنْ جَنَى الطرفُ نظرةً ... غدا القلبُ رهنًا في عقوبةِ ذَنْبِهِ
وما العدلُ أن يأتي امرؤٌ بجريرةٍ ... فيؤخذَ في أوزارها جارُ جَنْبِهِ

وقال رحمه الله تعالى: [الطويل]

بَرَى جسدي فيكمْ غرامٌ ولوعةٌ ... إذا سكن الليلُ البهيمُ تثورُ
فلولا أنيني ما اهتدى نحو مضجعي ... خيالُكُمُ بالليل حين يزورُ
ولو شئتُ في طيِّ الكتابِ لزرتكم ... ولم تَدْرِ عني أحْرُفٌ وسطورُ

وقال رحمه الله تعالى[2]: [الكامل]

بلدٌ تَحِفُّ به الرياضُ كأنه ... وَجْهٌ جميلٌ والرياضُ عِذارُهُ
وكأنما واديهِ مِعْصَمُ غادةٍ ... ومِنَ الجُسُورِ المُحْكَماتِ سِوارُهُ

وقال رحمه الله تعالى يخاطب السلطان أبا حمّو صاحب تِلمسان ويشكره على ما كان أعان به أهل الأندلس[3]: [الوافر]

لقد زار الجزيرةَ منك بحرٌ ... يمدُّ فليس تعرف[4] منه جَزْرَا
أعَدْتَ لها بعهدك عَهْدَ موسى ... سَمِيِّكَ فهي تتلو منه ذكرا[5]
أقَمْتَ جدارها وأفدتَ كنزًا ... ولو شئتَ اتّخذتَ عليه أجْرا

---

(١) أي إنها برد وسلام كنار إبراهيم، أخذه من قول الله تعالى: ﴿قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْدًا وسَلامًا على إبراهيمَ﴾. سورة الأنبياء ٢١، الآية ٦٩.
(٢) قال ابن الخطيب إن هذين البيتين في وصف مدينة غرناطة، وقد وردا في الإحاطة (جـ ١ ص ١١٥)، وتقدما في الجزء الأول من نفح الطيب.
(٣) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٦١).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٣٢): «نعرف».
(٥) يشير هنا إلى قصة موسى، عليه الصلاة والسلام، مع العبد الصالح في قول الله تعالى: ﴿سَتجِدُني إن =

وقال أيضًا[1]: [المتقارب]

وقالوا الجزيرةُ قد صَوَّحَتْ فقلتُ غمامَ النَّدَى تنتظرْ
إذا وكفتْ كَفُّ موسى بها غمامًا يعود الجنابُ الخَضِرْ

وقال رحمه اللّه تعالى عقب الإياب من الرحلة المراكشية[2]:

أفادتْ وجهتي بنَدَاك مالاً قضى ديني وأصلحَ بعضَ حالي
ومُتِّعَتِ الخواطرُ بانشراحٍ وأُطرفتِ النواظرُ باكتحال
وأُبْتُ خفيفَ ظهرٍ، والمطايا بجاهك تشتكي ثقلَ الرحال
وشاني للمعالم غيرُ شانٍ وحالي بالمكارم جِدُّ حال
فحبُّ علاكَ إيماني وعقدي وشكرُ نداك ديني وانتحالي
كما قد صَحَّ للّه انقطاعي بتأميلي جَنابك وارتحالي
وما يبقى سوى فعلٍ جميلٍ وحالُ الدهرِ لا تبقى بحال
وكلُّ بدايةٍ فإلى انتهاءٍ وكلُّ إقامةٍ فإلى ارتحال
ومَنْ سام الزمانَ دوامَ أمرٍ فقد وقف الرجاءَ على المحال

وقال رحمه اللّه تعالى في الضَّرَاعة إلى ربّه، والاعتراف بذنبه[3]: [الكامل]

مولاي، إن أذنبتُ يُنكَرُ أن يُرَى منكَ الكمالُ ومنّيَ النُّقصانُ
والعفوُ عن سببِ الذنوبِ مسبَّبٌ لولا الجنايَةُ لم يكن غفران

وقال رحمه اللّه تعالى[4]: [الطويل]

سلامٌ على تلك المرابع؛ إنها معاهدُ أُلاَّفي وعَهْدُ صحابي
ويا أسة المغنى انْعَمِي فلطالما سكبتُ على مثواك ماء شبابي

= شاء اللّهُ صابرًا ولا أَعْصِي لكَ أمرًا ﴾. سورة الكهف ١٨، الآية ٦٩.

(١) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٦١).

(٢) المصدر نفسه (ص ٢٧١).

(٣) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢١١).

(٤) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٦).

وقال سامحه الله تعالى: [الوافر]

أموطنيَ الذي أُزعِجْتُ عنه ... ولم أُرزأ[1] به مالاً ولا دَمْ
لئن أُزعجتُ عنك بغير قصدٍ ... فقبليَ فارَقَ الفردوسَ آدمْ

ومن ميلادياته رحمه الله تعالى قوله[2]: [الخفيف]

ما على القلب بعدكم من جُنَاحِ ... أن يُرى طائرًا بغير جَناحِ
وعلى الشوق أن يَشُبَّ إذا هبَّ بأنفاسكم نسيمُ الصباح
جيرةَ الحيِّ، والحديثُ شجونٌ[3] ... والليالي تلينُ بعد الجماح
أترون السُّلُوَّ خامرَ قلبي ... بعدكم[4]؟ لا وفالقِ الإصباح
ولَوَ انِّي أُعْطَى اقتراحي على الـ ... ـأيام ما كان بُعْدُكم باقتراحي[5]
ضايَقَتْني فيكم صروفُ الليالي ... واستدارَتْ عليَّ دَورَ الوِشاح
وسَقَتْني كأسَ الفراق دِهاقًا ... في اغتباقٍ مُواصَلٍ واصطباح[6]
واستباحَتْ من جِدَّتي وفَتائي[7] ... حَرَمًا لم أخَلْه بالمُسْتَباح

ومنها:

يا ترى والنفوسُ أسرى أمانٍ[8] ... ما لها من وَثَاقها من سَرَاحِ
هل يُباحُ الورودُ بعد ذيادٍ[9] ... أو يُتاحُ اللقاءُ بعد انتزاح
وإذا أعوز الجسومَ التلاقي ... نابَ عنه تعارفُ الأرواح

وهي طويلة لم يحضرني منها الآن سوى ما ذكرته.

---

(١) رزأ الرجلُ مالَهُ: أصاب منه شيئًا، أي نقصه. لسان العرب (رزأ).
(٢) الإحاطة (ج ٤ ص ٤٦٩ - ٤٧٠).
(٣) أخذه من المثل: «الحديث ذو شُجُون» أي ذو فنون وأغراض. مجمع الأمثال (ج ١ ص ١٩٧) ولسان العرب (شجن).
(٤) في الإحاطة: «بِعَذْلكم».
(٥) في الإحاطة: «باقتراح».
(٦) في الإحاطة: «باصطباح». والكأس الدِّهاق: الممتلئة. محيط المحيط (دهق).
(٧) في الإحاطة: «وقبائي».
(٨) في الإحاطة: «الأماني».
(٩) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٣٤): «ديار».

وقد حذا حَذْوَهَا الفقيهُ الكاتب أبو زكريا يحيىٰ بن خلدون أخو قاضي القضاة ولي الدين بن خلدون صاحب التاريخ، فقال في مولد عام ثمانية وسبعين وسبعمائة، واستطرد لمدح السلطان أبي حمّو موسى صاحب تلمسان الذي تقدّم ذكره قريبًا[1]: [الخفيف]

ما على الصبّ في الهوى من جُناحِ … أن يُرى خِلْفَ عبرةٍ وافتضاحِ
وإذا ما المحبُّ عِيلَ اصطبارًا … كيف يُصغي إلى نصيحةِ لاحِ[2]
يا رعى اللّه بالمحصَّبِ[3] رَبعًا … آذنتْ عهده النوى بانتزاحِ
كم أدرْنا كأسَ الهوى فيه مزحًا[4] … ربَّ جِدٍّ من الجوى في المزاح
هل إلى رَسْمِهِ المحيلِ سبيلٌ … يا حُدَاة المطيِّ تلك الطِّلاح
نسألُ الدارَ بالخليط ونسقي … ذلك الربْعَ بالدموعِ السِّفاح
أيّ شجو عايَنْتُ بعد نوَاها … من أسًى لازمٍ وصبرٍ مزاح
أهْلَ ودِّي إنْ رابكم بَرْحُ وجدي … من صبا بارقٍ وبرقٍ لياح
فاسألوا البرقَ عن خفوقِ فؤادي … والصبا عن سَقام جسمي المتاح
يا أُهَيلَ الحمى نداءَ مشوقٍ … ما له عن هوى الدُّمْى من بَرَاح
طالما استعذبَ المدامعَ وِرْدًا … في هواكم عن كلِّ عذب قَراح
عاده بالطلولِ للشوقِ عيدٌ … من حَمامٍ بدوحهنَّ صداح
من لِقَلبٍ من الجوى في ضِرامٍ … ولجفنٍ من البكا في جراح
ولِصَبٍّ يهيجُهُ الذكرُ شوقًا … فهو سكرًا يرتادُ من غير راحِ
وليالٍ قضيتُ للهوِ فيها … وَطَرًا والشبابُ ضافي الجناح
راكبًا في الهوى ذَلُولَ تَصابٍ[5] … ساحبًا في الغرام ذيلَ مراح
ونجومُ المُنى تنيرُ إلى أن … روَّعَ الشيبُ سِرْبَها بالصباح
أيُّ مَسْرًى حمدتُ لم أخلُ منه … بسوى حسرةٍ وطولِ افتضاح

---

(١) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٣٩).

(٢) عِيلَ اصطبارًا: نفد صبره. اللاحي: اللائم. لسان العرب (عيل) و (لحى).

(٣) المحصّب: موضع بين مكة ومِنى، وهو إلى مِنى أقرب. معجم البلدان (جـ ٥ ص ٦٢).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٣٤): «مزجًا» بالجيم المعجمة.

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٣٥): «تقاب».

واخَسَارِي يومَ القيامةِ إن لم ... يَغْفِرِ اللَّه زَلَّتي واجتراحي[1]

لم أُقَدِّمْ وسيلةً فيه إلاَّ ... حبَّ خيرِ الورى الشفيعِ الماحي

سيِّد العالمين دنيًا وأُخرى ... أشرفُ الخلق في العلا والسماح

سيِّد الكونِ من سماءٍ وأرضٍ ... سِرُّهُ بين غايةٍ وافتتاح

زهرةُ الغيب مظهرُ الوحي معنى الـ ... ـنور كنهُ المشكاةِ والمصباح

آيةُ المكرماتِ قطبُ المعالي ... مصطفى اللَّه من قريشِ البطاح

أولُ الأنبياءِ تخصيصَ زُلْفَى ... آخرُ المرسلين بَعْثَ نجاح

صفوةُ الخلق أرفعُ الرُّسل قدرًا ... وسراج الهدى وشمس الفلاح

من لميلاده بمكةَ ضاءتْ ... من قرى قيصرٍ جميعُ الضواحي

وخَبَتْ نارُ فارسٍ وتداعَتْ ... من مَشِيدِ الإيوانِ كلُّ النواحي

من رَقَى في السماء سبعًا طباقًا ... ورأى آيَ ربِّه في اتّضاح

ودَنَا منه قابَ قوسينِ قربًا ... ظافرًا في العُلا بكلِّ اقتراح

مَنْ هدى الخلقَ بين حمرٍ وسودٍ ... وجَلا ليلَ غَيِّهِمْ بالصباح

مَنْ يجيرُ الورى غَدًا يوم يجزى ... كلُّ عاصٍ وطائعٍ باجتراح

من إلى حوضِهِ وظلُّ لواه ... يلجأ الناس بين ظامٍ وضاحي[2]

أحمدُ المجتبى حبيبًا، وأنَّى ... فوق عزِّ الحبيب مَرْمَى طماحِ

في أناجيله المسيحُ تلاهُ ... باسمه، والكليمُ[3] في الألواحِ

ولَكَمْ حجّةٍ وبرهانِ صدقٍ ... في سماعٍ أتى بها والتماح

إنَّ في النجم والنباتِ لآيَا ... بَهَرَتْ والجمادِ والأرواحِ

معجزاتٌ فُتْنَ المدارك وَصْفًا ... وحسابًا كالزُّهرِ أو كالصباح

يا رواةَ القريضِ والشعرِ عجزًا ... ما عسى تدركون بالأمداح

إنما حسبنا الصلاة عليه ... وهي للفوز آيةُ استفتاح

---

(١) الاجتراح: ارتكاب الإثم. لسان العرب (جرح).

(٢) ظامٍ: أصل القول: ظامىء وهو العطشان. الضاحي: المتعرّض للشمس والحر. لسان العرب (ضحى).

(٣) الكليم: هو كليم اللَّه تعالى موسى عليه الصلاة والسلام، كما في قول اللَّه: ﴿وكَلَّمَ اللَّهُ موسى تَكْلِيمًا﴾. سورة النساء ٤، الآية ١٦٤.

يـا إلـهـي بـحـقّ أحـمـدَ عـفـوًا ... عـن ذنـوب جـنـيـتـهـنّ قـبـاح

وأدمْ دولـةَ الـخـلـيـفـة مـوسـى ... ذي الـمـعـالي الـمـبـيـنـة الأوضاح

مفخرُ الـمـلـك مُسْتَقَرُّ الـمـزايا ... مظهرُ اللطف ذو التُّقى والصلاح

ناصرُ الحَقّ خاذلُ الجورِ عدلاً ... مَلْجَأ الخائفين بحرُ السماح

يتلقّى الندى بوجهٍ حَيِيّ ... ويلاقي العدا بباس صفاح

وله المكرماتُ إرثًا ولبسًا ... حازَ حمدًا بها مُعَلّى القِداح

من عُلاً باذخٍ وفخر صميم ... وكمال بحتٍ ومجد صُرَاح

وأحاديثُ في المعالي حسان ... رُوِيَتْ عنه في العوالي الصِّحاح

عاقدٌ صفقةَ العُلا كلَّ حينِ ... فائز فيه سَعْيُهُ بالرباح

للندى والهُدَى يَرُوحُ ويغدو ... أيّ مغدًى إلى العُلا ومَرَاح

ملكٌ تشرقُ الأسرّةُ منه ... في سماء السرير نورَ صباح

وإذا ما عَلاَ بعالي العوالي ... صَهْوَةَ الجُرْدِ فهو ليثُ الكفاح

لبس الدهرُ منه حُلّةَ حسن ... وثنى للسرور عِطْفَ مراح

وعلى عاتِقِ الخلافة منه ... طرزُ فخر سبى النُّهى بالتماح

ورث الملكَ شامخًا عن سراةٍ ... شيّدوا رُكْنَهُ بأيدي الصفاح[1]

من بني القاسم الذين تحلّوا ... بالمعالي واستأثروا بالفلاح

فَرَعُوا هضبةَ الخلافةِ مجدًا ... وَرَفَعُوا سَقْفَهُ على الأرماح

نشروا رايةَ المفاخر حمدًا ... خافقَ النور بالرُّبا والبِطاح

يا إمامًا بَذَّ الملوكَ جلالاً ... وجمالاً فُدِيتَ بالأرواح

أنت شمس الكمال دمت عليها ... في اغتباقٍ من المنى واصطباح

وبنوكَ الأعلون أنجمُ سعد ... زاهرات بنورك الوضّاح

وأبو تاشفين بَدْرٌ منيرٌ ... زانه اللّه بالخلالِ الصِّباح

أكمل العالمين خَلْقًا وخُلْقًا ... أشرف الناس في الندى والكفاح

وبكم زيّنت سماء المعالي ... واهتدى الناس في الدُّجى والصباح

---

(١) الصفاح: جمع صفح وهو عرض السيف، والمراد السيوف.

وكان السلطان أبو حمّو الممدوح بهذه القصيدة يحتفل لليلة مولد رسول الله ﷺ غاية الاحتفال، كما كان ملوك المغرب والأندلس في ذلك العصر وما قبله.

ومن احتفاله له ما حكاه شيخُ شيوخ شيوخنا الحافظ سيدي أبو عبد الله التنسي ثم التلمساني في كتابه «راحُ الأرواح، فيما قاله المولى أبو حمّو من الشعر وقيل فيه من الأمداح، وما يوافق ذلك على حسب الاقتراح» ونصُّه: أنه كان يُقيم ليلة الميلاد النبوي ـ على صاحبه الصلاة والسلام! ـ بمشورة من تلمسان المحروُسة مَدْعاة حفيلة يحشر فيها الناس خاصة وعامة، فما شئت من نَمَارِقَ مصفوفة، وزَرَابيِّ مبثوثة، وبُسُطٍ مُوَشَّاة، ووسائد بالذهب مغشّاة، وشمع كالأسطوانات، وموائد كالهالات، ومباخر منصوبة كالقباب، يَخَالُها المبصرُ تبرًا مذاب، ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة، كأنها أزهار الربيع المنمنمة، فتشتهيها[1] الأنفس وتستلذّها النواظر، ويخالط حسن رَيَّاها الأرواح ويخامر، رُتِّبَ الناسُ فيها على مراتبهم ترتيبَ احتفال، وقد علت الجميعَ أُبهة الوقار والإجلال، وبعقب ذلك يحتفل المسمعون بأمداح المصطفى عليه الصلاة والسلام، ومكفّرات[2] ترغّب في الإقلاع عن الآثام، يخرجون فيها من فنّ إلى فن ومن أسلوب إلى أسلوب، ويأتون من ذلك بما تطرب له النفوس وترتاح إلى سماعه القلوب، وبالقرب من السلطان رضوان الله تعالى عليه خزانة المنجانة[3] قد زخرفت كأنها حُلّة يمانية، لها أبواب موجفة[4] على عدد ساعات الليل الزمانية، فمهما مضت ساعة وقع النَّقْر بقدر حسابها، وفتح عند ذلك بابٌ من أبوابها، وبرزت منه جارية صُوّرت في أحسن صورة، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة بأسمها مسطورة، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة، ويُسْرَاها على فمها كالمؤدية بالمُبَايعة حقّ الخلافة، هكذا حالهم إلى انبلاج عَمُود الصباح، ونداء المنادي حيَّ على الفلاح؛ انتهى.

وقال التنسي المذكور في كتابه المسمّى بـ «نظم الدُّرِّ والعقْيان، في شرف بني زَيَّان، وذكر ملوكهم الأعيان» ما نصُّه: وكان السلطان أبو حمّو يقوم بحقّ ليلة مولد المصطفى

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٦ ص ٥١٣): «تشتهيها».
(٢) المكفرات: شعر يقال في التزهيد، وتشبه «الممحصات».
(٣) المنجانة: الساعة بلغة أهل المغرب والأندلس.
(٤) الأبواب الموجفة: المغلقة. لسان العرب (وجف).

ﷺ، ويحتفل لها بما هو فوق سائر المواسم، يقيم مَدْعَاة[1] يحشر لها الأشراف والسوقة، فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابيّ مبثوثة[2]، وشمع كالأسطوانات، وأعيان الحضرة على مراتبهم تطوف عليهم وِلْدَان قد لبسوا أقبية الخزّ الملوّن وبأيديهم مباخر ومرشا[3] ينال كل منها بحظّه، وخزانة المنجانة ذات تماثيل لُجَين محكمة الصنعة، بأعلاها أيكة تحمل طائرًا فرخاه تحت جناحيه، ويختلُه فيها أرقم خارج من كُوَّة بجذر الأيكة صاعدا، وبصدرها أبواب مرتجة[4] بعدد ساعات الليل الزمانية، يصاقب طرفيها بابان كبيران، وفوق جميعها دُوَيْن رأس الخزانة قمر أكمل يسير على خطّ الاستواء سير نظيره في الفلك، ويُسَامت[5] أول كل ساعة بابها المرتَج، فينقض من البابين الكبيرين عُقَابان في يد كلّ واحد منهما صنجة صُفْر يلقيها إلى طست من الصفر مُجَوَّف بوسطه ثقب يفضي بها إلى داخل الخزانة فيرنّ، وينهش الأرقم أحد الفرخين، فيصفر له أبوه، فهناك يُفتح باب الساعة الذاهبة، وتبرز منه جارية محتزمة كأظرف ما أنت راءٍ، بيُمْنَاها إضبارة فيها اسم ساعتها منظومًا، ويُسْرَاها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة، والمُسْمِع قائم ينشد أمداح سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا محمد ﷺ، ثم يؤتى آخر الليل بموائد كالهالات[6] دَورًا، والرياض نَورًا، وقد اشتملت من أنواع محاسن المطاعم على ألوان تشتهيها الأنفس وتستحسنها الأعين، وتلذُّ بسماع أسمائها الآذان، ويَشْرَهُ مبصرها للقرب منها والتناول وإن كان ليس بغَرْثَان[7]، والسلطان لم يفارق مجلسه الذي ابتدأ جلوسه فيه، وكل ذلك بمرأى منه ومَسْمَع حتى يصلي هنالك صلاة الصبح. على هذا الأسلوب تمضي ليلة المصطفى ﷺ في جميع أيام دولته، أعلى اللّه تعالى مقامه في علِّيِّين! وشكر له في ذلك صنيعه الجميل آمين! وما من ليلة مولد مرّت في أيامه إلاّ ونظم فيها قصيدًا في مديح مولد المصطفى ﷺ، أول ما

---

(١) المدعاة: الدعوة. لسان العرب (دعا).

(٢) أخذه من قوله تعالى: ﴿ونَمارِقُ مَصْفُوفَةٌ، وزَرابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾. سورة الغاشية ٨٨، الآيتان ١٥، ١٦.

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٣٨): «ومرشاة».

(٤) الأبواب المرتجة: المغلقة. لسان العرب (رجج).

(٥) يسامت: أصل القول: لزم السمت، والسمت: الطريق. ويستعمل الفلكيون وعلماء الخرائط فعل سامت يسامت بمعنى يقابل. لسان العرب (سمت).

(٦) الهالات: جمع هالة وهي الدارة حول القمر. محيط المحيط (هول).

(٧) الغَرْثانُ: الجائع. محيط المحيط (غرث).

يبتدىء المسمع في ذلك الحفل العظيم بإنشاده، ثم يتلوه إنشاد مَنْ رفع إلى مقامه العلي في تلك الليلة نظمًا؛ انتهى وهو أتم مَسَاقًا مِمّا في «راح الأرواح».

ولا بأس أن نلمّ ببعض المقطوعات التي أنشأها الكاتب أبو زكريا يحيىٰ بن خلدون المذكور على لسان جارية المنجانة في مخاطبة السلطان أبي حمّو معلمة بما مَرَّ من ليل، ففي مضي ساعتين قوله[1]: [الكامل]

أخليفةَ الرحمن والمَلِك الذي ... تعنو لعزِّ عُلاَه أملاكُ البَشَرْ
للّه مجلسك الذي يحكي عُلاً ... بكَ مالكي أفق السماء لمن نظرْ
أوَ ما ترى فيه النجومَ زواهرًا ... وَجْهُ الخليفةِ بينهنَّ هو القَمَرْ
والليلُ منه ساعتان قد انقضتْ ... تثني عليك ثَنَا الرياضِ على المَطَرْ
لا زال هذا الملكُ منصورًا بكمْ ... وبَلَغْتَ مِمَّا ترتجي أسنى الوَطَرْ

وقوله في مضي ثلاث ساعات: [المتقارب]

أمولايَ يا ابنَ الملوك الأُلى ... لهم في المعالي سَنيُّ الرُّتَبْ[2]
تولَّتْ ثلاثٌ من الليلِ أبقتْ ... لكَ الفَخْرَ في عُجمها والعربْ
فَدُمْ حجّةَ اللّهِ في أرضه ... تنال الذي شِئْتَهُ من أربْ

وقوله في مضي ست ساعات: [المجتث]

يا ماجدًا وهو فردٌ ... تخاله في عساكرْ
ستٌّ من الليل وَلَّتْ ... ما إن لها من نظائرْ
دامتْ لياليكَ حتى ... إلى المعادِ نواضرْ

وقوله في مضي ثماني[3] ساعات: [المجتث]

يا أكرمَ الخلْقِ ذاتًا ... وأشرفَ الناسِ أُسْرَهْ
مَرَّتْ ثمانٌ وأبقتْ ... في القلب منّيَ حَسْرَهْ

---

(١) هذه المقطوعة والمقطوعات الأربع التالية في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٢٤٦ - ٢٤٧).

(٢) سنيُّ الرُّتب: رفيع المنزلة. لسان العرب (سني).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٤٠): «ثمان».

فيهنَّ كان شبابي أخا نعيم ونَضْرَهْ
وَلَّى بها الدهر عني تُرَى لها بعدُ كَرَّهْ[1]
فالله يبقيكَ مولًى يطيل في السَّعْدِ عُمْرَهْ

وقوله في مضي عشر ساعات: [البسيط]

يا مالكَ الخيرِ والخيل التي حَكَمَتْ له بعزّ على الأيامِ مُقْتَبِلِ
هذا الصباح الذي لاحتْ بشائرُهُ والليل وَدَّعَنا توديعَ مرتحل
للّه عشرٌ من الساعاتِ باهرةٌ مضينَ لا عن قِلًى[2] منّا ولا ملل
كذا تمرُّ ليالي العمرِ راحلةً عنّا ونحن من الآمال في شُغُلِ
نمسي ونصبحُ في لهو نُسرُّ به جهلاً وذلك يُدْنينا من الأجل
والعمر يمضي ولا ندري فوا أسفي[3] عليه إذ مَرَّ في الآثام والزللِ
يا ليت شعري غدا كيف الخلاصُ به ولم نُقَدِّمْ له شيئًا من العمل
يا ربِّ، عَفْوَكَ عما قد جَنَتْه يدي فليس لي بجزاء الذنبِ من قِبَلِ
يا ربِّ وانصرْ أميرَ المسلمين أبا حمّو الرضا وأنله غايَةَ الأمل
وأبقِ في العِزِّ والتمكين مدّتَهُ وأعلِ دولته الغَرَّا على الدول

رجع إلى نظم لسان الدين رحمه اللّه تعالى، فنقول:

وأمّا مُوَشَّحاته وأزجاله فكثيرة، وقد انتهت إليه رياسة هذا الفن، كما صرّح بذلك قاضي القضاة ابن خلدون في مقدمة تاريخه الكبير، ولنذكر بعضَ كلامه، إذ لا يخلو من فائدة زائدة، قال رحمه اللّه تعالى ما ملخّصُه[4]: وأمّا أهلُ الأندلس فلمّا كثر الشعر في قُطْرهم، وتهذَّبَتْ مناحيه وفنونه، وبلغ التنميقُ فيه الغايةَ، استحدثَ المتأخِّرونَ منهم فنًّا منه سَمَّوه بالموشّح، ينظمونه أسماطًا أسماطًا وأغصانًا أغصانًا، يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويُسَمّون المُتَعَدِّدَ منها بيتًا واحدًا، ويلتزمون عدد قوافي تلك الأغصان وأوزانها

(١) الكَرَّة: الرجعة. لسان العرب (كرر).
(٢) القلى: البغض. لسان العرب (قلا).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٦ ص ٥١٧): «فوا أسفا».
(٤) العبر (م ١ ص ١١٣٧ ـ ١١٤٠).

متتاليًا فيما بَعْدُ إلى آخر القطعة[١]، وأكثر ما ينتهي[٢] عندهم إلى سبعة أبيات[٣]، ويشتمل كل بيت على أغصان عددُها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها، ويمدحون، كما يُفعَلُ في القصائد. ويتجاوزون[٤] في ذلك إلى الغاية، واستَظْرَفَهُ الناسُ وجملة[٥] الخاصة والكافة؛ لسهولة تناوله، وقرب طريقه. وكان المخترِعُ لها بجزيرة الأندلس مقدّم بن معافى القبري[٦] من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني، وأخذ[٧] عنه ذلك ابنُ عبد ربه صاحب العقد، ولم يُذْكَرْ لهما مع المتأخرين ذكر، وكسدت موشّحاتُهما، فكان أول من برع في هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز شاعر المعتصم بن صُمَادح صاحب ألمَرِيَّة. وقد ذكر الأعلم البَطَلْيَوسي أنه سمع أبا بكر بن زُهْر[٨] يقول: كلُّ الوشّاحين عِيالٌ على عبادة القزاز فيما اتّفق له من قوله:

بَـدْرُ تـمٌّ شـمـس ضُـحـى غُـصْـنُ نَـقًـا مـسـك شَـمّْ
مـا أتَـمّ مـا أوضَـحـا مـا أوْرَقَـا مـا أنـمّ
لا جَـرَمْ مَـنْ لَـمَـحَـا قـد عَـشِـقـا قـد حُـرِمْ

وزعموا أنه لم يَسْبُقْ عبادةَ وشاحٌ من معاصريه الذين كانوا في زمان[٩] ملوك الطوائف. وجاء مُصَلِّيًا خَلْفَهُ منهم ابنُ أرفع[١٠] رأسه شاعر المأمون بن ذي النون، صاحب طُلَيطلة. قالوا: وقد أحسنَ في ابتدائه في الموشحة[١١] التي طارت له حيث يقول:

العودُ[١٢] قد تَرَنَّمْ بأبدعِ تلحينْ وشقّتِ[١٣] المذانبْ رياضَ البساتينْ

---

(١) يسمّي الموشحَ قطعةً.

(٢) في العبر: «تنتهي».

(٣) الأبيات هنا بمعنى «المعاني».

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٥): «وتجاوزوا». وفي العبر: «وتجاروا».

(٥) في طبعة دار صادر: «وحمله». وفي العبر: «جملة».

(٦) في العبر: «معافر القبريريّ».

(٧) في العبر: «وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربّه، صاحب كتاب العِقْد ولم يظهر لهما مع المتأخرين ذكر».

(٨) في العبر: «زهير».

(٩) في العبر: «زمن الطوائف».

(١٠) في العبر: «ابنُ رافع، رأسُ شعراء المأمون. .».

(١١) في العبر: «موشحته».

(١٢) كلمة «العود» ساقطة من طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٤٢).

وفي انتهائه حيث يقول:

تَخْطِر ولم[1] تُسَلِّمْ عَساكَ المأمونْ مُرَوِّع الكتائبْ يحيىٰ بن ذي النونْ

ثم جاءت الحَلْبة التي كانت في مدة[2] الملثَّمين فظهرت لهم البدائعُ، وفُرْسان[3] حلبتهم: الأعمى التطيلي، ثم يحيىٰ بن بَقي، وللتطيلي[4] من الموشحات المذهبة قوله[5]:

كيف السبيلُ إلىٰ صبري وفي المعالم أشجانُ
والركبُ وَسْطَ الفَلاَ بالخرّد النواعم قد بانوا[6]

وذكر غير واحد من المشايخ أنّ أهل هذا الشأن بالأندلس يذكرون أنّ جماعة من الوشّاحين اجتمعوا في مجلس بإشبيلية، وكان كلُّ واحدٍ منهم قد صنع[7] موشحة وتأنّق فيها، فتقدّم الأعمى التُّطيلي[8] للإنشاد، فلمَّا افتتح موشحته المشهورة بقوله[9]:

ضاحِكٌ عن جُمَانْ سافرٌ عن بَدْرِ
ضاقَ عنه الزمانْ وحَواه صدري

خَرّق[10] ابنُ بقي موشحته، وتبعه الباقون.

=(١٣) في العبر: «وسقت».

(١) في العبر: «ولا تسلّم».

(٢) في العبر: «في دولة».

(٣) في العبر: «وسابق فرسان حلبتهم الأعمى الطليطلي».

(٤) في العبر: «وللطليطلي».

(٥) الموشحة في ديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣).

(٦) في العبر: «بان».

(٧) في العبر: «منهم اصطنع».

(٨) في العبر: «الطليطلي».

(٩) الموشحة في ديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤) ودار الطراز (ص ٥٧ ـ ٥٨) وجيش التوشيح (ص ١٦ ـ ١٨) والمغرب (جـ ٢ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤). وتقدم هذا المطلع في الجزء السادس والجزء الرابع.

(١٠) في العبر: «حرق».

وذكر الأعلمُ البَطَلْيَوسي أنه سمع ابن زُهْر يقول: ما حسدتُ قطُّ وشّاحًا على قولٍ إلاّ ابن بقي حين وقعَ له[1]:

أَمَا تـرى أحـمـدْ في مَجْده العالي لا يُلْحَقْ
أَطْـلَـعَـهُ الـمَـغـرِبْ[2] فأرِنا مِـثْـلَـهُ يـا مَـشْـرِقْ

وكان في عصرهما من الوشّاحين[3] المطبوعين أبو بكر الأبيض، وكان في عصرهم[4] أيضًا الحكيمُ أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة. ومن الحكايات المشهورة أنه حضر مجلس مخدومه ابن تِيفَلْوِيت صاحب سَرَقُسْطة، فألقى[5] عليه بعض موشحته:

جَـرِّرِ الـذيـلَ أيـمـا جَـرّ [وصِلِ السكرَ منك بالشُّكْرِ][6]

فطرب الممدوح لذلك، وختمها بقوله[7]:

عـقـد الـلّـهُ رايةَ الـنـصـرِ لأمـيـرِ الـعُـلا أبـي بَـكْـرِ

فلمّا[8] طرق ذلك التلحين سَمْعَ ابن تيفلويت صاح: «واطرباه» وشَقَّ ثيابه، وقال: ما أحسن ما بدأتَ وما ختمتَ، وحلفَ الأيمان[9] المغلظة أن لا يمشي ابنُ باجة لداره إلاّ على الذهب، فخاف الحكيم سوءَ العاقبة، فاحتال بأنْ جعلَ ذهبًا في نَعْلِهِ ومشى عليه.

ثم قال ابن خلدون بعد كلام[10]: واشتهر بعد هؤلاء في صدر دولة الموحِّدين محمد

---

(١) هي الخرجة، والموشحة في ديوان الأعمى التطيلي (ص ٢٧٠- ٢٧٢). وهي في دار الطراز (ص ٨٦- ٨٧) منسوبة إلى ابن بقي.

(٢) في ديوان الأعمى التطيلي وفي دار الطراز: «الغرب».

(٣) في العبر: «الموشحين».

(٤) في العبر: «عصرهما».

(٥) في العبر: «فألقى على بعض قيناته موشحته التي أولها».

(٦) ما بين قوسين ساقط من طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٤٣). وفي العبر: «وصل الشُّكْرَ منكَ بالشُّكْرِ».

(٧) في العبر: «فلمّا ختمها بقوله».

(٨) في العبر: «وطرق ذلك».

(٩) في العبر: «بالأيمان المغلظة لا يمشي.. إلى داره».

(١٠) العبر (م ١ ص ١١٤٢).

ابن أبي الفضل بن شَرَف، إلى أن قال[1]: وابن هَرَوْدَس[2] الذي له:

يا ليلةَ الوصلِ والسعودِ بــالـلّــه عــودي

وابن مؤهل[3] الذي له:

ما العيدُ في حُلَّةٍ وطاقِ وشــمٍّ طِــيــبْ
وإنما العيدُ في التلاقي مــعَ الــحــبــيــبْ

وأبو إسحٰق الدويني[4]. قال ابن سعيد: سمعتُ أبا الحسن سهلَ بن مالك يقول: إنه دخلَ على ابن زُهْر، وقد أسنَّ، وعليه زِيُّ البادية، إذ كان يَسْكُنُ بحصن سبتة[5]، فلم يَعْرِفْهُ، فجلسَ حيث انتهى به المجلس، وجَرَّت المحاضرة أن أنشد لنفسه موشحة وقع فيها:

كحلُ الدُّجى يجري مِنْ مُقْلَةِ الفَجْرِ عــلــى الــصــبــاحْ
ومِعْصَمُ النهرِ في حُلَلٍ خُضْرِ مِــنَ الــبِــطــاحْ

فتحرّك ابن زُهْر، وقال: أنت تقول هذا؟ قال: اختبرْ، قال: ومن تكونُ؟ فأخبره[6]، فقال: ارتفعْ، فوالله ما عرفتكَ.

قال ابن سعيد: وسابِقُ الحَلْبة التي أدركتُ هو أبو بكر بن زُهْر، وقد شَرَّقَتْ موشحاتُهُ وغرَّبَتْ. قال: وسمعتُ أبا الحسن سهلَ بن مالك يقول: قيل لابن زُهْر: لو قيل لك: ما أبْدَعَ ما وقعَ لك في التوشيح[7]؟ فقال: كنتُ أقول:

مــا لِــلــمــولَّــهْ من سُكْرِهِ لا يُفِيقْ؟ يــا لــه سَــكْــرانْ

---

(١) العبر (م ١ ص ١١٤٢).

(٢) هو أبو الحكم إبراهيم بن علي بن هَرَوْدَس الأنصاري، من أهل مَرْشانة من عمل المرية، وسكن مالقة، وتوفي بمراكش سنة ٥٧٢ هـ. المقتضب من كتاب تحفة القادم (ص ١٠٧). وكذلك جاء في المغرب (جـ ٢ ص ٢١٠): ابن هَرَوْدَس، أي بتقديم الواو على الدال، وسماه ابن سعيد: أحمد.

(٣) ترجم له ابن سعيد في المغرب (جـ ٢ ص ٣٩٠) باسم «ابن مُوهَد الشاطبي» وأورد له موشحة.

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٨): «الزويلي». وفي العبر: «الرديني».

(٥) في العبر: «أستبه».

(٦) في العبر: «فعرّفه».

(٧) في العبر: «التوشيح ما كنت تقول؟ قال..».

مِـنْ غـيـر خَـمْـرِ ما للكئيبِ المَشُوقْ يَنْدُبُ الأوطانْ

هل تُستعاذْ أيامُنا بالخليجْ ولياليـنا

إذ[1] يُستفادْ مِنَ النسيمِ الأريجْ مِسْكُ دَارِينا

وإذْ يَكادْ حُسْنُ المكانِ البهيجْ أن يُحَيِّينا

روض[2] أظَلَّهْ دَوحٌ عليه أنيقْ مورق[3] الأفنانْ

والماء يجري وعائِمٌ وغريقْ من جنى الريحانْ

واشتهر بعده ابن حيون. إلى أن قال[4]: وبعد هؤلاء ابن حزمون بمُرْسية. ذكر ابن الرائس أنَّ يحيىٰ الخزرجي دخل عليه في مجلسه، فأنشده موشحة لنفسه، فقال له ابن حزمون: ما الموشح[5] بموشح حتى يكون عاريًا من التكلّف. فقال: على مثل ماذا؟ فقال: على مثل قولي:

يا هاجري، هل إلى الوصالِ منكَ سبيلْ

أو هل يرى[6] عَنْ هَواكَ سالِ[7] قَلْبُ العليلْ

وأبو الحسن سهل بن مالك بغَرْنَاطة؛ قال ابن سعيد: كان والدي يعجب بقوله:

إنَّ سَيْلَ الصباح في الشرقِ عادَ بَحْرًا في أجمع الأُفقِ

فَتَداعَتْ نوادبُ الوُرْقِ أتراها خافَتْ من الغرقِ

فبكت سَحْرَةً على الورقِ

(١) في العبر: «أو».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٩): «نهرٌ».
(٣) في الطبعة نفسها: «مؤنق».
(٤) العبر (م ١ ص ١١٤٥ ـ ١١٥٢).
(٥) في العبر: «لا يكون الموشح... عن التكلف، قال: على... قال: على مثل قولي».
(٦) في العبر: «ترى».
(٧) في العبر: «سالي».

واشتهر بإشبيلية لذلك العهد أبو الحسن ابن الفضل؛ قال ابن سعيد عن والده: سمعتُ سهلَ بنَ مالك يقول له: يا ابن الفضل، لك على الوشّاحين الفضل، بقولك:

أوا حسرتي[1] لزمانٍ مضى عشيَّةَ بانَ الهَوَى وانْقَضَى
وأُفْرِدْتُ بالرغم لا بالرضا وبِتُّ على جَمَرات الغَضَا
أُعانق بالفكرِ تلك الطلولْ وألثُمُ بالوهمِ تلك الرُّسومْ

قال: وسمعتُ أبا بكر ابن الصابوني يُنْشِدُ الأستاذ أبا الحسن الدبّاج موشحاته غير ما مرّة، فما سمعْتُهُ يقول «للّه درّك» إلاّ في قوله:

قسمًا بالهوى لذي حِجْرٍ[2] ما لليل المشوق مِنْ فجرِ
جَمَدَ[3] الصبحُ ليس يُطْرَدْ ما لليلي فيما أظنُّ غَدْ
صَحَّ[4] يا لَيْلُ أنك الأبدْ
أو نقصت[5] قوادِمُ النسرِ فنجومُ السماء لا تسري

ومن موشحات ابن الصابوني قوله:

ما حالُ صبّ ضنًى واكتئابْ أَمْرَضَهُ يا ويلتاهُ الطبيبْ
عامَلَهُ محبوبُهُ باجتنابْ ثم اقتدى فيه الكَرَى بالحبيبْ
جفا جفوني النومُ لكنني لم أبْكِهِ إلاّ لِفَقْدِ الخيالْ
وذو الوِصالِ اليوم قد غرَّني منه كما شاء وشاءَ الوصالْ
فلستُ بالّلائم مَنْ صَدَّني بصورةِ الحقِّ ولا بالمحالْ

واشتهر ببرّ[6] العُدْوَة ابن خَلَف الجزائري صاحب الموشحة المشهورة:

يَدُ الإصباخ قد قَدَحَتْ زنادَ الأنوار من مَجامرِ الزهرِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٤٥): «أوا حسرتي». وفي العبر: «واحسرتا».
(٢) الحِجْرُ: العقل. لسان العرب (حجر).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٠): «خمد».
(٤) في العبر: «أصح».
(٥) في طبعة دار صادر: «تَقَضّتْ». وفي العبر: «قفصت».
(٦) في العبر: «ببرّ أهل العُدْوة».

وابن خزر[1] البجائيّ، وله من موشحة:

ثـغـرُ الـزمـانِ مـوافـقْ   حيّـاكَ[2] منه بابتسامْ

ومن محاسن الموشّحات موشحة ابن سَهْل شاعر إشبيلية وسبتة من بعدها[3]:

هل دَرَى ظَبْي الحِمَى أنْ قد حَمَى   قَلْبَ صبّ حَلَّه عن مَكْنَسِ
فَهْوَ في حَرّ وخَفْقٍ مثلما   لَعِبَتْ رِيحُ الصَّبا بالقَبَس

وقد نسج على منواله فيها صاحبُنا الوزيرُ أبو عبد اللّه ابنُ الخطيب، شاعرُ الأندلس والمغرب لعصره فقال[4]:

جادَكَ الغيثُ إذا الغَيثُ هَمَى   يا زمانَ الوَصْلِ بالأندلسِ
لم يكنْ وَصْلُكَ إلاّ حُلُمَا   في الكَرَى أو خِلْسَةَ المُخْتَلِسِ

* * *

إذ يقودُ الدهرُ أشتاتَ المُنَى   يَنْقُلُ الخَطْوَ على ما يَرْسُمُ[5]
زُمَرًا بين فُرادَى وثُنَا   مثل ما يدعو الوفودَ[6] الموسمُ
والحَيَا قد جَلَّل الروضَ سَنَا   فثغورُ الزَّهرِ[7] منه تَبْسِمُ
وروى النعمانُ عن ماءِ السَّمَا   كيف يَرْوي مالكٌ عن أَنَسِ
فَكَساهُ الحُسْنُ ثوبًا مُعْلَمَا   يَزدهي منه بأبهى مَلْبَسِ

* * *

---

(١) في العبر: «وابن خرز».
(٢) في العبر: «حياك».
(٣) هو مطلع الموشحة، والموشحة في ديوان ابن سهل، طبعة دار صادر (ص ٢٨٣) وسترد في هذا الجزء.
(٤) الموشحة هنا مكونة من تسعة أقفال وثمانية أبيات، وهي خارجة على ما جاء به ابن سناء الملك من أن الموشحة التامة تتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات. وموشحة ابن الخطيب هذه لم يكملها ابن خلدون، فأكملها المقري، وبذلك أصبحت مكونة من أحد عشر قفلاً ومن عشرة أبيات.
(٥) في العبر: «تنقل الخطو على ما ترسم».
(٦) في العبر: «الحجيجَ».
(٧) في العبر: «الأزهار».

في لـيـالٍ كَـتَـمَـتْ سِرَّ الـهـوى ... بـالـدُّجى لـولا شـمـوسُ الـغُـرَرِ[1]
مـالَ نـجـمُ الـكـأس فـيـهـا وهَـوَى ... مـسـتـقـيـمَ الـسَّـيْـرِ سَـعْـدَ الأثَـرِ
وَطَـرٌ مـا فـيـه مـن عَـيـبٍ سوى ... أنـه مَـرَّ كَـلَـمْـحِ الـبَـصَـرِ
حين لَـذَّ الأنسُ[2] شيئًا أو كما ... هَـجَـمَ الـصُّـبْـحُ هُـجُـومَ الـحَـرَسِ
غـارَتِ الـشُّـهْـبُ بـنـا أو ربّـما ... أثّـرَتْ فـيـنـا عُـيـونُ الـنَّـرْجِـسِ

* * *

أيُّ شـيءٍ لامـرىءٍ قـد خَـلَـصـا ... فـيـكـونُ الـروضُ قـد مُـكِّـنَ[3] فـيـهِ
تـنـهـبُ الأزهـارُ مـنـه الـفُـرَصَـا ... أَمِـنَـتْ مـن مَـكْـرِهِ مـا تـتَّـقـيـهِ
فـإذا الـمـاءُ تـنـاجَـى والْـحَـصَـى ... وخـلا كـلُّ خـلـيـلٍ بـأخـيـهِ
تُـبْـصِـرُ الـوردَ غَـيُـورًا بَـرِمَـا ... يـكـتـسي مـن غـيـظِهِ مـا يـكـتـسي
وتـرى الآسَ لـبـيـبًـا فَـهِـمـا ... يَـسْـرِقُ الـسَّـمْـعَ بـأدنـى فَـرَسِ

* * *

يا أُهَيْلَ الحَيِّ من وادي الغَضَا ... وبـقـلـبـي سَـكَـنٌ[4] أنـتـم بِـهِ
ضاقَ عن وَجْدي بكمْ رَحْبُ الفَضَا ... لا أُبـالـي شَـرْقَـهُ مِـنْ غَـرْبِـهِ
فـأَعِـيـدُوا عَـهْـدَ أُنْـسٍ قـد مـضـى ... تُـعْـتِـقُـوا عـانِـيَـكُـمْ[5] مِـنْ كَـرْبِـهِ
واتَّـقُـوا الـلَّـهَ وأَحْـيُـوا مُـغْـرَمَـا ... يَـتـلاشَـى نَـفَـسًـا فـي نَـفَـسِ
حَـبَـسَ الـقَـلْـبَ عـلـيـكُـمْ كَـرَمَـا ... أَفَـتَـرْضَـونَ عَـفَـاءَ الـحُـبُـسِ[6]

* * *

وبـقـلـبـي مـنـكُـمُ مُـقْـتَـرِبُ ... بـأحـاديـثِ الـمُـنَـى وَهْـوَ بَـعِـيـدْ
قَـمَـرٌ أطـلـعَ مـنـه الـمَـغْـرِبُ ... شَـقْـوَةَ الـمُـغْـرَى بـه وَهْـوَ سـعـيـدْ
قـد تـسـاوى مُـحْـسِـنٌ أو مُـذْنِـبُ ... فـي هـواهُ بـيـن وَعْـدٍ ووعـيـدْ

---

(١) في العبر: «القَدَرِ».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٤٧): «لذا الأنس». وفي العبر: «لَذَّ النوم».
(٣) في العبر: «كُنَّن فيه».
(٤) في العبر: «مَسْكِنٌ».
(٥) في العبر: «عبدكم».
(٦) في العبر: «خراب الحُبُسِ». والحُبُسُ: جمع حبيس وهو المال الموقوف. لسان العرب (حبس).

ساحرُ المُقْلَةِ مَعْسُولُ اللَّمَى جالَ في النَّفْسِ مَجالَ النَّفَسِ
سَدَّدَ السَّهْمَ وسَمَّى ورَمَى ففؤادي نُهْبَةُ المفترسِ

* * *

إن يكن جارَ وخابَ الأملُ وفؤادُ الصَّبِّ بالشوق يذوبْ
فَهْوَ للنَّفْسِ حَبيبٌ أولُ ليس في الحُبِّ لمحبوب ذُنُوبْ
أَمْرُهُ مُعْتَمِلٌ مُمْتَثَلُ في ضلوعٍ قد بَرَاها وقلوبْ
حَكَّمَ اللحظَ بها فاحتكما لم يراقبْ في ضِعافِ الأَنْفُس
منصف[1] المظلوم مِمَّنْ ظَلَمَا ومجازي البَرِّ منها والمُسِي

* * *

ما لقلبي كلما هَبَّتْ صَبَا عادَهُ عيدٌ من الشوق جديدْ
كان في اللوح له مُكْتَتَبا قوله: «إن عذابي لَشَديد»[2]
جَلَبَ الهَمَّ له والوَصَبَا فَهْوَ للأشجان في جَهْدٍ جهيدْ
لاعِجٌ في[3] أضلعي قد أُضْرِمَا فَهْيَ نارٌ في هَشِيمِ اليَبَسِ
لم يَدَعْ في مُهْجتي إلاَّ ذَمَا[4] كبقاءِ الصُّبْحِ بعد الغَلَسِ

* * *

سَلِّمي يا نَفْسُ في حُكْمِ القَضَا واعْمُرِي الوَقْتَ برُجْعَى ومَتابْ
دعك[5] من ذكرى زمانٍ قد مَضَى بين عُتْبَى[6] قد تَقَضَّتْ وعِتابْ
واصرفي القولَ إلى المولى الرِّضا مُلْهِمِ التوفيقِ في أُمِّ الكتابْ
الكريمِ المُنْتَهَى والمُنْتَمَى أسدِ السَّرْجِ وبَدْرِ المَجْلِسِ
يُنْزَلُ النصرُ عليه مثل ما يُنْزَلُ الوحيُ بروحِ القُدُسِ

* * *

(١) في العبر: «تُنْصِفُ... ويجازي البَرَّ...».
(٢) ترتيب هذا الجزء في العبر بعد الجزء التالي.
(٣) في العبر: «من أضلعي».
(٤) في العبر: «لم تَدَعْ من مهجتي...». والذَّماء: بقية الروح. محيط المحيط (ذمى).
(٥) في العبر: «ودَعي ذِكْرَ زمانٍ».
(٦) العُتْبَى: الرضا. لسان العرب (عتب).

إلى هذا الحَدِّ انتهى ابنُ خلدون من موشحة لسان الدين، ولا أدري لِمَ لم يكملْها، وتمامُها قوله:

مصطفى اللّه سَمِيُّ المُصْطَفَى — الغني باللّه عن كلِّ أحدْ
مَنْ إذا ما عَقَدَ العَهْدَ وَفَى — وإذا ما فُتِح[1] الخطبُ عقدْ
مِنْ بني قيسِ بن سعدٍ وكفى — حيث بَيْتُ النَّصْرِ مرفوعُ العَمَدْ
حيثُ بَيْتُ النصرِ محميُّ الحمى — وجَنَى الفضلِ زكيُّ المغرسِ
والهوى ظلٌّ ظليلٌ خيَّما — والندى هَبَّ إلى المغترسِ[2]

* * *

هاكها يا سبطَ أنصارِ العُلا — والذي إن عَثَر الدهرُ أقالْ
غادةً ألبسها الحسنُ مُلا — تبهرُ العينَ جِلاءً وصقالْ
عارضتْ لفظًا ومعنًى وحلى — قول من أنطقه الحبُّ فقالْ:
«هل دَرَى ظبيُ الحِمَىٰ أنْ قد حَمَى — قَلْبَ صَبّ حَلَّه عن مكْنَسِ[3]
«فَهْوَ في حَرّ وخَفْق مثل ما[4] — لَعِبَتْ ريحُ الصَّبا بالقَبَسِ»

* * *

ثم قال ابن خلدون[5]: وأما المشارقة فالتكلّف ظاهر على ما عانوهُ من الموشحات، ومن أحسن ما وقع لهم في ذلك موشحة ابن سناء الملك المصري التي اشتهرت شرقًا وغربًا، وأولها:

حبيبي[6] ارفعْ حجابَ النور — عن العذار
تَنْظُر المِسْكَ على كافور — في جلَّنار
كلّلي يا سُحْبُ تيجانَ الرُّبا بالحُلِي — واجْعَلي سِوارها[7] منعطفَ الجدولِ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٤٩): «قبح».
(٢) في الطبعة نفسها: «المعترس».
(٣) المكنس: مسكن الظباء. لسان العرب (كنس).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٤): «فهو في خَفْقٍ وحَرّ..».
(٥) العبر (م ١ ص ١١٥٣ ـ ١١٥٤).
(٦) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٤): «يا حبيبي».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٥٠): «سوارك».

ولـمَّا شاع فنُّ التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته، وتنميق كلامه، وتصريع أجزائه، نَسَجَتِ العامةُ من أهل الأمصار على مِنْوَاله، ونظموا في طريقتهم[1] بلغتهم الحَضَرِيّة من غير أن يلتزموا فيه إعرابًا، واستحدثوا فنًّا سمُّوه بالزجل[2]، والتزموا النظمَ فيه على مناحيهم إلى[3] هذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب، واتّسع فيه للبلاغة مجالٌ، بحسب لغتهم المستعجمة. وأوّل مَنْ أبدعَ في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان، وإن كانت قيلت قبله بالأندلس[4]، لكن لم تظهر حلاها، ولا انسبكت معانيها، واشتهرتْ رَشَاقتها، إلاَّ في زمانه. وكان لعهد الملثَّمين، وهو إمام الزجالين على الإطلاق؛ قال ابن سعيد: رأيت أزجاله مَرْوِيَّةً ببغداد أكثر مِمَّا رأيتُها بحواضر المغرب، قال: وسمعت أبا الحسن بن جَحْدر الإشبيلي[5] إمام الزجالين في عصرنا يقول: ما وقع لأحدٍ من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قزمان شيخ الصناعة، وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه، فجلسوا تحت عريش، وأمامهم تمثال أسد من رُخَام يُصَبُّ الماءُ[6] على صفائح من الحجر، فقال:

وعريشْ قد قامْ على دكّان	بحالْ رواقْ
وأسدْ قد ابتلغْ ثعبان	من غلظْ ساقْ
وفتحْ فمو بحالْ إنسان	بِه الفُوَاقْ[7]
وانطلقْ من ثم على الصفاح	وألقى الصياح

وكان ابن قزمان، مع أنه قرطبي الدار، كثيرًا ما يتردَّدُ إلى إشبيلية، وينتاب نهرها.

---

(١) في العبر: «بطريقته».

(٢) يقول ابن خلدون إن الموشح سبق الزجل في نشأته، ولكن الزجل أحرز بعد شيوع الموشح مكانة أدبية. ونحن نميل إلى أن الزجل، ظهر قبل الموشح لأنه في أصله أغنية شعبية. راجع كتابنا: مدخل إلى الأدب الأندلسي (ص ١٨٣ـ ١٨٤).

(٣) في العبر: «لهذا».

(٤) ظهر من الزجالين قبل ابن قزمان كل من ابن نمارة وابن راشد.

(٥) هو أبو الحسن علي بن جحدر، أكثر اشتهاره في الزجل، توفي سنة ٦٣٨ هـ. المغرب (جـ ١ ص ٢٦٧) واختصار القدح المعلى (ص ١٧٢).

(٦) في العبر: «يصبّ الماءَ من فيه على صفائح من الحجر متدرّجة فقال».

(٧) في العبر: «وفتح فمه... بيه الفراق».

إلى أن قال ابن خلدون[1]: وجاءت بعدهم حَلْبة كان سابقها مَدْغَلّيس[2]، وقعت له العجائب في هذه الطريقة، فمن قوله في زجله المشهور[3]:

ورذاذْ[4] دقْ ينــــزلْ ... وشُعاعْ الشمسْ يِضرَبْ
فَتَرَى الواحدْ يِفَضَّضْ ... وتَرَى الآخرْ يِذَهَّبْ
والنباتْ يِشْرَبْ ويِسْكَرْ ... والغُصُونْ تُرْقُصْ وتِطْرَبْ
وتريدْ تجي إلينا ... ثمّ تِسْتحي وتِرْجَعْ[5]

ومن محاسن أزجاله قوله:

لاح الضّيا والنجوم سكارى[6]

ثم قال[7]: وظهر بعد هؤلاء في[8] إشبيلية ابن جَحْدر الذي فَضُلَ على الزجّالين في فتح مَيُورقة بالزجل المشهور الذي أوّله[9]:

من يُعاند التوحيدْ بالسيف يمحق ... أنا بَرِي مِمَّنْ يعاندْ الحقّ

قال أبو سعيد: لقيتُهُ ولقيتُ تلميذه البعبع[10] صاحبَ الزجل المشهور الذي أوّلُه:

يا ليتني إن ريت حبيبي ... أفتل أذنو بالرسيلا[11]
لش[12] أخذ عنقْ الغزيّلْ ... وسَرَقْ فمّ الحُجَيْلا

---

(١) العبر (م ١ ص ١١٥٥ ـ ١١٥٦).

(٢) هو أحمد بن الحاج، ويعرف بِمَدْغَلّيس، كان في دولة الموحدين، وأزجاله مطبوعة. المغرب (جـ ٢ ص ٢١٤).

(٣) هذا الزجل في المغرب (جـ ٢ ص ٢٢٠).

(٤) في المغرب: «ورذاذًا».

(٥) في العبر: «وتهرب».

(٦) في العبر: «حيارى».

(٧) العبر (م ١ ص ١١٥٦ ـ ١١٥٧).

(٨) في العبر: «بإشبيلية».

(٩) في العبر: «أوله هذا».

(١٠) في العبر: «المعمع».

(١١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٦): «ليتني» أي بدون «يا». وفي طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٥١): «أقبل أذنو..». وفي العبر: «رأيت حبيبي».

(١٢) في العبر: «ليش».

ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سَهْل بن مالك إمام الأدب[1] ، ثم من بعدهم لهذه العصور صاحبُنا الوزيرُ أبو عبد الله ابن الخطيب إمام النظم والنثر في الملّة الإسلامية غير مدافَع، فمن محاسنه في هذه الطريقة:

امزجِ الأكواسْ واملالي تُجَدِّد[2] ... ما خُلِقَ المالْ إلاَّ أن يُبَدَّد

ومن قوله على طريقة الصوفية وينحو مَنْحَى الششتري منهم:

بين طلوعْ وبين نزولْ ... اختلطتْ الغزولْ
ومضى من لم يكنْ ... وبقي من لم يزولْ

ومن محاسنه أيضًا قوله في ذلك المعنى:

البعدْ عنّك يا ابني أعظمْ مصايبي ... وحين حَصَلْ لي قربك سَيَّبْت قاربي[3]

انتهى المقصود جلبه من كلام ابن خلدون، وقد أطال رحمه الله تعالى في هذا المقصد، ولم أُرد إيراد جميع كلامه لطوله وعدم تعلّق الغرض به، وفيما ذكرته منه كفاية لتعلّقه بأمر لسان الدين رحمه الله تعالى، وشهادته له أنه شاعر الإسلام غير مدافَع، وأنه انتهت إليه رياسة الصناعة الزجلية والتوشيحية.

وأبو بكر بن بَاجَّةَ الذي أشار إليه ابن خلدون: هو أبو بكر بن الصائغ التُّجيبي السَّرَقُسْطي، الذي قال في حقّه لسان الدين في «الإحاطة»[4]: إنه آخر فلاسفة الإسلام بجزيرة الأندلس. وكان بينه وبين الفتح بن خاقان صاحب «القلائد» معاداة فلذلك هجاه في القلائد، وجعله آخر ترجمة فيها إذ قال ما نصُّه[5]: الأديب أبو بكر بن الصائغ، هو رَمَدُ عين[6] الدين، وكَمَدُ نفوس المهتدين، اشتهر سُخْفًا وجنونًا، وهَجَرَ مفروضًا ومسنونًا، فما يتشرّع، ولا يأخذ في غير الأضاليل ولا يشرع، ناهيك من رجل ما تطهَّرَ من جَنَابة، ولا أظهر مَخِيلة إنابة، ولا استنجى من حَدَث، ولا أشجى فؤاده بتَوَارٍ في جَدَث، ولا أقَرَّ بباريه

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٧): «الآداب».

(٢) في العبر: «تجدّد».

(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٧): «أقاربي». وفي العبر: «سيبت». وأراد بـ «قاربي»: أقاربي.

(٤) الإحاطة (جـ ٤ ص ٢٥٠).

(٥) قلائد العقيان (ص ٢٩٨ ـ ٣٠٤).

(٦) في القلائد: «جفن الدين».

ومصوّره، ولا قرّ بتباريه في ميدان تهوّره، الإساءة إليه أجدى من الإحسان، والبهيم عنده أهدى من الإنسان، نظر في تلك التعاليم، وفكّر في أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم، ورفض كتابَ اللّه الحكيم العليم، ونبذه وراء ظهره ثانيَ عِطْفِه[1]، وأراد إبطال ما لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، واقتصر على الهيئة، وأنكر أن تكون له[2] إلى اللّه تعالى فَيْئة[3]، وحكم للكواكب بالتدبير؛ واجترم على اللّه اللطيف الخبير، واجترأ عند سماع النهي والإبعاد، واستهزأ بقوله تعالى: ﴿إنَّ الذي فَرَضَ عليكَ القرآنَ لَرادُّكَ إلى مَعَادٍ﴾[4] فهو يعتقد أنّ الزمان دَور، وأنّ الإنسان نبات أو نَور، حِمامه تمامه، واختطافه قِطافه، قد محي الإيمان من قلبه فما له فيه رَسْم، ونسي الرحمنَ لسانُه فما يمرُّ له عليه اسم، وانتمت نفسه إلى الضلال وانتسبت، ونفت ﴿اليوم[5] تُجْزَى كلُّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ﴾[6]، فقصر عمره على طَرَب ولهو، واستشعر كلّ كبر وزهو، وأقام سوق الموسيقى[7]، وهام بحادي القطار وسقى، فهو يعكف على سماع التلاحين، ويقف عليه[8] كلّ حين، ويعلن بذلك الاعتقاد، ولا يؤمن بشيء قادنا إلى اللّه تعالى في أسلس مَقَاد، مع منشإٍ وَخيم، ولؤم أصل وخِيم[9] وصورة شوّهها اللّه تعالى وقبّحها، وطَلْعَة إذا أبصرها الكلب نبحها، وقذارة[10] يؤذي البلادَ نَفَسُها، ووضارة يحكي الحدادَ دَنَسُها، وفند لا يعمرُ إلاّ كنفَهُ، ولدد[11] لا يقوّم إلاّ الصِّعادُ جَنَفَه، وله نظم أجاد فيه بعضَ إجادة، وشارف الإحسان أو كاده، فمن ذلك ما قاله في عبد حبشي كان يهواه، فاشتمل عليه أسْرٌ سعُر[12] حَشاه، ونقله إلى حيث لم يعلم مَثْوَاه،

---

(١) أخذه من قوله تعالى: ﴿ثانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عن سبيلِ اللّه﴾. سورة الحج ٢٢، الآية ٩.

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٥٣): «منه».

(٣) الفيئة: الرجوع. محيط المحيط (فيأ).

(٤) سورة القصص ٢٨، الآية ٨٥.

(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٥٣): «يوم». وفي القلائد: «يومًا».

(٦) سورة غافر ٤٠، الآية ١٠.

(٧) في طبعة عبد الحميد: «الموسيقى». وفي طبعة دار صادر (ج ٧ ص ١٨): «الموسْقَى».

(٨) في القلائد: «وعليها».

(٩) الخِيْمُ: الطبع والسجيّة. لسان العرب (خيم).

(١٠) في طبعة عبد الحميد: «وقذار».

(١١) في الطبعة نفسها: «ولددة لا يقيم».

(١٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٥٣): «أَسْرٌ سعى إلى حشاه». وفي القلائد: «سعّر جواه».

فقال: [البسيط]

يا شائقي حيث لا أستطيعُ أدركُهُ ... ولا أقولُ غدًا أغدو فألقاهُ
أمّا النهارُ فليلي ضَمَّ شملته ... على الصباحِ فأُولاهُ كأُخراهُ
أغرّ نفسي بآمالٍ مزوَّرةٍ [1] ... منها لقاؤكَ والأيامُ تأباهُ

وله فيه حين[2] بلغه موته، وتحقّق عنده فَوْته: [الوافر]

ألا يا رزقُ والأقدارُ تجري ... بما شاءتْ نَشَا أو لا نشاءْ[3]
هَلَ أنت مُطارحي شجوي فتدري ... وأدري كيف يحتمل القَضاء
يقولون الأمورُ تكونُ دورًا ... وهذا فقده فمتى اللقاء

وله في الأمير أبي بكر ابن إبراهيم[4] قدّس اللّه تعالى تربته، وآنس غربته، مدائح انتظمت بلَبّات الأوان، ونظمت على كل شتيت من الإحسان، فمن ذلك قوله: [الوافر]

توضَّحَ في الدُّجى طرفٌ ضريرُ ... سَنًا بلوى الصريمةِ يستطيرُ
فيا بأبي ولم أبذل يسيرًا ... وإن لم يَكْفِهِم ذاك الكثيرُ
بريقٌ لا تقلْ هو ثغرُ سلمى ... فتأثم، إنه حُوبٌ[5] وزور
فكيف وما أطلّ[6] الليلُ منه ... ولا عبقتْ بساحته الخمور
تراءى بالسدير فزاد قلبي ... من البُرَحَاء ما شاء السدير
فلولا أنَّ يومَ الحَشْرِ يقضي ... عليَّ بحكمِ مولى لا يجور[7]
دعوتُ على المُشَقَّرِ أن يجازَى ... بما تجزى به الدارُ الغَرُورُ

---

(١) في القلائد: «مزخرفة».
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٩): «لمّا».
(٣) في القلائد (ص ٢٩٩): «تشاء ولا نشاءُ».
(٤) هو ابن تيفلويت، وقد تقدمت ترجمته في الجزء الثاني، وأشرنا هناك إلى مصادر ترجمته.
(٥) الحُوبُ: الإثم. لسان العرب (حوب).
(٦) في القلائد: «وما أضاء».
(٧) في القلائد: «علي حكم إذا استولى يجورُ».

ومنها:

لقد وسع الزمان عليه عدوى	وضرٌ بشِبْلِهِ الليثُ الهَصُور[1]
وقلّبنا[2] الزمان فلا بُطُونٌ	تضمّنتِ الوفاء ولا ظهور
سوى ذكرِ أُطارحه فلولا الأ	ميرُ لقد عَفَا لولا الأمير
همامٌ جودُهُ يصفُ السَّواري	وسطوته يُغَيِّرُها[3] الهجير
وقُلْنا نحن كيف وراحتاه	بحورٌ يلتظي فيها سعيرُ[4]
فهل فيما سمعت به خصام	يكون الخصم فيه هو العذير[5]

وكان الأمير أبو بكر يعتقد له هذه الماتّة[6] ويراها، ويَجُود أبدًا ثَرَاها، فلمّا ولي الثغر والشرق لم يغفلْه[7] من رَعْي، ولم يَكِلْه إلى شفاعة وسَعْي، وحمله على ما كان يعتقده فيه من المقت، واستعمله على ما كان يقتضيه خُلُقُ الوقت، من إقامة الوعد[8]، وتسويغه كل نعيم رَغْد، وتغليب حجّة داحضة[9]، وإنهاض عَثْرة غير ناهضة، فتقلّد وزارته ودولته تزهى منه بأندى من الوَسْمِيِّ المبتكر، وأهدى من النجم في الليل المعتكر، وألويته تميسُ زهْوًا مَيْسَ الفتاة، ورعيّته تبتهج بملكه ابتهاجَ حيي بابن الموماة[10]، ومذاهبه يبسطها الفضل وينشرها، وكتائبه لا يكاد العدوّ يعشرها، فجاش إليه وانبرى، وراش في تنكيلهم وبَرَى، وأقطعهم ما شاء من مُقَابحته، وأسمعهم ما يصم بين ختمه ومفاتحته، فوغِرَتْ صدورهم السليمة، واعتلَّتْ صِحّةُ ضمائرهم بنفوسهم الأليمة، ولم يزل يأخذ في الإضرار بهم ولم[11] يَدَعْ، ويعلن به ويصدع، حتى تفرّق ذلك الجمع، وألقاه بين بصر السباب[12] والسمع،

(١) الهصور: القويّ. لسان العرب (هصر).

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٥٤): «وقلبن».

(٣) في الطبعة نفسها: «يغيرها البحير».

(٤) في الطبعة نفسها: «يلتطي فيها سرورُ».

(٥) في الطبعة نفسها: «هو العزير».

(٦) الماتّة: ما يمتّ إليه بصلة. لسان العرب (متت).

(٧) في القلائد (ص ٣٠٠): «لم يغفلها.. ولم يَكِلْها..».

(٨) في القلائد: «إقامة وغد».

(٩) داحضة: باطلة، مردودة. لسان العرب (دحض).

(١٠) في القلائد: «ابتهاج جابر بعهد البوباة». والبوباة والموماة: الأرض المتّسعة.

(١١) في القلائد: «ولا يدع».

(١٢) في القلائد: «بصر الشتاة».

وأفرد الدولة من وُلاَتها، وجرَّدها من حُمَاتها، فاستعجل العدوّ بذلك واستشرى، وزأر منه على سَرَقُسْطة ليث شَرَى، ولما رأى الشرّ قد ثار قَتَامُه، وبَدَا من ليلِهِ إعتامه، ارتحل واحتمل، وقال «لا ناقة لي في هذا ولا جمل»[1]، وأقام ببلنسية يشفي نفسه، ويستوفي أنسه، ونجوم سعدها كلّ يوم غائرة، والعدو يتربّص بها أسوأ دائرة، ويروم منازلتها ثم يدع الاقتحام، ويريد التقدّم إليها فيؤثر الإحجام، تهيّبًا لذلك الملك السريّ، والليث الجريّ، وفي خلال هذه المحاولة، وأثناء تلك المطاولة، عاجل الأميرَ[2] أبا بكر جِمامُه، واستسرّ[3] فيها تمامه، وأجَنّه[4] الثرى، وحاز منه بدر دُجُنَّة وليث شَرَى، فعطلت الدنيا من علاء وجود، وأظَلَّتْ عليها بفقده حوادث أجدبت تهائمها والنجود، وفيه يقول يرثيه بما يسيل الفؤاد نجيعًا، ويبيت به الأسى لسامعه ضجيعًا: [الخفيف]

أيها الملك قد لعمري نَعَى المجـ ... ـدَ نَوَاعيك يَومَ قمن فنحنا

كم تقارعتَ والخطوبَ إلى أن ... غادرتك الخطوبُ في الترب رهنا

غيرَ أني إذا ذكرتك والدهـ ... ـرُ إخَالُ اليقين في ذاك ظنَّا

وسألنا متى اللِّقاه فقيل[5] الـ ... ـحشرُ قُلْنا: صبرًا إليه وحُزْنا

وكثيرًا ما يُغِير هذا الرجل على معاني الشعراء، وينبذ الاحتشام من ذلك بالعَرَاء، ويأخذها من أربابها أخذ غاصب، ويعوضهم منها كل همّ ناصب[6]، فهذا[7] مِمّا أطال به كمد أبي العلاء وغمّه، فإنه أخذه من قوله يرثي أمّه[8]: [الوافر]

فيا ركبَ المنون ألاَ رسولٌ ... يبلِّغُ روحَها أَرَجَ السلامِ

سألتُ متى اللقاء فقيلَ حتى ... يقومَ الهامدونَ من الرجامِ

---

(١) أخذه من المثل: «لا ناقتي في هذا ولا جملي». مجمع الأمثال (ج ٢ ص ٢٢٠). وقد أشرنا من قبل إلى هذا المثل.

(٢) في القلائد: «للأمير أبي بكر..».

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٥٥): «واستشعر فيها تمامه». وقوله: «استسرّ فيها تمامه» أي كان بَدْرًا كاملاً فأصابه السِّرار، وسَرارُ الشهر: آخر ليلة منه. محيط المحيط (سرر).

(٤) في القلائد: «فأجنه».

(٥) في القلائد (ص ٣٠٠): «فقالوا».

(٦) الهَمُّ الناصب: الذي يتعب من ينزل به ويقعده. لسان العرب (نصب).

(٧) في القلائد: «وهذا».

(٨) شروح سقط الزند (١٤٦٠، ١٤٦٨).

ولَمّا فاتت سرقسطة من يد الإسلام، وباتت نفوس المسلمين فَرَقًا[1] منهم[2] في يد الاستسلام، ارتاب بقبح أفعاله، وبرىء من احتذائه بتلك الآراء وانتعاله[3]، وأخافه ذنبُه، ونبا عن مضجع الأمنِ جَنْبُه، فكرَّ إلى الغرب[4] ليتوارى في نواحيه، ولا يتراءى لعين لائمه ولاحيه، فلمّا وصل شاطبة حضرة الأمير[5] إبراهيم بن يوسف بن تاشفين وَجَدَ باب نفاذه وهو مُبْهَم، وعاقه عنه[6] مدلول عليه مُلْهَم، فاعتقله اعتقالاً شفى الدين من آلامه، وشهد له بعقيدة إسلامه، وفي ذلك يقول، وهو معقول، ويصرّح بمذهبه الفاسد، وغرضه المستاسد: [الكامل]

خَفِّضْ عليك فما الزمانُ وريبُهُ ... شيء يدومُ، ولا الحياةُ تدومُ
واذهبْ بِنَفْسٍ لم تضعْ لتحلَّها ... حيث احتللتَ بها وأنتَ عَليمُ
يا صاحبي لفظًا ومعنًى خِلْتَهُ ... من قبلُ حتى بُيِّنَ التقسيم
دَعْ عنك من معنى الإخاء ثقيلَهُ ... وانبذْ بذاك العبء وهو ذميم
واسمحْ وطارحْني الحديثَ فإنه ... ليلٌ كأحداثِ الزمانِ بهيمُ
خُذْني على أثر[7] الزمان فقد مضى ... بؤسٌ على أبنائه ونعيم
فعسى أرى ذاك النعيمَ وربَّهُ ... مرحٌ وربُّ البؤس وهو سَقيم
هيهات ساوتْ بينهم أجداثهم[8] ... وتشابه المحسودُ والمحروم

ولما خلص من تلك الحِبالة ونجا، وأنار من سلامته ما كان دَجَا، احتال في إخفاء[9] ماله، واستيفاء آماله، فأظهر الوفاء للأمير أبي بكر بالرثاء له والتأبين، وتداهيه[10] في ذلك واضحٌ مستبين، فإنه وصل بهذه النزعَة من الحماية إلى حرم، وحصل في ذمّة ذلك الكرم،

---

(١) الفَرَقُ، بالفتح: الخوف. لسان العرب (فرق).

(٢) في القلائد (ص ٣٠٢): «منها».

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٥٦): «وانتقاله».

(٤) في القلائد: «المغرب».

(٥) في القلائد: «الأمير الأجلّ أبي إسحٰق إبراهيم..».

(٦) في القلائد: «عنه شيحان مدلول».

(٧) في القلائد: «آثر».

(٨) الأجداث: جمع جدث وهو القبر. لسان العرب (جدث).

(٩) في القلائد (ص ٣٠٣): «إعفاء».

(١٠) في القلائد: «ودهيه».

واشتمل بالرَّغي، وأمن من كلّ سَغي، فاقتنى قِيانًا[1]، ولقنّهنّ أعاريضَ[2] من القريض وركّب عليها ألحانًا أشجى من النَّوح[3]، ولطف بها إلى إشادة الإعلان باللوعة والبَوح، فسلك بها أبدع[4] مسلك، وأطلعها نيّرات ما لها غير القلوب من فَلَك، فمن ذلك قوله: [المنسرح]

إنَّ غـرابًـا جـرى بـبَـيْـنِـهِـمُ ... جَـاوَبَـه بـالـشـنـيّـة الـصُّـرَدُ[5]

طاروا[6] فها أنت بعدهم جَسَدٌ ... قـد فـارق الـروحَ ذلـك الـجـسـدُ

واكـتـمـوا صَـيـحَـةً بـبـيـنـهـمُ ... أليس لله بئس ما اعتمدوا[7]

وكقوله: [الطويل]

سـلامٌ وإلـمـامٌ ووسْـمِـيُّ مـزنـةٍ ... على الجَدَثِ النائي الذي لا أزورُهُ

أحَقًّا أبـو بـكـر تـقـضّـى فـلا يُـرى ... تـردُّ جـمـاهـيـرَ الـوفـود سـتـورُهُ

لـئـن أنِـسَـتْ تـلـك الـقـبـورُ بـلـحـده ... لقد أوحشت أنصارُه[8] وقصورُه

ومن قلّة عقله ونزارته، أنه في مدة وزارته، سَفَرَ بين الأمير أبي بكر رحمه اللّه تعالى وبين عماد الدولة بن هود[9] رحمه اللّه تعالى بعد سعايات عليه أسلفها، وذخائر كانت له على يديه أتلفها، فوافاه أوْغَرَ[10] ما كان عليه صَدْرًا[11]، وأصغر ما كان لديه قدرًا، فآل به ذلك الانتقال، إلى الاعتقال، فأقام فيه شهورًا يغازله الحِمام بمقلة شوهاء، وتُنازله الأوهام

---

(١) في القلائد: «قينات».

(٢) في القلائد: «الأعارض».

(٣) النَّوْحُ: سَجع الحمامة. لسان العرب (سجع).

(٤) في القلائد: «أينع».

(٥) الصُّرَدُ: طائر مبرقع ضخم الرأس والمنقار، يتشاءم به. لسان العرب (صرد).

(٦) في القلائد: «صاروا».

(٧) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٣): «فبئس واللّه ما الذي اعتمدوا».

(٨) في القلائد: «أقطاره».

(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٥٧): «بن زهر».

(١٠) أوغر صدره: أوقده من الغيظ. لسان العرب (وغر).

(١١) في القلائد: «صدره. . . لديه قدره».

بفطرته الوَرْهَاء، وفي ذلك يقول[1]: [الوافر]

لعلَّك يا يزيدُ علمتَ حالي فتعلمَ أيَّ خطبٍ قد لقيتُ
وإني إن بقيتُ بمثل ما بي فمن عجبِ الليالي أن بقيتُ
يقولُ الشامِتون شقاء بختٍ لَعَمْرُ الشامتين لقد شقيتُ
أعندهُمُ الأمانُ من الليالي وسالمهم بها الزمنُ المَقِيتُ
وما يدرون أنهمُ سَيُسْقَوْا[2] على كره بكأس قد سُقِيتُ

وعزم عماد الدولة يومًا على قتله، وألزم المرقبين به التحيُّلَ على خَتْله، فنُمِي إليه الأمر الوَعْر، وارتمى به[3] في لجج اليأس الذعر، فقال: [الطويل]

أقولُ لنفسي حين قابلَها الردى فراغَتْ فرارًا منه يُسْرَى إلى يمنى
قِرِي تحمدي[4] بعضَ الذي تكرهينه فقد طالما اعْتَدْتِ الفِرارَ إلى الأهنا

ثم قضى له قدر قضى بإنظاره، وما أمضى من إباحته ما كان رهين انتظاره، ويمهل الفاجر حكمةً من اللّه تعالى وعلمًا و ﴿إنما نُمْلي لَهُمْ لِيَزْدادُوا إثمًا﴾[5] انتهى نص القلائد.

وأين هذا من تحليته له في بعض كتبه بقوله فيه ما صورته: نور فهم ساطع، وبرهان علم لكلّ حجّة قاطع، تتوّجت بعصره الأعصار، وتأرّجَتْ من طيب ذكره الأمصار، وقام أوان[6] المعارف واعتدل، ومال للأفهام فَنَنًا وتهدّل، وعَطَّل بالبرهان التقليد، وحقّق بعد عدمه الاختراع والتوليد، إذا قدح زَنْدُ فهمه أورى بشرر للجهل محرق، وإن طما بحر خاطره فهو لكل شيء مغرق، مع نزاهة النفس وصَونها، وبُعْد الفساد من كونها، والتحقيق، الذي هو للإيمان شقيق، والجد، الذي يخلق العمر وهو مستجد، وله أدب يودُّ عُطَارد أن يلتحفه، ومذهب يتمنّى المشتري أن يعرفه، ونظم تعشقه اللبَّات والنحور، وتدَّعيه مع نفاسة

---

(١) في القلائد: «يقول يخاطب ذا الوزارتين أبا جعفر يزيد بن مجاهد».
(٢) أصل الكلام: «سَيُسْقَوْن» وقد حذف النون لكي لا ينكسر الوزن.
(٣) كلمة «به» غير واردة في القلائد.
(٤) في القلائد (ص ٣٠٤): «قري وتحملي بغض. .».
(٥) سورة آل عمران ٣، الآية ١٧٨.
(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٥٨): «وزن».

جوهرها البحور، وقد أثبتُّ منه ما تهوى الأعين النُّجْلُ[1] أن يكون إثمدها[2]، ويزيل من النفوس حزنها وكَمَدَها، فمن ذلك قوله يتغزل: [الطويل]

أسكانَ نَعْمَانِ الأراكِ تَيَقَّنوا ... بأنكُمُ في ربع قلبيَ سكانُ
ودوموا على حفظ الوداد فطالما ... بُلينا بأقوام إذا استُحفظوا خانوا
سلوا الليلَ عني إذ تناءتْ دياركم ... هل اكتحلتْ لي فيه بالنوم أجفان
وهل جُرِّدت أسيافُ برقٍ سمائكم ... فكانتْ لها إلاَّ جفونيَ أجفان

وله: [الطويل]

أتأذنُ لي آتي العقيقَ اليمانِيَا ... أُسائِلُهُ ما للمعالي وما ليا
وهل داركم بالحزن قفراء؟ إنني ... تركتُ الهوى يقتاد فضل زماميا
فيا مَكْرَعَ الوادي أما فيك شَرْبَةٌ ... لقد سالَ فيك الماءُ أزرقَ صافيا
ويا شَجَراتِ الجزعِ هل فيكِ وقفةٌ ... وقد فاء فيكِ الظِّلُّ أخضرَ ضافيا[3]

وأورد له في «المطمح» أنه استأذن على المستعين بالله، فوجده محجوبًا، فقال: [السريع]

مَنْ مُبلغٌ خيرَ إمامٍ نشا ... ذا عزّةٍ وساميًا قَدْرَا
قولَ امرئٍ لو قاله للصفا ... أنبتَ فيه ورقًا خضرا
عَبْدكَ بالبابِ له خجلةٌ ... لو أنها بالنرجس أحمرًا

وحكى غير واحد أنه مات له سَكَن كان يَهْوَاه، فبات مع بعض أصحابه عند ضريحه ومَثْوَاه، وكان قد عرف وقت كسوف البدر بصناعة التعديل، فزوّر في نفسه بيتين في خطاب القمر أتقنهما ولحّنهما، حتى إذا كان قبيل وقت الكسوف بقليل تغنَّى فيهما بذلك الصوت

---

(١) النُّجْلُ: جمع نجلاء وهي الواسعة. لسان العرب (نجل).
(٢) الإثْمِدُ: حجر يكتحل به. محيط المحيط (ثمد).
(٣) فاء: رَجَعَ. الضافي: السابغ، الواسع. لسان العرب (فيأ) و (ضفا).

المشجي، واللحن يسوق الشوق ويُزْجِي، وهما[1]: [المتقارب]

شَقِيقُكَ غُيِّبَ في لَحْدِهِ وتُشْرِقُ يا بَدْرُ مِنْ بَعْدِهِ
فَهَلاَّ كَسَفْتَ فكان الكسوفُ حِداداً لَبِسْتَ على فَقْدِهِ

فكسف القمر في الحال، وعُدَّت هذه من نوادره التي جِيدُ الأخبار بفرائدها حال، سامحه اللّٰه تعالى! . .

ثم رأيت في «الإحاطة» نسبة ذلك لغيره ونصُّه[2]: محمد بن أحمد بن الحداد، الوادي آشي، يكنى أبا عبد اللّٰه.

حاله[3] ـ شاعر مُفْلق، وأديب شهير، مُشار إليه في التعاليم، منقطع القرين منها في الموسيقى[4]، مضطلع بفكّ المعمَّى، سكن ألمرية، واشتهر بمدح رؤسائها من بني صُمَادح. وقال ابن بَسَّام[5]: كان أبو عبد اللّٰه هذا شمس ظهيرة، وبحر خَبَرٍ وسيرة، وديوان تعاليم مشهورة، وَضَحَ في طريق المعارف وُضوحَ الصُّبْح المُتَهَلِّل، وضَرَبَ فيها بقدح ابن مُقْبل[6]، إلى جلالة مَقْطَع، وأصالة مَنْزِع، ترى العلمَ ينمُّ على أشعاره، ويتبيّن[7] في منازعه وآثاره.

تأليفه[8] ـ ديوان شعره كبير معروف، وله في العروض تصنيف مشهور مزج فيه من الألحان الموسيقية[9] والآراء الخليلية.

---

(١) البيتان لابن الحداد الأندلسي، وقد غنّاهما ابن باجة، وهما في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ٢٠٧) وجاء فيه صدر البيت الثاني هكذا:

فهلاّ خَسَفْتَ وكان الخسوف

وهكذا ورد صدر البيت في الإحاطة.

(٢) الإحاطة (ج ٢ ص ٣٣٣ ـ ٣٣٤).

(٣) كلمة «حاله» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٦٠).

(٤) في طبعتي عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٦٠) ودار صادر (ج ٧ ص ٢٦): «الموسيقى».

(٥) الذخيرة (ق ١ ص ٦٩١ ـ ٦٩٢) ومسالك الأبصار (ج ١١، الورقة ٤٠١).

(٦) في طبعة عبد الحميد: «بقداح». وابن مقبل: هو أبو كعب تميم بن أُبَيّ بن مُقْبل؛ شاعر خنديد، كان من أوصف العرب لِقِدْح، ولذلك يقال: قدح ابن مُقْبل. توفي بعد ٣٧ هـ. الشعر والشعراء (ص ٣٦٦) وطبقات الشعراء (ص ٦١) والأعلام (ج ٢ ص ٨٧).

(٧) في أصول النفح: «ويبين». وأثبتنا ما في الإحاطة والذخيرة.

(٨) في الإحاطة: «تواليفه».

(٩) في أصول النفح: «الموسيقية». وأثبتنا ما في الإحاطة.

بعض أخباره. حدّث بعض المؤرخين مِمّا يدلُّ على ظَرْفه أنه فَقَدَ سكنًا[1] عزيزًا عليه، وأحوجت الحاجة إلى تكلّف سلوة، فلمّا حضر الندماء، وكان قد رصد الخسوف القمري[2]، فلمّا حقّق أنه ابتدأ أخذ العود وغنّى «شقيقك غُيِّبَ. إلى آخره» وجعل يردّدها ويخاطب البَدْرَ، فلم يتمّ ذلك إلاّ واعترضه الخسوف، وعظم من الحاضرين التعجّب.

ثم قال لسان الدين في ترجمة شعره: وقال[3]: [الكامل]

أَقْبَلْنَ في الحِبَرَاتِ يَقْصِرْنَ الخُطَا ... ويُرِينَ في حُلَلِ الوَرَاشِينِ القَطَا[4]

سِرْبُ الجوى لا الجَوِّ، عُوِّدَ حُسْنُهُ ... أن يرتعي حَبَّ القلوب ويَلْقُطا[5]

مالتْ معاطِفُهُنَّ من سُكْرِ الصِّبا ... مَيلاً يُخيفُ قدودَها أن تَسْقُطا[6]

وبِمَسْقَطِ العَلَمَينِ أوضحُ مَعْلَمٍ ... لِمُهَفْهَفٍ سَكَنَ الحَشَا والمَسْقَطا[7]

ما أَخْجَلَ البَدْرَ المنيرَ إذا مَشَى ... يختالُ، والغُصْنَ[8] النضيرَ إذا خطا!

ومنها في المدح:

يا وافِدَيْ شرقِ البلادِ وغربِها ... أَكْرَمْتُما خَيلَ الوفادةِ فارْبِطا

ورأيتما مَلِكَ البريّةِ فاهنآ ... ووردْتُما أرضَ المريّة فاحطِطا[9]

يُدْمي نُحُورَ الدّارِعِينَ إذا ارتأى ... ويُذِلُّ عِزَّ العالمين إذا سَطا

---

(١) السَّكَنُ: المرأة لأنها يُسْكَنُ إليها، والساكن. لسان العرب (سكن).

(٢) في الإحاطة: «بالقمر».

(٣) الأبيات في ديوان ابن الحداد الأندلسي (ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤) والإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣٧) والذخيرة (ق ١ ص ٧١١ ـ ٧١٢).

(٤) الحِبَرات: جمع حِبَرَة وهي ضرب من بُرُود اليمن مُنَمَّر. الوراشين: طيور تشبه الحمام، واحدها وَرَشان. لسان العرب (حبر) و (ورش). يقول: إنَّ هذه الفتيات، ومن بينهنّ محبوبتي، يَتَبَخْتَرْنَ في ثيابهنّ المزركشة، فَيُشْبِهْنَ في مشيهنّ الثقيل القطا. وفي الإحاطة: «الوارشين».

(٥) سِرْبُ الجَوَى لا الجوّ: أي ليس مجالها الجوُّ بل الجَوَى. يرتعي: يَرْعَى. يقول: اعتادت تلك الفتيات، ومن بينهنّ محبوبتي الحسناء، أن تحرق سويداء القلب.

(٦) المعاطف: جمع مِعْطف وهو الرداء، والمراد أجسادهنّ. وهذا البيت من أحسن ما قيل في شعر الغزل.

(٧) في الإحاطة: «الحسا والمسقطا». ومسقط العلمين: لعله مكان كان ابن الحداد يلتقي فيه بمحبوبته. والمَعْلَمُ: الأثر يستدلُّ به على الطريق، وجمعه معالم.

(٨) في الديوان والإحاطة والذخيرة: «والخوط النضير».

(٩) في أصول النفح: «فاخططا» بالخاء المعجمة، وأثبتنا ما في الديوان والإحاطة والذخيرة.

انتهى المقصود منه، وأورد له في الإحاطة قصيدة ثانية أولها[1]:

حديثُكِ ما أحلى! فزيدي وحدِّثي

وهي طويلة[2].

وكتب عليها ابن المؤلف ما صورتُه: سمعتها من لفظ شيخي أبي جعفر ابن خاتمة بألمرية في سنة خمس وستين وسبعمائة، قاله علي ابن الخطيب؛ انتهى.

رجع إلى أخبار ابن الصائغ، ومن نظمه قوله: [الكامل]

ضربوا القبابَ على أقاحي روضةٍ ... خطرَ النسيمُ بها ففاحَ عبيرا
وتركْتُ قلبي سارَ بين حُمُولهم ... دامي الكلوم يسوقُ تلك العيرا
هلاَّ سألتَ أميرهم هل عندهم ... عانٍ يُفكُّ ولو سألت عبورا
لا والذي جعل الغصونَ معاطفًا ... لهمُ وصاغَ الأقحوانَ ثغورا
ما مَرَّ بي ريح الصَّبا من بعدهم ... إلاَّ شهقتُ له فعاد سعيرا[3]

وتوفي ابن الصائغ في شهر رمضان سنة ٥٢٣، وقيل: سنة خمس وعشرين، مسمومًا في باذنجان بمدينة فاس، وهو تُجِيبي بضمّ التاء وفتحها، وبَاجَّة: بالباء الموحدة، وبعد الألف جيم مشدَّدة، ثم هاء ساكنة، وهي القصة بلغة الفرنج. وسرقسطة - بفتح السين والراء وضمّ القاف وسكون السين الثانية وبعدها طاء مهملة - مدينة كبيرة بالأندلس، استولى عليها العدوّ سنة ٥١٢.

وقال الأمير ركن الدين بيبرس في تأليفه «زبدة الفكرة، في تاريخ الهجرة»[4] إنَّ ابن الصائغ كان عالـمًا فاضلاً، له تصانيف في الرياضات والمنطق، وإنه وَزَرَ لأبي بكر الصحراوي صاحب سَرَقُسْطة، ووزر أيضًا ليحيىٰ بن يوسف بن تاشفين عشرين سنة بالمغرب، وإنَّ سيرته كانت حسنة، فصلحت به الأحوال، ونجحت على يديه الآمال، فحسده الأطباء والكُتَّاب وغيرهم، وكادوه، فقتلوه مسمومًا؛ انتهى.

---

(١) الإحاطة (جـ ٢ ص ٣٣٥) وعجز البيت هو:

عن الرَّشإِ الفَرْدِ الجَمالِ المُثَلَّثِ

(٢) ورد منها في الديوان (ص ١٦٩ - ١٧٢) عشرة أبيات فقط.

(٣) يقول: إذا تنفَّس ريح الحنين المعروفة باللين فإنها ستنقلب سعيرًا، أي شواظًا من نار.

(٤) هذا الكتاب تاريخ كبير مرتَّب على حسب السنين، انتهى منه بيبرس المنصوري في سنة ٧٢٤ هـ.

وأنشد له بعضهم: [الطويل]

هُمُ رحلوا يومَ الخميس عشيّةً فودَّعْتُهم لما استقلُّوا وودعوا
ولمّا تولَّوا وَلَّتِ النفسُ مَعْهُمُ فقلتُ ارجعي قالت إلى أين أرجع
إلى جَسَدٍ ما فيه لحمٌ ولا دمٌ وما هو إلاَّ أعظُمٌ تَتَقَعْقَعُ
وعينين قد أعماهما كثرةُ البكا وأُذنٍ عَصَتْ عُذّالها ليس تَسْمَعُ

وقد قال[1] بعضهم في تعزيز بيتي الحريري: إنه لابن الصائغ الأندلسي، وليس هو بهذا فيما أعلم: [السريع]

اِنْقَدَّ مَهْوى أزرِهِ فانثنى مَهْ يا عذولي في الذي انقدَّ مَهْ
مندمةٌ قَتْلُ المعنَّى فلا ترسلْ سهام اللحظ تأمَنْ دَمَهْ

رجع إلى ابن باجّه. وقد ذكر لسان الدين في «الإحاطة» سببَ العداوة بينه وبين الفتح في ترجمة الفتح ولنذكرها بنصّه فنقول[2]: قال رحمه اللّه تعالى: الفتح[3] بن محمد بن عبيد اللّه، الكاتب، من قرية تُعرف بقلعة[4] الواد من قرى يَحْصِب، يكنى أبا نصر، ويُعْرف بابن خاقان.

حاله. كان آية من آيات البلاغة لا يُشَقُّ غُباره، ولا يُدْرَكُ شأوهُ، عذب الألفاظ ناصعها، أصيل المعاني وثيقها، لعوبًا بأطراف الكلام، مُعْجزًا في باب الحلى والصفات، إلا أنه كان مجازفًا[5] مقدورًا عليه، لا يملّ من المعاقرة والقَصْف[6]، حتى هانَ قَدْره، وابْتُذلت نفسه وساء ذكره، ولم يدع بلدًا من بلاد الأندلس إلاَّ دخله مسترفِدًا أميرَه واغلاً في عليته[7]؛ قال الأستاذ في «الصلة»[8]: وكان معاصرًا للكاتب أبي عبد اللّه ابن أبي الخصال،

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٨): «وقد ذكر بعضهم».
(٢) الإحاطة (جـ ٤ ص ٢٤٨ ـ ٢٥٣).
(٣) في الإحاطة: «الفتح بن علي بن أحمد بن عبيد اللّه..».
(٤) في الإحاطة: «بصخرة الواد».
(٥) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٢٩): «محارفًا».
(٦) المعاقرة: شرب الخمر. القصف: إقامة الرجل في أكل وشرب ولهو. لسان العرب (عقر) و (قصف).
(٧) في الإحاطة (ص ٢٤٩): «وواغلاً على عليته».
(٨) لم ترد ترجمته في الصلة المطبوع.

إلاّ أنّ بطالته أخلدت[١] به عن مرتبته. وقال ابن عبد الملك[٢]: قصد[٣] يومًا إلى مجلـ
قضاء أبي الفضل عياض[٤] مخمرًا، فتنسّم بعضُ حاضري[٥] المجلس رائحة الخمر
فأعلم القاضي بذلك، فاستثبت[٦]، وحَدَّهُ حدًّا تامًّا، وبعث إليه بعد أن أقام عليه الـ
بثمانية دنانير وعمامة، فقال الفتح حينئذ لبعض أصحابه[٧]: عزمت على إسقـ
اسم[٨] القاضي أبي الفضل من كتابي الموسوم[٩] بـ «قلائد العقيان»، قال: فقلت:
تفعل، وهي نصيحة، فقال[١٠]: وكيف ذلك؟ فقلت[١١] له: قِصَّتُك معه من الجائز
تُنسى، وأنت تريد أن تتركها[١٢] مؤرخة، إذ كلّ من ينظر في كتابك يجدك قد ذكرت
مَنْ هو مثلُه ودونه في العلم والصيت، فيسأل عن ذلك، فيقال له، فَيتوارث العلم[١٣] بـ
الأكابر الأصاغر، قال: فتبين له[١٤] ذلك، وعلم صحته وأقرّ اسمه[١٥].

وحدّثني بعض الشيوخ أنّ سبب حقده على ابن باجه أبي بكرٍ آخِرِ فلاسفة الإسلا
بجزيرة الأندلس ما كان من إزرائه به[١٦] وتكذيبه إياه في مجلس إقرائه، إذ جعل يُكثر ذكر
وصله به أمراء الأندلس ووصف حليًا، وكان[١٧] يبدو من أنفه فضلة خضراء اللون، فقا

---

(١) يقال: أخلدت به إلى الأرض: أي نزلت به. لسان العرب (خلد).
(٢) الذيل والتكملة (جـ ٥ ص ٥٣٠).
(٣) في الإحاطة: «دخل».
(٤) كلمة «عياض» غير واردة في الذيل والتكملة.
(٥) في الذيل والتكملة: «حضور».
(٦) في الذيل والتكملة: «بذلك، فأمر به فاستثبت في استنكاهه وحَدِّه».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٦٣): «البعض من أصحابه».
(٨) كلمة «اسم» ساقطة من أصول النفح، وأضفناها من الإحاطة والذيل والتكملة.
(٩) في طبعة عبد الحميد: «المرسوم». وفي الذيل والتكملة: «الموسم».
(١٠) في الذيل والتكملة: «فقال لي».
(١١) في المصدر نفسه: «قال فقلت له».
(١٢) في المصدر نفسه: «أن تخلّدها مؤرخة، فقال لي: وكيف، قال: فقلت له: كلّ من نظر..».
(١٣) في المصدر نفسه: «العلم بذلك الأصاغر عن الأكابر..».
(١٤) كلمة «له» ساقطة من أصول النفح، وأضفناها من الإحاطة والذيل والتكملة.
(١٥) في الذيل والتكملة: «فأقرّ اسمه في الكتاب قلائد العقيان».
(١٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٦٤): «في تكذيبه».
(١٧) في الإحاطة (ص ٢٥٠): «وكانت».

له[١]: فمن تلك الجواهر إذن الزمردة التي على شاربك؟ فَثَلَبَه في كتابه بما هو معروف[٢]، وعلى ذلك فأبو نصر نسيجُ وَحْدِه، غفر الله تعالى له!.

مشيخته ـ روى عن أبوي بكر: ابن سليمان بن القصيرة، وابن عيسى ابن اللبانة، وأبي جعفر ابن سعدون الكاتب، وأبي الحسن ابن سراج، وأبي خالد بن بشتغير[٣]، وأبي الطيب ابن زرقون، وأبي عبد الله بن خلصة الكاتب، وأبي عبد الرحمن بن طاهر، وأبي عامر بن سرور، وأبي محمد بن عبدون، وأبي الوليد بن حجاج، وابن دريد الكاتب.

تواليفه ـ ومصنّفاته شهيرة: منها «قلائد العقيان» و «مطمح الأنفس» والمطمح أيضًا[٤]، وترسيله مدوّن، وشعره وَسَط، وكتابته فائقة.

شعره ـ من شعره قوله، وثبت في قلائده، يخاطب أبا يحيىٰ ابن الحاج[٥]: [الطويل]

هنيئًا لِـمُـلْـكٍ زار أُفْـقَـكَ نـورُهُ[٦] ... وفي صفحتيه من مَضَائك أسطرُ
وإنـي لَـخَـفّـاقُ الـجَـنـاحَـيـن كـلّـمـا ... سَرَى لـك ذكـرٌ أو نـسـيـمٌ مُـعَـطَّـرُ
وقـد كـان واشٍ هـاجَـنـا لـتـهـاجُـرٍ[٧] ... فـبـتُّ وأحـشـائـي جـوًى تـتـفـطَّـرُ
فهل لـك في ودّ ذَوَى لكَ ظاهرًا ... وبـاطِـنُـهُ يَـنْـدَى صَـفـاءً ويَـقْـطُـرُ
ولـسـتُ بِعِـلْـقٍ بِـيـعَ بَـخْـسًـا وإنـنـي ... لأَرْفَـعُ أعـلاقِ الـزمـان وأخـطـرُ[٨]

فروجع عنه بما ثبت أيضًا في قلائده مِمّا أوّله[٩]: [الطويل]

ثنيتَ أبا نصرٍ عِناني، وربما ... ثَنَتْ عَزْمَةَ السَّهْمِ المُصَمِّمِ أَسْطُرُ

---

(١) في الإحاطة: «اللون، زعموا، فقال له».
(٢) في الإحاطة: «معروف في الكتاب».
(٣) في الإحاطة: «مَشْتَقور».
(٤) يريد أن كتاب المطمح جزءان، ويقال: ثلاثة أجزاء.
(٥) قلائد العقيان (ص ١٧٨ ـ ١٧٩). والأبيات أيضًا في المطرب (ص ١٨٩).
(٦) في الإحاطة: «هنيئًا لمن زار نورك أفقه». وفي القلائد والمطرب: «الملك زان نورُك أُفْقَهُ».
(٧) في المطرب: «لتنافر».
(٨) في المطرب: «وأنضر». والأعلاق: جمع عِلْق وهو الشيء النفيس. لسان العرب (علق) والمطرب (ص ١٨٩).
(٩) قلائد العقيان (ص ١٧٩) والمطرب (ص ١٨٩).

نثره. ونثره شهير، ونثبت[1] له من غير المتعارف من السُّلطانيات ظهيرًا كتبه عن بعض الأمراء لصاحب الشُّرطة[2]، ولا خفاء بإدلاله وبراعته، [وهو هذا][3]: كتاب تأكيد اعتناء، وتقليد ذي منّة وغَنَاء، أمر بإنفاذه فلان، أيّده اللّه تعالى! لفلان ابن فلان، صانه اللّه تعالى! ليتقدّم لولاية المدينة الفلانية[4] وجهاتها، ويُصَوِّح[5] ما تكاثف من العُدْوَان في جَنَبَاتها، تنويهًا أحظاه بعلائه، وكساه رائق مُلاَئه، لما علمه من سنائه، وتوسّمه من غَنَائه، ورجاه من حسن مَنَابه، وتحققه من طهارة ساحته وجَنَابه، وتيقّن. أيّده اللّه تعالى!. أنه مستحقٌّ لما ولاه، مُسْتقِلّ[6] بما تولاّه، لا يعتريه الكَسَل، ولا تثنيه[7] عن المَضَاءِ الصوارم والأَسَل، ولم يَكِلِ الأمرَ منه إلى وَكِل[8]، ولا ناطهُ بمناط[9] عجز ولا فَشَل، وأمره أن يُراقب اللّه تعالى في أوامره ونواهيه، وليعلم أنه زاجرُه عن الجَور وناهيه، وسائله عمّا حكم به وقضاه، وأنفذه وأمضاه ﴿يَومَ لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيئًا والأمرُ يومئذٍ للّهِ﴾[10] فليتقدم إلى[11] ذلك بحزم لا يخمد توقُّده، وعزم لا ينفد تفقُّده، ونفس مع الخير ذاهبة وعلى متن[12] البرّ والتقوى راكبة، ويقدّم للاحتراس مَنْ عُرف اجتهادُه، وعُلم أَرَقُه في البحث وسُهَاده، وحُمِدَتْ أعمالُه، وأُمن تفريطه وإهماله، ويضمّ إليهم من يحذو حذوهم، ويقفو شأوهم، مِمَّنْ لا يُسْتراب بمناحيه، ولا يصاب خلل في ناحية من نواحيه، وأن يُذْكِي العيون على الجُنَاة، وينفي عنها لذيذ السِّنات[13]، ويفحص عن مكامنهم، حتى يُغَصَّ

---

(١) في الإحاطة (ص ٢٥١): «وثبتُ».

(٢) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣١): «الشُّرَط».

(٣) ما بين قوسين غير وارد في طبعة دار صادر ولا في الإحاطة.

(٤) في الإحاطة: «بفلانة وجهاتها».

(٥) في طبعة دار صادر: «ويَضْرَحُ». وفي الإحاطة: «ويصرخ».

(٦) مستقلٌ: حامل للعبء. لسان العرب (قلل).

(٧) في الإحاطة: «يثنيه عن إمضاء..».

(٨) الوَكِلُ: الذي يعتمد على غيره في قضاء أموره ويتكل عليه. لسان العرب (وكل).

(٩) في الإحاطة: «مناط».

(١٠) سورة الانفطار ٨٢، الآية ١٩.

(١١) في الإحاطة: «لذلك».

(١٢) في الإحاطة (ص ٢٥٢): «ستن».

(١٣) السِّنات: جمع سِنة وهي أول النوم. لسان العرب (وسن).

بالريق[1] نفس آمنهم، فلا يستقرّ بهم موضع، ولا يفر[2] منهم خبّ ولا مُوضِع[3]، فإذا ظفر منهم بمن ظفر بحث عن باطنه، وبثّ السؤال في مواضع تصرفه ومواطنه، فإن لاحتْ شُبهة أبداها الكشف والاستبراء، وتعدّاها البغي[4] والافتراء، نَكّله بالعقوبة أشدَّ نكال، وأوضح له منها ما كان ذا إشكال، بعد أن يبلغ أناه، ويقف في[5] طرفه مَدَاه، وحدّ له أن لا يكشف بشرة إلاّ في حدّ يتعين، وإن جاءه فاسق أن يتبيّن، وأن لا يطمع في صاحب مال موفور، وأن لا يسمع من مكشوف في مستور، وأن يسلك السَّنَن المحمود، وينزّه عقوبته من الإفراط وعفوه من تعطيل الحدود. وإذا انتهت إليه قصة مُشْكلة أخّرها إلى غَدِه، فهو على[6] العقاب أقدر منه على ردّه، فقد يتبين في وقت ما لا يُتَبَيَّنُ في وقت، والمعاجلة بالعقوبة من المَقْت، وأن يتغمّد هفوات، ذوي الهيئات، وأن يستشعر الإشفاق، ويخلع التكبّر فإنه من مَلاَبس أهل النفاق، وليحسن لعباد اللّه تعالى اعتقاده، ولا يرفض زمام العدل ولا مَقَاده، وأن يعاقب المجرم قَدْرَ زلّته، ولا يعتزّ عند ذِلّته، وليعلم أنّ الشيطان أغواه، وزيّن له مَثْوَاه، فيشفق[7] من ملابسها الضافية، ويذكره جلَّ وعلا[8] في جميع أحواله، ويفكّر في الحشر[9] وأهواله، ويتذكّر وعدًا يُنجز فيه ووعيدًا ﴿يَومَ تَجِدُ كلُّ نَفْسٍ ما عَمِلَتْ مِنْ خيرٍ مُحْضَرًا وما عَمِلَتْ مِنْ سوءٍ تَوَدُّ لو أنَّ بينها وبينه أمَدًا بعيدًا﴾[10] والأمير أيّده اللّه تعالى ولي له ما عَدَلَ وأقسط، وبريء منه إن جار وقَسَط، فمن قرأه فليقف عند حدّه ورَسْمه، وليعرف له حقَّ قَطْع الشَّرِّ وحَسْمه، ومن وافقه من شريف أو مشروف، وخالفه

---

(١) في الإحاطة: «بالروع».
(٢) في الإحاطة: «يقرّ منهم مخبّ».
(٣) الخب والمُوْضِع: ضربان من السير للفرس. لسان العرب (خبب) و (وضع).
(٤) في الإحاطة: «للبغي».
(٥) في الإحاطة: «ويقف على طرف».
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٦٦): «في العقاب».
(٧) هكذا في الإحاطة، وفي طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٢): «فليشفق».
(٨) في الإحاطة: «وتعالى».
(٩) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٦٦): «المحشر».
(١٠) سورة آل عمران ٣، الآية ٣٠.

في[1] نهى عن منكر أو أمر بمعروف، فقد تعرَّض من العقاب لما يذيقه وَبَالَ خَبْله، ﴿ولا يَحِيقُ المَكْرُ السيىءُ إلاّ بأهْلِهِ﴾[2] وكتب في كذا.

وفاته ـ بمراكش ليلة الأحد لثمان بقين من محرم، من عام تسعة[3] وعشرين وخمسمائة، أُلفي قتيلاً ببيت من بيوت فندق أحد فنادقها، وقد ذُبح وعُبث به، وما شُعر به إلاّ بعد ثلاث[4] ليال من قتله؛ انتهى نصُّ الإحاطة.

وقال في «المغرب» ما ملخصه[5]: فخر أدباء إشبيلية بل الأندلس: أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد اللّه القيسي، الإشبيلي، صاحب «القلائد» و «المطمح»، ذكره الحجاري في المسهب، الدهرُ من رُواة قلائده، وحَمَلَة فرائده، طلع من الأفق الإشبيلي شمسًا طَبَّقَ الآفاقَ ضياؤها، وعمَّ الشرقَ والغربَ سناها وسناؤها، وكان في الأدب أرفَعَ الأعلام، وحسنة الأيام، وله كتاب «قلائد العقيان» ومن وقف عليه لا يحتاج في التنبيه على قدره إلى زيادة بيان، وهو وأبو الحسن بن بَسّام الشنتريني[6] مؤلّف الذخيرة فارسا هذا الأوان، وكلاهما قَسٌّ وسحبان، والتفضيل بينهما عسير، إلاّ أن ابنَ بسام أكثر تقييدًا، وعلمًا مفيدًا، وإطنابًا في الأخبار، وإمتاعًا للأسماع والأبصار، والفتح أقدر على البلاغة من غير تكلّف، وكلامه أكثر تعلّقًا وتعشّقًا بالأنفس، ولولا ما اتّسم به مِمّا عُرف من أجله بابن خاقان، لكان أحَدَ كتاب الحضرة المرابطية بل مجليها المستولي على الرهان، وإنما أخلَّ به ما ذكرْناه، مع كونه اشتهر بذمّ أولي الأحساب، والتمرين بالطعن على الأدباء والكتّاب، وقد رماه اللّه تعالى بما رمى به إمام علماء الأندلس أبا بكر بن باجّه، فوجد في فندق بحضرة مراكش قد ذَبَحَه عبد أسود خلا معه بما اشتهر عنه، وتركه مقتولاً، وفي دبره وتد، واللّه سبحانه يتغمّده برحمته.

---

(١) في الإحاطة: «في شيء منكر».

(٢) سورة فاطر ٣٥، الآية ٤٣.

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٦٦) وفي الإحاطة: «تسع».

(٤) في الإحاطة: «ثلاثة».

(٥) المغرب (جـ ١ ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠) وما أورده المقري هنا أكثر تفصيلاً مما في المغرب.

(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٦٧): «الشنتمري». والشنتريني: نسبة إلى شنترين Santaren مدينة بالبرتغال.

ومن شعره قوله من أبيات في المدح: [الطويل]

إلى أين تَرْقَى قد علوتَ على البدرِ ... وقد نلتَ غاياتِ السيادةِ والقدرِ
وجُدْتَ إلى أن ليس يُذْكرُ حاتمٌ ... وأغنيتَ أهل الجدبِ عن سَبَلِ[1] القطرِ
وكم رام أهلُ اللومِ باللوم وقفةً ... وبحركَ مَدٌّ لا يؤول إلى جزر
ولو لم يكنْ فيكَ السماحُ جِبِلَّةً ... لأثّر ذاكَ اللوم فيك مع الدهرِ

وذكره ابن الإمام في «سمط الجمان» وأنشد له: [الكامل]

للّهِ ظبيٌ من جنابك زارني ... يختالُ زهوًا في مُلاء مراح
ولي التماسك في هواه كأنه ... مروانُ خافَ كتائبَ السفّاحِ[2]
فخلعتُ صبري بالعَرَا ونبذْتُه ... وركبتُ وجدي في عنان جماح
أهدى ليَ الوردَ المضعَّفَ خدُّهُ ... فقطفْتُه باللحظ دون جُنَاح
وأردتُ صبرًا عن هواه فلم أُطِقْ ... وأريتُ جِدًّا في خلال مزاح
وتركت قلبي للصبابة طائرًا ... تَهفُو به الأشواقُ دون جَنَاحِ

وذكره ابن دَحْية في «المطرب» ونعته بابن خاقان؛ قال[3]: والشيخ أبو الحجاج البياسي ينكر هذا، وقيل: إنما قيل له ابن خاقان لما تقدّم ذكره في كلام الحجاري، وقال ابن دحية: إنه قُتل ذبحًا بمسكنه[4] في فندق ببيت من حضرة مراكش صدر سنة تسع وعشرين وخمسمائة، أشار بقتله علي بن يوسف بن تاشفين.

وقال أبو الحسن بن سعيد: رأيت فضلاء الأندلس ينتقدون على الفتح أول افتتاحه في خطبة قلائده «الحمد للّه الذي راض لنا البيان حتى انقاد في أعنّتنا، وشاد مثواه في أجنّتنا» لكون ما تضمّنته الفقرة الأولى أصوب مِمّا تضمّنته الفقرة الثانية، والصواب ضِدُّ ذلك؛ انتهى.

---

(١) السَّبَلُ، بالفتح: المطر قبل وصوله إلى الأرض. لسان العرب (سبل).

(٢) مروان: هو مروان بن محمد، المعروف بالجعدي، آخر ملوك بني أمية، والسفاح: هو أول خلفاء بني العباس.

(٣) المطرب (ص ٢٥).

(٤) في المطرب: «في مسكنه بفندق لبيب..».

وقال ابن الأبار في «معجم أصحاب الصدفي»[1]: إنه لم يكن مرضيًا، وحذفه أولى من إثباته؛ انتهى.

ولذا لم يذكره في التكملة.

وقال ابن خاتمة: إنه لم يُعْرَف من المعارف بغير الكتابة والشعر والآداب.

وما حكاه في «الإحاطة» من تاريخ وفاته مخالف لما حكاه ابن الأبار أنه ليلة عيد الفطر من سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة، قال: وقرأت ذلك بخطّ من يوثق به.

وحكى ابن خلكان[2] قولاً آخر أنه توفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة، قيل: وهو خطأ، على أنه حكى القول الآخر أيضًا.

ودفن بباب الدباغين، رحمه اللّه تعالى!.

وقد قيل: إنَّ قتله كان بإشارة أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أخي إبراهيم الذي ألّف برسمه «قلائد العقيان».

وقد ذكر ابن خلكان أنَّ المطمح ثلاث نسخ: صغرى، ووسطى، وكبرى، والذي قاله ابن الخطيب وابن خاتمة، وغير واحد من المغاربة أنه نسختان فقط: صغرى، وكبرى، ولعلّه الصواب، إذ صاحب البيت أدرى بما[3] فيه.

ومن تأليف الفتح «حماية[4] المحاسن، وغاية المحاسن» ومجموع في ترسيله، وتأليف صغير في ترجمة ابن السِّيد البَطَلْيَوسي نحو الثلاثة كراريس على منهاج القلائد.

ومن بديع إنشاء الفتح المذكور سامحه اللّه تعالى قوله: أطال اللّه تعالى بقاءَ الوزير الأجلّ، عَتَادِي الأسْرَى[5]، وزنادي الأوْرَى، وأيامه أعياد، وللسعد في زمانه انقياد، أمّا أنا أدام اللّه تعالى عزّه! . فجوّي عاتم، وأعيادي مآتم، وصُبْحي عِشاء، وما لي إلاّ من الخطوب انتشاء، أبيت بين فؤاد خافق وطرف[6] مُسَهَّد، نائي المحلّة من مزار العُوَّد، حين

(١) المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (ص ٣٠٨).
(٢) وفيات الأعيان (جـ ٤ ص ٢٣).
(٣) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٣٥): «بالذي فيه».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٦٩): «بداية».
(٥) الأسرى: اسم تفضيل من السراوة وهي السخاء في مروءة. لسان العرب (سرا).
(٦) الطرف: العين. لسان العرب (طرف).

لا أرى الروض المنوّر، ولا أُحسّ سُهَيلاً إذا لاح ثم تَهَوَّر، وقد بعدت دار إليّ حبيبة، ودنت مني حوادث بأدناها تؤذَى الشبيبة، وأي عيش لمن لزم المفاوز لا يَريمُها[1]، حتى ألفه ريمُها[2]، قد رمته النوائب فما اتَّقَى، وارتقت له الجوائح في وُعُور المرتقى، يُوَاصل النوى ولا يهجر سيرًا، ولم يزجر في الإراحة طيرًا، قد هام بالوطن، هيام ابن[3] طالب بالحوض والعطن، وحَنَّ إلى تلك البقاع، حنينه إلى أثْلات القاع[4]، ولا سبيل أن يَشْعَبَ[5] صدر بينه شاعب، أو تكلّمه أحجار للدار وملاعب، وليس له إلى أين[6] يجنح، ولا يرى أمله يَسْنَح، قد طوى البلاد وبسطها، وتطرّف الأرضَ وتوسّطها، ولم يُلْفِ مَقِيلاً، ولا وجد مُقِيلاً، إلى اللّه أشكو ما أُقاسي وأُقاصي، وبيده الأقدامُ والنواصي[7]، ولقاؤه موعد لكل[8] موعد، وكل معمر سيدركه يومًا حِمام الموعد، وأنفذته وقد صدرتُ عن فلانة بعد أهوال لقيتها، وأنكالٍ سُقيتها، وسفر لقيت منه نَصَبًا، وكَدَر أعقبني وَصَبًا، وإلى متى يعتزلني السعد؟ وللّه الأمر من قَبْلُ ومن بَعْدُ؛ انتهى.

وكتب رحمه اللّه تعالى من رسالة: سيدي لا عدمتَ ارتفاقًا، ولا حُرِمتَ تكيفًا من السعد واتفاقًا، أنا الآن مشتغلُ البال، لا أُفرّق بين الإعراض والإقبال، وعند توجهي[9] أفرغ لك ما حضر، ومثلُك أرجَأَ الأمر وأنظر، وفي علم اللّه تعالى لو أمكنني لحملتك على كاهل، وأوردتك منه أعذبَ المناهل، وأبحتُ لك السعد ثغرًا ترتشفه، وخلعته بُرْدًا عليك تلتحفه، لكن الزمان لا يجد، وصروفه لا تنجد، وعلى أي حال فلا بُدَّ أن تجد قِراك، وتحمد سُرَاك، إن شاء اللّه تعالى.

---

(١) يريمها: يفارقها. محيط المحيط (ريم).

(٢) الريم: الظبي. محيط المحيط (ريم).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٧٠): «أبي».

(٤) يشير إلى اغتراب يحيىٰ بن طالب الحنفي عن وطنه اليمامة والتحاقه بالعراق حيث افتقر، فحنَّ إلى أثلات القاع فقال: [الطويل]

ويا أثلات القاع قد ملَّ صحبتي ... مسيري، فهل في ظِلِّكنَّ مَقيلُ

معجم البلدان (ج ٤ ص ٣٢٦ ـ ٣٢٧، مادة قَرْقَرى).

(٥) يشعب: يجبر ويصلح. لسان العرب (شعب).

(٦) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٧٠): «أن».

(٧) في الطبعة نفسها: «النواصي» أي بدون واو العطف.

(٨) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٣٦): «كلّ».

(٩) في الطبعة نفسها: «وعند تفرغي أوجّه لك..».

وكتب إلى أبي بكر بن علي[1] عند ولايته إشبيلية: أطال اللّه تعالى بقاء الأمير الأجلّ أبي بكر للأرض يتملكُها! ويستدير بسعده فَلَكُها! استبشر الملك وحقّ له الاستبشار، وأومأ إليه السعد في ذلك وأشار، بما اتّفق له من توليتك، وخَفَق عليه من أَلْوِيَتِك، فلقد حُبِيَ منك بملك أمضى من السهم المسَدَّد: [الطويل]

طويلُ نجادِ السيفِ رَحْب المقلَّدِ

يُقْدِم حيث يتأخر الذابل[2]، ويكرم إذا بخلَ الوابل[3]، ويحمي الحمى كربيعة بن مُكَدَّم، ويسقي الظُّبَا نجيعًا كلون العَنْدَم، فهنيئًا للأندلس! لقد استردت عَهْد خلفائها، واستمدَّتْ تلك الإمامة بعد إغفائها، حتى كأن لم تمرَّ أعاصرُها[4]، ولم يمت حَكَمُها ولا ناصِرُها، اللذان عمرا الرصافة والزَّهْرا، ونكحا عقائل الروم وما بذلا إلاَّ المشرفية[5] مَهْرا، واللّه تعالى أسأله انتصار أيامك، وبه أرجو انتشار أعلامك، حتى يكون عَصْرُكَ أعجب من عصرهم، ونصرُك أعزَّ من نصرهم، والسلام؛ انتهى.

وقال بعضهم: من أحسن ما رأيت له قوله: معاليك أشهر رُسُومًا، وأعطر نَسيمًا، من أن يغرب شهاب مَسْعَاها، أو يجدب لرائدٍ مَرْعَاها، فإن نبهتك فإنما نبهت عُمَرًا[6]، وإن استنرتك فإنما أستنير قمرًا، والأمير أيّده اللّه تعالى أجلُّ من أعتصم في ملكه، وأنتظم في سلكه، فإنه حُسام بيد الملك، طلاقتُه فِرِنْدُه، وشهامتُه حدُّه، وقضيب، في دوحة الشرف رطيب، بشره زَهَره، وبرّه ثَمَره، وقد توسّمت نارك لعلّي أفوزُ منها بقَبَس، أو تكون كنار موسى بالوادي المقدّس، وعسى الأمل أن تعلو بكم قِدَاحُه، ويشف من أُفقكم مصباحُه،

---

(١) هو أبو بكر بن علي بن يوسف بن تاشفين، أكبر أبناء علي؛ نشأ بإشبيلية، وكان مؤدّبه أبو مروان بن زهر، ولي أمر إشبيلية سنة ٥١٨ هـ وعزل عنها سنة ٥٢٢ هـ.

(٢) الذابل: الرمح. لسان العرب (ذبل).

(٣) الوابل: المطر الكثير. لسان العرب (وبل).

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٧١): «أعصارها» وهو ما لم يوافق السجعة.

(٥) المشرفية: السيوف المنسوبة إلى مشارف اليمن. لسان العرب (شرف).

(٦) أخذه من قول بشار بن برد في مدح عمر بن العلاء: [المتقارب]

إذا أيقظتك حروبُ العدا ... فنبِّهْ لها عُمَرًا ثم نَمْ

ديوان بشار بن برد (ص ٢١٧).

فجرْدٌ - أيّدك اللّه تعالى! - صارم عزم لا تُفلُّ[1] غروبُه، وأطلعْ كوكب سعد لا يخاف غُروبُه؛ انتهى.

ولنذكر بعض كلامه في «المطمح» لغرابته في هذه البلاد المشرقية بخلاف «القلائد» فإنها موجودة بأيدي الناس فيه.

قال رحمه اللّه تعالى في ترجمة أبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي[2]:

إمام اللغة والإعراب، وكعبة الآداب، أوْضَحَ منها كلّ إبهام، وفضح دون الجهل بها محلّ الأوهام، وكان أحد ذوي الإعجاز، وأسعد أهل الاختصار والإيجاز، نَجَمَ والأندلس في إقبالها، والأنفس أول تَهَمُّمها بالعلم واهتبالها، فنفقت له عندهم البضاعة، واتّفقت على تفضيله الجماعة، وأشاد الحَكَمُ بذكره، فأورى بذلك زناد فكره، وله اختصار «العين» للخليل، وهو معدوم النظير والمثيل، و «لحن العامة» و «طبقات النحويين» وكتاب «الواضح» وسواها من كلّ تأليف مُخْجل لمن أتى بعده فاضح، وله شعر مصنوع ومطبوع، كأنما يتفجّر من خاطره يَنْبُوع، وقد أثبت له منه ما يقترح، ولا يطرح، فمن ذلك قوله: [مجزوء الرمل]

كيف بالدِّيْنِ القديمِ	لكَ من أُمِّ تميمِ
ولقد كان شفاءً	من جوى[3] القلب السقيمِ
يُشرِقُ الحسنُ عليها	في دجى الليلِ البهيمِ

وكتب مراجعًا: [مخلع البسيط]

أغرقتني في بحورِ فكرٍ	فكدتُ منها أموتُ لَمَّا[4]
كَلَّفْتني غامضًا عويصًا	أرجمُ فيه الظنونَ رَجْما
ما زلت أسْرُو السُّجوفَ عنه[5]	كأنني كاشفٌ لظُلْمَا

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٧١): «يفلُّ».
(٢) مطمح الأنفس (ص ٥٣ - ٥٥).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٧٢): «هوى».
(٤) في مطمح الأنفس: «غمّا».
(٥) السجوف: جمع سجف وهو الغطاء. أسرو: أزيح. لسان العرب (سجف) و (سرا).

أقـربُ مـن لـيـلِـهِ، وأنـأى	مـسـتـبـصـرًا تـارة وأعـمـى
حـتـى بَـدَا مـشـرقُ الـمُـحَـيَّـا	لـمَّـا اعـتـلـى طـالـعًـا وتـمّـا
لـلّـه مِـنْ مـنـطـقٍ وجـيـزٍ	قـد جَـلَّ قـدرًا وجـلَّ فـهـمـا
أخـلـصـتَ لـلّـه فـيـه قـولاً	سَـلِّـمـت لـلّـه فـيـه حُـكْـمـا
إذ قـلـتَ قـولَ امـرئٍ حـكـيـم	مـراقـبٍ لـلإلٰـهِ عـلـمـا
الـلّـهُ ربِّـي ولـيُّ نـفـسـي	فـي كـل بـوسٍ وكـلِّ نُـعْـمَـىٰ

وكتب إلى أبي مسلم ابن فهد وكان كثير التكبّر، عظيم التجبّر، متغيّرًا[1] لسانه، مقفرًا من المعالم جَنَانه[2]: [الطويل]

أبا مسلمٍ، إنَّ الفتى بفؤاده[3]	ومِقْوَلِهِ لا بالمراكب واللّبسِ
وليس رُوَاءُ المرء يغني قُلاَمَةً[4]	إذا كان مقصورًا على قِصرِ النفسِ
وليس يفيدُ الحلم والعلم والحِجا[5]	أبا مسلمٍ طولُ القعود على الكرسي

واستدعاه الحكم المستنصر باللّه أمير المؤمنين فعجل إليه وأسرع، فأمرع من آماله ما أمرع، فلمّا طالت نَوَاه، واستطالت عليه لَوعَتُه وجَوَاه، وحَنَّ إلى مستكنه بإشبيلية ومَثْوَاه، استأذنه في اللحوق بها فلوّمه ولَوَاه، فكتب إلى من كان يألفه ويهواه: [مخلع البسيط]

ويـحـك يـا سَـلْـمَ لا تُـرَاعِـي	لا بُـدَّ لـلـبـيـن مـن مـسـاعِ
لا تـحـسـبـيـنـي صـبـرتُ إلاّ	كـصـبـرِ مـيـتٍ عـلـى الـنـزاع
مـا خـلـق الـلّـه مـن عـذابٍ	أشـدَّ مـن وقـفـة الـوداع
مـا بـيـنـهـا والـحِـمَـام فـرقٌ	إلاّ الـمـنـاحـات فـي الـنـواعـي
إن يـفـتـرقْ شـمـلُـنـا وَشـيـكًـا	من بعد ما كان في اجتماع
فـكـلُّ شـمـلٍ إلـى افـتـراقٍ	وكـلُّ شَـعْـبٍ إلـى انـصـداع
وكـلُّ قـربٍ إلـى بـعـادٍ	وكـلُّ وصـلٍ إلـى انـقـطـاع

---

(١) في المطمح: «متعثرًا».
(٢) الأبيات في جذوة المقتبس (ص ٤٦)، وقد تقدمت في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) في جذوة المقتبس: «بجنانه».
(٤) في المصدر نفسه: «وليس ثياب المرء تغني..».
(٥) في المصدر نفسه: «يفيد العلم والحلم..».

وقال ـ سامحه الله تعالى! ـ بعد ترجمة السلطان بألمرية المعتصم بن صُمَادح ما نصُّه:

ابنه عزّ الدولة أبو مروان عبد الله[1]، فتى الراح المعاقِرُ لدِنانها، المهتصر لأغصان الفتوة وأفنانها، المهجّر لفلاة الظِّباء والآرام، المشتهر[2] في باب الصَّبابة والغرام، نشأ في حِجْر أبيه نديم قَهْوَه، ومُديم صَبْوة، وخديم شَهْوة، لا يريم كاسًا، ولا يروم إلاَّ اقتضاءً وانتكاسًا، ما شهد قَتْلاً ولا قتالاً، ولا تقلّد صارمًا إلاَّ مختالاً، قد أمن منه جَنَان الجبان، وعدّت له غصون البان، وما زال مرتضعًا لأخلاف البَطَالة، مقتطعًا ما شاء من إطالة، متوغِّلاً في شعاب الفُتَّاك، متغلغلاً في طريق الانتهاك، إلى أن وجّهه أبوه إلى أمير المسلمين سفيرًا عندما بدتْ له وجوه الفتنة تُسْفِر، ومَعَاهد الهدنة تُقْفر، مع أكامل أصحبهم نُقْصانه، وذوي أديان جعلهم خُلْصانه، يسمعون بوادر بَذَاذته، وينظرون مناكر لذاذته، فآلت سَفْرته إلى الاعتقال، وقصرت نخوته ما بين قيد وعقال، فجاء كالمهر لا يعرف لجامًا، وصار حبيسَ قوم لا يألونه استعجامًا، وحين شالتْ نَعَامته، وسالتْ عليه ظلامته، كتب إلى أبيه: [المتقارب]

أبعدَ السنا والمعالي خمولُ	وبعد ركوبِ المَذَاكي كُبُولُ[3]
ومن بعد ما كنتُ حُرًّا عزيزًا	أنا اليومَ عبدٌ أسيرٌ ذليلُ
حللتُ رسولاً بغرناطة	فحلَّ بها فيّ خطبٌ جليلُ
وثُقِّفْتُ إذ جئتُها مُرْسَلاً	وقبليَ كان يُعَزُّ الرسولُ
فقدتُ المريةَ أكرمْ بها	فما للوصول إليها سبيلُ

فراجعه أبوه بقطعة منها: [المتقارب]

عزيز عليَّ ونوحي دليلُ	على ما أُقاسي ودمعي يسيلُ
وقَطَّعَتِ البيضُ أغمادَها	وشُقَّتْ بُنُودٌ وناحتْ طبول[4]
لئن كنت يعقوب في حزنه	ويوسفُ أنتَ فصبر جميل

---

(١) ترجمة عز الدولة لم ترد في المطمح المطبوع.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٤٠): «المُشَهَّر».

(٣) المذاكي من الخيل: التي تمّ سنُّها وكملت قوتُها. الكُبُول: جمع كبل وهو القيد. محيط المحيط (ذكا) و (كبل).

(٤) البِيضُ: جمع أبيض وهو السيف. البنود: جمع بند وهو العَلَم. لسان العرب (بيض) و (بند).

ولم يزل يتحيّل في تخلّصه، وأخذه من يد مُقْتَنِصه، فسُرِق وحرّاسه منه بمكان السلك من النحر، وطرق به على ثَبَج البحر، فوافى أَلْمَرِيَّة، وقد أخذ البحث عليه آفاق البريّة، فهنىء المعتصم بخلاصه، وبقي مستقرًا بِعِرَاصِه، إلى أن أخلوها ومضوا لطلبة ما نووها، فنجا أخوه إلى حيث ذكرنا من بلاد الناصر ولجأ هو إلى أحد المرابطين لأذِمَّة[1] كانت بينهما وأواصر[2]، وأقام معه سمير لهوه، وأمير سهوه، إلى أن انقرض أمَدُه، وطواه سرورُه لا كمدُه، فلم يُرَ إلاَّ خالعًا لعِذاره، طالعًا في ثنيّات اغتراره، غير مكترث باتِّضاعه، ولا منحرف عن ارتشاف الغيّ وارتضاعه، وبدا منه في هذه الحال ندى كاثَرَ به السحاب، وظاهر بسببه الصِّحاب، وتخدَّم الأوطار، وتقدم لذوي الرتب فيها والأخطار، تقدّمًا حَسَّنَ[3] من ذكره، وأولع الألسن بشكره، فارتفع عنه الكَدْح، وشَفَع له في الذمّ ذلك المدح، وكان نظمه بديع الوصف، رفيعَ الرَّصْف، وقد أثبتُّ له ما يشهد بإجادته وإحسانه، شهادة الروض بجود نيسانه.

أخبرني ابن القطان أنه ساير الأمير يحيىٰ بن أبي بكر إلى طُلَيطلة في جيوش فاضت سَيلاً، وخاضت المطايا قتامَها لَيلاً، وكان ملكًا لم يُعْقَد على مثله لِواء، ولم يحتوِ على شِبْهِهِ حِواء[4]، جمال مُحَيًّا، وكمال عَلْيا، وحسن شِيَم، وبُعْدُ هِمَم، أغنى العُفَاة، وأحيا الرفات، وألغى الأجواد، وأنسى كعب بن مامة وابن أبي دُوَاد، فلمّا شارف طُلَيطلة وكشفها، واشْتَفَّ بلالتها وارتشفها، وضرب بكنفها مَضاربه، وأجال بساحتها زَنْجَهُ وأعاريَه، سقط أَحَدُ ألويته عن يد حامله، وانكسر عند عامله، فطائفة تفاءلت، وطائفة تطيّرت، وفرقة ابتهجت، وأخرى تغيّرت، فقال: [الكامل]

لم ينكسرْ عودُ اللِّواء لطيرةٍ ... يُخْشَى عليكَ بها وأن تتأوّلا
لكن تحقَّق أنه ينـدقُّ في ... نحر العِدَا ولدى الوغى فَتَعَجَّلا

وأخبرني أخوه رفيعُ الدولة أنَّ ابن اللبانة كتب إليه والخلع قد نضا لبوسه، وقصر بوسه، وكدر صفاءه، وعذر وفاءه، وطوى ميدان جوده، وأذوى أفنان وُجُوده، قوله[5]:
[البسيط]

(١) الأذمّة: جمع ذمام وهو العهد. لسان العرب (ذمم).
(٢) الأواصر: جمع آصرة وهي كل ما يربطك بغيرك من قرابة أو صداقة. لسان العرب (أصر).
(٣) في طبعة عبد الحميد: «والأخطار، حسنًا من ذكره».
(٤) الحِواء: مضرب الأعراب. لسان العرب (حوا).
(٥) البيتان في الحلة السيراء (ج ٢ ص ٩١)، وقد تقدما في الجزء الرابع دون تغيير عمّا هنا.

يا ذا الذي هَزَّ أمداحي بِحِلْيته وعَزَّه أن يهزَّ المجدَ والكَرَما
وادِيكَ لا زَرْعَ فيه اليومَ تَبْذُلُهُ فَخُذْ عليه لأيامِ المُنَى سَلَمَا[1]

فدَعَتْه دواعي الندى، وأولعته بالجدا في ذلك المدى، فتحيّل في بِرِّ طبعه، وكتب معه[2]: [البسيط]

المجدُ يُخْجِلُ من نقديك[3] في زمنٍ ثناهُ عن واجبِ البِرِّ الذي علما
فدونك النَّزْرَ من مُضْفِ مَوَدَّتَهُ حتى يُوفِّيكَ أيامَ المُنى سَلَمَا[4]

ابنه الثاني: رفيع الدولة أبو يحيىٰ بن المعتصم:

من بيت[5] إمارة، وإلى السعد طوافه[6] بها واعتماره، عمرت أنديته، ونشرت به رايات العزّ وأوليته، إلى أن خوى كوكبهم، وهوى مرقبهم، فتفرّقوا أيادي سَبَا، وفرقوا من وقع الأسنّة والظُّبا، وفارقوا أرضًا كأرض غَسَّان، ووافقوا أيامًا كيوم أهل اليمامة مع حَسَّان، بعد ما خامرت النفوس مكارمهم مخامرة الرحيق، وأمَّهُمُ الناس من كلِّ مكان سحيق، وانتجعوا انتجاع الأنواء، واستطعموا في المحل واللأواء، وصالوا بالدهر وسَطَوا، وبين النهي والأمر فيه خَطَوا، ورفيع الدولة هذا فجر ذاك الصباح، وضوء ذلك المصباح، وغصن تلك الدَّوحَة، ونسيم[7] تلك النفحة، لم يمتهن والدهر قد بذله، ولا ترك الانتصار والأمر قد خَذَله، فالتحف بالصَّون وارتدى، وراح على الانقباض واغْتدَى، فما تلقاه إلاَّ سالكًا جَدَدًا، ولا تراه إلاَّ لابسًا سُودَدًا، وله أدب كالروض المَجُود إذا أزهر[8]، ونظم كزهر

---

(١) السَّلَم، بالفتح: السلف، وعند الفقهاء: أن تعطي غيرك مالاً على أن يسلِّمك بعد مدة سلعة محددة الأوصاف منعًا للمنازعة. لسان العرب (سلم).
(٢) البيتان في الحلة السيراء (جـ ٢ ص ٩٢)، وتقدما في الجزء الرابع ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٣) في الحلة السيراء: «من يفديك».
(٤) في المصدر نفسه: «السَّلَما».
(٥) في مطمح الأنفس: «من ثنيّة».
(٦) في المصدر نفسه: «حجه».
(٧) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٧٦): «وعَرْفُ».
(٨) في الطبعة نفسها: «زهر».

التهائم والنجود بل كالصبح إذا أسفر واشتهر، أوقفه على النسيب، وصرفه إلى المحبوبة والحبيب، فمن ذلك قوله[1]: [البسيط]

ما لي وللبدر لم يسمح بزورتِهِ ... لعلَّه[2] تركَ الإجمالَ أو هَجَرَا
إن كان ذاك لذنبٍ ما شعرتُ به ... فأكرمُ الناسِ مَنْ يعفو إذ قدرا[3]

وله أيضًا: [السريع]

يا عابدَ الرحمنِ كم ليلةٍ ... أَرَّقْتَنِي وَجْدًا ولم تشعرِ[4]
إذ كنت كالغصنِ ثَنَتْه الصَّبَا ... وصحن ذاك الخَدِّ لم يشعرِ[5]

وله أيضًا[6]: [الطويل]

وأهيفَ لا يلوي على عَتْبِ عاتبٍ ... ويقضي علينا بالظنونِ الكواذبِ
يُحَكِّمُ فينا أمرَه فنطيعه ... ونحسب منه الحكمَ ضربةَ لازبِ

وله أيضًا رحمه الله تعالى[7]: [الكامل]

وعَلِقْتُهُ حلوَ الشمائل ماجنًا ... خَنِثَ الكلامِ مُرَنَّحَ الأعطافِ
ما زلتُ أُنصِفُهُ وأُوْجِبُ حَقَّهُ ... لكنه يأبى من الإنصاف

وله أيضًا[8]: [الطويل]

حبيبٌ متى ينأى عن العين شخصُهُ ... يَكادُ فؤادي أن يطيرَ من البَينِ
ويسكن ما بين الضلوع إذا بَدَا ... كأنَّ على قلبي تمائمَ مِنْ عَينِ[9]

---

(١) البيتان في الحلة السيراء (ج ٢ ص ٩٣ - ٩٤).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٧٧): «العلّة».
(٣) في الطبعة نفسها: «أقدرا».
(٤) لم تشعر: أراد أنه لم يعلم ما هو فيه من السّهد والأرق.
(٥) لم يشعر: أي لم يقل شعرًا.
(٦) البيتان في الحلة السيراء (ج ٢ ص ٩٣).
(٧) الحلة السيراء (ج ٢ ص ٩٤).
(٨) المصدر نفسه.
(٩) في الحلة السيراء: «عيني».

وله أيضًا: [الطويل]

أُفدّي أبا عمروٍ وإن كان جانيًا ... عليّ ذنوبًا لا تُعَدَّدُ بالعَتْبِ [1]
فما كان ذلك الودّ إلاّ كبارقٍ ... أضاء لِعَيني ثم أظلم للقلبِ [2]

وله وقد بلغه موتي، وتحقّق عنده فوتي[3]: [البسيط]

مثنى الوزارة قد أودى فما فَعَلَتْ ... تلك المحابرُ والأقلامُ والطُّرُسُ
ما كنت أحسبُ يومًا قبل ميتته ... أنَّ البلاغة والآداب تُختَلَسُ

واستأذن ليلة على أحد الأمراء وأنا عنده في أسنى موضع، وأبهى مطلع، وجوانب حَفَدِهِ[4] بين يديَّ محتلّة، وسحائب رفده عليَّ مُنهلّة، وكان أجمل مَنْ مُقِلَ[5]، وأكمل مَنْ مِنَ المهد إلى سرير الملك قد نُقِل، وكتب إليَّ يهنيني بقدوم من سفر: [الطويل]

قدمتَ أبا نصرٍ[6] على حال وَحْشةٍ ... فجاءت بك الآمالُ واتَّصلَ الأنسُ
وقرّت بك العينانِ واتَّصل المنى ... وفازتْ على يأسٍ ببغيتها النفسُ
فأهلاً وسهلاً بالوزارة كلِّها ... ومن رأيُهُ في كلِّ مظلمة شمسُ

وقال في المطمح في ترجمة الوزير أبي الوليد بن حزم[7]:

واحدٌ دونه الجمع، وهو للجلالة بصر وسمع، روضَةُ علاه رائقة السنا، ودوحة بَهَاه طيِّبة الجنى، لم يتَّزر بغير الصَّوْن، ولم يشتهر بفسادٍ بَعْدَ الكون، مع نفس برئت من الكبر، وخلصت خلوص التبر، مع[8] عفاف الْتَحَفَ به بُرُودًا، وما ارتشف به ثغرًا بَرُودًا، فعَفَتْ مواطنه، وما استرابت ظواهره، ولا بواطنه، وأمّا شعره ففي قالب الإحسان أفرغ، وعلى وجه الاستحسان يلقى ويبلغ، وكتب إليه ابن زُهْر: [الكامل]

أأبا الوليد وأنتَ سيدُ مَذْحج ... هلاَّ فككتَ أسيرَ قبضة وَغدِهِ

(١) في مطمح الأنفس: «بالبهت».
(٢) في المطمح: «أظلم في الوقت».
(٣) لم يرد هذان البيتان في المطمح المطبوع.
(٤) الحَفِدُ: جمع حافد وهو التابع، والخادم، والناصر. لسان العرب (حفد).
(٥) مُقِلَ: نُظر إليه. لسان العرب (مقل).
(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٧٨): «أبا بكر».
(٧) مطمح الأنفس (ص ٣١).
(٨) في طبعة عبد الحميد: «وعفاف».

وحياةِ مَنْ أمَدُ الحياةِ بوصله … وذهابُهَا حتمًا بأيسرِ صَدِّهِ
لأقاتلنَّكَ إن قطعت بمُرْهَف … مِنْ جَفْنِهِ وبصَعْدةِ من قَدِّهِ[1]

فراجعه أبو الوليد: [الكامل]

لَبَّيْكَ يا أَسَدَ البريّةِ كلُّها … من صادقٍ عَبَثَ المطالُ بوعدِهِ
يمضي بأمرك ساءَ أو سرَّ القضا[2] … ويَفُلُّ حَدَّ النائباتِ بحدِّهِ
إيه ووافقت الصبا في معرض … ذهب المشيب بهزله وبجدّه

وقال في المطمح في ترجمة أبي بكر الغساني، ما صورته[3]:

صليب العود، مَهيب الوعود، لو دعي له الأسدُ الوَرْدُ لأجاب، ولو رمي بذكره الليلُ البهيمُ لانجاب، ولو قعدت بين يديه الأطواد لتحرّك سكونها، ولو عصته الطيور ما آوتها وُكونها، مع وقار تخاله يَذْبُلا[4]، وفخار يفضح بُلْبُلا، وشِيمَ لو كانت بالروض ما ذَوَى، أو تقاسمت في الخلق ما رمِد أحد بعد ما شوى، وسجايا تنجلي عنها الظلماء، كأنَّ مزاجَها عسلٌ وماء[5]؛ انتهى.

وهذا الغساني هو صاحب تفسير القرآن وقد عَرَّف به في[6] «الإحاطة» فليراجع ثمة.

وقال أيضًا في المطمح ما صورته: أبو عامر بن عقال[7].

كان له ببني قاسم تعلق، وفي سماء دولتهم تألّق، فلمّا خوت نجومهم، وعَفَتْ رسومهم، انحطّ عن ذلك الخصوص، وسقط سقوط الطائر المقصوص، وتصرّف بين

---

(١) المُرْهَفُ: السيف. الصعدة: القناة المستوية. لسان العرب (رهف) و (صعد).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٧٩): «سار أو ساء القضا».
(٣) لم ترد ترجمة أبي بكر الغساني في المطمح المطبوع.
(٤) يَذْبُل: جبل مشهور الذكر بنجد في طريقها. معجم البلدان (ج ٥ ص ٤٣٣).
(٥) هذا من قول حسان بن ثابت: [الوافر]
كأنّ سبيئة من بيت رأس … يكون مزاجَها عسلٌ وماءُ
ديوان حسان بن ثابت (ص ٨).
(٦) كلمة «في» ساقطة من طبعة عبد الحميد.
(٧) مطمح الأنفس (ص ٨٦ ـ ٨٧).

وجود وعدم، وتحرّف قاعدًا حينًا وحينًا على قَدَم، وفي خلال حاله[1]، وأثناء انتحاله، لم يدع حظه[2] من الحبيب، ولا ثنى لحظه عن الغزال الربيب، ولم يزل يطير ويقع، والدهر يخرق حاله ويرقع[3]، إلى أن أرقاه الأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين رحمه اللّٰه تعالى أعلى[4] رَبْوَة، وأراه أبهى حُظْوة، فأدرك عنده رتبة أعلام التحبير والإنشا، وترك الدهر قَلِقَ الحشَا، وتسنّم منزلة لا يتسنّمها إلاّ من تطهّر من درَنه، وجمح إحسانه في ميدان حرنِه، والحظوظ أقسام لا تُسَام، والدنيا إنارة وإعتام[5] : [الوافر]

ولـو لـم يَـعْـلُ إلاّ ذو مَـحَـلٍّ   تـعـالـى الـجـيـشُ وانـحطَّ الـقَـتَـامُ

وقد أثبتُّ عنه بعض ما انتقيته، والذي أخذته مباين لما أبقيته، فمن ذلك قوله: [مجزوء الكامل]

يـا وَيْـحَ أجـسـام الأنـا   مِ فـمـا تـطـيـقُ مـن الأذى
خُـلِـقَـتْ لـتـقـوى بـالـغـذا   ءِ وسـقـمُـهـا ذاك الـغـذا
وتـنـالُ أيـامَ الـسـلا   مـةِ بـالـحـيـاة تـلـذّذا
فـإذا انـقـضـى زمنُ الـصِّبَا   ورمـى الـمـشـيـبُ فـأنـفـذا
وجـد الـسـقـامُ إلـى الـمـفـا   صـلِ والـجـوانـحِ مـنـفـذا
ويـقـولُ مـهـمـا يُـعْـطَ شـيـ   ـئًـا نـاولـونـي غـيـر ذا

وحذا في هذه القصيدة حَذْوَ الصابي في قوله[6] : [مجزوء الكامل]

وجـعُ الـمـفـاصـل وهـو أيـ   ـسَـرُ مـا لـقـيـتُ مـن الأذَى
رَدَّ الـذي اسـتـحـسـنْـتُـهُ   والـنـاسُ مـن حَـظِّـي كـذا[7]
والـعـمـرُ مـثـلُ الـكـاس يـر   سُـبُ فـي أواخـره الـقـذى

---

(١) في طبعة عبد الحميد: «حاليه، وأثناء انتحاليه..».
(٢) في المطمح: «حظًّا».
(٣) في المطمح: «يخفض حاله ويرفع».
(٤) في المطمح: «إلى أسمى ذروة، ورداه أبهى..».
(٥) البيت للمتنبي وهو في ديوانه (ص ٩٧).
(٦) الأبيات في يتيمة الدهر (ج ٢ ص ٢٩٩).
(٧) في اليتيمة: «جعل الذي استحسنته واليأس من..».

وله يعتذر عن زيارةٍ اعتمدها، ومواصلة اعتقدها، فعاقَتْه عنها حوادثُ لَوَتْه، وعَدَتْه عن ذلك وثَنَتْه: [الخفيف]

بينما كنتُ راجيًا للقائِهِ	والتشفِّي بالبِشر من تلقائِهِ
وترقبتُ من سماء نزاعي	قمر الأنس طالعًا من سمائِهِ
إذ دهاني اعتراضُ خطبٍ ثناني	عن غمامٍ يشفي الغليلَ بمائِهِ
فتدلَّهتُ[1] وانزويتُ حَياءً	منه والعذرُ واضحٌ لسنائِهِ

وله فصل كتب به عن الأمير إبراهيم يصف إجازة أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة وخمسمائة: وفي الساعة الثانية من يوم الجمعة كان جَوَازه - أيّده اللّه تعالى! - من مرسى جزيرة طَريف على بحر ساكن قد ذلّ بعد استصعابه، وسَهُل بعد أن رأى[2] الشامخ من هضابه، وصار حَيُّه مَيْتًا، وهدْره صَمْتًا، وجبالُه لا ترى فيها عِوَجًا ولا أمْتًا، وضعف تعاطيه، وعَقَد السلم بين مَوجه وشاطيه، فعبر آمنًا من لَهَوَاته، متملّكًا لصَهَوَاته، على جواد يقطع الجوّ سَبْحًا، ويكاد يسبق البرق لَمْحًا، لم يحمل لجامًا ولا سَرْجًا، ولا عهد غير اللجّة الخضراء مَرْجًا، عِنانه في رجله، وهُدْبُ العين يحكي بعض شكله، فللّه هو من جَوَاد، له جسم وليس له فؤاد، يخرق الهوى ولا يَرْهَبُه، ويركض الماء ولا يشربه.

وقال في ترجمة الفقيه أبي مروان عبد الملك بن زيادة اللّه الطبني، ما نصُّه[3]:

من ثَنِيَّة شرف وحَسَب، ومن أهل حديث وأدب، إمام في اللغة متقدّم، فارعٌ لرُتَب الشِّعر مُتَسَنّم، له رواية بالأندلس ورحلة إلى المشرق، ثم عاد وقد توّج بالمعارف المَفْرِق، وأقام بقرطبة عَلَمًا من أعلامها، ومتسنّمًا لترفّعها وإعظامها، تؤثره الدُّوَل، وتصطفيه أملاكها الأول، ما زال فيها مقيمًا، ولا برح عن طريق أمانيها[4] مستقيمًا، إلى أن اغتِيلَ في إحدى الليالي بقضية يطول شرحها فأصبح مقتولاً في فراشه، مذهولاً كلّ أحد من انبساط الضرب

(١) تَدَلَّهتُ: تحيَّرْتُ وأخذتني الدهشة. لسان العرب (دله).

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٨١): «أرى».

(٣) مطمح الأنفس (ص ٥٠).

(٤) في طبعة عبد الحميد: «أحانيها».

إليه على انكماشه، وقد أثبتُ من محاسنه ما يعجب السامع، وتُصْغِي إليه المسامع، فمن ذلك قوله: [الطويل]

وضاعفَ ما بالقلبِ يومَ رحيلهمْ　　على ما به منهمْ حنينُ الأباعرِ
وأصبرُ عن أحبابِ قلبٍ ترحّلوا　　ألا إنَّ قلبي سائرٌ غير صابرِ

ولمّا رَجَعَ إلى قرطبة وجلس ليرى ما احتقبه من العلوم، اجتمع إليه في المجلس خَلق عظيم، فلمّا رأى تلك الكثرة، وما له عندهم من الأثرة، قال: [البسيط]

إني إذا حضرتني ألفُ محبرةٍ　　يكتبن حدّثني طورًا وأخبرني
نادتْ بمفخريَ الأقلامُ معلنةً　　هذي المفاخر لا قَعْبَانِ من لبن[1]

وكتب إلى ذي الوزارتين أبي الوليد ابن زيدون: [البسيط]

أبا الوليد وما شَطَّتْ بنا الدارُ　　وقَلَّ منَّا ومنك اليومَ زوّارُ
وبيننا كلُّ ما تدريه من ذِمَمٍ　　وللصِّبا ورقٌ خضرٌ وأنوارُ
وكلُّ عتبٍ وإعتابٍ جَرَى فله　　بدائع حلوةٌ عندي وآثار
فاذكر أخاكَ بخير كلّما لَعِبَتْ　　به الليالي فإنَّ الدهرَ دوّارُ

وقال في ترجمة صاحب العقد الفقيه العالم أبي عمر أحمد ابن عبد ربه[2]:

عالم ساد بالعلم ورأس، واقتبس به من الحظوة ما اقتَبَس، وشهر بالأندلس حتى سار إلى المشرق ذكره، واستطار شَرَرَ الذكاء فكرُه، وكانت له عناية بالعلم وثقة، ورواية له مُتَّسِقة، وأمّا الأدب فهو ـ كان ـ حُجَّتُه، وبه غمرت الأفهامَ لجّتُه، مع صيانة ووَرَع، وديانة ورَدَ ماءها فكَرَع، وله التأليف المشهور الذي سماه بـ «العقد»، وحماه عن عثرات النقد؛ لأنه أبرزه مُثَقَّفَ القَنَاة، مُرْهَفَ الشَّباة[3]، تقصُر عنه ثواقب الألباب، وتبصر السحر منه في كل باب، وله شعر انتهى منتهاه، وتجاوز سِماكَ الإحسان وسَمَاه.

---

(١) أخذه من قول أمية بن أبي الصلت الثقفي في مدح سيف بن ذي يزن: [البسيط]
تلك المكارمُ لا قَعْبانِ مِنْ لبنٍ　　شِيبا بماءٍ فعادا بَعْدُ أبوالا
الشعر والشعراء (ص ٣٧٢).

(٢) مطمح الأنفس (ص ٥١ ـ ٥٣). وانظر بحثنا عن حياة ابن عبد ربه وشعره في كتاب بعنوان «ابن عبد ربه» مطبعة سعد إخوان، بيروت، ١٩٩٣.

(٣) الشباة: طرف السنان. لسان العرب (شبا).

أخبرني ابنُ حزم أنه مَرَّ بقصر من قصور قرطبة لبعض الرؤساء فسمع منه غناء أذهب لُبّه، وألهب قلبه، فبينما هو واقف تحت القصر إذ رُشّ بماء من أعاليه، فاستدعى رقعة، وكتب إلى صاحب القصر بهذه القطعة[1]: [البسيط]

يا مَنْ يَضِنُّ بصوتِ الطائرِ الغَرِدِ ... ما كنتُ أَحْسَبُ هذا الضَّنَّ في أَحَدِ[2]
فلا تضنّ على سمعي ومُنّ به[3] ... صوتًا يجولُ مجالَ الروح في الجسد
أمّا النبيذُ فإني لست أشربُه ... ولا أجيئك إلاّ كسوتي بيدي[4]

وعَزَم فتى كان يتألّفه، وخامره كَلَفُه، على الرحيل في غَدِه، فأذهبت عزمته قوى جَلَدِه، فلمّا أصبح عاقته السماء بالأنواء[5]، وساقته مكرهًا إلى الثُّواء، فاستراح أبو عمر من كَمَدِهِ، وانفسح له من التواصل ضائق أَمَدِه، فكتب إلى المذكور، العازم على البكور[6]: [البسيط]

هَلاَّ ابْتَكَرْتَ لِبَيْنٍ أنتَ مُبْتَكِرُ ... هيهاتِ يأبى عليكَ اللّهُ والقَدَرُ
ما زلتُ أبكي حِذارَ البَيْنِ ملتهبا[7] ... حتى رثى ليَ فيكَ الريحُ والمَطَرُ
يا بَرْدَهُ من حَيَا مُزْنٍ على كبدٍ ... نيرانُها بغليلِ الشوقِ تَسْتَعِرُ
آليتُ أن لا أرى شمسًا ولا قمرًا ... حتى أراكَ فأنتَ الشمسُ والقمرُ

ومن شعره الذي صَرَّح به تصريحَ الصّبّ، وبرّح به وقائع اسم الحبّ، قوله[8]: [البسيط]

الجسمُ في بلدٍ والروحُ في بَلَدِ ... يا وحشةَ الروحِ بل يا غربةَ الجسدِ
إنْ تَبْكِ عيناكَ لي يا مَنْ كلفتُ به ... من رحمةٍ فهما سهماكَ في كبدي

---

(١) ديوان ابن عبد ربه (ص ٥١) والمطرب (ص ١٥١ ـ ١٥٢) وجذوة المقتبس (ص ١٠٢). وقد تقدم البيتان الأول والثاني في الجزء الرابع.

(٢) في الديوان: «من أحد».

(٣) في الديوان: «فلا تظنّ على أذني تقرّطها».

(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٨٢): «ولا أحبل إلاّ نسوتي بيدي». وفي الديوان: «أما الشراب فإني لست أقربه، ولست آتيك إلاّ..».

(٥) الأنواء: جمع نوء وهو المطر. مختار الصحاح (نوأ).

(٦) ديوان ابن عبد ربه (ص ٧٠) وجذوة المقتبس (ص ١٠١).

(٧) في الديوان وجذوة المقتبس: «ملتهفًا».

(٨) ديوان ابن عبد ربه (ص ٥٢).

ومنه قوله(١): [الخفيف]

وَدَّعَتْنِي بزفرةٍ واعتناقِ ... ثم نادتْ متى يكونُ التلاقي(٢)
وبَدَتْ لي فأشرق الصبحُ منها(٣) ... بين تلك الجيوبِ والأطواقِ
يا سقيمَ الجفونِ من غيرِ سُقْمٍ ... بين عينيكَ مصرعُ العُشّاق
إنَّ يومَ الفراقِ أفظعُ يومٍ ... ليتني مُتُّ قَبْلَ يوم الفراقِ

وله أيضًا(٤): [الكامل]

يا ذا الذي خَطَّ الجمالُ(٥) بخدِّه ... خَطَّينِ هاجَا لوعةً وبَلابِلا
ما صَحَّ عندي أنَّ لَحْظَكَ صارِمٌ ... حتى لبستَ بعارِضَيكَ حَمائلا

وأخبرني بعضهم أنَّ الخطيب أبا الوليدَ ابن عيال حجّ، فلمّا انصرف، تطلّع إلى لقاء المتنبي واستشرف، ورأى أنَّ لقياه فائدة يكتسبها، وحلّة فخر لا يحتسبها، فصار إليه فوجده في مسجد عمرو بن العاص، ففاوضه قليلاً، ثم قال: أنشدني لمليح الأندلس، يعني ابنَ عبد ربه، فأنشده(٦): [الكامل]

يا لؤلؤًا يَسْبِي العقول أنيقا ... ورَشًا بتقطيع القلوب رفيقا
ما إن رأيتُ ولا سمعتُ بمثله ... دُرًّا يعودُ من الحياءِ عقيقا
وإذا نظرتَ إلى محاسنِ وجهه ... أبصرتَ وجهك في سناهُ غريقا
يا مَنْ تقطَّعَ خَصْرُهُ من رقّةٍ ... ما بالُ قلبك لا يكونُ رقيقا

---

(١) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٢٢ ـ ١٢٣) والعقد الفريد (جـ ٣ ص ١٥٥) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ١١١). وتقدمت الأبيات في الجزء الثامن ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٢) في مطمح الأنفس: «بزورة واعتناق». وفي وفيات الأعيان: «ثم قالت».
(٣) في الديوان: «وتصدَّت فأشرق الصبح..».
(٤) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٤١) ووفيات الأعيان (جـ ١ ص ١١٠) والمرقصات والمطربات (ص ٧٥). وتقدم البيتان في الجزء الخامس ببعض الاختلاف عمّا هنا.
(٥) في وفيات الأعيان والمرقصات والمطربات: «العذار».
(٦) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٢٠). وتقدمت في الجزء الخامس والجزء الثامن باختلاف يسير عمّا هنا.

فلمّا أكمل إنشادها استعادها منه، وقال: يا ابن عبد ربه، لقد تأتيك العراق حَبْوًا.

وله أيضًا[1]: [الكامل]

ومُعَذَّرٍ نَقَشَ الجمالُ بخطِّهِ[2] خدًا له بدمِ القُلوبِ مضرَّجا
لَـمَّا تَيَقَّنَ أنَّ سيفَ جفونه من نرجسٍ جعل النِّجادَ بنفسجا

وله أيضًا[3]: [الطويل]

وساحبةٍ فَضْلَ الذُّيولِ كأنها قَضِيبٌ من الريحانِ فوقَ كثيبِ
إذا ما بَدَتْ من ثغرها[4] قال صاحبي أطعني وخُذْ من وصلها بنصيبِ

وله أيضًا[5]: [الرمل]

هَيَّجَ الشوقُ دواعي سقمي وكسا الجسمَ ثيابَ الألمِ[6]
أيها البينُ أقِلْنِي مرّةً فإذا عُدْتُ فقد حَلَّ دمي
يا خليَّ الذَّرع[7] نَمْ في غبطةٍ إنَّ من فارقْتَهُ لم يَنَمِ
ولقد هاجَ بجسمي سَقَمًا حُبُّ من لو شاء داوى سقمي[8]

ويلغ سنَّ عَوفِ بن مُحَلِّم[9]، واعترف بذلك اعتراف متألّم، عندما وَهَتْ شدّته، وبليت جِدَّتُه، وهو آخر شعر قال، ثم عثر في أذيال الردى وما استقال[10]: [الطويل]

كِلاني لما بي عاذليَّ كَفاني طَوَيتُ زماني بُرْهَةً وطواني

(1) ديوان ابن عبد ربه (ص ٣٨).

(2) في الديوان: «بمسكه».

(3) ديوان ابن عبد ربه (ص ٢١).

(4) في الديوان: «من خِدْرها».

(5) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٥٩). وقد تقدمت هذه الأبيات في الجزء الثامن ببعض الاختلاف عمّا هنا.

(6) في الديوان: «هيّج البينُ.. جسميَ ثوبَ الألم».

(7) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٨٤): «الروع».

(8) في الديوان: «هاج لقلبي.. ذكر من لو..».

(9) هو عوف بن محلِّم الخزاعي المتوفّى نحو ٢٢٠ هـ. كبر وتجاوز الثمانين، فقال: [السريع]

إنَّ الثمانين وبُلِّغْتَها قد أحوجتْ سمعي إلى ترجمانْ

فوات الوفيات (ج ٣ ص ١٦٤).

(10) ديوان ابن عبد ربه (ص ١٦٥ . ١٦٦) وجذوة المقتبس (ص ١٠٣) والمطرب (ص ١٥٥).

بَلِيتُ وأبليتُ الليالِيَ مُكْرَهًا[1] وصِرْفانِ للأيام مُعْتَوِرانِ
وما لِيَ لا أَبلَى لسبعينَ حِجَّةً[2] وعَشْرٍ أتتْ من بعدها سَنَتَانِ
فلا تسألاني عن تباريح علّتي ودونكما مني الذي تريان
وإني بحول اللّه راجٍ لفضلِهِ ولي من ضمان اللّه خير ضمان
ولستُ أبالي من تباريح علّتي إذا كان عقلي باقيًا ولساني

وفي أيام إقلاعه عن صَبْوَته، وارتجاعه عن تلك الغفلة وأوْبَتِه، وانثنائه عن مجون المجون إلى صفاء توبته، محّص أشعاره في الغزل بما ينافيها، ونصل من قوادمها وخوافيها، بأشعار في الزهد على أعاريضها وقوافيها، منها القطعة التي أوّلها: [البسيط]

هلاّ ابتكرتَ لبينٍ أنتَ مبتكرُ

مَحَّصَها بقوله[3]: [البسيط]

يا راقدًا ليس يعفو حين يقتدرُ ماذا الذي بعد شَيبِ الرأسِ تنتظرُ[4]
عاينْ بقلبكَ إنَّ العينَ غافلةٌ عن الحقيقةِ واعلمْ أنها سَقَرُ
سوداءُ تزفُرُ من غيظٍ إذا سفرتْ[5] للظالمين فلا تُبْقي ولا تَذَرُ
لو لم يكنْ لكَ غيرُ الموتِ موعظةً لكان فيه عن اللّذّات مُزْدَجَرُ
أنتَ المقولُ له ما قلتُ مبتدئًا: «هلاّ ابتكرتَ لِبَينٍ أنتَ مُبْتكرُ»

وقال في ترجمة أبي القاسم المنيشي، ما صورته[6]:

أبو القاسم المنيشي، أحد أبناء[7] حضرة إشبيلية المُقِلِّين، الناهضين بأعباء الضرائر المستقلِّين، لم يزل يَعْشُو لكلِّ ضوء، وينتجع مَصَاب كل نَوء[8]، فيومًا يخصب، ويومًا

(١) في الديوان: «وأبلتني الليالي وكَرُّها».
(٢) الحِجّة، بكسر الحاء: السَّنة.
(٣) ديوان ابن عبد ربه (ص ٧١) وجذوة المقتبس (ص ١٠١).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٨٥): «يا راقد العين... ينتظرُ». وفي الديوان: «يا عاجزًا ليس... ولا يقضّى له من عيشه وَطَرُ».
(٥) في الديوان: «إذا سُعِرَتْ».
(٦) مطمح الأنفس (ص ٨٨).
(٧) في مطمح الأنفس: «أنساء».
(٨) النَّوْء: المطر، والجمع أنواء. لسان العرب (نوأ).

يُجْدِب، وآونة يفرح وأخرى ينتدب، إلى أن صدقت مخايله، فرمقت بخوته وتحايله، وأتى من العجب، بمنسدل الحُجُب، ومن الأشَر، ما لم يأت من بَشَر، وما تصرف إلاّ في أنزل الأعمال، ولا تعرّف إلاّ بأخْوَن العمال، لم يَفْرَعْ رَبْوَة ظهور، ولم يقرع باب رجل مشهور، وله أدب ولَسَن، ومذهب فيهما يُسْتَحْسَن، لكنه نكب عن المقطع الجزل، وذَهَب مذهب الهَزْل، إلاّ في النادر فربما جَدَّ، ثم أخلق منه ما استجدّ، وعاد إلى دَيْدَنه، عودة أبي عباد[1] إلى واواته ومُدنه، وأخذ في ذلك الغرض، وليس شرط كتابي بذاءة[2]، ولا أن يقف حذاءه، وقد أثبتّ له ما هو عندي نافق، ولغرض كتابي موافق، فمن ذلك قوله: [البسيط]

يا رَوضَةً باتتِ الأنداءُ تخدمُها ... أتى النسيمُ وهذا أوّلُ السَّحَرِ
إن كان قَدُّكَ غصنًا فالشراءُ به ... مثلُ الكمائم قد زُرَّتْ على الزَّهَرِ
اِرْبَأْ بخدَّيكَ عن وردٍ وعن زَهَرٍ ... وأَغْنَ[3] بقرطيك عن شمسٍ وعن قمر
يا قاتلَ اللّه لحظي كم شقيتُ به ... من حيثُ كان نعيمُ الناسِ بالنظر

وله من رثاء في والدتي رحمة اللّه عليها: [البسيط]

يا ناصحي غيرَ مفتاتٍ ولا شَجِنٍ ... على النصائح والنُّصّاح مفتاتُ
لا أستجيبُ ولو ناديتَ من كَثَبٍ ... قد وقذَتْني[4] تعلاّت وعلاّتُ
إن كان رأيك في برّي وتكرمتي ... بحيث قد ظهرتْ منه علامات
لا ترضَ لي غيرَ شجوٍ لا أُفارقُه ... فذاكَ أختارُهُ والناسُ أشتاتُ

ومنها:

يا ذا الوزارة[5] من مثنى وواحدةٍ ... للّه ما اصطنعتْ منكَ الوزاراتُ
للّه منك أبا نصرٍ أخو جلدٍ ... إذا ألَمَّتْ ملمّات مهمّاتُ

---

(١) أبو عباد: هو معبد المغني، ومدنه: ألحان له تسمّى حصون معبد. وقد تقدم التعريف به والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الأول.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٨٦): «بذاء.. يقف حذاه».

(٣) في الطبعة نفسها: «فأغنا».

(٤) في الطبعة نفسها: «وقد قذتني».

(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٨٧): «الوزارات».

أستودعُ اللّهَ نورًا ضمّه كَفَنٌ ... كما تُوَاري بدورَ التمِّ هالاتُ
قَضَتْ وليت شبابي كان موضعها ... هيهات! لو قُضيتْ تلك اللُّبَاناتُ
مَضَتْ ولمّا يقمْ من دونها أحدٌ ... هلاً وقد أعذرتْ فيها المروءات

وله يصف زرزورًا: [مخلع البسيط]

أمنبرٌ ذاك أم قضيبُ ... يفرعُهُ مِصْقَعٌ خطيبُ
يختالُ في بُرْدتي شبابٍ ... لم يتوضّح بها مشيب
كأنما ضَمَّخَتْ عليه ... أبرادَهُ مسكةٌ وطيب
أخرسُ لكنه فصيحٌ ... أبلهُ لكنه لبيبُ
جَهْمٌ على أنه وسيمٌ ... صعبٌ على أنه أريبُ

أبو الحسن البرقي[1]:

بلنسي الدار، نفيسيّ المقدار، ما سمعت له بشرف، ولا علمت له بسلف، ولا اطّلعت منه على غير سرف، ورد إشبيلية سنة تسع وتسعين وأربعمائة[2]، واتّصل بابن زُهْر، فناهيك من حظّ في أكنافه جال، ومن لحظٍ فيما أراده أجال، ومن أمل استوفر، وحظّ مسك أذفر، ومن وجه جاه له أسفر، سلك به ساحة الرغائب، وتملك بسببه إباحة الحاضر والغائب، وقال فما نُبذت مقالته، وأقال فما قُيِّدَتْ إقالته، وكان حلو المجالسة، مجلوّ المؤانسة، ذا نَشَب وافر، ومذهب في المساهمة سافر، إلاّ أنه كان كلفًا بالفتيان، مُعَنًّى بهم في كل الأحيان، ونيّف على السبعين وهو برداء الصبوة مرتدّ، ويعترها معتدّ، مع أدب زهرته تَرِفٌ، وكأنه بحر والألباب منه تغترف، وقد أثبتُّ له بعض ما وجدت له في الغِلْمان، وأنشدت له في تلك الأزمان، فمن ذلك قوله رحمه اللّه تعالى: [الخفيف]

إن ذكرتَ العقيقَ هاجك شوقٌ ... رُبَّ شوقٍ يهيجُهُ الادّكارُ
يا خليليّ حدثاني عن الركـ ... ـب سُحيرًا أأنجدوا أم أغاروا[3]
شغلونا عن الوداع وولّوا ... ما عليهمْ لو ودّعوا ثم ساروا
أنا أهواهُمُ على كلِّ حالٍ ... عدلوا في هواهمُ أم جاروا

---

(١) مطمح الأنفس (ص ٨٩).
(٢) في مطمح الأنفس: «خمس وسبعين وأربعمائة».
(٣) أنجدوا: أتوا نجدًا. أغاروا: أتوا الغور. لسان العرب (نجد) و (غور).

وعلق بإشبيلية فتى يُعْرف بابن المكر، وبات من حبّه طريحًا بين أيدي الوساوس والفكر، لا يمشي إلاّ صَبًّا، ولا يفشي إلاّ غرامًا وحُبًّا، وما زال يقاسي لوعته، مقاساة يناجي بها صرعته، ويكابد جواه، ويلازم هواه، حتى اكتسى خدّه بالعذار، وانمحت عنه بهجة آذار، فسَلاَ من كلفه، وتصدّى ذلك لمواصلته بصلفه[1]، فقال: [الكامل]

الآنَ لـمَّـا صـوَّحَـتْ وَجَـنـاتُـهُ[2] | شـوكًـا وأضـحـتْ سـلـوةَ الـعـشـاقِ
واستوحشتْ منه المحاسنُ واكتستْ | أنـوارُ وجـهـك واهـنَ الأخـلاقِ
أمسيتَ تبذلُ لي الوصالَ تصنُّعًا | خـلـقُ الـلـئـيـم وشـيـمـةُ الـمَـذَّاقِ
هلاَّ وصلتَ إذ الشمائلُ قهوةٌ | وإذ الـمُـحَـيَّـا روضـةُ الأحـداقِ
يا كم أطَلْتَ غرامَ قلبٍ مُوجَعٍ | كـم قـد ألَـبَّ إلـيـكَ بـالأشـواقِ
ما كـنـتَ إلاَّ الـبـدرَ لـيـلـةَ تـمِّـهِ | حتى قضتْ لك ليلةٌ بـمـحـاق
لاحَ الـعِـذارُ فـقـلـتُ وَجْـدٌ نـازحٌ | إنَّ ابـن دأيـة[3] مـؤذنٌ بـفـراق

وله فيه مناقضًا لذلك الغرض، معارضًا للوعة سلوه الذي كان عرض: [الطويل]

يلومون في ظبيٍ تزايدَ حُسْنُهُ | بخطَّين خطًّا لوعتي وغراميا
وقد كنتُ أهوى خدَّه وَهْوَ عاطلٌ | فكيف وقد أضحى لعينيَ حاليا

وله أيضًا في مثله: [الوافر]

أُجيلُ الطَّرْفَ في خدّ نضيرٍ | يـردّدُ نـاظـري نـظـري إلـيـهِ
إذا رَمِدَتْ بحمرته جفوني | شَـفـاهـا مـنـه إثْـمـدُ عـارضـيـهِ

أبو الحسن علي بن جودي[4]:

بَرّز في الفَهْم، وأحرز منه أوفر سَهْم، وعانى العلوم بقريحة ذكِيَّة، وواخى بنفس في المعارف زكية، وله أدب واسعٌ مَدَاه، يانع كالروض بلّله نَدَاه، ونظمٌ أرقُّ من دمع العاني، ولطيف المعاني، وأعْبَق من نَفَس الخمائل، في أكفِّ الصَّبا والشمائل، ونثر كالزهر

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٨٨): «بصلته».
(٢) صَوَّحَتْ: جَفَّتْ؛ يريد أن يقول إنَّ وجناته نبت فيها الشعر.
(٣) ابن دأية: الغراب. محيط المحيط (دأى).
(٤) مطمح الأنفس (ص ٩٠)، ونصُّ المطمح مختلف عمّا هنا بعض الاختلاف.

المَطْلُول[1] أو السلك المحلول، إلاَّ أنه سَهَا فأسرف، وزها بما لا يعرف، وتصدى إلى الدين بالافتراء، ولم يراقب اللّه تعالى في ذلك الاجتراء، واشتهرت عنه في ذلك أقوال سَدَّد إلى الملّة نِصالَهَا، وأبدى بها ضَلاَلَها، فعَظُمت به المحنة، وكمنت له في كل نفس إِحْنَة[2]، وما زال يتدرَّج فيها وينتقل، حتى عثر وما كاد يستقل، فمرّ لا يُلْوِي على تلك النواحي، وفرّ لا ينثني إلى لوائم ولواحي، وما زال يركب الأهواء ويَخُوضها، ويذلّل النفس بها ويَرُوضُها، حتى أسمحت ببعض الإسماح، وكَفَّتْ عن ذلك الجماح، واستقرّ عند أبي مالك فآواه، ومهّد له مَثْوَاه، وجعله في جملة من اختصّ من المبطلين، واستخلص من المعطلين، فكثيرًا ما يصطفيهم، ولا يدري أيدّخرهم أم يقتنيهم، وقد أثبتُّ له ما يُبْهِرُ سامعًا، ويظهر برقًا لامعًا، فمن ذلك قوله: [الطويل]

أحنُّ إلى ريح الشمال فإنها ... تذكرنا نجدًا وما ذِكْرُنا نَجْدا
تمرُّ على ربعٍ أقام به الهوى ... ويَبْدُلَ من أَهْليه جاثمةً رُبْدَا
فيا ليت شعري هل تُقَضَّى لُبانَةٌ[3] ... فأرتشف اللَّمْيَا وأعتنقُ القَدَّا
خليليَّ، لا واللّه ما أحملُ الهوى ... وإن كنتُ في غير الهوى رجلاً جَلْدَا

وقوله أيضًا: [الطويل]

سَلِ الركبَ عن نجدٍ فإنَّ تحيّةً ... لساكن نجد قد تحمّلها الركبُ
وإلاَّ فما بالُ المطيِّ على الْوَجَى ... خفافًا وما للريح مرجعُها رَطْبُ

وقوله أيضًا: [الطويل]

إذا ارتحلتْ غربيّةٌ فاعرضا لها ... فبالغرب من نهوى له البلد الغربا
لقد ساءنا أنّا بعيدٌ وأننا ... بأرضين شَتَّى لا مزارًا[4] ولا قربا
يفجّعنا إمّا بِعادٌ مُبَرِّحٌ ... وإمّا أمورٌ باعثاتٌ لنا كربا
ظعنّا على حكم الليالي وخطبها ... فيا ليت لم نَدْرِ الليالي ولا الخطبا

---

(١) المطلول: الذي نزل عليه الطلّ أي الندى. لسان العرب (طلل).
(٢) الإحنة: الحقد. لسان العرب (أحن).
(٣) اللُّبانة: الحاجة. لسان العرب (لبن).
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٩٠): «مرورًا».

وكنتُ أرجِّي الدهرَ بعد الذي مضى	ديارًا وقربًا والأصادق والصحبا
أحقًّا يسيرُ الركبُ لم ترتحلْ بنا	إليكَ ولم تحدُ الحداةُ لنا ركبا

وقوله أيضًا: [الطويل]

لقد هَيَّجَ النيرانَ يا أُمَّ مالكٍ	بِتُذْمِيرَ ذكرى ساعَدَتْها المدامعُ
عشيّةَ لا أرجو لقاءك عندها	ولا أنا أن يدنو مع الليل طامع

وقوله أيضًا: [الطويل]

حننتُ إلى البرق اليماني، وإنما	نعالجُ شوقًا ما هنالك هانيا
فيا راكبًا يطوي البلادَ تحمَّلَنْ	تحيّتنا إن كنتَ تلجأ لاقيا
لياليِنا بالجزع جزعِ محجّرٍ	سقى اللّه يا فيحاء تلك اللياليا
وما ضَرَّ وقفةٌ بمحجّرٍ	أُحيِّي بها تلك الرسومَ البواليا

وله أيضًا: [الطويل]

خليليَّ من نجدٍ فإنَّ بنجدهم	مَصِيفًا لبيت العامريِّ ومَرْبَعَا
ألاَ رجّعا عنها الحديثَ فإنني	لأغبطُ من ليلى الحديثَ المُرَجَّعَا
عزيزٌ علينا يا ابنةَ القوم أننا	غريبانِ شتّى[1] لا نُطيقُ التجمّعا
فريقٌ هوى منّا يمانٍ ومُشْئمٌ[2]	يحاولُ يأسًا أو يحاولُ مطمعا
كأنّا خُلِقْنا للنوى، وكأنما	حرامٌ على الأيامِ أنْ نتجمّعا

ووجدت له في بعض نسخ[3] «المطمح» قوله أيضًا: [الطويل]

سقى دارك اللائي ببطنِ مُحَصَّبٍ	مثاكيل من وفدِ الغمام المرنّحِ
ألم تعلمي يا فتنةَ القلبِ أنني	تطارحتُ من حبي لكم كلَّ مطرح
إذا نعبتْ غربانُ دارٍ وجدتني	وشوقي مقيمٌ بين ناءٍ ونُزَّحِ

---

(١) غريبان شتّى: متفرّقان.
(٢) مشئمٌ: أتى الشام.
(٣) مطمح الأنفس على ثلاث نسخ؛ المطمح الكبير، والأوسط، والصغير.

وله أيضًا: [الوافر]

ألاَ خبرٌ وللبلْوى ضروبٌ وفيك لكلّ مشتاقٍ حبيبُ
حَبَاكَ اللّه بالنعمى فنونًا وجَرَّ لكم مع النعمى خطوب
متى تقضي بخسفتك الليالي وتعصفُ فيكمُ ريحٌ هبوبُ
فإنكمُ تجرّون المَنايا وتعمرُ من مجانيكم قلوب

وقد ذكر في «المطمح» له تخميسًا جاريًا على ألسنة الناس إلى الآن، وهو: [المتقارب]

أيا ساكنين بأرضِ اللوى وصالُكُم لسَقَامي دَوَا
وعافاكُمُ اللّهُ من ذا الجوى ملكتمْ فؤادي فصار الهوى

عليّ رقيبٌ رقيبٌ رقيبْ

ولَمّا تَبَدَّتْ لهمْ حالتي وما حرَّكَ الهجرُ من زفرتي
بَكَوا رحمةً ليَ من ساعتي فقلتُ متى الوصلُ يا سادتي

فقالوا قريبٌ قريبٌ قريبْ

وهو وإن لم يكن في ذروة البلاغة فقد ذكرته؛ لأنه مطروق بالمغرب عند أهل التلاحين وغيرهم.

ولنذكر بعض نصّ خطبة المطمح، قال رحمه اللّه تعالى فيه: أمّا بعد حمد اللّه الذي أشعرنا إيمانًا[١] وإلهامًا، وصيّر لنا أفهامًا، ويسّر لنا برود آداب، ونَشَرَنا[٢] للانبعاث لإثباتها والانتداب، وصلّى اللّه على سيدنا محمد الذي بعثه رحمة، ونبّأه منّة منه ونعمة، وسلّم تسليمًا، فإنه كان بالأندلس أعلام، فتنوا بسحر الكلام، ولقوا منه كلّ تحيّة وسلام، فشعشعوا البدائع ورَوَّقوها، وقلّدوها بمحاسنهم وطوّقوها، ثم هَوَوْا في مهاوي المنايا، وانطووا بأيدي الرزايا، وبقيت مآثرهم الحسان، غير مثبتة في ديوان، ولا مجملة في تصنيف تجتلي فيه العيون، وتجتني منه زهر الفنون، إلى أن أراد اللّه تعالى إظهار إعجازها، واتّصال صدورها بأعجازها، فحللت من الوزير أبي العاصي حكم بن الوليد عند من رَحَّبَ

(١) كلمة «إيمانًا» ساقطة من مطمح الأنفس.
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٢٩٢): «ونشرت».

وأهّلَ، وأعَلّ بمكارمه وأنهل، وندبني إلى أن أجمعها في كتاب، وأدركني من التنشّط إلى إقبال ما نَدَب إليه، وكتابة ما حثّ عليه، فأجبت رغبته، وحليت بالإسعاف لَبّته، وذهبت إلى إبدائها، وتخليد عليائها، وأمْلَيت منها في بعض أيام، ثلاثة أقسام: القسم الأول يشتمل على سَرْد غرر الوزراء، وتناسق درر الكتّاب والبلغاء. القسم الثاني: يشتمل على محاسن أعلام العلماء، وأعيان القضاء والحكماء. القسم الثالث: يشتمل على ذكر محاسن الأدباء، النوابغ النجباء؛ انتهى.

وهذه خطبة «المطمح الصغير»، وأمّا الكبير والأوسط فضمنهما ذكر الملوك والسلاطين حسبما نقلنا بعضه فيما مرّ من هذا الكتاب، على أننا نقلنا بعضًا من الصغير أيضًا، فليعلم ذلك من يقف على هذا الكتاب، ومن له أدنى ممارسة، وليراجع من الترجمة الفرقَ بين كلامه في الصغير وغيره، وبالجملة فما رأيت ولا سمعت أحلى من عبارة الفتح رحمه اللّه تعالى في تحلية الناس، ووصف أيام الأنس، وليس الخبر كالعيان، وقد سردنا بعض كلامه في «القلائد» وفي «المطمح».

ولنرجع الآن إلى ما كنّا بصدده من أمر التوشيح فنقول[1]: وتمام موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين هو قوله:

هل دَرَى ظبيُ الحِمَى أنْ قد حَمَى	قَلْبَ صَبّ حَلَّهُ عن مكْنَسِ
فَهْوَ في حَرّ وخَفْقٍ مثل ما	لَعِبَتْ ريحُ الصَّبَا بالقَبَسِ

* * *

يا بدورًا أطلعتْ يومَ النَّوَى	غُرَرًا تسلك في نهج الغَرَرْ
ما لقلبي في الهوى ذَنْبٌ سوى	منكمُ الحسنُ ومن عيني النظرْ
أجتني اللذاتِ مكلومَ الجوى	والتذاذي من حبيبي بالفِكَرْ
كلّما أشكوهُ وَجْدًا بَسَمَا	كالرُّبا بالعارض المنبجسِ[2]
إذ يقيمُ القطرُ فيها مأتما	وهي من بهجتها في عُرُسِ

* * *

---

(١) الموشحة في ديوان ابن سهل، طبعة دار صادر (ص ٢٨٣)، وقد تقدّم مطلعها في هذا الجزء. وهي موشحة كاملة من ستة أقفال وخمسة أبيات، وهي على بحر الرمل التام.

(٢) العارض: السحاب، وأراد المطر. المنبجس: المتفجّر. لسان العرب (عرض) و (بجس).

غالبٌ لي غالبٌ بالتُّؤدَهْ   بأبي أفديه من جافٍ رقيقْ
ما رأينا مثلَ ثغرٍ نَضَّدَهْ   أقحوانًا عُصِرَتْ منه رحيقْ[1]
أخذتْ عيناه منه العَرْبَدَهْ   وفؤادي سكره ما إن يفيقْ
فاحمُ الجُمَّةِ[2] معسولُ اللمى   أكحلُ اللحظِ شهيُّ اللَّعَسِ
وجهه يتلو «الضحى» مبتسما   وهو من إعراضه في «عبسِ»

* * *

أيها السائلُ عن ذُلّي[3] لديهِ   لي جَزاءُ[4] الذنبِ وَهْوَ المُذْنِبُ
أخذتْ شمسُ الضُحى من وَجْنَتَيْهِ   مَشْرِقًا للصبِّ[5] فيه مَغْرِبُ
ذَهَبَتْ أَدْمُعُ أجفاني عليهِ   وله خَدٌّ بلحظي مُذْهِبُ
يطلعُ البدرُ عليه كلّما   لاحَظَتْهُ مُقْلَتي في الخُلَسِ[6]
ليت شعري أيُّ شيء حَرَّمَا   ذلك الوردَ على المُغْتَرِسِ

* * *

كلّما أشكو إليه حُرَقي   غادرتني مُقلتاه دَنِفَا[7]
تركتْ ألحاظُهُ من رَمَقِي   أثرَ النملِ على صُمِّ الصفا[8]
وأنا أشكرُهُ فيما بقي   لستُ ألحاهُ على ما أتلفا
فهو عندي عادلٌ إن ظلما   وعذولي نطقُهُ كالخرسِ
ليس لي في الحبِّ حكمٌ بعدما   حلَّ من نفسي محلَّ النَّفَسِ

* * *

منه للنار بأحشائي اضطرامْ   يلتظي في كلِّ حينٍ ما يَشَا
وهي في خَدَّيه بَرْدٌ وسلامْ   وهي ضَرٌّ وحَرِيقٌ في الحَشَا
أتّقي منه على حُكْمِ الغرامْ   أسَدَ الغابِ وأهواه رَشَا

---

(١) الرحيق: الخمر، شبّه ريقه بها. لسان العرب (رحق).
(٢) الجُمَّة، بضمّ الجيم: مجتمع شعر الرأس.
(٣) في الديوان: «جرمي».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٩٤): «يجني».
(٥) في الديوان: «للشمس».
(٦) الخُلَسُ: جمع خُلْسة.
(٧) دنفًا: مريضًا. لسان العرب (دنف).
(٨) الصفا: جمع صفاة وهي الصخرة الملساء. لسان العرب (صفا).

قلتُ لمّا أنْ تَبَدّىَ مُعْلَما وهو من ألحاظه في حَرَسِ
أيها الآخذُ قلبي مَغْنَما اِجْعَلِ الوصلَ مكانَ الخُمُسِ[1]

* * *

وقد عارض هذا الموشح أيضًا بعض متأخري المغاربة فقال:

يا غُرَيْبَ الحيِّ من حيِّ الحِمَى أنتمُ عيد وأنتم عُرُسي
لم يحلْ عنكم ودادي بعد ما حُلْتُمُ لا وحياةِ الأنْفُسِ

* * *

مَنْ عذيري في الذي أحببتهُ مالكٌ قلبي شديدُ البرحا
بدر تمّ أرسلَتْ مُقلَتُهُ سَهْمَ لحظٍ لفؤادي جرحا
إنْ تَبَدّى أو تَثَنّى خِلْتَه غُصْنَ بانٍ فوقه شمسُ ضحى
تَطْلُعُ الشمسُ عشاء عندما تنجلي منه بأبهى ملبسِ
وترى الليلَ أضا منهزما وترى الصبحَ أضا في الغَلَسِ[2]

* * *

يا حياةَ النفسِ صِلْ بعد النوى وَالِهًا مُضْنًى شديدَ الشغفِ
قد براه السقمُ حتى ذا الهوى كادَ أن يُفْضِي به للتلفِ
آه من ذكرِ حبيبٍ باللوى وزمانٍ بالمُنَى لم يسعفِ
كنتُ أرجو الطيفَ يأتي حلما عائدًا يا نفسُ من ذا فايأسي[3]
هل يعودُ الطيفُ صبًّا مغرما ساهرًا أجفانه لم تنعس

* * *

هِمْتُ في أطلال ليلى وأنا ليس في الأطلال لي من أرَبِ
ما مرادي رَامَةٌ والمنحنى لا ولا ليلى وسعدى مطلبي
إنما سؤلي وقصدي والمُنى سيّدُ العُجم وتاجُ العَرَبِ

---

(١) الخُمُسُ: الخُمْس. لسان العرب (خمس).
(٢) أضا: أصلها: أضاء. الغلس: آخر الليل. لسان العرب (غلس).
(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٩٥): «فايأس».

أحمد المختار طهَ من سما ... الشريف ابن الشريف الكَيِّسِ
خاتمُ الرسلِ الكريمُ المنتمى ... طاهرُ الأصلِ زكيُّ النَّفَسِ

وقال في مباراة هذه الموشحات السابقة[1]:

لا تَلُمْني يا عذولي تأثما ... ما ترى جسمي بسُقْمٍ قد كُسي
مثل ما شرحُ غرامي علما ... حيث أشكو وحشة من مؤنسِ

* * *

ظبيُ أُنسٍ عن فؤادي نفرا ... وفؤادي مُكْتَوٍ من صَدِّهِ
وعذولي في هوى الحبِّ فَرَى ... بملام مذ نهى عن وِدِّهِ
أنت أعمى يا عذولي ما ترى ... يانعَ الورد بدا من خدِّهِ
وله ثغرٌ إذا ما ابتسما ... كبروقٍ أومَضَتْ في الغلسِ
وثناياه كَدُرٍّ نُظِما ... فضياها في الدُّجى كالقبسِ

* * *

كم ترى سحرًا بجفنيه بَدَا ... لفؤاد في الهوى أضحى كَلِيمْ
ليس سحرٌ مقلتي هذا سدى ... يا فؤادي إن شفى السحرُ السقيمْ
خيفةً أوجَسَ قلبي وغَدَا ... راحلاً صبري، وهاشوقي مقيمْ
يا إلهَ العرشِ يا ربّ السما ... يا عليمًا بضميرِ الأَنْفُسِ
قلبيَ الولهانُ يشكو ألما ... من جَفَا ظبي أغنّ أكيسِ

* * *

أغْيَدٌ يسبي البرايا بالمُقَلْ ... أدعجُ الجفنِ بعينيه حَوَرْ
لو رأته الشمسُ أضحتْ في خَجَلْ ... وهو للبدر بوجهٍ قد قمرْ
من معاني حسنه رَقَّ الغزلْ ... في غزالٍ قد غزاني بالنظرْ
آخذٌ بالروح مني كُلَّمَا ... رمق الصبَّ بطرف أنعسِ
يقنصُ الأسْدَ بلحظٍ قد رَمَى ... أسهمًا تفتك من غير قِسِي

* * *

(١) هذه الموشحة تامة، تتكون من ثمانية أقفال وسبعة أبيات. والموشحة التامة، حسبما جاء به ابن سناء الملك في دار الطراز، تتكون من ستة أقفال وخمسة أبيات.

يا رَعَى اللّه زمانًا سلفا بلويلاتٍ تَقَضَّت بانشراحْ
مثلَ دينار وها قد صرفا في ألذّ العيش مع حبّ وراحْ
فاعذروا القلب الذي قد شغفا بحبيب ما له عنه بَرَاحْ
بَدْرُ تمّ أهيفٌ حلوُ اللمى ريقُهُ شهدٌ شهيُّ اللَّعَسِ
كسُلاَفٍ عهدها قد قدما تنجلي في كأسها كالعُرُسِ

* * *

قهوةٌ بكرٌ عجوزٌ عُتِّقَتْ زمنًا في دَنِّها من قبلِ نوحْ
هي لمّا في زجاج أشرقتْ شمسُ راح غَرَبَتْ في كل روحْ
جددتْ بسطًا وكم قد مَزَّقَتْ قلبَ صبّ في غَبُوقٍ وصَبوحْ
حلفَ الخَمّارُ عنها قسما أنها بالمكث كادت تنتسي
فاسقني صِرْفًا ولا تمزجْ بما راحة كم أذْهَبَتْ من عبسِ

* * *

في رياض قد شَدَا شحرورُهُ عاطنيها بين أكنافِ الشجرْ
وانظمِ الشملَ ودَعْ منثورَهُ حول وردٍ وأقاحٍ وَزَهَرْ
وإذا الطلُّ بدا شبّوره كلَّلَ الأوراقَ منه بالدررْ
ما ترى الريحانَ عبدًا خدما حيثُ أضحى واقفًا في المجلسِ
جلس النسرينُ لكنْ ربّما اسْتَحَتْ منه عيونُ النرجس

* * *

فَتَنَزَّهْ في رياضٍ خُضُرِ وغصونٍ غَرَّدَتْ فيها هزار
وانتشقْ عَرْفَ زهورٍ عَطِرِ ياسمين زَيَّنَتْهُ الجلّنار
وشذا الزهرُ كمسك أذْفَرِ واقبل العذر لابن البزددار
طامعٌ في رحمةِ اللّه وما خابَ عبدٌ طامعٌ لم ييأسِ
يا إلٰهي جُدْ علينا كرما يا كريمًا قبل أخذِ الأنفسِ

* * *

رجع إلى مُوَشَّحات ابن الخطيب:

قال لسان الدين بن الخطيب رحمه اللّه تعالى: وممّا قُلْتُه من الموشحات التي انفرد باختراعها الأندلسيون وطمس الآن رسمها[1]:

رُبَّ ليلٍ ظفرتُ بالبدرِ ونجومُ السماء لم تَدْرِ

حفظ اللّهُ ليلنا ورَعَى

أيّ شملٍ من الهوى جَمَعَا

غفل الدهرُ والرقيبُ معا

ليت نهرَ النهارِ لم يَجْرِ حَكَمَ اللّهُ لي على الفجرِ

عَلِّلِ النَّفْسَ يا أخا العَرَبِ

بحديثٍ أحلى من الضَّرَبِ

في هوى مَنْ وصالُهُ أَرَبي

كلّما مَرَّ ذكرُ مَنْ تدري قلتُ يا بَرْدَهُ على صدري

صاحِ لا تهتمِمْ بأمرِ غدِ

وأجِزْ صَرْفَها يدًا بيدِ

بين نهرٍ وبلبلٍ غَرِدِ

وغصونٍ تميلُ من سُكْرِ أعلنتْ يا غمامُ بالشُّكْرِ

يا مُرادي ومنتهى أملي

هاتِها عَسْجَدِيَّةَ الحللِ

حَلَّتِ الشمسُ منزلَ الحَمَلِ

---

(١) قال لسان الدين هذه الموشحة في مدح السلطان يوسف أبي الحجاج، وهي في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣١٤).

غُرَّةُ الصبحِ هذه وضحتْ

وقيانُ الغصون قد صَدَحَتْ

وكأنَّ الصَّبا إذا نَفَحَتْ

وهفا طيبها عن الخَضْر[1] مدحة في علا بني نَصْرِ

هم ملوك الورى بلا ثُنْيا

مهَّدوا الدين زينوا الدنيا

وحمى اللّه منهم العَلْيا

بالإمام المُرَفَّعِ الخَطْرِ والغمام المبارك القَطْرِ

إنما يوسفٌ إمامُ هُدَى

حاز في المعلوات كلَّ مَدَى

قُلْ لدهرٍ بملكه سعدا

افتخرْ جملةً على الدهرِ كافتخار الربيع بالزهرِ

يا عمادَ العَلاء والمجدِ

أطلع العيدُ طالع السعدِ

ووفى الفتح فيه بالوعدِ

وتجلَّت فيه على القصرِ غُرَرٌ من طلائع النَّصْرِ

فَتَهَنَّأ من حسنه البَهِجِ

بحياة النفوس والمهجِ

واستمعها ودع مقال شجي

قسمًا بالهوى لذي حِجْرِ ما لِلَيْلِ المَشُوقِ من فَجْرِ

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٩٨): «النصر».

ومن بديع موشحات لسان الدين رحمه الله تعالى قوله[1]:

كم ليومِ الفراقِ من غُصَّهْ   في فؤادِ العميدْ
نرفعُ الأمرَ فيه والقِصَّهْ   للوليِّ الحميدْ

رحل الرَّكْبُ يقطعُ البِيدَا   بسفينِ النِّياق
كلُّ وَجْناء[2] تُتْلعُ الجِيدا   وتبذُّ الرفاق
حسبتْ ليلةَ اللّقا عيدا   فهي ذاتُ اشتياق

صائماتٌ لا تقبل الرُّخْصَهْ   قبلَ فطرِ وعيدْ
فهي مُذ أَمَّلَتْهُ[3] مختصَّهْ   بجهادِ جهيدْ

ومنه في آخره:

يا إمامَ العلاءِ والفخرِ   ذا السَّنا المبهجِ
هاكَهَا لا عدمتَ في الدهرِ   آملاً يَرتجي
عارَضَتْ قولَ بايع التمرِ   بمقالِ شجي
غَرَّبُوكِ الجمال يا حَفْصَهْ   مِنْ مكانٍ بعيدْ
من سجلماسةٍ ومن قَفْصَهْ   وبلادِ الجريدْ

وقد ألّف ـ رحمه الله تعالى! ـ في هذا الفن كتابه المسمى بـ «جيش التوشيح»، وأتى فيه بالغرائب، وذيَّل عليه صاحبُنا وزير القلم بالمغرب العَلم الشهير المنفرد في عصره بحيازة قصب السبق في البلاغة سيدي عبد العزيز بن محمد الفشتالي[4] ـ رحمه الله تعالى! ـ بكتاب سماه «مَدَد الجيش» واستهلّه بقوله: حمدًا لمن أمَدَّ جيش محمد بعترته. وأتى فيه بكثير من موشحات أهل عصرنا من المغاربة، وضمّنه من كلام أمير المؤمنين مولانا المنصور أبي العباس أحمد الشريف الحسني ـ رحمة الله تعالى ورضوانه عليه! ـ ما زاده زَيْنًا، وأخبرني ـ رحمه الله تعالى! ـ أنه ذكر فيه لأهل العصر في أمير المؤمنين ولأمير

---

(١) أزهار الرياض (جـ ١ ص ٣١٥ ـ ٣١٦).
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٢٩٩): «وَجْنَا».
(٣) في الطبعة نفسها: «أمّته».
(٤) في الطبعة نفسها: «القشتالي» بالقاف.

المؤمنين المذكور أزيد من ثلثمائة موشح، ولا حرج في إيراد بعضها هنا، فمنها قولُ أحد الوافدين من أهل مكة على عَتَبة السلطان مولانا المنصور[١]، وهو رجل يقال له «أبو الفضل ابن محمد العقاد» وقد عارض بها موشَّحتي لسان الدين وابن سهل السابقتين[٢]:

ليت شعري هلي أروّي ذا الظما　　مِنْ لَمَى ذاك الثُّغَيرِ الألعسِ
وترى عيناي ريّاتِ الحمى　　باهياتٍ بقُدودٍ مُيَّسِ

* * *

يُدْخلون السُّقْمَ من دارِ اللُّوَى　　كَلّمَ الهجرُ فؤادي وأسرْ
هدَّ من ركن اصطباري والقوى　　مُبدلاً أجفانَ نومي بالسَّهرْ
حين عَزَّ الوصلُ عن وادي طُوى　　هَملَتْ أعينُ دمعي كالمطرْ
فعساكم أن تجودوا كرما　　بلقاكم في سوادِ الحِنْدِسِ
وتداووا قلبَ صبّ مُغْرما　　من جراحاتِ العيونِ النُّعَّسِ

* * *

كلّما جنَّ ظلامُ الغَسَقِ　　هزّني الشوقُ إليكم شَغَفا
واعتراني من جَفاكم قلقي　　مذ تذكرتُ جيادًا[٣] والصفا
وتناهتْ لوعتي من حُرَقي　　ثم زادَ الوجدُ فيَّ التلفا
فانعموا لي ثم جودوا لي بما　　يُطْفِ[٤] نيرانَ الجوى ذي القبسِ
ساعةً لي من رضاكم مغنما　　وتداوي جثتي مع نَفَسي

* * *

كنت قبلَ اليوم في زَهْوٍ وتيه　　مع أحبابي بسلعٍ ألعبُ[٥]
ومعي ظبيٌ بإحدى وَجْنَتيه　　مشرقُ الشمسِ وأخرى مغربُ

---

(١) هو السلطان أبو العباس أحمد بن محمد الشيخ المهدي السعدي، المنصور بالله، ويعرف بالذهبي. وهو رابع سلاطين الدولة السعدية التي قامت في حاضرة مراكش. توفي سنة ١٠١٢ هـ. الأعلام (جـ ١ ص ٢٣٥) ومصادر حاشيته.
(٢) الموشحة في روضة الآس (ص ١٤).
(٣) جياد: يريد: أجياد وهو موضع بمكة يلي الصفا. معجم البلدان (جـ ١ ص ١٠٤).
(٤) أصل الكلام: «يطفي»، وقد حذف الياء للضرورة الشعرية.
(٥) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٠٠): «العسب».

فرماني بسهامٍ من يديه ضاربُ البين فقلبي متعبْ
لستُ أرجو للقاهم سلْما غير مدحي للإمام الأرأسِ
أحمد المحمود حقًّا من سما الشريف ابن الشريف الكَيِّسِ[1]

* * *

ومنها قول بعض المراكشيين[2]:

واخَجْلَتا للصَّباحِ والشمسِ إذ لاحَ جؤذَرْ[3]
ساقٍ يُديرُ الكؤوسا تضيءُ خمرًا[4] وتزهرْ

* * *

تقادمَتْ في الدنانِ من عهدِ نوحٍ تُرَوَّقْ
في لونها البهرماني[5] تُدار فينا وتعبَقْ
قد أطلقت[6] من عنانِ مَنْ عن صَبُوحٍ يرقّقْ
يَسْعَى بها من ملاحِ مَنْ كان باللحظِ يُسْكِرْ
بالحسنِ يُصْبي الجليسا ويستخفّ الموقّرْ

* * *

يشيرُ كامنَ وَجْدِ في قلبِ كلِّ سقيم
يَسْطُو علينا بِقَدٍّ يزري بغصنٍ قويم
أشقى بعشقي وَوُدِّي في جَنَّةٍ ونعيم
من ذي الوجوهِ الصِّباحِ يا شادنًا غَنِّ واذكرْ
وهاتِ لَحْنًا نَفِيسا نرويه عنكَ ونأثر

* * *

(١) في روضة الآس: «الكريم ابن الكريم الكَيِّسِ».
(٢) روضة الآس (ص ٢٩).
(٣) الجؤذر: ولد المها. لسان العرب (جأذر).
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٠١): «حمرًا» بالحاء المهملة.
(٥) في روضة الآس: «البرهماني».
(٦) في طبعة عبد الحميد: «قد أطلعت».

في مدحِ مَنْ سادَ طفلا — هذي البرايا وفاقا
من حاز مجدًا وفضلا — بين الأنامِ وفاقا
في عدله قال قولا — يسري فيعدو العراقا[1]
في أحمدِ ذي السماحِ — في الشرق والغرب يُنْصَرْ
أحيا الهدى والنفوسا — وذلَّ مِلَّةَ قيصرْ

* * *

تراه سلْمًا وحربا — من رأيه في جهودِ[2]
يختالُ لم يَبْغِ عُجبا — مِنْ عزّه في برودِ[3]
يهوى المعالي كسبا — ويقتنيها بجودِ
فخار أهلِ البطاحِ — وعزّ من قد تمصَّرْ
ثناهُ يملا الطروسا — عن صورة المجدِ عبَّرْ

* * *

ملكٌ بنى في البديعِ — منازلاً كالدراري
فيا له من صنيعِ — الروض والماء جاري
وقلْ[4] بصوتٍ رفيعِ — إذ بانَ فجرُ النهارِ
أهدى نسيمُ الصباحِ — مسكًا شميمًا وعنبرْ
وجيءْ بها خَنْدَريسا — من خدِّ ساقيهِ تُعْصَرْ

* * *

ومن موشحات السلطان المنصور المذكور[5]:

ريّانُ من ماء الصِّبا — أَهْيَفُ وممتلي البردِ
كالغصن هَزّتْهُ الصَّبا — فوق الرُّبا الشُّهبِ
قد قلتُ لمّا أنْ سَبَى — بِحُسْنه يسبي

(١) يعدو العراق: يجاوزه. لسان العرب (عدا).
(٢) هكذا قافية هذا البيت في روضة الآس. وفي طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٧١): «جنوده».
(٣) البرود: جمع بُرْد وهو الثوب. لسان العرب (برد).
(٤) في طبعة دار صادر: «فقل».
(٥) الموشحة في روضة الآس (ص ٥٦).

مــن عــيـنـه سَـلَّ ظُـبَـا[1] وغــمــدهــا قــلــبــي
أســرنــي مــاضــي الــشَّـبـا أوْطَــفُ مــرنَّــحُ الــقَــدُّ
يــا فــاضــحَ الــروض ســنــا ومــخــجــل[2] الــبــدرِ
وقــاطــعــي ظــلــمًــا عــنــا ومَــنْ مــقــرُّهُ صــدري
ألــم تــكــن شــمــسَ دُنَــا فــإنــهــا تــجــري
عُــلِّــقْــتُــهُ مِــنَ الــظُّــبــا أسجفُ يسطو على الأسدِ
قــلــتُ لــه وقــد نَــهَــدْ وجَــدَّ فــي حــربــي
وغَــلَــبَ الــظــبــيُ الأســدْ وفــاز[3] بــالــغــلــبِ
الــشــمــسُ بُــرْجُــهَــا الأســدْ فــاسْــعَ[4] إلــى قــلــبــي

ولم يحضرني الآن تمامها.

ومنها قوله يعارض لسان الدين وابن الصابوني[5]:

ولــيــالــي الــشــعــور إذ تــســري مــا لــنــهــرِ الــنــهــارِ مــن فَــجْــرِ
حــبَّــذا الــلــيــلُ طــالَ لــي وحــدي
لــو تــرانــي جــعــلــتُــه بُــردي
فــاطــمــيًــا فــي خــلــعــة الــجــعــدي
هــي لــيــلــى أخــتُ بــنــي بــشــرِ فــأيــن أنــت يــا أبــا بَــدْرِ
كــم سَــقَــتْــنــا ألــطــف مــن طــلِّ
واجــتــمــعْــنــا ومــا دَرَى ظِــلِّــي
واســتــرحْــنــا مــن كــاشــحٍ نــذلِ
ربَّ لــيــلٍ ظــفــرتُ بــالــبــدرِ ونــجــومُ الــســمــاء لــم تَــدْرِ

---

(١) الظُّبا: جمع ظُبة وهي حدّ السيف. لسان العرب (ظبا).
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٧٢): «بل مخجل».
(٣) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٧٢): «ففاز».
(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٠٣): «فاسعه».
(٥) الموشحة في روضة الآس (ص ٥٧).

وبـنـفـسـي مـهـفـهـفٌ أَلْـمَـى

ومـطـيـع قـد غـرّنـي[1] لـمَّـا

سـألـتـه[2] وقـانـعـي مـمّـا

فـي رباط قـسـمـتـنـي صـدري لـحـنـيـن ونـاظـري بَـذْرِ

وهـلالٍ فـي حـسـنـه اكـتـمـلا

هـو شـمـسٌ وأضـلـعـي الـحـمـلا

قـام يـشـدو ويـنـثـنـي فـي مـلا[3]

قـسـمًـا بـالـهـوى لـذي حِـجْـرِ ما للـيـلِ الـمَـشُـوقِ من فَجْرِ[4]

ثم عنَّ لنا أن نورد هنا جملةً من مقطوعات مولانا السلطان المنصور ممّا تلقّيناه عنه أيام كوننا في إيالته الشريفة؛ فمن ذلك قوله رادًّا على من قال في ابن أبي الحديد: [مخلع البسيط]

لـقـد أتـى بـاردًا ثَـقـيـلاً ولـم يَـرِثْ ذاكَ مـن بـعـيـدِ

فـهـو كـمـا قـد عـلـمـتَ شيءٌ أشـهـرُ مـا كـان فـي الـحـديد

ما صورته: [مخلع البسيط]

لـقـد أتـى صـارمًـا صـقـيـلاً ولـم يُـرِثْ ذاكَ مـن بـعـيـدِ

شـديـدَ بـأس مـتـى يـعـادي وشـدّةُ الـبـأسِ فـي الـحـديـدِ

ومن نظمه قوله[5]: [مجزوء الرجز]

لـلّـهِ تـمـرٌ طـيّـبٌ وافـى عـلـى الـبـشـرى انـطـوى

يـا حُـسْـنَـهُ مـجـتـمـعًـا يَـخـلُـو لـنـا بـلا نـوى[6]

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٧٣): «وغرني».

(٢) في روضة الآس: «يا عفافي».

(٣) في روضة الآس: «في علا».

(٤) هذا القفل لابن الصابوني، وقد تقدم في هذا الجزء.

(٥) أكثر مقطعات السلطان منصور في روضة الآس (ص ٣٦ ـ ٥٢).

(٦) النوى: نواة التمر، وورّى بها فأراد: البعاد.

وقوله معمّيًا في «قمر» على طريقة الاكتفاء: [السريع]

مـعـذّبـي أعـجـزنـي نـيـلُـهُ　　من لي بمن مسكنُهُ في السما
لـم أنسَ إذ قـال ألاَ تـكـتـفـي؟　　قلتُ بمن بالطرف قلبي رمى

وقوله: [الطويل]

تبدّى وزندُ الشوقِ تقدحُهُ النوى　　فـتـوقِـدُ أنـفـاسي لـظـاه وتـضـرمُ
وهَشَّ لتوديعي فأعرضتُ مشفقًا　　عـلـى كـبدٍ حَرَّى وقـلـبٍ يقسمُ
ولـولا ثـواه بـالـحشا لأهـنـتـهـا　　ولـكـنـهـا تُـغـزى إلـيـه فـتـكـرمُ
فاعجبْ لآسادِ الشرى كيف أحجمتْ[1]　　عـلـى أنه ظـبـيُ الـكـنـاس ويـقـدمُ

وقال قدّس اللّه تعالى روحه مورّيًا: [الخفيف]

إنَّ يـومًـا لـنـاظـري قـد تـبـدَّى　　فـتـمـلّـى مـن حُـسْـنِهِ تـكـحـيـلا
قـال جـفـنـي لـصـنـوه لا تـلاقـي　　إنَّ بـيـنـي وبـيـن لـقـيـاك مـيـلا

وقد تبارى خُدّام حضرة هذا السلطان في تخميس هذين البيتين، ومن أشهر ذلك قول الأستاذ الحافظ سيدي أحمد الزموري رحمه اللّه تعالى، وكان يصلّي بالسلطان التراويح: [الخفيف]

ورقـيـبٍ يـردُّ الـلـحـظَ ردّا　　ليس يرضى سوى ازديادِيَ بُعْدَا
ساه الطرف مذ جَنَى الخَدَّ وَرْدا　　إنَّ يـومًـا لـنـاظـري قـد تَـبَـدَّى

فـتـمـلّـى مـن حُـسْـنِهِ تَـكـحـيـلا

وتصدَّى من فحشه في استباقِ　　يَمْنَعُ اللحظَ من جَنَى واعتناقِ
أيأس العينَ من لحاظِ ائتلاقِ　　قـال جـفـنـي لـصـنـوه لا تـلاقـي

إنَّ بـيـنـي وبـيـن لـقـيـاك مـيـلا

---

(١) في روضة الآس: «تحجم».

ومن نظم السلطان المذكور، وهو من أوّليات شعره قوله في وردة مقلوبة بين يدي محبوبه: [البسيط]

وورِدةٍ شَقَعَتْ لي عند مُرَتِّهِني ... راقتْ وقد سجدتْ لفاترِ الحدقِ
كأنَّ خضرتَّها من فوقِ حمرتها ... خالٌ على خدِّه من عنبر عَبِقِ

وقال أيضًا من أوّلياته: [الرمل]

شـادن نَـمَّ عـلـيـه عَـرْفُـهُ[1] ... ما[2] خلاصي من سهام كامِنَهْ
أَحَـلالٌ فـيـه أنـي خـائـفٌ ... وغـزالـي[3] بـعـد خـوفـي آمـنَـهْ

وقال في وصف رقيب ملازم: [الطويل]

رقيبي كأنَّ الأرضَ مرآةُ شخصِهِ ... فأين تَوَلَّى الطرفُ مني يراهُ
مقيمٌ بوجهِ الوصلِ حتى كأنما ... وصالي هلالٌ والسوادُ صداهُ

وقال: [الطويل]

أيا روضةً ضَنَّتْ عليَّ بزهرها ... ولـم يَـتَـلَـقَّ نـاظـراي سـواكِ[4]
أبيحي لنفسي من شَذَاكِ بقاءها ... إذا فُتَّ طرفي علَّ الأنفَ يراكِ

وقال أيضًا: [الطويل]

على جَدْولٍ غطَّتْ عليه بشعرها ... لئلا يرى الشمسَ الرقيبة لي طَرَفْ
فبتُّ أرى في جدولٍ بَدْرَ وجهها ... غريقًا ونقطاتِ العبير به كَلَفْ

وقال: [الطويل]

طرقتُ حِمَاهُ والأسودُ خَوَادرٌ ... به فتولَّى بالظُّبا وهو يبعدُ
فعلّمتُ آسادَ الشرى كيف تقدمُ ... وعلّم غزلان النقا كيف تشردُ

---

(١) في روضة الآس: «نَفْحُهُ».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٠٥): «من».
(٣) في الطبعة نفسها: «وحلالي».
(٤) في روضة الآس: «سناك».

وقال: [الكامل]

لمَّا نأى المحبوبُ رقَّ ليَ الدُّجى وأتى يعلِّلني برَغي كواكبِهْ
أولى غراب البينِ ردك يا حشا والبينُ مُزْنِيُ الصباحِ كواك بهْ

وقال معمِّيًا باسم حَظِيَّته الشهيرة الحسن والإحسان «نسيم»: [الخفيف]

يا هلالاً طلوعُهُ بين جفني وغزالاً كِناسُهُ[1] بين جنبي
إنَّ سَهْمًا رمَيْتَ غادر هَمًّا لو تناهى ما شكَّ آخر قلبي[2]

ورأيت بخطِّه على هذا المحلّ ما صورته: قولي «إنَّ سهمًا» تنصيص، و«غادر هَمًّا» إسقاط، وهو إشارة لإسقاط «همًّا» من هذا الاسم، وقولي «لو تناهى» انتقاد، والانتقاد: الإشارة إلى بعض أجزاء الكلمة ليؤخذ جزء الاسم المطلوب، كأن يذكر الوجه أو الصدر أو التاج أو الرأس، ويعني به الحرف الأول من الكلمة، والقلب والجوف والحشا والخصر، ويراد به الوسط، والآخر والمنتهى والختام، ويقصد به آخر الكلمة، فقولي «لو تناهى» معناه أنه أخذ لفظة هم غير متناه، فبقيت الميم من «همًّا»، وقولي «ما شكَّ آخر قلبي» انتقاد أيضًا، وأردت بآخر قلبي الياء، ويسمَّى أيضًا التسمية، وهو: أن تذكر الاسم وتريد المسمَّى، أو تذكر المسمَّى وتريد الاسم، وقد تمّ الاسم.

واعلمْ أنهم لم يشترطوا في استخراج الاسم[3] بطريق التعمية حصولها بحركاتها وسكناتها، بل اكتفوا بحصول الكلمة من غير ملاحظة لهيئاتها الخاصة فإذا وقع ذلك فمن المحسنات، ويسمى العمل «التذييلي». انتهى كلامه على البيتين في اسم نسيم.

وقال في اسم «غزال» وقد جمع تعميتين ولُغْزًا: [الطويل]

وأمْلَدَ مطويّ الحشا زال ردفه فلا خصرَ إلاَّ إنْ تَصَوَّرْتَهُ وَهْما[4]
بنصف اسمه يرمي القلوبَ وعكس ما بقي أبدًا أُذنَ المحبِّ به أصمى

---

(١) الكِناس: مسكن الظباء. لسان العرب (كنس).
(٢) شكَّ آخر قلبي: أصابه. لسان العرب (شكك).
(٣) في روضة الآس: «الكلمة».
(٤) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٠٧): «إلاَّ إن ذا لم يكن وصما».

وكتب عليه ما صورته: قولي «أملد» أردت به بعمل الترادف غصن، و «مطوي الحشا» انتقاد، و «زال ردفه» قضيت به غرضين، أزلت به النون بعمل الإسقاط الباقي بعد طيّ الصاد التي بوسطه، وأثبته ـ أعني «زال» ـ في موضعها: أي النون من غصن، والحال أنَّ الصاد محذوفة، وذلك بعمل الانتقاد، وأوضحت ذلك بقولي «فلا خصر» وإن كنت لا أحتاج إليه، لئلاَّ يكون في البيت شيء خارج عن التعمية؛ انتهى تفسيره، رحمه اللّٰه تعالى!.

ويعني بقوله «بنصف اسمه يرمي القلوب» غز؛ لأنه نصف غزال، ويعني بقوله «وعكس ما بقي إلى آخره» لفظة «لا» لأنها مقلوب ما بقي وهو «أل».

وقال في اسم «سلاف» على منهاج ما تقدّم: [الطويل]

وأحْوَرَ وَسْنَانِ الجفونِ كأنما ... سَقَى لَحْظَه من رِيقِ فيهِ بقرقفِ[1]
تزايد فيه منذ سلّ تلاه في ... نضا صارمًا لا فُلَّ صارمه لحظه

وفسّره بقوله: قولي «تلاه في[2]» من طريق التسمية، و «في» من العمل التذييلي وهو أن يأتي بالكلمة بحركاتها[3] وسكناتها، وهي من المُحَسِّنات كما سبق.

وقال في اسم «آمنة» من التعمية أيضًا: [الخفيف]

في رضاه عن الملوك ابتذلْتُ ... من شقائي قَنَصْتُه وهو خِشْفٌ[4]
وتثنّى عن حبّه ما عدلْتُ ... أمْلَدٌ منه مذ تحلّل خصرٌ

وكتب عليه ما صورته: قولي «أملد» أردت الألف بعمل التشبيه، و «خصر منه» انتقاد، وأردت بالخصر وسط لفظة «منه» وتحلّله: أن ينحلّ منه السكون الذي على النون، وقولي «وتثنّى» أي الألف من التثنية، لا التثني، فتمّ الاسم بحركاته وعدده؛ انتهى تفسيره.

---

(١) القرقف: الخمر. لسان العرب (قرقف).

(٢) كلمة «في» ساقطة من طبعة عبد الحميد.

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٠٨): «أو سكناتها».

(٤) رواية عجز البيت في روضة الآس هي:

لـم أقـلْ فـ أن قـلـتُ فـاتَ فَـهِـمْـتُ

وقال وقد لبس منصورية من النوع الذي يقال له «قلب حجر» والمنصورية: نوع لبس معروف بالمغرب استخرجه السلطان المذكور وأضافه إلى اسمه: [الكامل]

وصَفُوا اشتياقي للحبيب وسَرَّهُمْ   قولُ الحبيبِ أنا أنا فيهِ
قلبي له حجرٌ، فقلتُ مغالطًا   للعاذلِ المؤذي أنا فيهِ

قال: وفي هذين البيتين عدّة من المُحَسّنات غير التعمية: منها جناس التركيب المسمّى بالملفق، وحَدُّه[1]: بأن يكون كل من الركنين مركّبًا من كلمتين، وهذا هو الفرق بينه[2] وبين المركب، وقَلَّ مَنْ فرّق بينهما، ومنها الانسجام، ومنها الاستخدام.

وعهدي بالفقيه علي بن منصور الشيظمي تعرض إلى شرحهما في كراسة[3].

والتعمية في هذين البيتين بالعمل[4] الحسابي وهو كثير، إلاَّ أنَّ هذا العمل أحسبني أبا عذرته إذ لم أره لغيري، ومادة التعمية فيه «أنا أنا فيه» «قلبي له حجر» فقولي «أنا أنا فيه» معناه أن تضرب «أنا» في ه، وقولي «في ه» نصّ في الضرب، ويخرج من هذا مائتان وستون عدد حروف هيماني وحقّك[5]، وقولي «قلبي له حجر» بعمل القلب يصير «رجح» فصار المجموع «هيماني وحقّك يرجح»، وفيه التورية، و «هيماني وحقّك» الخارج من هذا الضرب فيه تهكّم بالواشي، فهو من المحسّنات أيضًا، أعني قوله «وحقّك» ويصلح أن تسمّى هذه التعمية بالافتتان؛ لأنَّ الافتتان عندهم: أن يفتن الشاعر فيأتي بفنَّين متضادّين من فنون الشعر في بيت واحد، وهذا وقع التضادّ فيه في كلمة واحدة، فظاهر «أنا أنا فيه» يضاد «هيماني وحقّك يرجح» الذي يخرج بطريق الحساب، فافهمْه، ويمكن استخراج تعمية أخرى من قولي للعاذل المؤذي «أنا فيه»؛ انتهى.

والاستخدام الذي أشار إليه هو في قوله «أنا فيه» أي في هذا الثوب المسمّى بقلب حجر، كما دلّت عليه الحكاية، وأمّا المعنى الثاني لقوله «أنا فيه» فظاهر.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٠٨): «وحدّوه».
(٢) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ٧٩): «بين الملفف وبين المركب».
(٣) في الطبعة نفسها: «بكراسة».
(٤) في روضة الآس: «بالعدّ».
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٠٩): «وحقك ي».

وقال وقد قطف وردة من روض المسرّة في زمن النرجس: [الكامل]

وافى بها البستانُ صنوكَ وردةً ... يقضي بها لمَّا مَطَلْتَ وعودا
أهدى البَهار محاجرًا وأتى بها ... في وقته كيما تكونَ خدودا
فبعثتها مرتادةً بنسيمها ... تثني من الروضِ النضيرِ قُدُودا

وقال: [الخفيف]

لي حبيبٌ يأتي بكلِّ غريبِ ... هو عندي مُنَكَّرٌ ومُعَرَّفْ
لستُ أشكو لصيرفيّ ونحوي ... إنه بي نَحَا وفيَّ تصرَّفْ
فعله فيَّ لازمٌ مُتَعَدّ ... ومزيدٌ مجرَّدٌ ومُضَعَّفْ

وقال: [الرمل]

لا وطيفِ علّم السيفَ فقد ... في قوامٍ كقَنَا الخَطِّ نَهَدْ
ووميضٍ[1] لاحَ لَمَّا بسمتْ ... فأرتنا منه دُرًّا أو بَرَدْ
ما هلالُ الأفقِ إلاَّ حاسدٌ ... منه حسنًا وعَلاءً وغَيَدْ[2]
ولذا عاش قليلاً ناحلاً ... كيف لا يَفْنَى نحولاً مَنْ حَسَدْ

وقد ضمّن قوله «ما هلال الأفق» أديب زمانه الشيخ إمام الدين الخليلي الوافد على حضرته من بيت المقدس فقال: [الرمل]

قَسَمًا بالبيت والركن الذي ... طابَ حجًّا واستلامًا للأبَدْ
«ما هِلالُ الأفقِ إلاَّ حاسدٌ ... منه حسنًا وعلاءً وغَيَدْ»

وقد اتّفق لإمام الدين هذا أنه اجتمع بالحضرة المنصورية، هو والعقاد المكي السابق والشريف المدني، وهو رجل وافد من أهل المدينة انتمى إلى الشرف، فقال إمام الدين: يا

---

(١) الوميض: اللمعان والبريق. لسان العرب (ومض).
(٢) الغَيَدُ: لين الأعطاف. لسان العرب (غيد).

'مير المؤمنين، إنّ المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ إليها الرحال شَدَّ أهلُها إليك الرحال: هذا مكيّ، وذاك مدنيّ، وأنا مَقْدِسيّ، ثم أنشد[1]: [الرجز]

إنَّ أميرَ المؤمنين أحمد   بَحْرُ الندى وفَضْلُه لا يُجْحَدُ
فطيبةٌ ومكةٌ أهلهما   والمسجدُ الأقصى بذاك شهدوا

رَجْع إلى نظم المنصور، وقال: [الطويل]

وكيف بقلبٍ في هواه مقلَّبِ   وأنّى له بين الضلوعِ مقامُ
فيا شادنًا يرعى الحشا أنتَ بالحشا   أما لمحلٍّ أنتَ فيه ذِمامُ

وقال يخاطب رئيس كتّابه صاحبنا سيدي عبد العزيز الفشتالي[2] السابق الذكر: [مجزوء الرجز]

يا كاتبًا ألفاظه   تغرس[3] روضًا ذا فننِ
إنَّ جوابي للذي   يشكو دناه أردد حزنِ

وقال مُوَرِّيًا بمصانِعِه الثلاثةِ: البديعِ، والمسرّةِ، والمشتهى: [الكامل]

بستانُ حسنك أبدعتْ زهراته   ولكم نهيتُ القلبَ عنه فما انتهى
وقوامُ غُصْنك بالمسرّةِ يَنْثَني   يا حُسْنَهُ رمّانةً للمشتهى

ولولا خوف الإطالة المُمِلّة لذكرت من محاسن مولانا أمير المؤمنين المنصور ـ رحمه اللّه تعالى! ـ بعضَ ما أؤدي به حقّه، سقى اللّه تعالى عِهاده[4]! وقد بسطت الكلام على السلطان المذكور في كتابي «روضة الآس، العاطرة الأنفاس، في ذكر من لقيته من أعلام مراكش وفاس» وأطال الكلام على ترجمته صاحبُنا الوزير الكبير الشهيد سيدي عبد العزيز ابن محمد الفشتالي[5] في كتابه المسمّى بـ «مناهل الصفا، في فضائل الشُّرَفا» وعهدي به

---

(١) روضة الآس (ص ١٤).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣١٠): «القشتالي» بالقاف.
(٣) في روضة الآس: «إذا كتب يغرس».
(٤) العِهادُ: جمع عَهْد وهو أول مطر الوسمي. محيط المحيط (عهد).
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣١١): «القشتالي» بالقاف.

أكملَ منه ثمانيَ[1] مجلدات، وهو مقصور على دولة السلطان المذكور وذويه، وألف كاتبُ أسراره الرئيس أبو عبد الله محمد بن عيسى فيه كتابًا سماه «الممدود والمقصور، من سَنَا السلطان المنصور» وهذه التسمية وحدها مطربة، رحم الله تعالى الجميع!

رجع إلى التوشيح:

كتب إليَّ بعضُ أذكياء الأصحاب الأعيان موشّحًا يمدحني به في آخره عارض به موشّح لسان الدين السابق الذي أوله[2]:

جادك الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى   يا زمانَ الوصلِ بالأندلسِ

ونصُّه:

عَطَّرَ الأرجاءَ لَمَّا نَسَمَا   شَمْألٌ للصبح عندَ الغَلَسِ
وأتتْ شمسُ الضُّحى تنسخُ ما   يقرأُ الليلُ لنا من عَبَسِ

* * *

طافَ بالكأسِ مِنَ الزهرِ فَتَى   مُولَعٌ بالصَّدِّ عنّي مذ فَتِي
فتنَ الألبابَ لمَّا التفتا   واحْتَسَى منه ببعضِ الشَّفَةِ
وأنا ما بين حَتَّى ومَتَى   صَدَّه تيهُ الهوى عن أُلفتي
وكؤوس الراحِ بين النُّدَمَا   أرَّجَتْ بالعَرْفِ أُفْقَ المجلسِ
خمرةٌ صفراء في البلور ما   أشبهَ الحانَ بروضِ النرجسِ

* * *

بادِرِ اللّذّة واجمعْ شملها   بمدامٍ وغلامٍ مُطْرِبِ
ذي عيونٍ ناعساتٍ كم لها   من فنونِ السِّحْرِ ما يلعبُ بي
وافرِ الأردافِ عانَى حملها   ناحِلِ الخصر، وذا من عجبِ
كلّما أترعَ كأسًا قال ما   أنت بالشاري حياةَ الأنفسِ
فابْذِلِ الجهدَ وكُنْ مغتنما   لنفيسِ النفس طيبَ الأنفسِ

* * *

(١) في الطبعة نفسها: «ثمان».

(٢) تقدم موشح ابن الخطيب في هذا الجزء.

فُرَصُ الأيام كُنْ منتهزا مبتداها قَبْلَ حذفِ الخبرِ
ورحابَ الأُنسِ لُجْ منتجزا قَبْلَ أن تمضي كلمح البصرِ
واجْنِ من زهرِ الهوى محترزا من جناياتِ هجومِ الكبرِ
لا تَخَفْ لومًا ويَمِّمْ حيثما لاحتِ اللّذاتُ كالمختلسِ
ما مضى أُنسٌ ووافى مثلما كان ذا الدهر لنا بالحرسِ

* * *

للرياضِ اذهبْ ترى بُلْبُلَها لاشتياقِ الوَرْدِ مثلَ الثُّكلِ
وخدودُ الورد قد كلّلها دمعُ طَلّ لاشتياقِ البلبلِ
وقدودُ البانِ قد قام لها مانعُ الوصل بحدِّ الأَسَلِ
والرُّبا فاحتْ تحاكي خَدَمَا وعليهنّ ثيابُ السندسِ
جَيْبُها زُرِّرَ بالزهرِ كما زُرَّ بالفِضَّةِ ثوبُ الأطلسِ

* * *

وجَلاَ الروضُ لنا أشجارَهُ مائساتٍ في قَبَاءٍ أَخْضَرِ
وترى في جِيدِها نُوّارَهُ يتلألأ كعقودِ الجوهرِ
خَلَعَ الليلُ به أطمارَهُ[1] فغدا كالصبحِ باهي المنظر
وبقاياهُ زهتْ فيه أما في شفاهِ الغِيدِ حُسْنُ اللَّعَسِ
كعِذارٍ في مُحَيَّا علّما فَبَدَا للغيرِ لا الملتمسِ

* * *

حَبَّذا الصبوةُ أيامَ الصِّبا وعيونُ الشَّيْبِ في سَهْوِ الوسنْ
فإذا أَيقَظَها دهرٌ صَبَا لصروفٍ خَدُّ شفريها وسنْ
جَرَّدَ الشيبُ لنا بِيضَ الشَّبَا واقتفى شرخَ شَبَابٍ وطعنْ[2]
وغَدَا الإنسانُ شيخًا هرِما واعتراه لاعجٌ من وَجَسِ
فاتَ إذ مات فيقضي نَدَمَا واغتنامُ الوقتِ شغلُ الكَيِّسِ

* * *

---

(١) الأطمار: جمع طِمر وهو الثوب البالي. لسان العرب (طمر).

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣١٣): «وظعن» بالظاء المعجمة.

لا تَدَعْ عُمْرَكَ يمضي هَدَرَا   أنتَ إذ ذاك جَبانٌ غافلُ
وارْقَ بالجهدِ من السؤلِ الذرا   واجتهدْ والضرعُ ضخمٌ حافلُ
إنما الأيامُ أمثالُ الشَّرى[1]   والجريءُ الشهمُ ليثٌ باسلُ
ووحوشُ الإنس تسعى مغنما   باردًا للأَسَدِ المفترسِ
تَرَكَ الوَهْمَ وخاضَ الظُّلَمَا   وله العزمُ أضا كالقَبَسِ

ليس يحظى بالمُنى إلاَّ الذي   كابَدَ الأهوالَ حتى ظفرا
كان للراحةِ كالمنتبذِ   من وراءِ الظهرِ أنَّى ظهرا
مثلما قد باتَ ذا طرفٍ قَذِي   يقطعُ الليلَ جميعًا سهرا
في طِلابِ العلم حتى علما   أنه يملا بروح القدسِ
أحمد الناصب فينا علما   للتقى فاز به مَنْ يأتسي[2]

* * *

حَلَّ في مصرَ وإن كان العُلا   قد عفتْ لما اعتراها في خَلَلْ
ورياضُ الفضلِ لمّا أن علا   نَقْعُ جهلٍ جَفَّ منهنّ البللْ
ازدَرَتْ أغصانها حتى خلا   قاعُهَا مِنْ عَذْبِ ما يَشْفِي العللْ
نفرتْ إذ حلَّ فيها كالسما   وهو بَدْرٌ بكمالٍ مكتسِ
حوله الطلابُ كالشُّهب سما   قدرُها من نورهِ المقتبسِ

* * *

أيها الطالبُ للعلم اتئذْ   ليس إلاَّ بابهُ ينفعكا
إن ترمْ نَيْلَ المرجَّى فاجتهدْ   في اتِّباع للذي يَرْفَعُكا
عِلْمُ مَنْ يعملُ إكسيرٌ فزدْ   منه واتركْ حاسدًا يَدْفَعُكا
والزمِ الأعتابَ وانزلْ بالحمى   خالعَ الربْقَةِ من قول المسي
باعتقادٍ فازَ مَنْ قد لثما   نعله والكبرُ شأنُ المُبْلِسِ[3]

* * *

---

(١) في الطبعة نفسها: «السرى» بالسين المهملة.
(٢) يأتسيه: يقلّده ويجعله أسوة له. لسان العرب (أسا).
(٣) المُبْلِسُ: المتحيّر الذي أصابته الدهشة. لسان العرب (بلس).

مذ خَبَرْتُ الناسَ طرًا نظرا — لمناطِ الأمر في هذا الزمان
لم أجدْ إلاّ مقالاً صدرا — عن دعاوٍ أخلفتْ عند العيان
غيرَ ما يمليه فانظرْ لترى — دُرَرَ الألفاظ في سِمْطِ البيان
ببديع النطْقِ لمَّا نظما — بُهِتَ المنطيقُ مثلَ الأخرسِ
وأتى يخضعُ جمعُ العلما — نحو ذا المفردِ في الملتمس

* * *

إنما المجدُ الرفيعُ الممتطي — أروُسَ الآسادِ قسرًا مثل ذا
يَدَعُ المرفوعَ كالمنهبطِ — ثم للنازلِ يُعلي منفذا
ناظرًا في أمره بالأحْوَطِ — خافض الطرف على حرِّ القذى
كلّ مَنْ أمَّ حماهُ قد حمى — بحُسَام العزم هشَّ الملمسِ
فإذا جرَّدَ منه انفصما — جَلْمدُ الصخرِ بذاك الميسِ

* * *

حَبَّذا المغربُ قطرًا بالسنا — فضلُهُ يَبْهَرُ بَدْرَ الأفقِ
قطرُهُ الشامخُ قد أهدى لنا — سيُدًا قد فاق شمسَ المشرقِ
كلّ مَنْ فاتَتْهُ أسبابُ المنى — بِعُلاه للثُّرَيَّا يرتقي
قُلْ لمن يَرْجو سوى المذكور ما — ينبتُ الزهرُ بأرضِ اليبسِ
لا، ولا الناسُ سواء إنما — رأيُ مَنْ سوّاهم في هوسِ

* * *

لُذْ بشهمٍ فاز مَنْ أمَّلَهُ — بنوالٍ فاقَ سَحَّ الهاملِ[1]
أثقلَ السؤدد إذ حَمَّلَهُ — وَقْرَ فضلٍ مستبينٍ شاملِ
وحِماهُ الأمنُ، من أمّ له[2] — بلغَ القصدَ، فبشرى الآملِ
بحرُهُ الوافرُ بالعلم طَمَا — كاملَ الأمدادِ لم يحتبسِ
نالَ منه الناسُ حتى عَمَّما — مشرقًا والغربَ للأندلسِ

* * *

---

(١) سحُّ الهامل: انصباب المطر. لسان العرب (سحح).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣١٥): «أمّله».

رجع إلى مُوَشَّحات لسان الدين ابن الخطيب، رحمه اللّه تعالى!

فمن المنسوب إلى محاسنه قوله:

قد حَرَّكَ الجلجلُ بازي الصباخ[1] والفجرُ لاخ فيا غرابَ الليلِ حُثَّ الجناخ

وهذا مطلع موشّح بديع له لم يحضرني الآن تمامه؛ لكوني تركته وجملة من كلام لسان الدين في كتبي بالمغرب جبرها اللّه تعالى عليّ، وهو معارض للموشح الشهير الذي أوله:

بنفسجُ الليلِ تذكّى وفاخ بين البطاخ كأنه يسقى بمسكٍ وراخ

وهذا المنحى هو الذي سلكه الجمالُ ابنُ نُبَاتة[2] إذ قال مادحًا لجلال الدين الخطيب رحم اللّه تعالى الجميع:

ما سَحَّ محمرُّ دموعي وساخ على الملاخ إلاَّ وفي قلبي المُعَنَّى جِراخ
بي من بني الأتراك حلوُ الشبابْ مُرُّ السَّطَا
عشِقْتُهُ حين عدِمْتُ الصَّوابْ مِنَ الخَطَا
تَشْكُو حَشَا الغزْلانِ منه التهابْ إذا عَطَا
وربّما تشكو الغصونُ اكتئابْ إذا خَطَا
ما ماسَ ذاكَ الغصنُ بين الوشاخ إلاَّ وراخ قول عَذُولي كلّه في الرياخ
آهًا لِصَبّ دَمْعُهُ حيثُ كانْ دَمْعٌ أريقْ
هذا أسيرٌ في وجوهِ الحِسانْ وذا طليقْ
أَرَّقَ جسمي بالضَّنا يومَ بانْ بدرُ الفريقْ
فها أنا اليومَ له يا فلانْ عبدٌ رقيقْ
يزيدُ أجفاني نَدًى وارتياخ نَهْيُ اللُّوَاخ[3] مِثْلَ جلال الدين يومَ السّماخ
حبرٌ له في الخَلْقِ ذكرٌ جميلْ لا يُفْتَرَى[4]
ماحٍ على غيظِ الغمامِ البخيلْ مَحْلَ الثرى

---

(١) في الطبعة نفسها: «الصباع»، بالعين المهملة.

(٢) ترجم له الصفدي ترجمة ضافية في الوافي بالوفيات (جـ ١ ص ٣١١ ـ ٣٣١). ولم ترد موشحته هذه في المصدر المذكور ولا في ديوانه.

(٣) اللُّواخ: جمع لاحية وهي اللائمة. لسان العرب (لحا).

(٤) لا يفترى: لا يقال كذبًا. لسان العرب (فرا).

ـا رأتِ العينُ له من مَثِيلْ ولا تَــرَى
ـوقَدُ في أوطانِهِ للنزيلْ نارَ القِرَى
شرارُها في الكيس حمرٌ صحاحْ لها اقتداحْ لكنها في القلب عذبٌ قراحْ

يا مالكَ العِلْمِ وفَيْضَ النَّدَى جُزْتَ المَدَى
فابْقَ وكلُّ العالمين الفِدَا دَعِ العِدا
أنتَ الذي أصبحَ غَيْثَ الجَدَا[1] صبحَ الهدى
كم يُقْتَفَى منكَ وكم يُقْتَدَى ويُجْتَدَى
عالِمٌ جليٌّ ونوالٌ صُرَاحْ صفو مُباحْ يروي به راوي الرّجا عن رباحْ

ومُغْرَمٍ لا يَخْتَشي مِنْ رقيبْ ولا عذولْ
مُعَلَّقِ القَلْبِ بشجوٍ عجيبْ ولا وصولْ
يَسْكَرُ لكنْ بصفاتِ الحبيبْ لا بالشَّمُولْ
لَمَّا رَنَا الظبيُ وماسَ القضيبْ أضحى يقولْ
كم ينتضي جَفْنَكَ وعطْفَكَ صِفاحْ على رماحْ ما ذي مَحاسِنْ ذي خزاينْ سلاحْ

ومن الموشحات الصادرة من المشارقة المعارضة للمغاربة قولُ عثمان البلطي[2] يمدح القاضي الفاضل:

ويلاه من روّاغْ بِجورِهِ يقضي
ظبيٌ له إغذاذْ[3] منه الجفا حظّي

ولم أقف على تمامها، وقد بارى بها التوشيح المشهور للمغاربة، وهو:

عقاربُ الأصداغْ في السوسن الغَضّ
تَسْبِي تُقَى من لاذْ بالنسكِ والوعظِ

---

(١) الجَدَا: العطاء. لسان العرب (جدا).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣١٧): «الملطي». والبلطي: نسبة إلى بلط القرية من الموصل. وهو عثمان بن عيسى البلطي، المتوفَّى سنة ٥٩٩ هـ. ترجمته وموشحته هذه في فوات الوفيات (جـ ٢ ص ٤٤٣ - ٤٤٦).

(٣) في فوات الوفيات: «ظبي بني يزداذ».

مِـنْ قـبـلِ أن يَـغـدُو   عـلـيَّ لـم أحـسـبْ
أن تـخـضـعَ الأسْـدُ   لـجـؤذرِ الـربـربْ[1]
ظـبـيٌ لـه خَـدُّ   مُـفَـضَّـضٌ مُـذْهـبْ
وشـادنٌ يَـبْـدو   فـي صـدْغِـهِ عَـقْـرَبْ
رقَّـةُ زهـرِ الـبـاغْ[2]   فـي جـسـمـه الـفِـضِّـي
مـهـفـهـفٌ بِـدْعُ   أصـبـحـتُ مـغـرًى بـهْ
قـلـبـي لـه رَبْـعُ   لـو كـنـتُ فـي قَـلْـبِـهْ
أصـابـنـي صَـدْعُ   مـذ لَـجَّ فـي عَـتْـبِـهْ
الـسّـهـدُ والـدمـعُ   حـظِّـيَ مِـنْ قُـرْبِـهْ
والـعـيـنُ لا يـنـسـاغْ   لـهـا جـنـى الـغـمـضِ
والـدمـعُ ذو إغـذاذْ   نـاهـيـكَ مِـنْ حَـظِّ

ومن أحسن ما للمشارقة من التوشيح قولُ الشهاب العزازي يعارض أحمد بن حسن الموصلي[3]:

يـا لـيـلـةَ الـوَصْـلِ وكـأسَ الـعُـقـارْ   دونَ استتارْ   عَلَّمْتُماني كيف خَلْعُ العِذارْ

اِغْـتَـنـمِ الـلّـذّات قـبـلَ الـذهـاب[4]

وجُـرَّ أذيـالَ الـصِّـبـا والـشـبـاب

واشربْ فقد طابتْ كؤوس الشراب

عـلـى خـدود تـنـبـتُ الـجُـلّـنـارْ   ذاتَ احمرارْ   طَرَّزها الحُسْنُ بآسِ العِذارْ

---

(١) الجؤذر: ولد البقرة الوحشية. الربرب: قطيع بقر الوحش. لسان العرب (جأذر) و (ربرب).
(٢) الباغ: الحديقة.
(٣) الموشحة كاملة في المنهل الصافي (جـ ١ ص ٣٤٤ ـ ٣٤٥). ومطلعه في توشيع التوشيح (ص ١٠٩).
(٤) رواية هذا البيت في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣١٨) هي:

اغـتـنـم الـلّـذّاتِ قـبـل الـذهـاب
واشـربْ فـقـد طـابـت كـؤوس الـشـراب
تـحـكـي ثـغـورهـا الـثـنـايـا الـعـذاب

الـراحُ لا شـكَّ حـيـاةُ الـنـفـوسْ

فَـحَـلِّ منـهـا عـاطـلاتِ الـكـؤوسْ

واستجلها بين الندامى عَرُوسْ

تُـجْـلَـى عـلـى خـطّـابـهـا فـي إزارْ من النُّضَارْ حَبابُها قام مَقامَ النِّثارْ[1]

أمَـا تـرى وَجْـهَ الـهـنـا قـد بَـدَا

وطـائـر الأشـجـار قـد غَـرَّدا

والـروضُ قـد وَشَّـاه قَـطْـر الـنـدى

فـكـمّـل الـلـهـوَ بـكـأسٍ تُـدارْ على افترازْ مباسم النَّوّار غبَّ القِطارْ[2]

اجْـنِ مـن الـوصـل ثـمـارَ الـمـنـى

وأوصـلِ[3] الـكـأسَ بـمـا أمـكـنـا

مع طَيِّبِ الريقة حلو الجنى

بِـمُـقْـلَـةٍ أفـتـكَ مـن ذي الـفَـقَـارْ[4] ذاتِ احورارْ منصورة الأجفان بالانكسارْ

زار وقـد حَـلَّ عـقـودَ الـجـفـا

وافـتـرَّ عـن ثَـغْـر الـرضـى والـوفـا

فـقـلـتُ والـوقـتُ لـنـا قـد صـفـا

يـا لـيـلـةً أنْـعَـمَ فـيـهـا وزارْ شمسُ النهارْ حُيِّيتِ من بين الليالي القصارْ

ويعجبني من موشحات العزازي المذكور قوله[5]:

مـا عَـلَـى مَنْ هامَ وَجْدًا بذوات الحلى[6]

---

(١) النِّثار: ما ينثر فوق رأس العروس. لسان العرب (نثر).

(٢) القِطار: جمع قَطْر وهو المطر. لسان العرب (قطر).

(٣) في المنهل الصافي: «وواصلْ».

(٤) ذو الفقار: هو سيف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرّم اللّه وجهه.

(٥) الموشحة في المنهل الصافي (جـ ١ ص ٣٤٥).

(٦) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣١٩): «العلا».

مُـــبْـــتَــــلَـــى بالحدق السّود وبِيضِ الطُّلى[1]

* * *

بـــالــــلِّــــوَى مَلِيُّ حُسْنٍ لديوني لَوَى
كـــم نَـــوَى قَتْلي وكم عذّبني بالنّوى
قـــد هَـــوَى في حُبِّه قلبي بحكمِ الهوى
واصْــطَــلَـــى نارَ تجنّيهِ ونارَ القِلَى[2]
كـــيـــف لا يذوبُ مَنْ هامَ بريمِ الفلا

* * *

هـــل تُـــرَى يَجْمَعُنا الدهرُ ولو في الكرى
أم تَـــــرَى عيني مُحَيَّا مَنْ لجسمي بَرَى
بـــالـــسَّـــرى يا حادِيَيْ ركبٍ[3] بليلي سَرَى
عَـــلّـــلاَ قلبي بتذكارِ اللّقا عَلَّلا
وانـــــزلا دون الحِمَى، حيّ الحمى منزلا

* * *

بـــي رَشَـــا دَمْعي بسرّي[4] في هَواه فَشَا
لـــو يَـــشَـــا بَرَّدَ مني جَمَراتِ الحَشَا
مـــا مـــشـــى إلاّ انثنى في سكره وانتشى
عـــطّـــلا مِنَ الحُمَيَّا يا مديرَ الطّلا
مـــا حَـــلاَ إذا أدار الناظرَ الأكْحَلا

* * *

---

(١) الطُّلى: جمع طُلاة وطُلْية وهي العُنُق. محيط المحيط (طلى).
(٢) القِلى: البغض. لسان العرب (قلا).
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٢٠): «ركب مني بليلي». أي زاد كلمة «مني» وبذلك ينكسر الوزن.
(٤) في طبعة عبد الحميد: «دمعي جرى في هواه..».

هــــل يُـــلامْ　　مَنْ غَـلَـبَ الـحبُّ عـليه فَـهـامْ
مُــســتــهــامْ　　بـفـاتـرِ الـلَّـحْـظِ رشـيـقِ الـقَـوامْ
ذي ابــتـــســـامْ　　أحسن نظمًا مِنْ حَبَابِ المُدامْ
لـــو مـلا　　مِنْ رِيقِهِ كأسًا لأَحْيَا المَلاَ
أو جَـــــــلا　　وَجْهًا رأيت القمر المُجْتَلَى

* * *

لـــو عَـــفَـــا　　قـلـبُـكَ عَـمَّـنْ زَلَّ أو مـن هَـفَـا
أوْ صَـفَـا　　مـا كـان كـالـجـلْـمَـدِ أو كـالـصَّـفَـا
بـــالـــوفـــا　　سَلْ عن فتى عذَّبته بالجفا
هـــل خَـــلاَ　　فُـؤادُهُ مِـنْ خـطـرات الـولا
أو ســـــلا　　أو خـانَ ذاكَ الـمـوثـق الأوّلا

* * *

وقوله أيضًا يعارض الموصلي[1]:

مـا سُـلَّـتِ الأعـيـنُ الـفـواتـرْ　　من غـمـدِ أجـفـانـهـا الـصـفـاحْ
إلاّ أسـالـتْ دَمَ الـحـنـاجـرْ　　من غيـر حـربٍ ولا كـفـاحْ

* * *

تـالـلّـه مـا حَـرَّكَ الـسـواكـنْ　　غـيـرُ الـظِّـبـاءِ الـجـآذرِ[2]
لَـمَّـا اسـتـجـاشـتْ بـكـلِّ طـاعـنْ　　مـن الـقُـدُودِ الـنـواضـرِ
وفـوّقـتْ أسـهـمَ الـكـنـائـنْ[3]　　مـن كـلِّ جَـفْـنٍ ونـاظـرِ
عُـرْبٌ إذا صـحـنَ يـا لَـعَـامـرْ　　بـيـن سَـرايـا مـن الـمـلاحْ
طلّت علينا من المحاجرْ　　طـلائـعٌ تَـحْـمِـلُ الـسـلاحْ

* * *

(١) الموشحة في المنهل الصافي (جـ ١ ص ٣٤٧).
(٢) الجآذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية. لسان العرب (جأذر).
(٣) الكنائن: جمع كنانة وهي وعاء السهام. لسان العرب (كنن).

أَخبِبْ بما تطلع الجيوبُ   منها وما تُبْرزُ الكَلَلْ
من أقْمُرٍ ما لها مغيبُ   وأغْصُنٍ زانها المَيَلْ
هيهاتِ أن تعدلَ القلوبُ   عنها ولو جارَتِ المُقلْ
لمّا توشّحْنَ بالغدائرْ   سَفَرْنَ عن أوْجُهٍ صِباحْ
فانهزمَ الليلُ وهو عاثرْ   بذَيْله[1] واختفى الصباحْ

* * *

وأهيفٍ ناعِمِ الشمائلْ   تهزُّه نَسْمَةُ الشمالْ
فينثني كالقضيبِ مائلْ   كما انثنى شاربٌ ومالْ
له عِذارٌ كالنَّدِّ سائلْ   للّه كم من دمٍ أسالْ
شُقَّتْ على نَبْتِهِ المرائرْ   من داخلِ الأنفس الصحاحْ
تكلُّ في وصفه الخواطرْ   وتخرسُ الألسنُ الفصاحْ

* * *

ظبيٌ إلى الإنس لا يميلُ   الشمسُ والبدرُ من حُلاهْ
الحسنُ قالوا ولم يقولوا   مَبْدَاه منه ومنتهاهْ
وطرفُه الناعسُ الكحيلُ   هيهاتِ من سيفه النَّجَاهْ
أذلَّ بالسحر كلَّ ساحرْ   فهو له خافِضُ الجناحْ
يجول في باطنِ الضمائرْ   كما يجولُ القَضَا المُتَاحْ

* * *

أمَا تَرَى الصبحَ قد تطلَّعْ   مذ غمضتْ أعينُ الغسقْ
والبدرَ نحو الغروبِ أسرعْ   كهاربٍ نالَه فَرَقْ[2]
والبرقَ بين السحابِ يلمعْ   كصارمٍ حين يُمْتَشَقْ
وتحسبُ الأنجمَ الزواهرْ   أسِنَّةً ألْقَتِ الرماحْ
فانهزم النهرُ وهو سائرْ   فدرَّعَتْهُ يَدُ الرياحْ

* * *

---

(١) في المنهل الصافي: «في ذيله».

(٢) الفَرَق، بالفتح: الخوف. لسان العرب (فرق).

وموشحة الموصلي التي عارضها العزازي هي قوله[1]:

رنا بأجفانه الفواترْ لَمَّا انثنى واجِدُ الملاحْ
فَسَلَّ من طرفه بواترْ وهَزَّ مِنْ عِطْفِهِ رماحْ

* * *

ناظِرُهُ جَرَّد المهنَّدْ وغِمْدُهُ مِنِّيَ الحَشَا
وعامل القَدِّ فهو أملدْ يطعنُ للقلب[2] إن مشى
والعارض القائم المزردْ لفتنة الناسِ قد نَشَا
والحاجبُ القوسُ بالفواترْ لِنَبْلِهِ في الحشا جِراحْ
ومشرفُ الصدغِ فهو جائرْ سلطانُه للدما أباح

* * *

فَجَفْنُهُ الفاتكُ الكِنَاني مِنْ ثُعَلٍ رَاشَ لي نبالْ[3]
وهو الخفاجِيُّ قد غزاني ووجهه[4] من بني هلالْ
عَبْسيُّ لَحْظٍ له سباني جسم زبيديّ بالدلالْ
والردفُ يدعى مِنَ آل عامرْ وأوضح الصَّلْت من صباحْ
وخصرُهُ من هَشيم[5] ضامرْ يدورُ من حوله وشاحْ

* * *

فوجهُهُ جَنَّةٌ وكوثرْ رُضَابُه العذبُ لي حلا

---

(١) الموشحة في المنهل الصافي (ج ١ ص ٣٥٠).

(٢) في المنهل الصافي: «في القلب».

(٣) في المنهل الصافي: «من مُقَلٍ راشَ..». والكِناني: نسبة إلى قبيلة كِنانة، أو نسبة إلى كِنانة السهام وهي وعاؤها. ثعل: قبيلة من طيّء مشهورة بجودة الرمي وإصابة الغرض، وفيها يقول امرؤ القيس: [المديد]

رُبَّ رام من بني ثُعَلٍ مُتْلِجٍ كَفَّيْهِ في قُتَرِهْ

ديوان امرىء القيس (ص ١٢٣).

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٢٣): «وجهه».

(٥) في المنهل الصافي: «هتيم».

والنارُ في وَجْنَتَيهِ تسعرْ   حيالها خالُهُ اصطلى[1]
عجبتُ من خاله المعنبر   إذ يعبدُ النارَ كيف لا
يُحْرَقُ بالنارِ وهو كافرْ   وما سقى ريقه القراحْ
كاملُ حسنٍ معناه وافرْ   بسيطُ وصفٍ كالمِسْكِ فاحْ

* * *

ما اخْضَرَّ نبتُ العِذار إلاَّ   بآسه سُيِّج[2] الشقيقْ
وهو كنملٍ سَعَى وولَّى   ولم يجدْ للجنى طريقْ
مِنْ رِيقة البدر إذ تجلَّى   في هالة العارضِ الأنيقْ
لَمَّا تبدَّى بالوجه دائرْ   وحَيَّر العقلَ حين لاحْ
شَقَّ على خَدِّه المرائرْ   وقَطَّعَ الأَنْفُسَ الصِّحاحْ

* * *

ورُبَّ يومٍ أتى وحَيَّا   كالشمس والنجمِ والقمرْ
بالكأسِ والراحِ والمُحَيَّا   ثلاثةٌ تفتنُ البشرْ
وقال قُمْ يا نديمُ هَيَّا   اقضِ بنا لذَّةَ الوَطَرْ
فالخمرُ تُجْلَى على المزاهرْ   من اغتباقٍ إلى اصطباحْ
وطافتِ الراحُ بالمجامرْ   من عنبر الزهر في البطاحْ

* * *

ومِمّا يُطْربني من الموشحات قولُ بعضهم[3]:

ما لي[4] شمولْ   إلاَّ شجونْ   مزاجُها في الكاسْ   دَمْعٌ هتونْ
للّه ما بَذَرْ   مِنَ الدموعْ
صَبٌّ قد استعبرْ   مِنَ الولوعْ
أودى به جؤذَرْ   يوم الطلوعْ[5]

(١) في طبعة عبد الحميد: «والحال خيالها اصطلى».
(٢) في المنهل الصافي: «يبهج».
(٣) هذه الموشحة لابن بقي، وهي في دار الطراز (ص ٩٢ - ٩٣).
(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٩٥): «ما بي».
(٥) في دار الطراز: «يوم البقيع».

فهو قتيلْ لا بل طعينْ بين الرجا والياسْ له مَنُونْ[1]

جرحت للحَيْنِ[2] كَفِّي بكفِّي

وجِيلَ ما بيني وبين إِلْفي

لا شكَّ بالبَيْن يكون حَتْفي

حال[3] الرحيلْ ولي ديونْ إنْ ردَّها العباسْ فهو الأمينْ

أما ترى البَدْرَا بَدْرَ السعود

قد اكتسى خُضْرا مِنَ البرود

إذا انثنى نضرا مِنَ[4] القدود

أضحى يقولْ مت يا حزينْ قد اكتسى بالآسْ الياسمينْ

قلتُ وقد شرَّد النومَ عنِّي

وأيأس العُوَّد السُّقْمُ[5] منِّي

صدَّ فلما صدّ قَرَعْتُ سِنِّي

جسمي نحيلْ لا يستبينْ يطلبُهُ[6] الجلاّسْ حيث الأنينْ

تجاوز الحَدَّا قلبي اشتياقا

وكلف السّهدا مَنْ لا أطاقا

قلتُ وقد مَدّا لليلي رواقا

ليلي طويلْ ولا معينْ يا قلبَ بعضِ الناسِ أَمَا تلينْ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٩٦): «سنون».

(٢) الحَيْنُ: الهلاك. لسان العرب (حين).

(٣) في دار الطراز: «حان».

(٤) في دار الطراز: «بين».

(٥) في دار الطراز: «للسقم».

(٦) في دار الطراز: «تطلبه».

الباب السادس

في مصنّفاته في الفنون، ومؤلّفاته المحقَّقَةِ للواقف عليها الآمالَ والظنون، وما كمل منها أو اختَرَمَتْهُ دون إتمامه المَنُون.

اعلمْ أنَّ تصانيف لسان الدين التي علمتُ نحو الستين، وكلُّها في غاية البراعة، بحيث إنه لم يأت أحد من أهل عصره بمثل ما جاء به، بل وكثير من غير أهل عصره رحمه اللّه تعالى، وقد وقفت بالمغرب على كثير منها، وفيها أقول مضمّنًا ببعض تغيير: [الوافر]

تصانيفُ الوزيرِ ابنِ الخطيبِ ... أَلَذُّ من الصَّبَا الغَضِّ الرَّطِيبِ

فأيَّةُ راحةٍ ونعيمِ عيشٍ ... توازي كتبه أم أيُّ طيبِ

قال رحمه اللّه تعالى في تعريفه بنفسه آخر «الإحاطة» ما صورته[1]:

التواليف: «التاج المحلّى، في مساجلة القِدْح المعلّى»، و «الكتيبة الكامنة، في أدباء المائة الثامنة».و «الإكليل الزاهر، فيما فضل عند نظم التاج من الجواهر» ثم «النقاية[2]، بعد الكفاية» هذا في نحو «القلائد» و «المَطْمَحين» لأبي نصر الفتح بن محمد، و «طرفة العصر، في دولة بني نصر» في أسفار ثلاثة، و «بستان الدول» موضوع غريب ما سُمع بمثله، قلَّ أن شذَّ عنه فنّ من الفنون، يشتمل على شجرات عشر: أولها شجرة السلطان، ثم شجرة الوزارة، ثم شجرة الكتابة، ثم شجرة القضاء والصلاة، ثم شجرة الشرطة

---

(١) الإحاطة (جـ ٤ ص ٤٦١ ـ ٤٦٢).

(٢) في الإحاطة: «النفاية» بالفاء.

الحِسْبة، ثم شجرة العمل، ثم شجرة الجهاد وهي فرعان: أسطول، وخيول، ثم شجرة ما خطر باب الملك إليه من الأطباء والمنجّمين والبيازرة[1] والبياطرة والفلاحين والندماء الشطرنجيين والشعراء والمغنّين، ثم شجرة الرعايا، وتقسيم هذا كلّه غريب يرجع إلى شعَب، وأصول، وجراثيم، وعمد، وقشر، ولحاء، وغصون، وأوراق، وزهرات مثمرة، غير مثمرة، مكتوب على كلّ جزء من هذه الأجزاء بالصبغ اسم الفن المراد به، وبرنامجه سورة بستان، كمل منه نحو من ثلاثين سفرًا، ثم قطَعَ عنه الحادثُ على الدولة، وديوان شعري في سفرين سميته «الصَّيِّب والجَهَام، والماضي والكَهَام» والنثر في غرض السلطانيات كثير، والكتاب المسمى بـ «اليوسفي في صناعة الطب» في سفرين كبيرين، كتاب ممتع، «عائد الصلة» وصلتُ به صلة الأستاذ أبي جعفر بن الزبير، في سفرين، وكتاب «الإحاطة، بما تيسّر من تاريخ غرناطة» كتاب كبير في أسفار تسعة، هذا متصل بآخرها، و «تخليص الذهب، في اختيار عيون الكتب الأدبيات الثلاثة»، و «جيش التوشيح» في سفرين. ومن بعد الانتقال من الأندلس وما وقع من كياد الدولة: «نُفَاضة الجراب، في علالة الاغتراب» موضوع جليل في أربعة أسفار، وكتاب «عَمَلُ مَنْ طَبَّ لمن حَبَّ» ومنزلته في الصناعة الطبية بمنزلة كتاب أبي عمرو بن الحاجب المختصر في الطريقة الفقهية، لا نظير له، ومن الأراجيز، المسماة «رقم[2] الحلل، في نظم الدول» والأرجوزة المسمّاة بـ «الحلل المرقومة، في اللمع المنظومة» ألفية من ألْف بيت في أصول الفقه، والأرجوزة المسمّاة بـ «المعلومة» معارضة للمقدمة المسمّاة بالمجهولة في العلاج من الرأس إلى القدم إذا أُضيفت إلى رجز الرئيس أبي علي كملت بها الصناعة كمالاً لا يشينه نقص، والأرجوزة المسماة بـ «المعتمدة، في الأغذية المفردة» والأرجوزة «في السياسة المدنية»، إلى ما يشذّ عن الوصف كالرجز «في عمل الترياق الفاروقي»، و «الكلام على الطاعون المعاصر»، و «الإشارة»، و «قطع السلوك»، و «مُثْلَى الطريقة، في ذمّ الوثيقة» حتى في الموسيقى[3]، والبيطرة والبيزرة، هذر[4] كَثُفَ به الحجاب، ولعب بالنفس الإيجاب[5]، وضاع الزمان ولا تسل

---

(١) البيازرة: أراد بهم العلماء بالأدوية، كما يفهم من السياق.

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٢٨) والإحاطة: «برقم».

(٣) في الإحاطة: «الموسيقى».

(٤) في الإحاطة: «هذرٌ به كُثِّف الحجاب».

(٥) في الإحاطة: «الإعجاب».

بين الردّ والقبول والنفي والإيجاب، ولله دَرُّ القائل[1]: [السريع]

والكونُ أشراكُ نفوسِ الورى | طُوبَى لنفسٍ حرّةٍ فازتْ
إن لم تحزْ معرفةَ اللّه قد | أورطها الشيءُ الذي حازتْ

وكلٌّ مُيَسرٌ لما خُلق له، ولا حول ولا قوة إلاّ باللّه العلي العظيم؛ انتهى ما له في آخر «الإحاطة» بحروفه.

قلت: ولنذكر ما تأخّر تأريخه عن «الإحاطة» أو أُشير إليه فيها مجملاً فنقول:

من أشهر تواليفه رحمه اللّه تعالى كتاب «ريحانة الكتّاب، ونُجْعَة المنتاب» في عدة مجلّدات، وهو داخل في قوله السابق في «الإحاطة»: والنثر في غرض السلطانيات كثير، وهذا الكتاب قد اشتمل من الإنشاء على كثير في أغراض شتّى من مخاطبات الملوك على اختلاف أجناسهم وصدقاتهم وغير ذلك من أحوالهم وأحوال الكبراء ومخاطباتهم حتى ملوك النصارى، وذكر في صدره خُطَبَ بعض كتبه، وفي آخره بعض مقاماته وتحليته لأهل عصره، وغير ذلك، وبالجملة فهو كتاب مفرد في بابه.

وقال الأمير الشهير العلامة أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر رحمه اللّه تعالى في كتابه «نثير فرائد الجمان، فيمن يضمّني وإياه الزمان» ما صورته[2]: لابن الخطيب الأوضاع المصنّفات، التي آذانُ إحسانها هي المُقرَّطات المُشنّفات، منها في التصوف، الذي أكثر أهل الحقائق إليه نظر التشوّف «روضة التعريف، بالحبِّ الشريف»؛ انتهى، وسَرَدَ غير هذا الكتاب مِمّا قدّمْنا ذكره وغيره.

وهذا الكتاب - أعني «روضة التعريف» - غريب المنزع، وعارض به «ديوان الصبابة» لابن أبي حجلة صاحب «السكردان»، وضمّنه من التصوف وعبارات أهله العجب العُجَاب، وتكلّم فيه على طريقة أهل الوحدة المُطْلَقة، وبذلك سجّل عليه أعداؤه في نكبته الآخرة التي ذهبت فيها نفسه، ونَسَبُوه إلى مذهب الحلول[3] وغيره، مِمّا ذكرهُ يطول حسبما ألمعْنا

(1) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ٩٩): «القائل - وهو المؤلف». والبيتان في الإحاطة (ص ٤٦١).

(2) نثير فرائد الجمان (ص ٢٤٤).

(3) الحلول: عبارة عن اتحاد الجسمين بحيث تكون الإشارة إلى أحدهما إشارة إلى الآخر كحلول ماء الورد في الورد. محيط المحيط (حلل).

بذلك[1]، وقد جعل هذا الكتاب شجرة ذات أفنان وعمود، مشتمل على القشر والعود، وأوراق، وصورة طائر فوقها، ولم أر في فنّه مثله، جازاه اللّه تعالى عن نيّته! فإنه في الحب الشريف الرباني، مبلغ الناظر فيه غاية أمنيته.

ومن تواليفه رحمه اللّه تعالى غير ما سبق «اللمحة البدرية، في الدولة النصرية» وكتاب «السحر والشعر» و «معيار الأخبار» و «مفاضلة مالقة وسلا» و «خطرة الطيف، ورحلة الشتاء والصيف» وقد ذكرهما في الريحانة بنصّهما، وجعلهما من جملة ما اشتملت عليه، و «المسائل الطبية» في مجلّد، و «الكتيبة الكامنة، في شعراء المائة الثامنة» ورسالة «تكوّن الجنين»، و «الوصول، لحفظ الصحة في الفصول» وكتاب «الوزارة» و «مقامة السياسة» و «الغيرة، على أهل الحيرة» و «حمل الجمهور، على السُّنَن المشهور» و «الزبدة الممخوضة» و «الردّ على أهل الإباحة» و «سدّ الذريعة، في تفضيل الشريعة» و «تقرير الشبه، وتحرير الشبه» و «استنزال اللطف الموجود، في سرّ الوجود» و «أبيات الأبيات» فيما اختاره رحمه اللّه تعالى من مطالع ما له من الشعر، و «فُتَات الخوان، ولقط الصوان» في سفر يتضمّن المقطوعات فقط، و «كناسة الدكان، بعد انتقال السكان» و «الدرر الفاخرة، واللجج الزاخرة» جمع فيه نظم ابن صفوان، و «أعمال الأعلام، فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام، وما يجرّ ذلك من شجون الكلام» و «المباخر الطيبية، في المفاخر الخطيبية، و «خلع الرسَن، في أمر القاضي ابن الحسن» وتدوين شعر شيخه ابن الجياب، وجمع نثر المذكور وسمّاه «تافه من جمّ، ونقطة من يَمّ» وشرحه لكتاب نفسه «رقم الحلل في نظم الدول»؛ فهذا ما حضرني علمه من تواليف لسان الدين رحمه اللّه تعالى، فأمّا «البيزرة» ففي مجلد، وأما «البيطرة» فكذلك في مجلد جامع لما يرجع إليه من محاسن الخيل وغير ذلك، وأمّا «رجز الأصول» فقد شرحه قاضي القضاة ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون صاحب التاريخ المشهور، وأمّا «رقم الحلل، في نظم الدول» فهو في غاية الحلاوة والعذوبة والجزالة، وقد كنت بالمغرب أحفظ أكثره، فنسيته الآن، وابتدأه بقوله: [الرجز]

الحمدُ للّه الذي لا يُنْكِرُهْ مَنْ سَرَحَتْ في الكائناتِ فِكَرُهْ

---

(١) في طبعة دار صادر (ج ٧ ص ١٠٠): «بذلك فيما سبق».

وعلق بحفظي الآن منه قوله في الوليد بن يزيد: [الرجز]

ثمّ الْوَليدُ بْنُ يزيدَ العائثُ قد نُقلت مِنْ فعلِهِ خبائثُ

وفي آخر دولة بني أمية قوله: [الرجز]

وصار قَصْر الملْكِ من أميَّهْ أَقْفَرَ ربعًا من ديارِ مَيَّهْ

وفي الأمين: [الرجز]

باعَ العُلاَ بشادِنٍ وكاسِ وصحبةِ الشيخ أبي نُوَاسِ

وفي المعتصم: [الرجز]

وهو الذي تألّفَ الأتراكا فَنَصَبُوا لقومِهِ الأشراكا

ومن أبيات هذا الكتاب قوله: [الرجز]

وَيَفْسُدُ الملك بالاحتجابِ كذاك بالزَّهْوِ وبالإعجابِ

وما أحسن قوله فيه عند ذكر موت بعض الملوك: [الرجز]

وأقفرتْ من ملكه أوطانُهُ سبحانَ من لا ينقضي سلطانُهُ

وأمّا كتاب «الإحاطة» فهو الطائر الصيت بالمشرق والمغرب، والمشارقة أشدّ إعجابًا من المغاربة، وأكثر لهجًا بذكره، مع قلّته في هذه البلاد المشرقية، وقد اعتنى باختصاره الأديب الشهير البدر البشتكي[1]، وسمّاه «مركز الإحاطة، في أدباء غَرْنَاطة» وهو في مجلّدين بخطِّه، رأيت الأخير منهما بمصر، وقال في آخره ما نصُّه: هذا آخر ما أردت إيراده، وفَوَّقْتُ أبرادَهُ، من كلِّ طرفة وتحفة وفائدة أدبية، ونادرة تاريخية، في كتاب «الإحاطة، بتاريخ غرناطة» ولما كان المعول عليه، والباعث الداعي إليه، ذكر أدبائه، ومآثر علمائه، سمّيته «مركز الإحاطة، بأدباء غرناطة» والحمد للّه أولاً وآخرًا، وباطنًا وظاهرًا، علقه لنفسه ثم لمن شاء اللّه تعالى من بعده الفقيرُ إلى عفو ربّه محمد بن إبراهيم بن محمد البدر البشتكي، لطف اللّه تعالى به بمنّه وكرمه! مستهل صفر سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، وحسبنا اللّه ونعم الوكيل؛ انتهى.

---

(١) هو بدر الدين أبو البقاء محمد بن إبراهيم بن محمد الأنصاري البشتكي الدمشقي الأصل، المتوفّى سنة ٨٣٠ هـ. الضوء اللامع (ج ٦ ص ٢٧٧) ومطالع البدور (ج ١ ص ٨٠).

وقد جعل كلّ أربعة أجزاء من الأصل في مجلّد، إذ هو في مجلّدين كما سبق، ونسخة الأصل في ثمانية[1] مجلّدات، فنقص من الأصل ثلاثة أرباع أو نحوها.

ولمّا وقف سلطان الأندلس من كتاب «الإحاطة» نسخة علىٰ بعض مدارس غرناطة كتب ابنُ عاصم حجةَ الوقفية بخطّه، ولنثبتها لما فيها من الفوائد، قال الأديب الفقيهُ أبو عبد اللّٰه محمد بن الحداد الشهير بالوادي آشي نزيل تلمسان المحروسة: كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال، والفائقة الكمال، من «الإحاطة، بتاريخ غرناطة» المحبَّسة على المدرسة اليوسفية، من الحضرة العلية، بخطّ قاضي الجماعة، ومنفذ الأحكام الشرعيّة المطاعة، صَدْر البلغاء، وعَلَم العلماء، ووحيد الكبراء، وأصيل الحسباء، الوزير الرئيس المعظّم أبي يحيىٰ بن عاصم ـ رحمة اللّٰه تعالى عليه! ـ ما نصُّه: الحمد للّٰه الجاعل الاستدلالَ بالأثر على المؤثر مِمّا سلمه الأعلام، وشهدت به العقولُ الراجحة والأحلام، وهو الحجّة المعتمدة حين تتفاضل الألباب وتتقاصر الأفهام، وبه الاستمساك إن طرقت الشكوك أو عَرَضت الأوهام، وحَسْبُك بما يسلم في هذا المقام العالي من الأدلّة، وما يعتمد في هذا المجالِ المتضايق من البراهين المستقلّة، فحقيق أن يتلقّى هذا النوع من الاستدلال فيما دون الفنّ المشار إليه بالقَبُول، ويستنبل[2] المهتدي لاستنباطه لما فيه من التبادر للأفهام والتسابق للعقول، وإذا ثبت أنّ المستدلّ بهذه الأدلّة سالك على سواء سبيل، ومُنْتمٍ من صحة النظر إلى أكرم قَبيل، فلا خفاء أنّ كتاب «الإحاطة» للشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبد اللّٰه ابن الخطيب ـ رحمه اللّٰه تعالى! ـ من أثر هذه الدولة النَّصْرية أدامها اللّٰه تعالى بكل آعتبار، ومآثرها التي هي عبرة لأُولي الألباب وذكرى لذوي الأبصار، أما الأول فلأنّ الأنباء التي أظهرت بهجتها، وأوضحت حجّتها، وشرفت مقصدها، وكرمت مصعدها، إنما هي مناقب ملوكها الكرام، ومكارم خلفائها الأعلام، أو أخبار من اشتملت عليه دولتهم الشريفة من صدور حَمَلَةِ السيوف والأقلام، وأفذاذ حَفَظِة الدِّين والدنيا، والشرف والعليا، والملك والإسلام، أو ما يرجع إلى مفاخر حضرة الملك، وينتظم نظمَ الجُمَان في ذلك السلك، من حصانة قلعتها، وأصالة منعتها، وقديم اختطاطها، وكريم جهادها ورِباطها وحسن ترتيبها

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٣٢): «ثمان».

(٢) يستنبل: يصير نبيلاً. لسان العرب (نبل).

ووَضْعها، وما اشتمل عليه من مقاصد الأنس آهلُ رَبْعها، وما سوى هذه الأقسام الثلاثة فمن قبيل القليل، ومِمّا يرجع إلى شرف الحضرة مِمَّن انتابها[1] من أهل الفضل الواضح والمجد الأثيل، وأمّا ثانيًا فإن راسم آياتها المتلوّة، ومُبْدع محاسنها المجلوّة، وناقل صورتها من الفعل إلى القوّة، إنما هو حسنة من حسنات هذه الدولة النَّصْرِية الكريمة، ونشأة من نشآت جودها الشامل النعمة الهامل الدِّيمة، فما ظهر عليه من كمالات الأوصاف، على الإنصاف، فأخْلاَفُ[2] هذه المكارم النصرية أرضعته، وعناياتها الجميلة أسْمَتْه فوق الكواكب ورَفَعَتْه، وإليها ينسب إحسانه إن انتسب، ومن كريم تشريفها اكتسب، والحضرة هي منشؤه الذي عظم فيه قَدْره، بل أُفُقُه الذي أشرق فيه بدره، والتشريفات السلطانية التي فَتقَت اللَّها باللُّها[3]، وأحلَّتْ[4] من مراقي العزّ فوق السها، وأمكنت الأيدي من الذخائر والأعلاق، وطوّقت المنن كالقلائد في الأعناق، وقلّدت الرياسة والأقلام أقلام، وثنت الوزارة والأعلام أعلام، فبهرت أنواعُ المحاسن، ووُرِدَ معينُ البلاغة غيرُ المطروقِ ولا الآسن[5]، وبرعت التواليف في الفنون المتعدّدة، واشتهرت التصانيف ومنها هذا التصنيف المشار إليه لما له من الأذمة المتأكّدة، إذ أظهر هذا الاستدلال، وأوضح البيان ما كتمه الإجمال، فلْنُفْصِحِ الآن بما قَصَد، ولنحقّق من أنجم السعادة ما رَصَد، وذلك أنّ لمولانا أمير المسلمين، المجاهد في سبيل ربِّ العالمين، الغالب باللّه المؤيّد بنصره أبي عبد اللّه محمد ابن الخلفاء النصريين، أيّده اللّه ونصره! وسنّى له الفتح المُبين ويَسَّره! مآثِرَ لم يُسْبق إليها، ومكارم لم يجر أحد مِمَّنْ وسم بالكرم عليها، لجلالة قدرها، وضخامة أمرها، من ذلك هذا المقصد الذي أُثِرَ لها كالكتاب المذكور وسواه، مِمَّا هو واحد في فنّه وفذّ في معناه، عَقَد في جميعها التحبيس[6] على أهل العلم والطلبة بحضرته العليا هنالك ليشمل به الإمتاع، ويعمّ به الانتفاع، واللّه تعالى ينفع بهذا القصد الكريم، ويتولّى المَثُوبة

---

(١) انتابها: قصدها. لسان العرب (نوب).

(٢) الأخلاف للناقة: بمنزلة الثدي للمرأة. لسان العرب (خلف).

(٣) اللَّها، بفتح اللام: اللحمة المشرفة على الحَلْق في أقصى سقف الفم. اللُّها، بضم اللام: جمع لُهْوة وهي أفضل العطايا. محيط المحيط (لها).

(٤) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٣٤): «واحتلّت».

(٥) المطروق: الماء الذي بالت فيه الدواب. الآسن: الماء الذي تغيّر طعمه ولونه وريحه. لسان العرب (طرق) و (أسن).

(٦) التحبيس: أراد الوقوف وهو المال الموقوف وهذا من اصطلاح الفقهاء. لسان العرب (حبس).

على هذا العقد الجسيم، وهذه النسخة في اثني عشر سفرًا متّفقة الخطّ والعمل، اكتتب هذا على ظهر الأول منها، وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمانمائة، عرّف اللّه تعالى بركته بمنّه! انتهى.

وكان لسان الدين ابن الخطيب - رحمه اللّه تعالى! - أرسل في حياته نسخة من «الإحاطة» إلى مصر، ووقفها على أهل العلم، وجعل مقرّها بخانقاه سعيد السعداء، وقد رأيت منها المجلّد الرابع، وهذا نصُّ وقفيته: الحمد للّه وحده، وقف الفقير إلى رحمة اللّه تعالى الشيخ أبو عمرو بن عبد اللّه بن الحاج الأندلسي - نفع اللّه تعالى به! - عن موكّله مصنّفه الشيخ الإمام العلاّمة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد اللّه محمد ابن الشيخ أبي محمد عبد اللّه ابن الخطيب الأندلسي السَّلْمَاني - فَسَحَ اللّه تعالى في مدّته! وفتح لنا وله أبواب رحمته! ومنحنا وإياه من رِفْده وعطيّته! وأسكننا وإياه أعالي جنّته! - جميعَ هذا الكتاب «تاريخ غرناطة»، وهو ثمانية أجزاء، هذا رابعها، عن مصنّفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره، وهو أنه فوّض إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلّها، وشؤونه أجمعها[1]، والنظر في أحواله على اختلافها وتباين أجناسها، تفويضًا تامًّا على العموم والإطلاق، والشمول والاستغراق، لم يستثن شيئًا مِمّا تجوز النيابة فيه إلاّ أسنده إليه، وهو ثابت على سيّدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بثغر الإسكندرية المحروس - أدام اللّه تعالى أيامه! - كمال الدين خالصة أمير المؤمنين أبي عبد اللّه محمد بن الربعي المالكي ثبوته مؤرخ بثالث ذي الحجّة عام سبعة وستين وسبعمائة، وقفًا شرعيًّا على جميع المسلمين ينتفعون به قراءة ونَسْخًا ومطالعةً، وجعل مقرّه بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء، رحم اللّه تعالى واقفها! وجعل النظر في ذلك للشيخ العلامة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حجلة[2]، حرسه اللّه تعالى! ثم من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة، فلا يحلّ لأحد، يؤمن باللّه العظيم، ويعلم أنه صائر إلى ربّه الكريم، أن يبطله ولا شيئًا منه، ولا يبدله ولا شيئًا منه، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنما إثمه على الذين يبدلونه، إنّ اللّه سميع عليم، ومَنْ أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور جعله اللّه تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٠٥): «جميعها».

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٠٥): «أحمد بن أبي حجلة».

خوف عليهم ولا هم يحزنون[1]، وأشهد الواقف الوكيل عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر اللّٰه تعالى المحرم عام ثمانية وستين وسبعمائة؛ انتهى.

وقد رأيت بظهر أول ورقة من هذه النسخة خطوطَ جماعة من العلماء، فمن ذلك ما كتبه الحافظ المقريزي المؤرخ، ونصُّه: انتقى منه داعيًا لمؤلّفه أحمدُ بن علي المقريزي في شهر ربيع سنة ثمان وثمانمائة.

وما رقمه[2] الحافظُ السيوطي ونصُّه: الحمد للّٰه وحده، طالعته على طبقات النحاة واللغويين، وكتبه عبدُ الرحمن بن أبي بكر السيوطي سنة ثمان وستين وثمانمائة؛ انتهى.

وبعد هذين ما صورته: انتقى منه داعيًا لمؤلّفه محمد بن محمد القوصوني سنة أربع وخمسين وتسعمائة.

وبعده ما صورته: أنهاه نظرًا وانتقاءً علي الحموي الحنفي، لطف اللّٰه به.

وبخطِّ مولانا العارف الرباني علاّمة الزمان وبركة الأوان سيدي[3] الشيخ محمد البكري الصديقي ما نصُّه: طالعته مبتهجًا برياضه المونقة، وأزهار معانيه المشرقة، مرتقيًا في دَرَج كلماته العذاب سماء الاقتباس، مقتنيًا من لطائفه دررًا وجواهر بل أُحاشيها بذلك القياس، كتبه محمد الصديقي غفر اللّٰه له! انتهى.

ورأيت بهامش هذه النسخة كتابةَ جماعةٍ من أهل المشرق والمغرب كابن دُقْمَاق والحافظ ابن حجر وغيرهما من أهل مصر، ومن المغاربة ابن المؤلف أبي الحسن علي ابن[4] الخطيب، والخطيب الكبير سيدي أبي عبد اللّٰه بن مرزوق، والعلاّمة أبي الفضل ابن الإمام التلمساني، والنحوي الراعي، والشيخ الفهامة الشهير يحيىٰ العجيسي شارح الألفيّة وصاحب التآليف، وغير هؤلاء مِمَّنْ يطول تعدادهم، رحم اللّٰه تعالى جميعهم!

وقد أشار ابن الأحمر حفيد الغني باللّٰه تعالى الذي كان ابن الخطيب وزيرًا له ثم انفصل عنه حسبما تقدّم إلى ما يتعلّق بكتاب «الإحاطة» في جملة كلام نصُّه: وتلقينا مِمَّنْ

---

(١) أخذه من قول اللّٰه تعالى: ﴿فلا خَوفٌ عليهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. سورة البقرة ٢، الآية ٣٨.

(٢) رقمه: كتبه وسطره. لسان العرب (رقم).

(٣) كلمة «سيدي» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٣٦).

(٤) كلمة «ابن» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٣٧).

نثق به أنَّ الكاتب المجيد الأصيل حسبًا، البارع أدبًا، أبا عبد اللّه ابن جُزَي وفَد على السلطان أبي عنان صاحب المغرب في حدود عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، فأكرم جَنابه، وكمل من تقريبه واصطناعه آرابه[1]، فانتدب إلى ذكر وطنه الأندلسي، وصاح بمن عَذَله: [الوافر]

أيا وَيْحَ الشجيِّ من الخليِّ[2]

وبرع غاية البراعة في التاريخ الذي جمعه، ورفع راية البلاغة لما كلف به ووضعه، فلم يكن شيء من الكلام إلاّ قال الإحسان وأنا معه، استوعب ما شاء، وأبدع في كلّ ما نقل سواء كان شعرًا أو إنشاءً، لكنَّ سابقَ أجله مَنَعَ من الإمتاع بمجمله ومُفَصَّله، وجاءت الحادثة العظمى من وفاة مولانا والد جدّنا أمير المسلمين أبي الحجاج في غرّة شوّال من عام خمسة وخمسين وسبعمائة فعيّن لتعريف صاحب المغرب بالكائنة خاصَّ الدولة ورئيسَ الجملة أبا عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن الخطيب، فوقف من تاريخ ابن جُزَي على شاطىء نهر فيّاض، وانتشق[3] من وَرَقاته أزاهرَ رياض، وحمله النظر في بدائعه على أن يأخذ في جَمْع كتابه المسمى بـ«الإحاطة فيما تيسّر من تاريخ غرناطة»، ووجد لذلك موجبًا أغراه بجمعه، وهو أنَّ الشيخ الحجّة الشاعر المفلق أبا إسحٰق بن الحاج وَفَدَ على الأندلس بعد جَوْبه الآفاق[4]، وترحّله إلى ما وراء الشام والعراق، وإعلامه أنه يذهب في بدأة تاريخ مذهب ابن جُزَي وغيره، وكان وحيدًا في فنون الآداب، والمساجلة لأعلام الكتّاب، وبحكم الاتّفاق على أثر وصول ابن الخطيب من الرسالة للسلطان أبي عنان وَجَدَ الحاجبَ الخطير أبا النعيم رضوان قد استولى على وظيفة الحجابة والرياسة وأقنعه بالاسم من ذلك المسمّى، وبأن وقَفَه دون طُموحه إلى عادته من المرقب الأسمى، فأنتج الانتباذ من تلك الرياسة الخطيبية أن ألفى الخطبة على جلالة مقدارها، وتوضُّح أنوارها، في مرتقى إجلالها وإكبارها، وأخذ في تأليف «الإحاطة» مستدعيًا تصحيح الموالد والوفَيات، والأسماء

---

(١) الآراب: جمع أرب وهو الحاجة. لسان العرب (أرب).

(٢) أخذه من المثل: «وَيْلٌ للشَّجيِّ من الخليِّ» أي ويل للحزين من المسرور الخالي البال. مجمع الأمثال (جـ ٢ ص ٣٦٧).

(٣) انتشق: شمّ.

(٤) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٠٧): «جوبه في الآفاق».

والمسمّيات، ومستكثرًا من طُرَف[1] المصنّفات، ليتمّ قصده من الإطناب، ونقله العيونَ الرائقةَ من كلّ كتاب، وألقى جميع مقاصده، والمعظم من تنظيم فرائده، بيد الشيخ العمدة معلم الجملة منّا كتابَ اللّه وسنّةَ رسوله ﷺ أبي عبد اللّه الشريشي، قدّس اللّه تعالى ضريحه! وهذا الشيخ الذي لم يجاوز سنّ الكهولة في ذلك الوقت هو الذي تولّى من المبيضات نَقْله، وأحكم جنسه وفَصْله، وانختم على مجلّدات ستة. ولمّا عاد ابنُ الخطيب إلى الأندلس بعودة جدّنا الغني باللّه تعالى إلى ملكه عام ثلاثة وستين وسبعمائة تلاحقت الفروع من كتاب «الإحاطة» بالأصول، وأنجز من التبحّر فيه الوَعْدَ الممطول، ووضعت بخانقاه سعيد السعداء النسخة المتمّمة من اثني عشر سفرًا؛ انتهى كلامه.

وقد علمت أن المكتوب في الوقفيّة كما مرّ ثمانية[2] مجلّدات، لا اثنا عشر، فلعلّ ذلك الاختلاف بسبب الكبر والصغر، واللّه سبحانه وتعالى أعلم.

والكاتب أبو عبد اللّه ابن جُزَي الذي أشار إليه قد عرّفنا به فيما سبق فليراجَع[3].

وأمّا العلاّمة ابن الحاج[4]، فهو أبو إسحٰق إبراهيم بن عبد اللّه بن إبراهيم بن محمد ابن إبراهيم بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحٰق بن أحمد بن أسد بن قاسم الكاتب القاضي النميري، ويُعْرَفُ بابن الحاج الغرناطي؛ قال في الإحاطة[5]: نشأ على عفاف وطهارة، وبرّ وصيانة، وبلغ الغاية في جودة[6] الخطّ، وارتسم[7] في كتاب الإنشاء عام أربعة وثلاثين وسبعمائة، مع حسن سمت[8]، وجودة أدب وخطّ[9]، وظهور كفاية، يقيد ولا يفتر، ويروي الحديث مع الطهارة والنزاهة، مليح الدعابة، طيّب الفكاهة، شرّق

---

(١) الطُّرَفُ: جمع طرفة وهي الشيء النادر الذي لا مثيل له تطرف به أصحابك، أي تتحفهم به. لسان العرب (طرف).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٣٩): «ثمان».

(٣) مرّ التعريف بابن جزي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثاني.

(٤) مرّ التعريف بابن الحاج النميري الغرناطي والإشارة إلى مصادر ترجمته في الجزء الثالث.

(٥) الإحاطة (جـ ١ ص ٣٤٣ ـ ٣٤٧، ٣٦٢) والمقري ينقل ملخصًا ويتصرف.

(٦) في الإحاطة: «إجادة».

(٧) في الإحاطة: «وأرسم».

(٨) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٣٩): «صمت». وفي الإحاطة: «سمة».

(٩) في الإحاطة: «وبراعة خطّ، وجودة أدب».

وحجّ وتطوّف وقيّد واستكثر ودوّن رحلة سفره، وناهيك بها طرفة، وقفل لإفريقية، وخدم بعض ملوكها، وكتب ببجاية، ثم خدم سلطان المغرب أبا الحسن، ثم كتب عن صاحب بجاية، ثم تنزّه عن الخدمة، وانقطع بتربة الشيخ أبي مَدْين مؤثرًا الخمول، ذاهبًا مذهب العكوف بباب اللّه تعالى، حجّة على أهل الحرص والتهافت، ثم جبر على الخدمة عند أبي عنان، ثم أفلت عند موته فلحق بالأندلس، وألقي[1] ببرّ وتنويه وعناية، وولي القضاء بقرب الحضرة، وهو الآن من صدور القطر وأعيانه، متوسّط الاكتهال، روى عن مشيخة بلده واستكثر، وأخذ في رحلته عن ناس شتّى، وألّف تواليف منها «إيقاظ الكرام، بأخبار المنام» وجزء في بيان الاسم الأعظم[2] كثير الفائدة، و «نزهة الحَذَق، في ذكر الفِرَق» وكتاب «اللُّباس والصحبة»، في جمع طرق المتصوّفة، المدعي أنه لم يجمع مثله، وجزء[3] في الفرائض على الطريقة البديعة التي ظهرت بالمشرق، وجزء[3] في الأحكام الشرعية سمّاه بـ «الفصول المقتضبة، في الأحكام المنتخبة» ورجز في الجَدَل، ورجز صغير في الحجب والسلاح، ورجز صغير سماه بـ «مثالب[4] القوانين، في التورية والاستخدام والتضمين». مولده بغرناطة سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، وامْتُحن بالأسر مع جماعة بعد قتال عام ثمانية وستين، ثم فكّه اللّه تعالى؛ انتهى ملخّصًا.

وأخذ عنه جماعة كالقاضي أبي بكر ابن عاصم صاحب «التحفة» وغيره، وهو من الأدباء المكثرين، وكان عندي بالمغرب مجلّد من رحلته التي بخطُه، وقد أتى فيه بالعجب العُجَاب، وتمهّر في الحديث على طريقة أهل المشرق؛ لأنه لقي جماعة من الحفّاظ كالذهبي والبرزالي والمزي، وناهيك بالثلاثة، وغيرهم مِمَّن يطول تعداده، وله النظم الرائق، العذب الجامع بين جزالة المغاربة ورقّة المشارقة، كما ستراه، فمن نظمه يمدح الحافظ جمال الدين يوسف بن الزكي عبد الرحمن المزي، وقد أبصره على أسِرَّة دار الحديث الأشرفية بدمشق: [الوافر]

جمالُ الدينِ للإقراء يعلو ... أسرَّته إذا اصطفّ الرجالُ
فمذ جُلِيَتْ محاسنُهُ بدا لي ... مُحَيّا في أسِرَّتِهِ الجمالُ

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٠٩): «وتلقّي».

(٢) في الإحاطة: «بيان اسم اللّه الأعظم، وهو كبير الفائدة».

(٣) في الإحاطة: «ورجز».

(٤) في الإحاطة: «بمثاليث».

ضمّن قول المعرّي: [الوافر]

أهَلّ فبشّرَ الأهلين منه　　مُحَيّا في أسرَّتِهِ الجمالُ

وقوله في الحافظ علم الدين أبي القاسم محمد بن يوسف البرزالي: [البسيط]

نَوَى النَّوَى علم الدين الرضا فأنا　　من بعدِ فرقتِهِ بالشام ذو ألم
فلا تَلُمني على حبي دمشقَ فقد　　أصبحتُ فيها زمانًا صاحبَ العَلَمِ[1]

وقال فيه أيضًا: [البسيط]

نَوَى النوى علمُ الدين الرضا فَذَكَتْ　　نارُ اشتياقيَ حتى استعظموا ألمي
فقلت: إنيَ من قومٍ شعارُهُمُ　　جودٌ، فلا تنكروا ناري على علم[2]

وقال في الحافظ شمس الدين الذهبي: [البسيط]

رَحَلْتُ نحو دمشقِ الشامِ مُبْتغيًا　　روايةً عن ذوي الأحلامِ والأدبِ
ففزتُ في كتب الآثار حين غَدَتْ　　تُرْوَى بسلسلةٍ عظمى من الذهبِ[3]

وقال في الحافظ المزي أيضًا: [الوافر]

جَمَالُ الدين أضحى في دمشقٍ　　إمامًا نحوه طالَ الذميلُ
فلم أُعدم بمنزله جَميلاً　　فحيثُ هو الجمالُ هو الجميلُ

وقال حين بُدُوره على الأمير الصالح المحدِّث الجليل قطب الدين أبي إسحٰق إبراهيم ابن الملك المجاهد سيف الدين إسحٰق ابن السلطان الملك الرحيم بدر الدين بن لؤلؤ بن عبد الله النوري صاحب الموصل ليروي عنه: [الطويل]

إلى قَصْدِ قُطْبِ الدين وافيتُ عندما　　أقمتُ على الترحالِ في الشرق والغربِ
وأصبحتُ كالأفلاك في السير والسُّرَى　　فها أنا في مصرٍ أدورُ على القطبِ

---

(١) العَلَمُ: الراية، وهنا ورّى به البرزالي الملقب بعلم الدين.

(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١١٠): «على العلم»، وهنا يورِّي بالعلم البرزالي الملقب بعلم الدين.

(٣) ورّى بكلمة «الذهب» شمس الدين الذهبي.

وقال في قاضي القضاة العالم الشهير صاحب التفسير عماد الدين الكندي، وهو مِمَّن أخذ عنه بثغر الإسكندرية: [المتقارب]

ولـمّـا اخـتـبـرتُ ذوات الـورى | تَعَجَّبْتُ من حُسْنِ ذاتِ العماذْ
فـتـلـك الـتي لـم أكـنْ مـبـصـرًا | مَدَى عُمْري[1] مثلَها في البلاذْ

وقال في القاضي وجيه الدين يحيىٰ بن محمد الصنهاجي: [الكامل]

أضحى وجيهُ الدين أسبقَ سابقٍ | في العلم والعلياء والخلق النبيهْ
عجب الورى من سبقه وتعجّبوا | فأجبتهم لا تنكروا سبق الوجيهْ[2]

ومن بديع نظمه رحمه الله تعالى قوله: [الكامل]

قد قارب العشرين ظبي لم يكنْ | ليَرَى الورى عن حبِّه سلوانا[3]
ويَـدَا الـربـيـعُ بـخـدِّه فـكـأنـمـا | وافـى الـربـيـعُ يـنـادمُ الـنُّعمانا

وقوله: [الرجز]

وعـارضٍ فـي خـدِّه نـبـاتُـه | بِحُسْنِه بين الورى يَسْحَرُنَا
أجرى دموعي إذ جرى شوقًا له | فقلت ﴿هذا عارضٌ مُمْطِرُنا﴾[4]

وقال، وقد توفي أبو يحيىٰ أبو بكر صاحب تونس وولي ابنه أبو حفص عمر بعد قتله لإخوته: [الطويل]

وقالوا أبو حفص حَوَى الملْك غاصبًا | وإخـوتُـه أولـى وقـد جـاء بـالـنُّـكْـرِ
فقلتُ لهم كفُّوا فما رَضِيَ الورى | سوى عمرٍ من بَعْدِ موتِ أبي بكر

وقال: [الطويل]

أتوني فعابوا مَنْ أُحِبُّ جمالَهُ | وذاك على سمع المحبِّ خفيفُ
فما فيه عيبٌ غيرَ أنَّ جفونَهُ | مِرَاضٌ، وأنَّ الخصر منه ضعيفُ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٤١): «عمرنا».
(٢) الوجيه: اسم فرس من الخيل المبرّزة، وهنا يورّي بها وجيه الدين الصنهاجي.
(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٤٢): «السلوانا».
(٤) سورة الأحقاف ٤٦، الآية ٢٤.

وقال: [المتقارب]

أيا عجبًا كيف تهوى المُلوك ... محلّي ومَوْطِنَ أهلي وناسي
وتحسُدُني وهي مخدومةٌ ... وما أنا إلاّ خديمٌ بفاسِ

وقال: [الطويل]

ليَ المدحُ يروى منذ كنتُ كأنما ... تصوَّرْتُ مدحًا للورى وثَناءَ
وما لي هجاءٌ فاعجبنَّ لشاعِر ... وكاتِبِ سِرّ لا يقيمُ هجاءَ

وقال في حقّه القاضي أبو البقاء خالد البلوي: نقلت من خطّ سيدي ورفيقي وصديقي إمام المسلمين، برهان الدين، أبي إسحٰق بن إبراهيم بن عبد اللّه بن الحاج، وأكثره مِمّا كان أنشدنيه قديمًا من نظمه في التورية قوله: [الخفيف]

ومَهَاةٍ تقولُ إن هيَ كلّتْ ... ودعا للمزاح خِلٌّ ممازِحْ
وازِرِ الردفَ إنَّ في الأُزرِ منّي ... رَمْلَ يَبْرِينَ يا طبيبُ وعالِجْ[1]

وقوله: [الوافر]

وروضٍ ممحِلٍ جَذْبِ المراعي ... سريعِ القيظِ وَقْدًا والتهابا
حكى ابن أبي ربيعة لا شُجُونًا ... ولكن كونه يهوى الربابا

وقوله: [الوافر]

وظبي طرَّ عارضُهُ وأعفى ... عذارًا بعدُ يزهو باخضرارِ
رأى سقمًا بمقلته فوافى ... بآسٍ عاد لكن من عِذارِ

وقوله: [الطويل]

أتوني بنمّامٍ من الروضِ يانعٍ ... سَقَتْه الغَوَادي كلَّ أسْجَمَ مِدْرارِ
فلا غرو إن أصليته نار زَفْرتي ... وحكم على النمّام ألإلقاء في النار

---

(١) يَبْرِين: رمل بأعلى بلاد بني سعد. معجم البلدان (جـ ٥ ص ٤٢٧). عالج: رملة بالبادية. معجم البلدان (جـ ٤ ص ٦٩).

وقوله: [الخفيف]

هذه الشمسُ بالحجابِ توارتْ بَعْدَ نورٍ لها ورحبٍ وبشرِ
وأتى الليلُ بالنسيم عَلِيلاً فهو يمشي من أُفقه لابن زهرِ

يعني بذلك الوزير الكبير الشهير الطبيب ابن زهر الإشبيلي الأندلسي، فإنه كان وحيد دهره في الطب، فجاءت التورية بسبب ذلك محكمة إلى الغاية.

وقال أبو إسحٰق النميري المذكور: [الوافر]

أيا ضوءَ الصباحِ ازْفُقْ بِصَبٍّ تسيلُ دموعُهُ في الخَدِّ سَيْلاَ
وكنتُ بليلةٍ ليلاء طالتْ فها أنا في الورى مجنون ليلى[1]

وقال يخاطب شيخَه سيف الدين: [الطويل]

لمولاي سيف الدين في الفقه بيننا مقامُ اجتهادٍ ليس يلحقُهُ الحيفُ
فتقليدُه فرضٌ على أهلِ عصرنا ولا عَجَبٌ عندي إذا قُلِّد السيفُ

وقال: [الطويل]

رَعَى اللّه معطارَ النسيم فإنه رأى من غصونِ البان ما شاء من عطفِ
وأبدى حديثَ الغيثِ وَهْوَ مُسَلْسَلٌ لذاك لعمري ليس يخلو من الضعفِ

وترشحت التورية بكون المحدثين يقولون «الحديث المسلسل لا يخلو من الضعف، ولو في التزام التسلسل، مع كون متن الحديث صحيحًا» كما قرّر في محلّه.

وقال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

نظرتُ إلى روضِ الجمالِ بوجهه وسَقَّيْتُه دمعًا به العينُ تكلفُ
فصحَّ حديثُ الحُسْنِ عن وَرْدِ خدِّها وإن كان أضحى وهو راوٍ مضعفُ

وقال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

بدا عارضُ المحبوبِ فاحمرَّ خجلةً وأهدى لنا وَرْدًا به الحُسْنُ ناهضُ
فقلتُ له لا تنكرِ الوردَ ناضرًا فقد سال في خَدَّيْكَ مِنْ قَبْلُ عارضُ

---

(١) مجنون ليلى: لقب قيس بن الملوّح، وأراد هنا مجنون الليلة الليلاء.

وقال: [الكامل]

النومُ عن إنسان عيني نافرٌ كالوحش ليس يقاربُ الإنسانا
والدمعُ منها فاضَ طُوفانًا فلا عجبٌ إذا ما غرّقَ الأجفانا

وقال رحمه اللّه تعالى: [الوافر]

بَكَتْ شجنًا ففاض الدمعُ يحكي يتامى الدّرّ إذ يَهْوِي تُؤاما[1]
وسَلَّتْ من محاجرها سيوفًا فخفتُ على المحاجرِ واليتامى

وقال القاضي خالد البلوي رحمه اللّه تعالى: من نظم صاحبنا أبي إسحٰق بن الحاج النميري يخاطب شيخه وشيخنا أيضًا صاحبَ ديوان الإنشاء الإمامَ جمالَ الدين إبراهيم ابن الإمام العلاّمة صاحب ديوان الإنشاء ملك الكلام قسّ الفصاحة شهاب الدين محمود بن سليمان الحلبي، وقد تقرّب إليه في قصد الرواية عنه: [الطويل]

إلى ابنِ شهابِ الدين طالَ تغرّبي فلمّا سَرَتْ عِيسِي له وركابي
رويتُ حديثَ الفضلِ عنه فصحّ لي كما شئت مرويًا عن ابنِ شهابِ

وقوله يخاطب كمال الدين بن جمال الدين المذكور: [الكامل]

أشبهتَ والدكَ الرضا في فضلِهِ وأَخَذْتَهُ عنه بخيرِ منابِ
وملّكتني فحديثُ فضلك في الورى عن مالكٍ يروى عن ابنِ شهابِ

وقال رحمه اللّه تعالى: [المتقارب]

لعمرك ما ثغرُهُ باسمٌ ولكنه حَبَبٌ لاعبُ
ولو لم يكن ريقُهُ مسكرًا لَمَا دارَ مِنْ حوله الشاربُ

وقال رحمه اللّه تعالى ملغزًا في القلم: [الطويل]

سألتكَ ما واشٍ يراد حديثُهُ ويهوى الغريبُ النازحُ الدارِ إفصاحَهْ
تراهُ مَدَى الأيامِ أصفرَ ناحلاً كمثلِ عليلٍ وهو قد لازم الراحَهْ

---

(١) التُّؤام: جمع تؤم وهو الذي معه نظيره. لسان العرب (تأم).

وقال وقد وقف حاجب السلطان على عين ماء ببعض الثغور وشرب منها: [المتقارب]

تَعَجَّبْتُ مِنْ ثَغْرِ هذي البلادِ ... ومولايَ مِنْ عينها شاربُ
فللّه ثغرٌ أرى شاربًا ... وعينٌ بَدَا فَوْقَها حاجبُ

وقال: [المتقارب]

وحمراءَ في الكأسِ مشمولةٍ ... تحثُّ على العود في كلِّ بيت
فلا غرو أن جاءني سابقًا ... إلى الأنس خِلٌّ يحثُّ الكميت

وقال: [الطويل]

بروضتنا الظَّمْياء طالَ اكتئابُنا ... فللّهِ غيثٌ مَيْتَ آمالنا أَحْيَا
وأشبهَ مهيارًا فها تلك عينُهُ ... تفيضُ إذا شام البروقَ على ظميا

وقال: [البسيط]

اثنان عَزًّا فلم يظفرْ بنيلهما ... وأعوزا مَنْ هما في الدهر مَطْلَبُهُ
أخٌ مودَّتُهُ في اللّه صادقةٌ ... ودرهمٌ من حلالٍ طابَ مكسبُهُ

وقال مورّيًا بالقائد نافع على ما اختاره البخاري وجماعة أنَّ أصحَّ الأسانيد مالك عن نافع: [الكامل]

عن نافعٍ أسْنِدْ حديثَ أحبّتي ... يا مالكًا رِقّي بحسنِ صنائعِ
فأجَلُّ إسنادٍ وخيرُ روايةٍ ... عندي روايةُ مالكٍ عن نافعِ

وقال: [الكامل]

إني لأعجبُ من فعالك في الهوى ... لمّا حللتَ بحسن ذاتك ذاتي
ونفيتَ نومي ثم أثبتَّ الأسى ... فجمعتَ بين النفي والإثباتِ

وقال: [الطويل]

أَلاَ مُعْصمٌ للصّبِّ من وَشْي مِعْصَمٍ ... أَطَلْتُ إليه نظرةَ المتوسّمِ
فأبقتْ به عيني حُلًى من سوادها ... وبعضَ سوادٍ وَسْطَ قلبي المتيّمِ

وليس خضابًا ما علاه، وإنما جرى فيه بعد الدمع ما عَزَّ مِنْ دمي
ولم يعدُمني اللونَ لونُ سواده خلا أنني أشقى وقيلَ له أنعمِ

وقال، وقد جاء الشاعر المفلق أبو العباس أحمد بن عبد المنّان بيت الكتاب وفي عينه خضرة: [المتقارب]

أيا أحمدُ المرتَضَى للعُلا ومَنْ حاز في صنعهِ كلَّ زينِ
تراءيتَ في العلم روضًا نضيرًا فلا تنكرنْ خضرةً حول عَينِ

وله فيه: [الطويل]

لك الخيرُ عُدْمُ السبكِ أبدلَ ناظري زمردةً مخضرّةً من لُجَينِهِ
فلا تنكروا ما راع من ذاك إنني لصائغُ تبرِ القولِ ناقدُ شينِهِ
ولا عجبٌ إن أعوز السبكُ صائغًا فأوجبَ عدمُ السبكِ خضرةَ عَينِهِ

وقال فيمن يعرف بالصّهّال: [الطويل]

ألاَ ربّ فرسانٍ توافوا فأدركوا مع الليل أوتارًا لهم دون إمهالِ
وأجْروا بصهّالٍ كميتًا كما ابتغوا فلا تنكروا الإجراء منهمْ بِصَهّالِ

ولما كتب الرئيس الكاتب الجليل أبو عبد الله العزفي مداعبًا: [الرجز]

يا عصبةً كلُّ فتًى منهمْ عَلَمْ فرغتمُ من كَتْبكمْ رُدُّوا القَلَمْ

أجابه ابن الحاج المذكور بقوله: [الطويل]

ألاَ احتسبوا ما قد أعرتُمْ لفتيةٍ تَكَرُّمكم بالصفح عن فعلهم قاضي
ولا تطمعوا في الرَّدِّ فالناسُ كلُّهم رأوا أنَّ مولانا له القلمُ الماضي

وقال الوادي آشي: نقلت[1] من خطِّ الكاتب العلاّمة الصدر البارع الحاج القاضي الناظم الناثر الجامع للمحاسن والمفاخر أبي إسحٰق إبراهيم بن الحاج النميري ما نصُّه: كتب

---

(١) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٤٧): «ممّا نقلت...».

إليّ الفاضل النخبة أبو الفضل ابن رضوان متمثّلاً بقول المأمون: [الكامل]

ملك الثلاثُ الآنساتُ عناني[1]

فكتبت إليه في التورية: [الطويل]

هنيئًا لك البُشرى بهنّ فَذُمْ كما   تريدُ بنعمى للسعادة جامِعَهْ
وإن كنتَ من أهلِ الصلاحِ فلا تكنْ   بمائلِ قلبٍ منك عن حُبِّ رابِعَهْ

فأجابني بقوله: [الرجز]

يا سيدي ذَكَّرتَني بالرابعهْ   لعلَّها لكلِّ خيرٍ جامِعَهْ
إني أخافُ أن تكونَ باقعهْ   فتفركَ المغازلَ المطاوعَهْ[2]

ولابن الحاج المذكور من قصيدة طويلة: [الكامل]

لمن الخيامُ سَطَتْ ببيضٍ صفاحِ   وارتْ سوادًا غال كلَّ صباحِ
إن مُزِّقَتْ رُقعتْ بنقعِ كتائبٍ   أو قُوِّضَتْ عُمدتْ بِسُمْرِ رماحِ

وله في رثاء الطبيب ابن عمار، واقترح عليه ذلك ابن جُزَي: [الطويل]

ألاَ أسعدا عَيْني على السّهدِ والبكا   فقد واصلَ السهد المبرِّحُ تذكاري
وأبدى الردى فتكَ ابنِ عبادَ أذ سطا   فلا غَرْوَ أن أبكي لِفَقْدِ ابن عمارِ

وقال مِمّا يُكْتَبُ في الترس: [الطويل]

أنا الترسُ قد أنشأتُ[3] بالأمر عُدَّةً   ليوم جهادٍ مُطلعٍ غُرَّةَ النَّصْرِ
فلاقوا بي الأعداء في زَحْفهم ولا   تبالوا بقرع الزّرْقِ والبِيضِ والسُّمْرِ
ولا تنكروا ستري لمقتلِ حاملي   ففي أسمي كما شاهدتمُ أحرفُ السترِ

---

(١) هو صدر بيت لهارون الرشيد، وليس للمأمون. قاله ضمن ثلاثة أبيات في ثلاث من محبوباته، والبيت بتمامه هو:

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِناني   وحَلَلْنَ من قلبي بكلِّ مكانِ

البيان المغرب (جـ ٣ ص ١١٨) والحلة السيراء (جـ ٢ ص ٩) وجذوة المقتبس (ص ٢٢) وبغية الملتمس (ص ٢٦).

(٢) الباقعة: الداهية. تفرك: تغضب وتكره. لسان العرب (بقع) و (فرك).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٤٨): «أنشئت».

وله يهني السلطان أبا عنان أمير المؤمنين المَرِيني بالإبلال من المرض: [الطويل]

مطالبُ إلاَّ أنهنَّ مواهبُ ... قضى اللَّه أن تقضى، فنعم المطالبُ
شفاءُ أميرِ المؤمنين وإنه ... لأكرمُ من تُخذَى[1] إليه الركائبُ
وكم قلتُ غابَ البدرُ والشمسُ ضلةً ... وزانَتْ على قلبي الهمومُ النواصبُ
ولم يَغِبَا لكن شكا الضرَّ فارسٌ ... وأوحش منه مجلسَ الملك غائبُ
لك اللَّه يا خيرَ الملوك وخير مَنْ ... تحنُّ له حتى العتاقُ الشوازِبُ[2]
وقَلٌّ لمن وافى بشيرًا نفوسنا ... فما هي إلاَّ بعضُ ما أنت واهبُ
أقول لجردِ الخيل قُبًّا بطونُها ... معقدةً منها لحرب سباسبُ
طوالعَ من تحتِ العجاج كأنها ... نَعَامٌ بكُثْبَان الصَّريمِ خواضبُ
مُحَجَّلة غُرًّا كأنَّ رِعالها ... بحارٌ جَرَتْ فيها الصَّبا والجنائبُ
مِنَ الأعْوَجِيَّات الصَّوَافن ترتمي ... إذا رجفتْ يومَ القراع مقانبُ
هنيئًا فقد صَحَّ الإمام الذي به ... تُفَلُّ السيوفُ المرهفاتُ القواضبُ
ومن حطَّم السُّمْرَ الطوال كعوبُها ... بطعنٍ كما امتاح الركيَّةَ شاربُ
وكَرَّ على أرضِ العِدا بفوارسٍ ... كأنهمُ في الحرب أُسدٌ غوالب
كأنَّ ظُباهُم في الهياج أكفُّهم ... تجودُ وأرواحُ العُداة مواهب
كأنَّ رماحَ الخَطِّ أحسابهم، وما ... حَوَتْ من نفوسِ المعتدين مناقب
همُ ما همُ، حَدِّثْ عن البحر أو بني ... مَرِينٍ فنَهْجُ القول أبلجُ لاحبُ
من البيتِ شادتْ قيسُ عيلانَ فخره ... فطالتْ معاليه وطابَتْ مناسب
وأحيا له مُلْكُ الخليفةِ[3] فارسٍ ... مآثرَ غالتها الليالي الذواهب
كريمٌ فلا الحادي النجائب مخفقٌ ... لديه، ولا المُضْنِي الركائِبِ خائبُ
أرى بذله النعمى ففضَّتْ مكاسبٌ ... أرى بأسه الأنضى ففضَّتْ كتائبُ
أنامله يروي الورى صَوْبُ جَوْدِها ... فلولا دوامُ الرأي قلتَ السحائبُ

---

(١) تُخذَى: تُساق. لسان العرب (حذا).

(٢) العتاق: الجياد. الشوازب: جمع شازب وهو الضامر واليابس. لسان العرب (عتق) و (شزب).

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٤٩): «الخليقة» بالقاف.

وكم خِلْتُ برقًا في الدُّجى نورَ بشره | تَشِيمُ سناهُ الناجياتُ النجائب[1]
فأخجلني أني أرى البرقَ خُلَّبًا | فلا الصوبُ هامٍ لا ولا الجودُ ساكبُ
أعرني أميرَ المؤمنين بلاغةً | فإنيَ عن عجزٍ لمدحك هائبُ
وأنطقْ لساني بالبيان معلِّمًا | فإنيَ في التعليم للجود راغبُ
وكيف ترى لي بَعْدُ في الجودِ رغبةً | وجودُك لي فوق الذي أنا طالب
وقد شَبَّتِ الآمال إذ شبتُ ثم إذ | تفقدتها لم يَدْرِ ما شبَّ شائب
بلغتُ بك الآمالَ حتى كأنها | وقد صدَّقَتْ ما شئت صدقًا كواذب
عجبتَ وما تولي، وأوليتَ مُعْجبًا | فلا بَرِحَتْ تنمو لديك العجائبُ
وحسبي دعاءً لو سكتُّ كُفِيتُهُ | كما قِيلَ لكن في الدعاء مذاهب
وما أنا إلاَّ عبدك المخلصُ الذي | يراقبُ في إخلاصه ما يراقبُ
فَخُذْها تبثُّ العذرَ لا المدحَ؛ إنه | هو البحرُ قُلْ هل يجمعُ البحرَ حاسبُ[2]
بقيتَ بقاءَ الدهر ملكُكَ قاهرٌ | وسيبك فيّاضٌ، وسيفُكَ غالبُ
وعُوفيتَ من ضرّ وأُعطيتَ أجره | ولا رَوَّعَتْ إلاَّ عِداكَ النوائبُ

وقال رحمه اللّه تعالى: [الطويل]

ولولا ثلاثٌ جاء جبريلُ سائلاً[3] | لخير الورى عنها لآثرْتُ فقداني
مقاماتُ إسلام أزِيدُ بفعله[4] | ثوابًا وإيمانٌ أُديمَ وإحساني

وقال رحمه اللّه تعالى: أنشدني السلطانُ أميرُ المؤمنين أبو عنان فارس ابن أمير المسلمين أبي الحسن المريني رحمهما اللّه تعالى لنفسه[5]: [الخفيف]

يا ملمًّا بأرضِ تلك البلادِ | حَيِّ فاسًا وحَيِّ أهلَ الودادِ
إن تناءتْ بشخصها عن عياني | فَجِماها مُصَوَّرٌ في فؤادي

---

(١) تشيم: تنظر أين يقع مطره. الناجيات: جمع ناجية وهي السريعة السير. النجائب: جمع نجيبة وهي الكريمة الأصل. لسان العرب (شيم) و (نجا) و (نجب).
(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٥٠): «شاجب».
(٣) في الطبعة نفسها: «سائل».
(٤) في الطبعة نفسها: «أريد لفعله».
(٥) كلمة «لنفسه» ساقطة من طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٥١).

قلت: تذكَّرت بهذا البحر والروي والغرض قولَ الفقيه الكاتب العلامة الناظم الناثر أبي عبد اللَّه محمد بن يوسف الثغري كاتب سلطان تِلمسان أمير المسلمين أبي حَمُّو موسى ابن يوسف الزياني يمدحه ويذكر تلمسان المحروسة: [الخفيف]

أيها الحافظون عهدَ الودادِ ... جدِّدوا أُنسنا بباب الجيادِ[1]

وصِلُوهَا أصائلاً بليالٍ ... كلآلٍ نُظِمْنَ في الأجياد[2]

في رياضٍ مُنَضَّدات المجاني ... بين تلك الرُّبا وتلك الوهاد

وبروجٍ مُشَيَّدات المباني ... باديات السنا كَشُهْبٍ بَوَادِ

رقَّ فيها النسيبُ مثلَ نسيبي ... وصفا النهرُ مثلَ صفو ودادي

وزها الزهرُ والغصونُ تَثَنَّتْ ... وتَغَنَّتْ عليه وُرْقٌ شَوَادِ

وانبرى كلُّ جدولٍ كَحُسامٍ ... عاريَ الغمد سندسيِّ النجاد

وظلالُ الغصون تكتبُ فيه ... أحرفًا سُطِّرَتْ بغير مداد

تُذكر الوشمَ في معاصم خَوْدٍ ... نصبت[3] فوقه ذوات امتداد

وكؤوس المنى تُدَار علينا ... بجنى عفَّةٍ ونَقْلِ اعتقاد

واصفرارُ الأصيل فيها مُدَامٌ ... وصفيرُ الطيورِ نغمةُ شاد

كم غَدَوْنَا بها لأنسٍ ورحنا ... جادها رائحٌ من المزن غاد

ولكم روحةٍ على الدوح كادتْ ... أن تريح الصَّبا لنا وَهْوَ غاد

رَقَّتِ الشمسُ في عشاياه حتى ... أحدثتْ منه رقَّة في الجمادِ

جَدَّدَتْ بالغروبِ شَجْوَ غريبٍ ... هاجه الشوقُ بعد طولِ البعاد

يا حَيَا المزنِ حَيِّهَا من بلادٍ ... غرسَ الحبُّ غرسَها في فؤادي

وتعاهَدْ معاهدَ الأنسِ منها ... وعهودَ الصبا بصَوْب العِهاد[4]

حيث مغنى الهوى، وملهى الغواني ... ومَرَاد المنى، ونيل المراد

ومقرُّ العُلا ومرقى الأماني ... ومجرُّ القنا، ومُجرى الجِياد

---

(١) باب الجياد: هو أحد أبواب تلمسان.

(٢) الأجياد: جمع جيد وهو العنق. لسان العرب (جيد).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٥١): «قضب».

(٤) العِهاد: جمع عهد وهو أول مطر الوسميّ. محيط المحيط (عهد).

كلُّ حُسْنٍ على تلمسانَ وَقْفٌ وخصوصًا على رُبى العبّاد
ضحكَ النُّورُ في رُبَاها وأربى كهفُ ضحّاكها على كلِّ ناد
وسما تاجُها على كلِّ تاج ونما وَهْدُها على كلِّ واد
يدّعي غيرها الجمالَ فيقضي حُسْنُها أنَّ تلك دعوى زياد
وبشعري فهمتُ معنى عُلاها من حلاها فهمتُ في كلِّ وادي
حَضْرَةٌ زانها الخليفةُ موسى زينةَ الحلي عاطلَ الأجياد
وحَبَاها بكلِّ بذلٍ وعدل وحماها من كلِّ باغ وعاد
ملكٌ جاوز المَدَى في المعالي فالنهاياتُ عنده كالمبادي
مَعْقِلٌ للهدى منيعُ النواحي مَظْهرٌ للعُلا رفيع العماد
قاتلُ المحلِ والأعادي جميعًا بغرار الظُّبا وغُرّ الأيادي
كلّما ضنَّت السحائبُ أَغْنَتْ راحتاه عن السحاب الغوادي
كم هباتٍ له وكم صدقاتٍ عائداتٍ على العُفَاة بَوادِ
فأيادي خليفةِ اللّه موسى أبحرٌ عَذْبة على الورّاد
ركّب الجود في بسيط يديه فتلافى به تَلاَفَ العِباد
جَلَّ باريه ملجأً للبرايا كالحَيَا ضامنًا حياة البلاد
جَلَّ مَنْ خَصَّه بتلك المزايا باهراتٍ من طارفٍ وتلادِ
شِيَمٌ حلوةُ الجنى وسَجَايا شهدَ المجدُ أنها كالشُّهاد[1]
يا إمام الهدى وشمسَ المعالي وغمامَ الندى ويَدْرَ النادي
لكَ بين الملوك سِرٌّ خفيٌّ ليس مَعْناه للعقولِ بباد
فكأنَّ البلادَ كَفُّكَ مهما كان فيها من ينتمي لعناد
قبضتْ كَفُّك البنانَ عليه فأتى بالإذعان جِلْفَ انقياد
بكُمُ تصلحُ البلادُ جميعًا إنَّ آراءكم صلاحُ البلاد
لم تزلْ دائمًا تحنُّ إليكم كحنينِ السقيم للعُوّادِ
لو أُعِينَتْ بمنطقٍ شكرتكم مثلَ شكرِ العفاةِ للأجواد
قد أطاعتكم البلادُ جميعًا طاعةً أرغمت أنوفَ الأعادي

---

(١) الشُّهاد: العسل. لسان العرب (شهد).

فأريحوا الجيادَ أتعَبْتُموها وأقِرُّوا السيوفَ في الأغماد
واهنأوا خالدين في عزّ ملكٍ قائمِ السعدِ دائمِ الإسعاد
وإليكم من مُذهبات القوافي حِكَمًا سَهَّلت ليانَ المقاد
كلّ بيتٍ من النظامِ مشيدٍ عطّر الأفق بالثناء المجاد
ذو ابتسام كزهر روض مَجُودٍ وانتظامٍ كسلكِ دُرّ مجاد

ولأبي المكارم منديل ابن الإمام الشهير صاحب «المقدمة الآجرومية» قصيدة في المنحى وافقت قصيدة الثغري في البحر وبعض المطلع، فلا ندري أيهما نسج على منوال الآخر؛ إذ هما متعاصران، إلاَّ أنَّ ذاك قالها في تلمسان، وهذا في مدينة فاس، وهي: [الخفيف]

أيها العارفون قَدْرَ الصَّبوحِ جَدِّدوا أُنْسَنا ببابِ الفتوحِ

يعني بباب الفتوح أَحَدَ أبواب فاس، كما أنّ باب الجياد في كلام الثغري أحد أبواب تلمسان.

ثم قال ابن آجروم بعد المطلع:

جدِّدوا ثَمَّ أُنسَنا ثُمَّ جدّوا يَسْرَح الطرفُ في مجالٍ فَسيحِ
حيثُ شابتْ مفارقُ اللوز نَوْرًا وتساقطن كاللُّجَين الصريحِ
وبَدَا منه كلّما أحمرَّ يحكي شفقًا مَزَّقَتْهُ أيدي الريح
وكأنَّ الذي تساقطَ منه نُقَطٌ لُحْنَ من دمٍ مسفوح
وإذا ما وصلتُمُ للمصلّى فلتحلّوا بموضع التسبيح
وبطيفورها[1] فطوفوا لكيما تبصروا من ذَرَاه كل سطوح
ولتقيموا هناك لمحةَ طرف لتردُّوا به ذَماء[2] الروح
ثم حطّوا رحالكم فوقَ نهرٍ كَلَّ في وصفه لسانُ المديح
فوقَ حافاتِهِ حدائقُ خُضرٌ ليس عنها لعاشقٍ من نزوح
وكأنَّ الطيورَ فيها قِيَانٌ هَتَفَتْ بين أعجمٍ وفصيح

---

(١) الطيفور: طائر صغير. محيط المحيط (طفر).
(٢) الذَّماء: بقية الروح. لسان العرب (ذما).

وهي تدعوكم إلى قبّة الجوْ ... زِ هَلُمُّوا إلى مكان مليح
فيه ما تَشْتَهُون مِنْ كلِّ لونٍ ... مغلقٍ في الكِمام أو مفتوح
وغصونٍ تهيجُ رقصًا إذا ما ... سمعت صوتَ كلِّ طيرٍ صَدُوح
فأجيبوا دعاءها أيّها السر ... بُ وخَلُّوا مقالَ كلِّ نصيح
واجنحوا للمجون فهو جديرٌ ... وخليقٌ من مثلكم بالجنوح
واخلعوا ثُمَّ للتصابي عِذارًا ... إنَّ خَلْعَ العِذارِ غيرُ قبيح
وإذا شئتمُ مكانًا سواه ... هو أجلى من ذلكم في الوضوحِ
فاجمعوا أمركم لنحو خليجٍ ... جاء كالصِّلِّ[1] من قفار فسيحِ
عطرت جانبيه كفُّ الغوادي ... بِشَذًا عَرْفِ زهرها الممنوح
قُلْ لمهيارَ إن شممت شذاها ... قول مستخبرٍ أخي تجريح
أين هذا الشَّذَا الذكيّ من القيـ ... ـصوم والرند والغضا والشِّيح[2]
حبّذا ذلك المهادُ مهادًا ... بين دانٍ من الرُّبا ونَزُوحِ
ثم من ذلك المهاد أفيضوا ... نحو هَضْبٍ من الهموم مريح
فيه للحسن دَوْحةٌ وروايا ... وانشراحٌ لذي فؤادٍ قريح
وحجارٌ تدعى حجارَ طبولٍ ... غيرَ أنَّ التطبيل غيرُ صحيح
تنثرُ الشمس ثَمَّ كلَّ غدوٍّ[3] ... زعفرانًا مبلّلاً بنضوح
وسوى مَنْ هناك يسبي عقولاً ... ويجلّي لحاظَ طرفٍ طموح
وعيون بها تقرُّ عيونٌ ... وكلاها يأسو كلومَ الجريح
فرشت فوقها طَنَافسُ زهرٍ ... ليس كالعِهْنِ[4] نسجُها والمسوحِ
كلّما مَرَّ فوقهنَّ طَليحٌ ... عاد من حسنهنَّ غيرَ طليح
فانهضوا أيها المحبُّون مثلي ... لنرى ذات حُسْنِها الملموح
هكذا يربحُ الزمان وإلاَّ ... كلّ عيش سواه غيرُ ربيح

---

(١) الصِّلُّ: الثعبان. لسان العرب (صلل).

(٢) القيصوم والشيح: من نبات البادية. لسان العرب (قيصم) و (شيح).

(٣) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٥٥): «غدير».

(٤) العِهْن: الصوف، أو المصبوغ ألوانًا، والجمع عُهُون. محيط المحيط (عهن).

وما أحسن قول الكاتب الثغري يمدح تلمسان وسلطانها[1] المذكور آنفًا: [الكامل]

تاهتْ تلمسانُ بحسنِ شبابها ... وبَدَا طرازُ الحسن في[2] جلبابِها
فالبِشرُ يبدو من حبابِ ثغورها ... متبسّمًا أو من ثغورِ حبابها
قد قابلتْ زُهْرَ النجوم بزهرها ... وبروجَها ببروجها وقبابها
حسنت بحسن مليكها المولى أبي ... حمو الذي يحمي حمى أربابها
ملكٌ شمائلُه[3] كزهر رياضِها ... ونَدَاه فاض بها كفيضِ عُبَابها
أعلى الملوك الصِّيد من أعلامها ... وأجلّها من صفوها ولُبَابها
غارتْ بغرّة وجهه شمسُ الضحى ... وتنقّبت خجلاً بثوب ضبابها
والبدرُ حين بَدَتْ أشعّتُها له ... حسنًا تضاءل نورُهُ وخَبَابها
للّه حضرتُه التي قد شرّفَتْ ... خُدّامها فسَمَوْا بخدمة بابها
فاللثم في يُمْناه يُبلغها المُنى ... والمدحُ في علياه من أسبابها

وللثغري المذكور قصيدة لامية بديعة في مدح السلطان أبي حمّو، ووصف بلاد تلمسان، وأجاد فيها إلى الغاية، وهي[4]: [الكامل]

قُمْ مُبْصِرًا[5] زمنَ الربيعِ المقبلِ ... تَرَ ما يسرُّ المُجْتني والمُجْتلي
وانشَقْ نسيمَ الروضِ مطلولاً وما ... أهداك من عَرْفٍ وعُرْفٍ فاقبل
وانظرْ إلى زهرِ الرياضِ كأنه ... دُرُّ[6] على لبّات ربّات الحلي
في دولةٍ فاضتْ يداها بالندى ... وقَضَتْ بكلِّ مُنًى لكلِّ مؤمل
بَسَطَتْ بأرجاءِ البسيطةِ عدلها ... وسَطَتْ بكلِّ معانِدٍ لم يعدل
سلطانها المولى أبو حمو الرضا ... ذو المنصبِ السامي الرفيع المعتلي
تاهَتْ تلمسانُ بدولته على ... كلِّ البلاد بحسنِ منظرها الجلي
راقَتْ محاسنُها ورَقَّ نسيمُها ... فحلا بها شعري وطاب تغزّلي

---

(١) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٢٥): «والسلطان».
(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٥٥): «من».
(٣) الشمائل: جمع شمال وهو الطبع والسجيّة. لسان العرب (شمل).
(٤) القصيدة في بغية الرواد (جـ ١ ص ١٣).
(٥) في بغية الرواد: «قُمْ نَجْتَلِ».
(٦) في المصدر نفسه: «درر».

عرّج بمنعرجات بابِ جيادِها وافتحْ بها بابَ الرجاء المُقْفَلِ
ولتغدُ للعبّاد منها غدوةً تصبحْ همومُ النفسِ عنك بمعزل
وضريحُ تاجِ العارفين شُعَيْبِها زُرْهُ هناك فحبّذا ذاك الولي
فمزارُه للدين والدُّنيا معًا تُمْحَى ذنوبك أو كروبك تنجلي
وبكهفها الضحّاك قِفْ متنزّهًا تسرحْ نفوسك[1] في الجمال الأجمل
وتمشَّ في جناتها ورياضِها واجْنَحْ إلى ذاكَ الجناحِ المخضل[2]
تسليك في دَوْحاتها وتِلاعها[3] نَغَمُ البلابل واطِّرادُ الجدول
وبربوة العشّاقِ سلوةُ عاشقٍ فتنت وألحاظ الغزال الأكحل
بنواسمٍ وبواسم من زهرها تهديك أنفاسًا كعَرْفِ المندل[4]
فلو امرؤ القيس بن حجر راءها قدمًا تسلَّى عن معاهدِ مأسل
لو حامَ حولَ فِنائها وظبائها ما كان محتفلاً بحومة حومل
فاذكرْ لها كلفي بسقطِ لوائها فهواي عنها الدهرَ ليس بِمُنْسَلِ
كم جاد لي فيها الزمانُ بمطلبٍ جادتْهُ أخلاقُ الغمام المُسبل
واعمدْ إلى الصفصيف يومًا ثانيًا وبه تسلَّ وعنه دأبًا فاسأل
وادٍ تراه من الأزاهر خاليًا أحْسِنْ به عُطُلاً وغيرَ معطل
ينسابُ كالأيم انسيابًا دائمًا أو كالحُسام جلاه كَفُّ الصَّيْقَل
فزلاله في كلّ قلبٍ قد حلا وجمالُهُ في كلِّ عين قد جُلي[5]
واقصدْ بيوم ثالث فوّارةً ويعذب منهلها المبارك فانهل
تجري على درّ لُجَيْنًا سائلاً أحلى وأعذبَ من رحيق سلسل
واشرف على الشَّرَفِ الذي بإزائها لترى تلمسانَ العليّة مِنْ عَلِ
تاجٌ عليه من المحاسن بهجةٌ أحْسِنْ بتاج بالبهاء مكلَّل
وإذا العشيّةُ شمسُها مالت فملْ نحو المصلَّى ميلَةَ المتمهّل

---

(١) في بغية الرواد: «جفونك».
(٢) المخضل: المبتلّ. لسان العرب (خضل).
(٣) التلاع: جمع تلعة وهي ما علا من الأرض. لسان العرب (تلع).
(٤) المندل: من عود الطيب. لسان العرب (ندل).
(٥) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٥٧): «حلي» بالحاء المهملة.

ويملعب الخيلِ الفسيحِ مجالُهُ ... أجلِ النواظرَ في العتاق الحفَّلِ

فَلِحَلْبَةِ الأشرافِ كلَّ عشية ... لعبٌ بذاك الملعب المتسهّل

فترى المجلّي والمصلّي خلفه ... وكلاهما في جَرْيه لا يأتلي[1]

هذا يكرّ وذا يفرّ فينثني ... عطفًا على الثاني عنانَ الأول

من كلِّ طِرْف كلَّ طَرْف يستبي ... قَيدِ النواظرِ فتنةِ المتأمّل

وَرْدٌ كأنَّ أديمَهُ شَفَقُ الدُّجى ... أو أشهبٌ كشهابِ رجم مرسل

أو من كُمَيْتٍ لا نظيرَ لحسنه ... سامٍ معمّ في السوابق مُخْول

أو أحمرٍ قاني الأديمِ كعسجدٍ ... أو أشقرٍ يزهو بعرفٍ أشعل

أو أدهمٍ كالليلِ إلاّ غُرَّةً ... كالصبح، بورك من أغرّ محجّل

جمع المحاسنَ في بديع شِياته ... مهما ترقَّ العينُ فيه تسهل

عقبانُ خيلٍ فوقها فرسانُها ... كالأسْد تنقضُّ انقضاضَ الأجدل

فرسانُ عبد الوادِ آسادُ الوغى ... حامو الذمار أُولو الفخارِ الأطول

فإذا دنتْ شمسُ الأصيلِ لغربها ... فإلى تلمسانَ الأصيلةِ فادخل

من بابِ ملعبها لبابِ حديدها ... متنزّهًا في كلّ نادٍ أحفل

وتأنَّ من بعدِ الدخولِ هنيهةً ... واعدلْ إلى قصر الإمام الأعدل

فهو المؤمَّلُ والديارُ كنايةٌ ... والسِّرُّ في السكان لا في المنزل

فإذا أميرُ المؤمنين رَأيتَهُ ... فالثَمْ ثرى ذاك البساط وقَبِّلِ

فالمجدُ[2] لفظٌ في الحقيقة مُجْمَلٌ ... وحُلاَه تفصيلٌ لذاك المجمَل

بشرى لعبدِ الواد بالملك الذي ... خلصوا به من كلِّ خطب معضل

بأعزّهم جارًا، وأمنعهم حِمًى ... وأجلّهم مولى، وأعظم موئل

بالعادل المستنصر المنصور والـ ... ـمأمون والمهديِّ والمتوكّل

وكفاهمُ سعدًا أبو حمو الذي ... يحمي حماهم بالحسام الفيصل

وبحسن نيّته لهم وبجدّه ... وبسعده وبسعيه المتقبَّلِ

---

(١) المجلِّي: أول خيل الحلبة في السباق. المصلي: اسم الفرس الثاني في السباق. لا يأتلي: لا يقصّر. لسان العرب (جلى) و (صلى) و (ألى).

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٥٨): «فالحمد».

ذو الهمّة العليا التي آثارها حَلَّتْ به فوق السِّماك الأعزل[1]
بحر الندى الأحْلى وفخر المنتدى وسَنَا الدُّجى الأجلى وزينُ المحفل
ينهلُّ منه لنا الجدا وبه الدُّجى تُجلى بمُشْرِقِ وَجْهِهِ المتهلِّل
هنىء به زمنَ الربيع وقُلْ له بشرى بأملحَ مِنْ حُلاكَ وأجْمل
وعلى علاه من صنيعةِ فضلِهِ ترْدادُ نافحةٍ[2] السلام الأكمل

وكأنه عارض بهذه القصيدة قطعة في بحرها ورويّها في مدح مدينة فاس لبعض العلماء، وأظنّه القاضي المزدغي، وهي: [الكامل]

يا فاسُ، حيّا اللّهُ أرضَكِ من ثرًى وسقاكِ من صَوْب الغمام المُسْبِلِ
يا جَنَّةَ الدنيا التي أرْبَتْ على حمصٍ بمنظرها البهيِّ الأجْمل
غرفٌ على غرفٍ ويجري تحتها ماءٌ ألذُّ من الرحيقِ السلسل
وبَساتِنٌ من سندس قد زُخْرِفَتْ بجداولٍ كالأيم أو كالفيصل
وبجامع القَرَوِينَ شُرِّفَ ذِكْرُهُ أُنس بذكراه يهيج تململي
وبصَحْنه زمنَ المصيف عجائبٌ فمع العشيِّ الغرب فيه استقبل
واشربْ بتلك البيلة[3] الحسنا به واكرعْ بها عني فديْتُك وانهلِ

وقد تمثّل لسان الدين رحمه اللّه تعالى في مدينة فاس بقول القائل[4]: [الكامل]

بَلَدٌ أعارَتْهُ الحمَامَةُ طَوْقَها وكَسَاهُ رِيْشَ جناحِهِ الطاوُوسُ
فكأنّما الأنهارُ فيه مُدَامَةٌ وكأنَّ ساحاتِ الديارِ كؤوسُ

---

(١) السِّماك: كوكب نيِّر، وهما سماكان؛ يقال لأحدهما السماك الأعزل، وللآخر السماك الرامح. لسان العرب (سمك).
(٢) النافحة: ذات الريح الطيب. لسان العرب (نفح).
(٣) البيلة: حوض النافورة، وهي بالإسبانية Pila.
(٤) البيتان في مشاهدات لسان الدين (ص ١١١) وقد تقدّما في هذا الجزء وفي الجزء الأول وأشرنا هناك إلى أن قائلهما هو ابن اللبانة، قالهما في وصف ميورقة.

وما أحسن قوله - أعني لسان الدين - في مدح تلمسان[1]: [الكامل]

حَيًّا تِلمسانَ الحَيَا فربوعُهَا ... صَدَفٌ يجودُ بدرِّه[2] المكنونِ
ما شئتَ مِنْ فضلٍ عميمٍ إن سَقَى ... أرْوَى ومَنٌّ ليس بالممنونِ
أو شئتَ من دِيْن إذا قدح الهدى ... أورى ودُنْيا لم تكن بالدون
وَرَدَ النسيمُ لها بنشرِ حديقةٍ ... قد أزْهَرَتْ أفنانُها بفنون
وإذا حبيبةُ أمُّ يحيىٰ أنجَبَتْ ... فلها الشفوفُ على عيون العِينِ

يعني بحبيبة أم يحيىٰ عَيْنَ ماء بتلمسان من أعذب المياه وأخفّها، وكانت جارية بالقصور السلطانية، ولم تزل إلى الآن منها بقية آثار ورسوم، والبقاء للّٰه تعالى وحده.

ومِمَّنْ مدح تلمسان الحاجُ الطبيبُ أبو عبد اللّٰه محمد بن أبي جمعة الشهير بالتلالسي[3] رحمه اللّٰه تعالى، إذ قال[4]: [الطويل]

سقى اللّٰهُ مِنْ صَوبِ الحَيَا هاطِلاً وَبْلاً ... ربوعَ تِلمسانَ التي قَدْرُها استعلى
ربوعٌ بها كان الشبابُ مُصَاحبي ... جررتُ إلى اللّذّات في دارها الذيلا
فكم نلتُ فيها من أمانٍ قصيّةٍ ... وكم مَنَحَ الدهرُ الضنينُ[5] بها النيلا
وكم غازلتني الغِيدُ فيها تلاعبًا ... وكل عذولٍ لا أُطيعُ له قولا
وكم ليلةٍ بِتْنا على رغمِ حاسدٍ ... نديرُ كؤوسَ الوصلِ إذ بالصفا تُمْلاَ
وكم ليلةٍ بِتْنا بصفصيفها الذي ... تسامى على الأنهار إذ عدم المثلا
وكديةُ عشّاقٍ لها الحسْنُ ينتهي ... يعودُ المسنُّ الشيخ من حسنها طفلا
نَعَمْ، وغديرُ الجوزةِ السالبُ الحِجَا ... نعمتُ بها طفلاً وهمتُ بها كهلا
ومنه ومِنْ عينِ أمّ يحيىٰ شرابنا ... لأنهما في الطيب كالنيل بل أحْلَى
وعبّادها ما القلبُ ناسٍ ذِمامه ... به روضةٌ للخير قد جُعِلَتْ جِلاً
به شيخُنا المذكورُ في الأرض ذكره ... أبو مدينٍ أهلاً به دائمًا أهلا

---

(١) الأبيات في أزهار الرياض (جـ ١ ص ٧) وقد تقدمت في هذا الجزء.

(٢) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٥٩): «بدرّها».

(٣) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٦٠): «بالتلاليسي».

(٤) القصيدة في بغية الرواد (جـ ١ ص ١٧).

(٥) في بغية الرواد: «المنيف».

لها بهجةٌ تزري على كلِّ بلدةٍ ... بتاجٍ عليها كالعروس إذا تُجْلَى
فيا جَنَّةَ الدنيا التي راقَ حُسْنُها ... فحازتْ على كلِّ البلاد به الفضلا
ولا عجبٌ أن كنت في الحسن هكذا ... وموسى الإمام المرتضى فيكِ قد حَلاَّ
ولاحَتْ لدينا فيكِ منه محاسنٌ ... كأنَّ سناها حاجبُ الشمس إذ جلَّى
مطاعٌ شجاعٌ في الوغى ذو مهابةٍ ... حسامٌ على الباغين في الأرض قد سُلاَّ
كريمٌ حليمٌ حاتميٌّ نوالُهُ ... سعيدٌ حميدٌ يصدقُ القولَ والفعلا
له راحةٌ كالغيث ينهلُّ وَدْقُها[1] ... وصارمُ نصرٍ مرهفُ الحَدِّ لا فُلاَّ
هو الملكُ الأرقى هو الملكُ الرضا ... هو الملكُ الأسنى هو الملك الأعلى
ومَنْ هذه الأوصافُ فيه تَجَمَّعَتْ ... حقيقًا على كلِّ المعالي قد استولى
إمامٌ حَبَاه اللَّه ملكًا مؤزَّرًا ... فلا ملكُ إلاَّ لعزّته ذلاَّ
مِنَ الزابِ وافانا عزيزًا مظفَّرًا ... يجرُّ من النصرِ المَنُوطِ به ذيلا
بَدَتْ لمليك[2] الغرب شدّةُ بأسِهِ ... وإنعامِهِ للمعتفين وما أولى
فَبَادَرَهُ بالصلح خوف فواتِهِ ... وسالَمَهُ إذ كان ذاك به أولى
فكان بحمدِ اللَّه صلحًا مُهَنَّأً ... به طابتِ الدنيا وجزْنا به السُّبلا
له في المعالي رتبةٌ لا ينالُها ... سواه وكُتْبٌ في فضائله تُتْلى
لِطاعته كلُّ الأنامِ تبادَرَتْ ... فيا سعدَ مَنْ وافى ويا ويحَ مَنْ وَلَّى
أَحُسَّادَهُ موتوا فإنَّ قلوبَكُم ... بجمر الغضا مِمّا بِها أبدًا تصلى[3]
لقد جَبَرَ اللَّهُ البلادَ بِمُلْكِهِ ... به مُلِئَتْ أمنًا، به مُلِئَتْ عَدْلا
فلا زالَ هذا الملكُ فيه مخلَّدًا ... وصارمه الأمضى وخادمه الأعلى

ومِمَّا مُدحت به تلمسان قولُ الإمام الصوفي أبي عبد اللَّه محمد بن خميس الذي قدمنا ذكره في هذا الكتاب وبعض ما يتعلّق به، وذكرنا أيضًا فيما مَرَّ بعض أمداحه لها[4]:
[الطويل]

---

(١) الوَدْقُ: المطر. محيط المحيط (ودق).
(٢) في طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٣١): «لليك».
(٣) تصلى: تحرق. قال اللَّه تعالى: ﴿تَصْلَى نارًا حامِيةً﴾. سورة الغاشية ٨٨، الآية ٤.
(٤) القصيدة في بغية الرواد (جـ ١ ص ١١).

تِلِمْسانُ جادَتْكِ السّحابُ الروائحُ[١] وأرْسَتْ بِوَادِيكِ الرياحُ اللواقحُ[٢]

وسَحَّ على ساحاتِ بابِ جيادها مُلِثٌّ يصافي تربَها ويصافحُ

يطيرُ فؤادي كلّما لاحَ لامعٌ وينهلُّ دمعي كلّما ناحَ صادح

ففي كلّ شفرٍ من جفونيَ مائحٌ وفي كلّ شطرٍ من فؤاديَ قادح

فما الماء إلاّ ما تسحُّ مدامعي ولا النار إلاّ ما تُجِنُّ[٣] الجوانحُ

خليليَّ، لا طيفٌ لعلوةَ طارقٌ بليلٍ ولا وَجْهٌ لصبحيَ لائح

نظرتُ فلا ضوءٌ من الصبح ظاهرٌ لعيني ولا نجمٌ إلى الغرب جانِح

بحقّكما كُفّا الملامَ وسامحا فما الخِلُّ كلُّ الخلِّ إلاّ المسامح

ولا تعذلاني واعذراني فقلّما يردُّ عناني عن عُلَيَّةَ ناصح

كتمتُ هواها ثم بَرَّحَ بي الأسى وكيف أُطيقُ الكتمَ والدمعُ فاضح

لساقيةِ الروميّ عندي مزيّةٌ وإن رغمتْ تلك الرواسي الرواشح

فكم لي عليها من غدوّ وروحةٍ تُساعدني فيها المُنَى والمنائح

فطرفٌ على تلك البساتين سارحٌ وطرفٌ إلى تلك الميادين جامح

تَحَارُ بها الأذهانُ وهي ثواقبٌ وتهفو بها الأحلامُ وهي بوارح

ظباءُ مغانيها عَوَاطٍ عواطفٌ وطيرُ مجانيها شوادٍ صوادح

تقتّلُهم فيها عيونٌ نواظرٌ وتبكيهُمُ منهمْ عيونٌ نواضح

على قريةِ العبّاد منّي تحيّةٌ كما فاحَ مِنْ مِسْكِ اللطيمة فائح

وجادَ ثَرَى تاجِ المعارفِ ديمةٌ تَغُصُّ بها تلك الرُّبا والأباطح

إليك شعيب بن الحسين قلوبُنا نوازعُ لكنّ الجسومَ نوازحُ

سعيتَ فما قَصَّرْتَ عن نيل غاية[٤] فَسَعْيُكَ مشكورٌ وتجرُكَ رابحُ

نسيتُ وما أنسى الوريطَ ووَقْفَةً أنافحُ فيها روضَةُ وأفاوحُ

مطلاًّ على ذاك الغديرِ وقد بَدَتْ لإنسان عيني مِنْ صَفاهُ صفائح

---

(١) في بغية الرواد: «الدوالح».

(٢) اللواقح: جمع لاقحة، والمراد أنّ الرماح تحمل لقاح النبات. قال الله تعالى: ﴿وأرْسَلْنا الرياح لواقِحَ﴾. سورة الحجر ١٥، الآية ٢٢ ولسان العرب (لقح).

(٣) تُجِنّ: تخفي وتكتم. لسان العرب (جنن).

(٤) في بغية الرواد: «رغبة».

أماؤك أم دمعي عشيةَ صَدَّقت ... عليَّةُ فينا ما يقولُ المُكاشح
لئن كنتَ ملآنًا بدمعيَ طافحًا ... فإنيَ سكرانٌ بحبِّكَ طافحُ
وإن كان مُهري في تلاعك سائحًا ... فذاك غزالي في عُبابك سابح
قراح أتى ينصبُّ من رأس شاهق ... بمثلِ حلاه تستحثُّ القرائح
أرقّ من الشوق الذي أنا كاتمٌ ... وأصفى من الدمع الذي أنا سافح
أما وهَوَى من لا أسمِّيه إنني ... لعرضي كما قال النصيحُ لناصح
أبعد صيامي واعتكافي وخلوتي ... يقال فلانٌ ضَيِّقُ الصدر بائح
لبعتُ رشادي فيه بالغيِّ ضلّةً ... وكم صالحٍ مثلي غَدا وهو طالح
وأيُّ مقامٍ ليس لي فيه حاسدٌ ... وأيُّ مقالٍ ليس فيه مادح
ألاَ قُلْ لفرسانِ البلاغةِ أسرجوا ... فقد جاءكم منِّي المكافي المكافح
أيخمل ذكري عندهم وهو نابهٌ ... ويُغْمَطُ شجوي عندهم وهو شائح
بُدُورٌ إذا جنَّ الظلامُ كواملٌ ... وأُسدٌ إذا لاحَ الصباحُ كوالح
تركتكَ سوق البزّ لا عن تهاونٍ ... وكيف وظبيٌ سانحٌ فيك بارح
وإني وقلبي في ولائكَ طامعٌ ... وناظرُ وَهْمي في سماطكَ طامح
أيا أهلَ ودّي والعشيرُ مؤمّنٌ ... أتقضى ديوني أم غريميَ فالح
وهل ذلك الظبيُ النصاحيُ للذي ... يقطّع من قلبي بعينيه ناصحُ
كنيتُ بها عنه حياءً وحشمةً ... ووَجْهُ اعتذاري في القضيّةِ واضحُ

وتلمسان هذه هي مدينتنا التي عُلِّقت بها التمائم، وقد نزلها من سلفنا عبد الرحمن بن أبي بكر المقَّري بن علي صاحب الشيخ أبي مدين، الذي دعا له ولذرّيّته بما ظهر فيهم قبوله وتبين، وهو الأب الخامس كما سبق في ترجمة أخبارهم، وهي من أحسن مدائن المغرب ماءً وهواءً حسبما قال ابن مرزوق: [الكامل]

يكفيك منها ماؤها وهواؤها

وقال الكاتب أبو زكريا يحيىٰ بن خلدون في كتابه «بغية الرواد، في أخبار بني عبد الواد، وأيام أبي حمّو الشامخة الأطواد» بعد كلام في شأن البربر، ما صورته[1]: ودار

---

(١) بغية الرواد (جـ ١ ص ١٩).

ملكهم وسط بين الصحراء والتلّ تسمى بلغة البربر تلمسن، كلمة مركبة من «تلم» ومعناه تجمع، و «سن» ومعناه اثنان: أي الصحراء والتلّ فيما ذكره شيخنا العلاّمة أبو عبد الله الأبلي، رحمه الله تعالى! وكان حافظًا بلسان القوم، ويقال «تلمشان» وهو أيضًا مركب من «تلم»[1] ومعناه لها، و «شان» أي لها شأن، وهي مدينة عريقة في التمدّن، لَذيذة[2] الهواء، عذبة الماء، كريمة المنبت، اقتعدت بسفح جبل، ودُوَيْنَ[3] رأسه بسيط[4] أطول من شرق إلى غرب، عروسًا فوق منصّة، والشماريخ مشرفة عليها إشراف التاج على الجبين، ويطلّ منها[5] على فحص أفْيَحَ معدّ للفلاحة تشقّ ظهوره الأسلحة عن مثل أسنمة المهارى[6]، وتبقر في بطونه عند تدميث الغمائم بطون العذارى[7]، وبها للملك قصور زاهرات اشتملت على المصانع الفائقة، والصروح الشاهقة، والبساتين الرائقة، مِمّا زخرفت عروشه، ونمقت غروسه، ونوسبت أطواله وعروضه، فأزرى بالخورنق، وأخجل الرصافة، وعبث بالسَّدير. وتنصبُّ إليها من عَل أنهار من ماء غير آسن، تتجاذبه أيدي المذانب[8] والأسراب المكفورة[9] خلالها، ثم ترسله بالمساجد والمدارس والسقايات بالقصور وعلية الدور والحمامات، فيفعم الصهاريج، ويفهق الحياض، ويسقي ريعهُ[10] خارجها مغارس الشجر ومنابت الحَبّ، فهي التي سحرت الألباب رُوَاء، وأصبت النُّهَى جمالاً[11]، ووجد المادحون فيها المقال فأطالوا وأطابوا، إلى أن قال: فأنا أُنشد ساكنها قول ابن خفاجة

---

(١) في بغية الرواد «تل».

(٢) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٦٤): «لَدْنة».

(٣) في بغية الرواد: «ودون».

(٤) البسيط: الأرض المنبسطة الممتدّة. لسان العرب (بسط).

(٥) في بغية الرواد: «تطلّ منه».

(٦) المهارَى: جمع المَهْرِيّة وهي الإبل المنسوبة إلى مَهْرَة بن حَيْدان وهو حيّ من قضاعة من عرب اليمن. محيط المحيط (مهر).

(٧) في طبعة عبد الحميد (ج ٩ ص ٣٦٤): «عن مثل بطون العذارى». وفي بغية الرواد: «العدارى». والعذارى: الأراضي التي لم توطأ. لسان العرب (وطأ).

(٨) المذانب: جمع مذنب وهو مسيل الماء إلى الأرض. لسان العرب (ذنب).

(٩) المكفورة: المستورة. لسان العرب (كفر).

(١٠) في بغية الرواد: «ويسقي بساتينها».

(١١) كلمة «جمالاً» ساقطة من بغية الرواد.

لاستحقاقها إيّاه عندي[1]: [البسيط]

ما جَنَّةُ الخُلْدِ إلاَّ في منازلِكُمْ وهذه كنتُ لو خُيِّرْتُ أختارُ[2]
لا تَتَّقُوا بعدها أن تدخلوا سَقَرًا[3] فليس تُدْخَلُ بعد الجَنَّةِ النارُ

وتوسّطت قطرًا ذا كُوَرٍ عديدة تعمرها أمشاج البربر والعرب مَرِيعة الجنبات، منجبة للحيوان والنبات، كريمة الفلاحة، زاكية الإصابة، فربما انتهت في الروح الواحد منها إلى أربعمائة مدّ كبير، ثم أطال في ذلك ابن خلدون المذكور بما يوقف عليه في الكتاب المذكور.

ومِمّا يُنْسَبُ للسان الدين ابن الخطيب رحمه الله تعالى في وصفها ما صورتُه: تلمسان مدينة جمعت بين الصحراء والريف، ووضعت في موضع شريف، كأنها ملك على رأسه تاجُه، وحواليه من الدوحات حَشَمُه وأعلاجُه، عبّادها يدها وكهفُها كفُّها، وزينتُها زيانُها، وعينها أعيانُها، هواها المقصور بها فريد، وهواؤها الممدود صحيح عتيد، وماؤها بَرُودٌ صَريد، حجبتها أيدي القدرة عن الجنوب، فلا نُحُولَ فيها ولا شحوب، خزانةُ زرع، ومسرح ضَرْع، فواكهها عديدة الأنواع، ومتاجرُها فريدة الانتفاع، وبرانسُها رقاق رفاع، إلاَّ أنها بسبب حبّ الملوك، مطمعة للملوك، ومن أجل جمعها الصَّيْدَ في جوف الفرا، مغلوبة للأمرا، أهلها ليست عندهم الراحة، إلاَّ فيما قبضت عليه الراحة، ولا فلاحة، إلاَّ لمن أقام رسم الفلاحة، ليس بها لسع العقارب، إلاَّ فيما بين الأقارب، ولا شطارة، إلاَّ فيمن ارتكب الخطارة؛ انتهى.

وقد كنت بالمغرب نويتُ أن أجمع في شأنها كتابًا ممتعًا أسمّيه بـ «أنواء نيسان، في أنباء تلمسان» وكتبت بعضه، ثم حالت بيني وبين ذلك العزم الأقدار، وارتحلتُ منها إلى حضرة فاس حيث ملك الأشراف ممتدُّ الرّواق، فشغلت بأمور الإمامة والفتوى والخطابة وغيرها، ثم ارتحلت بنيّة الحجاز، وجعلت إلى الحقيقة المجاز، وها أنا ذا إلى الآن في

---

(١) ديوان ابن خفاجة (ص ١١٧).

(٢) في الديوان:
«.... إلا في ديـــاركُـــمُ ولو تخيّرتُ هذا كنت أختارُ»

(٣) في الديوان: «لا تختشوا بعد ذا أن تدخلوا..».

البلاد المصرية، وفي علم اللّه تعالى ما لا نعلم، والتسليم لأحكام الأقدار أسلم، واللّه تعالى يختم لنا بالحسنى بجاه نبيّه ومصطفاه ﷺ.

وبها ولدتُ أنا وأبي وجدّي وجدّ جدّي، وقرأتُ بها ونشأتُ إلى أن ارتحلتُ عنها في زمن الشبيبة إلى مدينة فاس سنة تسع وألف، ثم رجعت إليها آخر[1] عام عشرة وألف، ثم عاودت الرجوع إلى فاس سنة ثلاث عشرة وألف، إلى أن ارتحلت عنها للمشرق أواخر رمضان سنة سبع وعشرين وألف، ودخلت مصر برجب من عام ثمانية وعشرين وألف، والشام بشعبان عام سبعة وثلاثين وألف، وأُبْتُ منها إلى مصر أواخر شوّال من العام، وشرعت في هذا المؤلّف بالقعدة من العام.

وقد تخرّج بتلمسان من العلماء والصلحاء ما لا ينضبط، ويكفيها افتخارًا دَفْنُ وليّ اللّه سيدي أبي مدين بها، وهو شعيب بن الحسين الأندلسي، شيخ المشايخ، وسيّد العارفين، وقدوة السالكين؛ قال الشيخ أبو عبد اللّه محمد ابن التلمساني في كتابه «النجم الثاقب، فيما لأولياء اللّه تعالى من المناقب»[2]: كان الشيخ سيدي أبو مدين فردًا من أفراد الرجال، وصدرًا من صدور الأولياء الأبدال، جَمَعَ اللّه له علم الشريعة والحقيقة، وأقامه ركن الوجود هاديًا وداعيًا للحقّ، فقصد بالزيارة من جميع الأقطار، واشتهر بشيخ المشايخ، وذكر التادلي وغيره أنه خرج على يده ألف شيخ من الأولياء أُولي الكرامات، وقال أبو الصبر كبير مشايخ وقته: كان أبو مدين زاهدًا فاضلاً عارفًا باللّه تعالى، خاض بحار الأحوال، ونال أسرار المعارف، خصوصًا مقام التوكّل، لا يُشَق غبَاره، ولا تُجهل آثاره، قال التادلي: كان مبسوطًا بالعلم، مقبوضًا بالمراقبة، كثير الالتفات بقلبه إلى اللّه تعالى حتى ختم له بذلك، أخبرني مَنْ شهد وفاته أنه رآه في آخر الرمَق يقول: اللّه الحق. وكان من أعلام العلماء، وحفّاظ الحديث، خصوصًا جامع الترمذي، وكان يقوم عليه، ورواه عن شيوخه عن أبي ذرّ، وكان يلازم كتاب «الإحياء» ويعكف عليه، وترد عليه الفتاوى في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت، وله مجلس وعظ يتكلّم فيه، فتجتمع عليه الناسُ من كل جهة، وتمرّ به الطيور وهو يتكلّم فتقف تسمع، وربما مات بعضها، وكثيرًا ما يموت بمجلسه أصحابُ الحب، تخرّج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب

(١) كلمة «آخر» ساقطة من طبعة دار صادر (جـ ٧ ص ١٣٦).

(٢) أكثر هذه الترجمة في نيل الابتهاج (ص ١٠٧ وما بعدها).

الأحوال، وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه جميلاً، ويخصّه بين أصحابه بالتعظيم والتبجيل، قرأ بفاس بعد قدومه من الأندلس على الشيخ الحافظ أبي الحسن بن حرزهم، وعلى الفقيه الحافظ العلامة أبي الحسن بن غالب. وذكر عنه أنه قال: كنت في أوّل أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس أتخذه مأوى للعمل بما فُتح به عليّ، فإذا خلوت به تأتيني غزالة تأوي إليّ وتؤنسني، وكنت أمرُ في طريقي بكلاب القرى المتّصلة بفاس، فيدورون حولي[1]، ويبصبصون[2] لي، فبينا أنا يومًا بفاس إذا برجل من مَعَارفي بالأندلس سلَّم عليّ، فقلت: وَجَبَتْ ضيافتُه، فبعت ثوبًا بعشرة دراهم، فطلبت الرجل لأدفعها له، فلم أجدْه هنالك، فخلّيتها معي، وخرجت لخلوتي على عادتي، فمررت بقريتي، فتعرّض لي الكلاب، ومنعوني الجواز، حتى خرج من القرية مَنْ حال بيني وبينهم، ولمّا وصلت لخلوتي جاءتني الغزالة على عادتها، فلمّا شمّتني نفرت عني، وأنكرت عليّ، فقلت: ما أوتي[3] عليّ إلاّ من أجل هذه الدراهم التي معي، فرميتها، فسكنت الغزال، وعادت لحالها معي، ولمّا رجعت لفاس جعلت الدراهم معي، ولقيت الأندلسي، فدفعْتُها إليه، ثم مررتُ بالقرية في خروجي للخلوة، فدار بي كلابُهَا وبصبصوا على عادتهم، وجاءتني الغزالة فشمّتني من مفرقي لقدمي، وأنست بي كعادتها، وبقيت كذلك مدّة، وأخبار سيدي أبي يعزى ترد عليّ، وكراماته يتداولها الناسُ وتنقل إليّ، فملأ قلبي حبّه؛ فقصدته مع جماعة الفقراء، فلمّا وصلْنا إليه أقبل على الجماعة دوني، وإذا حضر الطعامُ منعني من الأكل معهم، وبقيت كذلك ثلاثة أيام، فأجْهَدَني الجوع، وتحيّرت من خواطر ترد عليّ، ثم قلت في نفسي: إذا قام الشيخ من مكانه أمرغ وجهي في المكان، فقام، ومرغت وجهي فقمتُ وأنا لا أُبصر شيئًا، وبقيت طول ليلتي باكيًا، فلمّا أصبح دعاني وقرّبني، فقلت له: يا سيدي، قد عميت ولا أُبصر شيئًا، فمسح بيده على عيني، فعاد بصري، ثم مسح على صدري، فزالت عني تلك الخواطر، وفقدت ألم الجوع، وشاهدت في الوقت عجائب من بركاته، ثم استأذنته في الانصراف بنيّة أداء الفريضة، فأذن لي، وقال: ستلقى في طريقك الأسد فلا يَرُعْك فإن غَلَب خوفُه عليك فقلْ

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٦٨): «حول».

(٢) بصبص الكلبُ: حرّك ذنبه قصد التملّق والأنس. لسان العرب (بصبص).

(٣) في طبعة عبد الحميد: «أتي».

له: بحرمة يدنور إلاّ انصرفت عني، فكان الأمر كما قال، فتوجّه الشيخ أبو مدين للشرق وأنوارُ الولاية عليه ظاهرة، فأخذ عن العلماء، واستفاد من الزهاد والأولياء، وتعرّف في عَرَفة بالشيخ سيدي عبد القادر الكيلاني، فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرًا من الحديث، وألبسه خرقة الصوفية، وأودعه كثيرًا من أسراره، وحلاه بملابس أنواره، فكان أبو مدين يفتخر بصحبته، ويعدّه أفضل مشايخه الأكابر.

وعن بعض الأولياء قال: رأيت في النوم قائلاً يقول: قُلْ لأبي مدين: بُثَّ العلم ولا تُبَالِ، ترتع غدًا مع العوالي، فإنك في مقام آدم أبي الذراري، فقصصتها عليه فقال لي: عزمت على الخروج للجبال والفيافي حتى أبعد عن العمران، ورؤياك هذه تعدل بي عن هذا العزم، وتأمرني بالجلوس، فقولك «ترتع غدًا مع العوالي» إشارة لحديث «حلق الذكر مراتع أهل الجنّة»، والعوالي: أصحاب عليين، ومعنى قوله «أبي الذراري» أنّ آدم أعطي قوّه على النكاح وأمر به، ولم يجعل له قوّة على كون ذرّيّته مطيعين مؤمنين، وكذا نحن أعطانا اللّه العلم وأمرنا ببثّه وتعليمه، ولا قدرة لنا على كون أتباعنا موفّقين.

وكان يقول: كراماتُ الأولياء نتائج معجزات نبيّنا ﷺ، وطريقتنا هذه أخذناها عن أبي يعزى بسنده عن الجنيد عن سَرِي السقطي عن حبيب العجمي بالسند إلى ربّ العزّة جلَّ جلالُه.

وعن العارف عبد الرحيم المغربي قال: سمعت سيدي أبا مَدْين يقول: أوقفني ربي عزَّ وجلَّ بين يديه وقال لي: يا شعيب، ماذا عن يمينك؟ قلت: يا ربّ عطاؤك، قال: وعن شمالك؟ قلت: يا ربّ قضاؤك، فقال: يا شعيب، قد ضاعفت لك هذا، وغفرت لك هذا، فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك.

وعن سيدي أبي العباس المرسي: جُلْتُ في ملكوت اللّه تعالى، فرأيت سيدي أبا مدين متعلّقًا بساق العرش وهو يومئذ أشقر أزرق، فقلت له: وما علومك؟ وما مقامك؟ فقال: علومي أحد وسبعون علمًا، وأما مقامي فرابع الخلفاء، ورأس السبعة الأبدال.

وسئل، رضي اللّه عنه، عمّا خصّه اللّه تعالى به، فقال: مقامي العبودية، وعلومي الألوهية، وصفاتي مستمدّة من الصفات الربّانيّة، ملأت علومه سِرّي وجهري، وأضاء بنوره بَرّي وبحري، فالمقرب من كان به عليمًا، ولا يسمو إلاّ من أوتي قلبًا سليمًا، الذي يسلم

مِمّا سواه، ولا يكون في الوعاء إلاّ ما جعل فيه مولاه، فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك ﴿وتَرَى الجبالَ تَحْسَبُها جامِدَةً وهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحابِ﴾[1].

وسئل عن الحياء، فقال: أوّله دوام الذكر، وأوسطه الأنس بالمذكور، وأعلاه أن لا ترى شيئًا سواه.

واختلف أهل مجلسه: هل الخضر[2] وليّ أم نبيّ؟ فرأى رجل صالح منهم معروف بالولاية النبيَّ ﷺ تلك الليلة فقال ﷺ: الخضر نبي، وأبو مدين ولي.

وذكر التادلي[3] وغيره أنَّ رجلاً جاءه ليعترض عليه، فجلس في الحلقة، فأخذ صاحبُ الدولة في القراءة، فقال له أبو مدين: أمهل قليلاً، ثم التفت للرجل، وقال له: لِمَ جئت؟ فقال: لأقتبس من نورك، فقال له: ما الذي في كمك؟ قال له: مصحف، فقال له: افْتَحْهُ واقرأ في أوّل سطر يخرج لك، ففتحه وقرأ أوّل سطر فإذا فيه ﴿الذين كَذَّبُوا شُعَيبًا كأنْ لَمْ يَغْنَوْا فيها، الذين كَذَّبُوا شُعَيبًا كانوا هُمُ الخاسِرِينَ﴾[4] فقال له أبو مدين: أما يكفيك هذا؟ فاعترف الرجل، وتاب، وصلح حاله.

وذكر صاحب «الروض» عن الشيخ الزاهد أبي محمد عبد الرزاق أحد خواصّ أصحابه قال: مَرَّ شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب، فرأى أسدًا افترس حمارًا وهو يأكله، وصاحبُه جالسٌ بالبعد على غاية الحاجة والفاقة، فجاء أبو مدين وأخذ بناصية[5] الأسد، وقال لصاحب الحمار: أمسك الأسد [واذهب به][6] واستعمله في الخدمة موضع حمارك، فقال له: يا سيدي أخاف منه، فقال: لا تخفْ، لا يستطيع أن يؤذيك، فمرَّ الرجل يقوده والناسُ ينظرون إليه، فلمّا كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد للشيخ وقال له: يا سيدي، هذا الأسدُ يتبعني حيث ذهبتُ، وأنا شديد الخوف منه، لا طاقة لي بعشرته، فقال الشيخ للأسد: اِذْهَبْ ولا تَعُدْ، ومتى آذيتم بني آدم سلطتهم عليكم.

---

(١) سورة النمل ٢٧، الآية ٨٨،

(٢) الخضر: هو الرجل الصالح، صاحب موسى عليه السلام.

(٣) هو يوسف بن يحيىٰ ابن الزيات التادلي، صاحب كتاب التشوف إلى معرفة رجال التصوّف، وهو مخطوط، والمقري ينقل عنه.

(٤) سورة الأعراف ٧، الآية ٩٢.

(٥) الناصية: مقدّم الرأس. لسان العرب (نصا).

(٦) ما بين قوسين ساقط من طبعة دار صادر (ج ٧ ص ١٤٠).

ومن مشهور كراماته أنه كان ماشيًا يومًا على ساحل، فأسره العدوُّ، وجعلوه في سفينة يها جماع من أسرى المسلمين، فلمّا استقرّ في السفينة توقّفت عن السير، ولم تتحرّك من كانها، مع قوّة الريح ومساعدتها، وأيقن الروم أنهم لا يقدرون على السير، فقال بعضهم: نزلوا هذا المسلم فإنه قسيس، ولعلّه من أصحاب السرائر عند اللّه تعالى، وأشاروا له النزول، فقال: لا أفعل إلاّ إن أطلقتم جميع مَنْ في السفينة من الأسارى، فعلموا أن لا بُدَّ هم من ذلك، فأنزلوهم كلّهم، وسارت السفينة في الحال.

ومن كراماته أنه لـمّا اختلف طلبة بجاية في حديث «إذا مات المؤمن أُعطي نصف لجنّة» وأشكل عليهم ظاهره: إذ بموت[1] مؤمنين يستحقّان كلّ الجنّة، فجاءوا إليه وهو تكلّم على رسالة القشيري، فكاشفهم في الحال بلا سؤال، وقال لهم: المراد أنه يعطى نصف جنّته هو، فيكشف له عن مَقْعده ليتنعّم به، وتقرّ عينه، ثم النصف الآخر يوم القيامة.

وكان أولياء وقته يأتونه من البلدان للاستفتاء فيما يعرض لهم من المسائل.

وذكر تلميذه الصالح سيدي عبد الخالق التونسي عنه أنه قال: سمعت برجل يسمّى موسى الطيار يطير في الهواء ويمشي على الماء، وكان رجل يأتيني عند صَدْع الفجر فيسألني عن مسائل لا يفهمها الناس، فوقع ليلة في نفسي أنه موسى الطيار الذي سمعت به، وطال عليّ الليل في انتظاره، فلمّا طلع الفجر نقر الباب رجل، فإذا هو الذي يسألني، فقلت له: أنت موسى الطيار؟ فقال: نعم، ثم سألني وانصرف، ثم جاءني مع رجل آخر فقال لي: صلّينا الصبح ببغداد، وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح، فأعدنا معهم، وجلسنا[2] حتى صلينا الظهر، وأتينا القدس فوجدناهم في الظهر، فقال لي صاحبي هذا: نعيد معهم، فقلت: لا، فقال لي: ولِمَ أعدنا الصبح بمكة؟ فقلت له: كذلك كان شيخي يفعل، وبه أمرنا، فاختلفنا وأتيناك للجواب، فقال أبو مدين: فقلت لهم: أمّا إعادة الصبح بمكة فلأنها بها عين اليقين، وببغداد علم اليقين، وعين اليقين أولى من علم اليقين، وصلاتكم الظهر بمكة - وهي أم القرى[3] - فلذلك لا تعاد في غيرها، قال: فقنعا به وانصرفا.

---

(١) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٧٢): «أبموت».

(٢) في نيل الابتهاج: «فبقينا».

(٣) أُمُّ القرى: من أسماء مكة، سميت بذلك لأنها أصل الأرض، أو لأنها أقدم القرى التي في جزيرة=

وكان استوطن بجاية ويقول: إنها معينة على طلب الحلال، ولم يزل بها يزداد حاله على مَرِّ الليالي رفعة، ترد عليه الوفود وذوو الحاجات من الآفاق، ويخبر بالوقائع والغيوب، إلى أن وَشَى به بعضُ علماء الظاهر عند يعقوب المنصور، وقال له: إنّا نخاف منه على دولتكم، فإن له شَبَهًا بالإمام المهدي، وأتباعه كثيرون بكلّ بلد، فوقع في قلبه، وأهمّه شأنه، فبعث إليه في القدوم عليه ليختبره، وكتب لصاحب بجاية بالوصيّة به والاعتناء، وأن يُحْمَلَ خير محمل، فلمّا أخذ في السفر شقّ على أصحابه، وتغيّروا، وتكلّموا[1]، فسكتهم وقال لهم: إن منيّتي قربت، ولغير هذا المكان قدرت، ولا بُدَّ لي منه، وأنا شيخ كبير ضعيف[2]، لا قدرة لي على الحركة، فبعث الله تعالى مَنْ يحملني إليه برفق، ويسوقني إليه أحسن سوق، وأنا لا أرى السلطان ولا يراني، فطابت نفوسهم، وذهب بؤسهم، وعلموا أنه من كراماته، فارتحلوا به على أحسن حال، حتى وطئوا به حَوْزَ[3] تلمسان، فبدت له رابطة العباد، فقال لأصحابه: ما أصلحه للرقاد، فمرض مرض موته، فلمّا وصل وادي يسر اشتدّ به المرض، ونزلوا به هناك، فكان آخر كلامه: الله الحقّ.

وتوفي رحمه الله تعالى سنة أربع وتسعين وخمسمائة، فحُمل إلى العباد، مدفن الأولياء الأوتاد، وسمع أهل تلمسان بجنازته، فكانت من المشاهد العظيمة، والمحافل الكريمة، وفي ذلك اليوم تاب الشيخ أبو علي عمر الحباك، وعاقب الله تعالى السلطان، فمات بعده بسنة أو أقل.

ونقل المعتنون بأخباره أنَّ الدعاء عند قبره مستجابٌ، وجرّبه جماعة، وقد زرْتُه مئين من المرّات، ودعوت الله تعالى عنده بما أرجو قبوله.

وقد أطال في ترجمته التادلي في كتابه «التشوّف، لرجال التصوّف» وقد أفردها ابن الخطيب القسمطيني بتأليف سمّاه «أنس الفقير».

= العرب وأعظمها. معجم البلدان (جـ ١ ص ٢٥٤). يقول الله تعالى: ﴿ولِتُنْذِرَ أُمَّ القُرَى ومَنْ حَوْلَها﴾. سورة الأنعام ٦، الآية ٩٢.

(١) كلمة «وتكلموا» ساقطة من نيل الابتهاج.

(٢) في نيل الابتهاج: «وقد كبرت وضعفت».

(٣) الحَوْزُ: الناحية. لسان العرب (حوز).

ومن كلامه: من رُزق حلاوة المناجاة زال عنه النوم، ومن اشتغل بطلب الدنيا ابتُلِيَ فيها بالذلّ، ومن لم يجد من قلبه زاجرًا فهو خراب.

وقوله: بفساد العامّة تظهر ولاة الجور، وبفساد الخاصّة تظهر دجاجلة الدين الفتّانون[1].

وقوله: من عَرَف نفسه لم يغترّ بثناء الناس عليه، ومن خدم الصالحين ارتفع، ومن حرمه اللّه تعالى احترامهم ابتلاه اللّه بالمقت من خَلْقه، وانكسار العاصي خير من صولة المطيع.

وقوله: من علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحقّ.

وسئل عن المحو[2] والشيخ، فقال: المحو من شهدت له ذاتك بالتقديم، وسرك بالاحترام والتعظيم، والشيخُ مَنْ هداك بأخلاقه، وأيّدك بإطراقه، وأنار باطنك بإشراقه، إلى غير ذلك من كلامه النَّيِّر، وهو بحر لا ساحل له.

وله نظم كثير مشهور بأيدي الناس، ومِمّا يُنْسَبُ له قوله: [الكامل]

بكتِ السحابُ فأضحكت لبكائها ... زهرَ الرياضِ وفاضتِ الأنهارُ
وقَدَ أقبلتْ شمسُ النهارِ بحلّةٍ ... خَضرا، وفي أسرارها أسرار
وأتى الربيعُ بخيله وجنودهِ ... فَتَمَتَّعَتْ في حُسْنِهِ الأبصارُ
والوردُ نادى بالورودِ إلى الجنى ... فتسابق الأطيارُ والأشجار
والكأسُ ترقصُ والعقارُ تشعشعتْ ... والجوُّ يضحكُ والحبيبُ يُزَار
والعودُ للغيدِ الحِسانِ مجاوبٌ ... والطارُ أخفى صوته المزمار
لا تحسبوا الزمرَ الحرامَ مرادنا ... مزمارُنا التسبيحُ والأذكار
وشرابُنا من لطفه، وغناؤنا ... نعم الحبيبُ الواحدُ القهّار
والعودُ عاداتُ الجميل، وكأسُنا ... كأسُ الكياسة، والعقارُ وَقَارُ

---

(1) في طبعة عبد الحميد (جـ ٩ ص ٣٧٤): «المفتاتون».

(2) المحو: من اصطلاح الصوفية.

فتألّفوا وتطيّبوا واستغنموا قبل المماتِ فدهركم غدّار
واللّهُ أرحمُ بالفقيرِ إذا أتى من والديه فإنه غفّار
ثم الصلاةُ على الشفيعِ المصطفى ما رَنَّمَتْ بلغاتها الأطيار

وإنما ذكرت ترجمة سيدي الشيخ أبي مدين للتبرّك به، ولكونه شيخَ جدّي، فأنا في بركته لقول جدّي: إنه دعا له ولذرّيته بما ظهر قبوله، ولأنّا ذكرنا في هذا التأليف كثيرًا من أنباء أبناء الدنيا، فأردنا كفّارة ذلك بذكر الصالحين، واللّه الموفّق بمنّه وكرمه، آمين.

انتهى الجزء التاسع من كتاب نفح الطيب ويليه الجزء العاشر

مبتدئًا بالباب السابع من القسم الثاني من الكتاب

ثبت بأسماء المصادر والمراجع

١ ـ الإحاطة في أخبار غرناطة (١ ـ ٤). تحقيق الأستاذ محمد عبد اللّه عنان. مكتبة الخانجي بالقاهرة، الشركة المصرية للطباعة والنشر، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٧.

٢ ـ اختصار القدح المعلّى في التاريخ المحلّى لابن سعيد. دار الكتب الإسلامية، دار الكتاب المصري، دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٠.

٣ ـ أزهار الرياض في أخبار عياض للمقري (١ ـ ٣). تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٠.

٤ ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للشيخ أحمد بن خالد الناصري (١ ـ ٩). طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٥٤.

٥ ـ أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام أو تاريخ إسبانيا الإسلامية لابن الخطيب. القسم الثاني، تحقيق الأستاذ إ. ليڤي بروڤنسال. دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.

٦ ـ الأعلام للزِّرِكْلي (١ ـ ٨). دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٠.

٧ ـ الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه الدكتور يوسف طويل والأستاذان عبد علي مهنا وسمير جابر. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.

٨ ـ أنس الفقير وعزّ الحقير لابن قنفذ القسنطيني. تحقيق الأستاذين محمد الفاسي وأدولف فور. ط. الرباط، ١٩٦٥.

٩ - البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني (١ - ٢). ط. مصر، ١٣٤٨ هـ.

١٠ - بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ليحيى بن محمد ابن خلدون (١ - ٢). طبع في الجزائر مع ترجمة فرنسية، سنة ١٩٠٣.

١١ - بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي. دار الكاتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧.

١٢ - البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري المراكشي (١ - ٤). تحقيق ج. س. كولان وإ. ليڤي بروڤنسال والدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت.

١٣ - التعريف بابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا لابن خلدون. تحقيق الأستاذ محمد بن تاويت الطنجي. ط. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١.

١٤ - توشيع التوشيح للصفدي. تحقيق الأستاذ ألبير مطلق. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٦.

١٥ - جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس للحميدي. الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦.

١٦ - جمهرة أنساب العرب لابن حزم. تحقيق الأستاذ عبد السلام محمد هارون. دار المعارف بمصر، ١٩٦٢.

١٧ - جيش التوشيح لابن الخطيب. تحقيق الأستاذ هلال ناجي. مطبعة المنار بتونس.

١٨ - الحلّة السِّيراء لابن الأبار (١ - ٢). تحقيق الدكتور حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣.

١٩ - دار الطراز في عمل الموشحات لابن سناء الملك. تحقيق الدكتور جودت الركابي. دار الفكر بدمشق، ١٩٨٠.

٢٠ - ديوان ابن الحداد الأندلسي. جمعه وحققه وقدّم له الدكتور يوسف علي طويل. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.

٢١ - ديوان ابن خفاجة. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٠.

٢٢ - ديوان ابن سهل الأندلسي. قدم له الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.

٢٣ . ديوان ابن شهيد الأندلسي. عني بجمعه Charle Pellat. دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٣.

٢٤ . ديوان ابن عبد ربه. حققه وجمعه وشرحه الدكتور محمد رضوان الداية. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٩.

٢٥ . ديوان أبي الأسود الدؤلي (١ . ٢). تحقيق الشيخ محمد آل ياسين، بغداد، ١٩٥٤.

٢٦ . ديوان أبي تمام. شرح وتعليق الدكتور شاهين عطية. دار صعب، بيروت.

٢٧ . ديوان أبي الحسن التهامي. الإسكندرية، ١٨٩٣.

٢٨ . ديوان أبي العتاهية (شرح ديوان أبي العتاهية). دار التراث، بيروت، ١٩٦٩.

٢٩ . ديوان أبي فراس الحمداني (شرح ديوان أبي فراس الحمداني) دار مكتبة الحياة، بيروت.

٣٠ . ديوان الأعمى التطيلي. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٣١ . ديوان امرىء القيس. تحقيق الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر، ١٩٦٩.

٣٢ . ديوان بشار بن برد. جمعه وحققه السيد بدر الدين العلوي. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣.

٣٣ . ديوان جرير. دار صادر. ودار بيروت، بيروت، ١٩٦٠.

٣٤ . ديوان جميل بثينة. دار بيروت، بيروت، ١٩٨٤.

٣٥ . ديوان حسان بن ثابت. شرح البرقوقي.

٣٦ . ديوان زهير بن أبي سلمى. دار بيروت، بيروت، ١٩٨٦.

٣٧ . ديوان الشريف الرضي (١ . ٢). دار صادر ودار بيروت، بيروت، ١٩٦١.

٣٨ . ديوان الصبابة لشهاب الدين أحمد بن أبي حجلة المغربي. ط. القاهرة، ١٢٧٩.

٣٩ . ديوان المتنبي (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب). شرحه الشيخ ناصيف اليازجي، دار القلم ببيروت.

٤٠ ـ ديوان النابغة الذبياني. حققه وقدم له الأستاذ فوزي عطوي. دار صعب، بيروت، ١٩٨٠.

٤١ ـ الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام الشنتريني (أربعة أقسام في ثمانية مجلدات). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٨ ـ ١٩٧٩.

٤٢ ـ الذيل والتكملة لابن عبد الملك المراكشي (١ ـ ٦). تحقيق الأستاذين محمد بن شريفة وإحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣.

٤٣ ـ الروض المعطار في خبر الأقطار (معجم جغرافي) للحميري. تحقيق الدكتور إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، ١٩٨٠.

٤٤ ـ روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس لأحمد بن محمد المقري التلمساني. ط. المطبعة الملكية بالرباط، ١٩٦٤.

٤٥ ـ شروح سقط الزند (١ ـ ٥). ط. دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨.

٤٦ ـ الشعر والشعراء لابن قتيبة (١ ـ ٢). دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩.

٤٧ ـ صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي (١ ـ ١٤). شرحه وعلّق عليه الأستاذ محمد حسين شمس الدين والدكتور يوسف علي طويل. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

٤٨ ـ الضوء اللامع للسخاوي (١ ـ ١٢). ط. مصر، ١٣٥٣ ـ ١٣٥٥ هـ.

٤٩ ـ طبقات الشعراء لابن سلام. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٢.

٥٠ ـ العبر وديوان المبتدإ والخبر (المعروف بتاريخ ابن خلدون) لابن خلدون. سبعة مجلدات في أربعة عشر جزءاً. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨١.

٥١ ـ ابن عبد ربه للدكتور يوسف علي طويل. مطبعة سعد إخوان، بيروت، ١٩٩٣.

٥٢ ـ العقد لابن عبد ربه (١ ـ ٧). شرح الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ١٩٤٩ ـ ١٩٦٥.

٥٣ ـ علم البيان للدكتور عبد العزيز عتيق. دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٠.

٥٤ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة. تحقيق الدكتور نزار رضا. دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥.

٥٥ ـ فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي (١ ـ ٥). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٣ ـ ١٩٧٤.

٥٦ ـ القاموس المحيط للفيروزآبادي. مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٦.

٥٧ ـ قرآن كريم. دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣ هـ.

٥٨ ـ قلائد العقيان في محاسن الأعيان لابن خاقان. القاهرة، ١٢٨٤ هـ.

٥٩ ـ الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة لابن الخطيب. تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

٦٠ ـ لسان العرب لابن منظور (١ ـ ١٥). دار صادر، بيروت.

٦١ ـ اللمحة البدرية في الدولة النصرية لابن الخطيب، نشره الأستاذ محب الدين الخطيب. المطبعة السلفية بالقاهرة، ١٣٤٧ هـ.

٦٢ ـ مجمع الأمثال للميداني (١ ـ ٢). تحقيق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد. مطبعة السنة المحمدية، سنة ١٩٥٥.

٦٣ ـ محيط المحيط للمعلم بطرس البستاني. مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٧.

٦٤ ـ مختار الصحاح للرازي. مؤسسة الرسالة، دار البصائر، بيروت، ١٩٨٥.

٦٥ ـ مدخل إلى الأدب الأندلسي للدكتور يوسف طويل. دار الفكر اللبناني، ١٩٩١.

٦٦ ـ المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا للنباهي. المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.

٦٧ ـ المرقصات والمطربات لابن سعيد. دار حمد ومحيو، بيروت، ١٩٧٣.

٦٨ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودي (١ ـ ٤). دار الأندلس، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨١.

٦٩ ـ مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لشهاب الدين ابن فضل الله العمري (الجزء الحادي عشر). مخطوطة مصورة بالميكروفيلم في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت تحت رقم Mic-A-80.

٧٠ ـ مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله). نشر وتحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، مطبعة جامعة الإسكندرية، سنة ١٩٥٨.

٧١ ـ مطالع البدور في منازل السرور لعلاء الدين الغزولي (١ ـ ٢). الطبعة الأولى، ط. مطبعة إدارة الوطن، القاهرة، ١٢٩٩.

٧٢ ـ المطرب من أشعار أهل المغرب لابن دحية. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري والدكتور حامد عبد المجيد والدكتور أحمد بدوي. دار العلم للجميع، بيروت، ١٩٥٥.

٧٣ ـ مطمح الأنفس ومسرح التأنس في مِلح أهل الأندلس لابن خاقان. الطبعة الأولى، مطبعة الجوائب بالقسطنطينية، ١٣٠٢ هـ.

٧٤ ـ معجم البلدان لياقوت الرومي (١ ـ ٥). دار صادر، دار بيروت، ١٩٨٤.

٧٥ ـ المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي لابن الأبار. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.

٧٦ ـ المغرب في حلى المغرب لابن سعيد (١ ـ ٢). تحقيق الدكتور شوقي ضيف. دار المعارف بمصر، ١٩٦٤.

٧٧ ـ المقتضب من كتاب تحفة القادم لابن الأبار. تحقيق الأستاذ إبراهيم الأبياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣.

٧٨ ـ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي (الجزء الأول). تحقيق الأستاذ أحمد يوسف نجاتي. مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٥٦.

٧٩ ـ نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان لابن الأحمر. تحقيق الأستاذ محمد رضوان الداية. دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٧.

٨٠ . نفاضة الجراب في عُلالة الاغتراب لابن الخطيب. تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي. دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة.

٨١ . نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي. ط. فاس.

٨٢ . الوافي بالوفيات للصفدي (١ ـ ١٧). ڤيسبادن، ١٩٦٢ ـ ١٩٨١.

٨٣ . وفيات الأعيان لابن خلّكان (١ ـ ٨). تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر، بيروت، ١٩٧٧ ـ ١٩٧٨.

٨٤ . يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر للثعالبي (١ ـ ٤). دار الكتب العلمية، بيروت.

فهرس الجزء التاسع
من كتاب نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب

صلة الباب الخامس من القسم الثاني ٣

في إيراد جملة من نثر لسان الدين ٣

خطبة كتاب في المحبة للسان الدين ٣

خاتمة خطبة كتاب المحبة ٢٢

من كلام للسان الدين في عدد فرق الاعتزال ٣١

موعظة من إنشاء لسان الدين ٣٩

من إنشاء لسان الدين يخاطب طالب موعظة ٤٩

رسالة منه إلى شيخ الموحدين بتونس ٥٥

خطاب إلى سلطان فاس على لسان سلطانه الغني بالله ٦١

من إنشائه على لسان ابن سلطانه ٦٤

ظهير من إنشائه بتولية مشيخة الغزاة ٦٦

ظهير من إنشائه في تقليد الأمير سعد ٦٩

من إنشائه إلى سلطانه وقد عاد لملكه ٧٢

من إنشائه على لسان سلطانه إلى رسول الله ﷺ ٧٤

خطبة للمقري على منوال لسان الدين ١٠٠

من كلام لسان الدين يخاطب السلطان أبا زيان ١٠١

من كلامه يخاطب شيخ الدولة يحيىٰ بن رحو ١٠٥

من كلامه يخاطب شيخه ابن مرزوق في شفاعة ١٠٦

من كلامه يخاطب أبا زيد ابن خلدون الرئيس ١٠٨

من رسالة له كتب بها إلى الفقيه أبي زكريا بن خلدون لما ولي الكتابة عند أبي حمو سلطان تلمسان ١١٤
من مخاطباته ما كتب به إلى صاحبه العلاّمة أبي القاسم بن رضوان ١١٧
من كلامه يخاطب شيخ العرب المبارك بن إبراهيم ١١٨
من كلامه يخاطب شيخه أبا عبد الله بن مرزوق ١٢٠
من إنشائه ظهير كتاب على لسان سلطانه لأحد الفقهاء وقد ولاّه استكشاف أحوال الرعية١٢٣
من إنشائه عند قبر السلطان أبي الحسن المريني وقد لجأ إلى ولده ١٢٥
من إنشائه يخاطب الوزير المتغلب على بلاد المغرب ١٢٧
من إنشائه أيضًا إلى وزير المغرب على أثر الفتح الذي تكيف له ١٢٨
من إنشائه إلى وزير المغرب بسلا ١٢٩
من إنشائه معزيًا الرئيس عامر بن محمد الهنتاني ١٣١
من إنشائه يخاطب الرئيس عامر بن محمد الهنتاني ١٣٣
من إنشائه يخاطب شيخ الدولة وقد أبل من مرضه ١٣٤
من إنشائه يخاطب شيخه ابن مرزوق جوابًا عن كتاب منه ١٣٦
من إنشائه جواب عن كتاب ورد إليه من الفقيه الكاتب ابن الثغري على لسان سلطان تلمسان ١٤٣
من إنشائه قصة عن الرشيد في سياسة الدولة ومنازل رجالاتها ١٤٧
نماذج قصار من نثر لسان الدين في علية أهل زمانه وفي وصف بعض البلدان ١٦٠
وصف بسطة للقلصاوي ولابن مرزوق ١٦١
من إنشاء لسان الدين ما خاطب به السلطان على لسان جدته ١٦١
من شعر لسان الدين في مدح الرسول ﷺ ١٦٣
قصيدة له في يوم ميلاد الرسول ﷺ عام ٧٦٢ .... ١٦٥
قصيدة له خاطب بها السلطان أبا عنان على إثر انصرافه من بابه ١٦٩
قصيدة له يهنىء بها السلطان وقد أعذر أولاده ١٧٤
من نظمه عن كتاب أبيات الأبيات والكتاب المسمى: الصيب والجهام ١٧٨
من لاميته المسماة: المنح الغريب في الفتح القريب، التي خاطب بها سلطانه حين عاد لملكه من المغرب ١٩٤
من نظمه يخاطب عبد الواحد بن زكريا ابن سلطان إفريقية ١٩٦
من نظمه ما كتب على مدرسة بناها السلطان أبو الحجاج وإجازة بينه وبين ابن الحجاج وقد مرّا ببعض مسالك غرناطة ١٩٧
من نظمه في تورية طبية، ويخاطب ابن مرزوق، ويخاطب أحد الشرفاء ١٩٨

من نظمه: وقد مرّ بدار أحد الأغنياء، وفي الشيخ ابن بطان، وعندما انتابه برغوث ويخاطب ابن حسون في صدر رسالة ١٩٩
من نظمه في عثمان بن يحيىٰ وقد وقف على مراكش ٢٠١
من نظمه يخاطب أحمد بن يوسف ونماذج صغار شتى ٢٠١
ترجمة العارف بالله أحمد بن عمر بن محمد بن عاشر، الأندلسي، نزيل سلا ٢٠٧
رجع إلى نظم لسان الدين: مداعباته ومن شعره عندما وقف على قبر المعتمد بالله في مدينة أغمات ٢١٠
من نظمه: يخاطب ضريح السلطان أبي الحسن بشالة لاستنهاض عزيمته في قضاء غرضه ٢١١
من نظمه: يخاطب السلطان أبي الحجاج وفي التورية ٢١٢
من نظمه في التورية والتجنيس ٢١٣
من نظمه: يهنىء سلطان تلمسان أبا حمو ٢١٤
بين أبي عبد الله بن جزيّ وبعض أهل فارس ٢١٦
قصيدة لأبي زكريا يحيىٰ بن خلدون يحذو فيها حذو لسان الدين ٢٢٤
حديث عن احتفال السلطان أبي حمو بالمولد النبوي الشريف ٢٢٧
مقطوعات لأبي زكريا يحيىٰ بن خلدون ٢٢٩
حديث عن الموشحات والأزجال: نشأتها، تدرجها، أنواعها ٢٣٠
مقدم ابن معافى القبري، مبدع الموشح ٢٣١
استحداث العامّة فن الزجل ٢٤١
ترجمة أبي بكر بن باجة آخر فلاسفة الإسلام ببلاد الأندلس (ابن الصائغ) ٢٤٣
ترجمة محمد بن أحمد الوادي آشي ٢٥٢
عودة إلى ترجمة ابن باجة الصائغ الفيلسوف ٢٥٣
ترجمة الفتح ابن خاقان وفيها ذكر سبب العداوة التي كانت بينه وبين ابن باجة ٢٥٥
نماذج من تراجم الفتح ابن خاقان في كتابه: المطمح ٢٦٥
من ترجمة أبي يحيىٰ بن المعتصم، رفيع الدولة ابن صمادح ٢٦٩
من ترجمة الوزير أبي الوليد بن حزم ٢٧١
من ترجمة أبي بكر الغساني وأبي عامر بن عقال ٢٧٢
من ترجمة أبي مروان الطبني ٢٧٤
من ترجمة الفقيه أبي عمر أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد ٢٧٥
من ترجمة أبي القاسم المنيشي ٢٧٩
من ترجمة أبي الحسن البرقي ٢٨١

من ترجمة أبي الحسن علي بن جودي ٢٨٢
نماذج من شعر الفتح بن خاقان ٢٨٤
نماذج من نثر الفتح بن خاقان ٢٨٥
موشحة ابن سهل التي عارضها لسان الدين ٢٨٦
بعض أهل المغرب يعارض موشحة ابن سهل ٢٨٨
موشحة للسان الدين ابن الخطيب ٢٩١
لسان الدين يؤلف كتاب: جيش التوشيح، ثم يذيل عليه وزير القلم بالمغرب عبد
العزيز الفشتالي ٢٩٣
موشحة أبي العقاد ٢٩٤
موشحة لبعض أهل مراكش ٢٩٥
موشحة للسلطان منصور ومقطوعات أخرى من نظمه ٢٩٦
موشحة بعض أذكياء الأصحاب في مديح المقري ٣٠٦
من موشحات لسان الدين ٣١٠
موشحة لعثمان الملطي في مدح القاضي الفاضل ٣١١
موشحة للشهاب العزازي ٣١٢
موشحة الموصلي التي عارضها الشهاب العزازي ٣١٧
الباب السادس من القسم الثاني من الكتاب ٣٢٠
في مصنفات لسان الدين ٣٢٠
لسان الدين يذكر مؤلفاته في الترجمة التي عقدها لنفسه في الإحاطة ٣٢٠
استدراك للمؤلف بذكر مؤلفات لسان الدين بعد كتابته ترجمته وابن الأحمر يتحدث
عن مصنفات لسان الدين ٣٢٢
حديث عن روضة التعريف، أحد مؤلفات لسان الدين وبقية مؤلفاته ٣٢٢
حديث عن كتاب الإحاطة أحد تآليفه، ومختصره: مركز الإحاطة في أدباء غرناطة،
للبدر اليشتكي ٣٢٤
حجة سلطانية بوقف كتاب الإحاطة ٣٢٤
لسان الدين يقف نسخة من كتاب الإحاطة بخانقاه سعيد السعداء بمصر ٣٢٧
المؤلف يرى خطوط جماعة من العلماء على نسخة الإحاطة بمصر ٣٢٨
ابن الأحمر يبيّن أصول ابن الخطيب في كتابه الإحاطة ٣٢٨
ترجمة أبي إسحٰق إبراهيم بن عبد الله بن الحاج الغرناطي (عن الإحاطة) ٣٣٠
قصيدة لمحمد بن الثغري يمدح فيها أبا حمو سلطان تلمسان ٣٤٢
قصيدة أبي المكارم قنديل ابن صاحب المقدمة الآجرومية في فاس ٣٤٤

قصيدة أخرى للثغري يمدح تلمسان وسلطانها ٣٤٦
لقاضي المزدغي يمدح فاس، ولسان الدين يمدح تلمسان ٣٤٩
قصيدة لأبي عبد الله التلاليسي في تلمسان ٣٥٠
قصيدة ابن خميس في مدح تلمسان ٣٥١
حديث عن تلمسان لأبي زكريا يحيىٰ بن خلدون في كتابه: بقية الرواد في أخبار
بني عبد الواد، وأيام حمو الشامخة الأطواد ٣٥٣
وصف لسان الدين لمدينة تلمسان ٣٥٥
المقري مؤلف الكتاب يتحدث عن تقلباته في البلاد وتواريخها ٣٥٥
ثبت بأسماء المصادر والمراجع ٣٦٤
الفهرس ٣٧١

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف: ٨٣٨١٥٧-٢-٨٣٧٧٠ - بيروت - لبنان


Bibliotheca Alexandrina
0581059